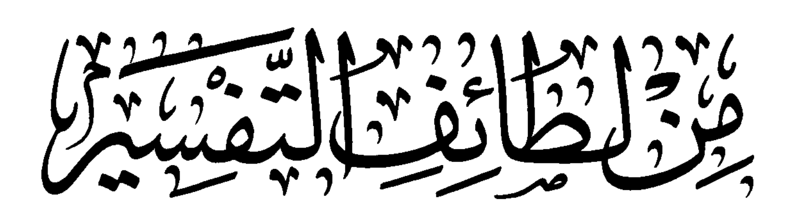


للشيخ أحمد فرح عقيلان
رحمه الله تعالى

المجلد الثاني

دار القبلتين
للنشر والتوزيع

دار اليقين
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



دار اليمين للنشر والتوزيع
مصر - المنصورة
هاتف: ٣٥٥٢٤١

أمر إلهي بالنفير العام لنشر الإسلام

هذه أربع آيات من سورة التوبة فيها البلسم الشافي لجراح أمتنا ، وفيها الدواء الناجع لدائها العضال ، ولو أن أمة محمد أصغت إلى نداء الله في هذه الآيات لارتد عن حماها القوى بإذن الله كل معتد كائناً من كان .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُم إِذَا قِيلَ لَكُم انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُم إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالحَيَاةِ الدُّنيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبكُم عَذَاباً أَلِيماً وَيَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ * إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَد نَصَرَهُ اللهُ إِذ أَخرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثنَينِ إِذ هُمَا فِي الغَارِ إِذ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحزَن إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَم تَرَوهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُليَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَموَالِكُم وَأَنفُسِكُم فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم إِن كُنتُم تَعلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٣٨ ـ ٤١] .

أقول وأسأل الله لنا ولأمة محمد استجابة لداعى الفداء ، وإخلاصاً لا يخالطه رياء ، ونصراً على جميع الأعداء :

أولاً : هذه الآيات من أعظم آيات الجهاد ، وقد جاء أسلوبها شديد الوعيد ، عنيف اللوم ، متنوع الأنماط بين الاستفهام والتعجب والأمر ، وقد اشتلمت الآيات ـ إلى جانب الدعوة الهادرة إلى الجهاد ـ أحكاماً كثيرة استنبطها أشياخنا ـ رحمهم الله ـ من السياق . وقد جاء في مناسبة الآيات أنها نزلت حين استنفر رسول الله ﷺ أهل المدينة وأعرابها إلى

غزوة تبوك ـ يريد بذلك أن يحسم شر الروم وأحلافهم كما حسم شر قريش وأحلافها المشركين وكان الجو قائظا ، وقد نضج الرطب وطابت الظلال ، فثقل على كثير من المسلمين أن يتركوا ثمارهم خصوصاً وأن الحر شديد ، والشقة بعيدة ، وربما تحتاج إلى مسيرة عشرين يوماً فى الرمضاء . وقد حدد رسول الله ﷺ وجهته هذه المرة ، وكان من قبل ذلك يعمّى حفاظاً على الأسرار العسكرية ، لكنه فى استنفار تبوك حدد الوجهة ليتجهز كل مجاهد وهو على بصيرة من وعورة الطريق وطول السفر .

ثانياً : لاحظ المفسرون أن الآيتين الأوليين اشتملتا على توبيخ شديد يكفى ليخجل المتخلف من نفسه ويستثير العزائم المتقاعسة للجهاد المخلص المحتسب ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُم إِذَا قِيلَ لَكُم انفِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُم إِلَى الأَرضِ أَرَضِيتُم بِالحَيَاةِ الدُّنيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبكُم عَذَاباً أَلِيماً وَيَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ﴾ إن كل جملة فى الآيتين تتفجر لوماً وتأنيباً حتى قوله تعالى فى مطلع الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تأنيب فى صورة التذكير والحث، فهو يذكرهم بعهد الإيمان ليبين لهم تناقض السلوك وإغفال العهد ، كما تقول لطالب علم لا يعمل بعلمه : يا حامل العلم الشريف مالك تعظ الناس وتنسى نفسك؟! فالنداء ليس مدحاً لكنه لون من التأنيب ، وقوله تعالى : ﴿مَالَكُم إِذَا قِيلَ لَكُم انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُم إِلَى الأَرضِ﴾ استفهام يفيد التعجب والتوبيخ معاً . وتقول العرب : مالك غافلاً ، وتعرب غافلاً حالاً . و ﴿انفِرُوا﴾ معناها : تحركوا مسرعين و ﴿ اثَّاقَلْتُم ﴾ أصلها :

تثاقلتم أُدغمت الثاء فى التاء لتقارب مخرجيهما واحتاجتا همزة لإمكان النطق بالساكن أول الكلمة وقوله تعالى : ﴿ اثَّاقَلْتُم إلَى الأرض ﴾ معناه : قعدتم كما يسقط الجسم الثقيل إلى الأرض ، وفى العبارة توبيخ بأن المؤمن يتطلع بالجهاد إلى جنة الله فى السماء بينما القاعد يكون كل همه حطام الأرض ، وختام الآية الكريمة موازنة بين نعيم الآخرة ومتاع الدنيا الذى هو زائل وقليل إذا قيس إلى عظمة ثواب الله فى الدار الآخرة.

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿أَرَضِيتُم بِالحَيَاةِ الدُّنيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ استفهام فيه الإنكار واللوم والتعجب ، وتكرار الاستفهام إمعان فى الملامة والتنبيه ، وختام الآية إطناب تذييل بلاغى يؤكد حقيقة يجب أن يستحضرها المؤمن دواما، وهى أن المقصد الأسمى للمؤمن هو الخلود الأبدى فى جنة الله ، أما الدنيا فهى دار المتاع الزائل .

رابعاً : التهديد الذى فى الآية الثانية جاء بأسلوب الخبر ؛ لأنه أمر تعليمى يجب على المؤمنين أن يستحضروه فى أذهانهم ﴿ إلاَّ تنفرُوا يُعَذِّبكُم عَذَاباً أليماً وَيَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير ﴾ ، إنها قاعدة وسنة من سنن الله : أن كل أمة تقعد عن الجهاد تكون نتيجتها أن يعذبها الله عذاباً أليما ، وذلك بأن يستولى الأعداء على ديارها ويذلوها ، وقد يكون العذاب أن يهلكها كما أهلك الأمم السابقة ويستبدل بها قوماً آخرين ، والله جل جلاله قادر أن يرسل العذاب فهو المقتدر الذى لا يعجزه شيء .

خامساً : ثم يذكر الله المسلمين بأنه قادر أن ينصر رسوله بدون جهادهم إذا شاء، وهذا ما حصل عندما نصره وأنجاه من بأس قريش حينما هاجر هو وصاحبه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فاقتفى الكفار أثره ومعهم قائف

مشهور ، فلما وصلوا إلى غار ثور على طريق اليمن قال القائف : هنا انقطع الأثر ، ولابد أنهما فى الغار ، لكن المطاردين لاحظوا أن عنكبوتا قد نسجت على باب الغار ، وأن حمامة قد باضت فى النسج فاستبعدوا أن يكون فى الغار أحد ، وهنا جزع أبو بكر -رضى الله عنه- خوفاً على رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟! وفعلاً ارتد ركب المشركين ، وفى صباح اليوم التالى سار ركب الهجرة الشريفة مكوناً من الرسول الكريم وصاحبه الصديق ، وراع كان يرعى عند أبى بكر هو عامر بن فهيرة ، ورجل مشرك كان خبيراً بالطريق استأجره النبى ﷺ وأبو بكر لكى يكون دليلهما إلى المدينة ، فسلك بهما طريق الساحل .

سادساً : من الأحكام المستفادة من الآيات أن الجهاد يصبح فرض عين إذا استنفر الحاكم المسلم الناس ليصد عدوانا أو ينشر الإسلام ، وفى حالة اعتداء الكفار على حمى الإسلام ، وفى الأثر : لو وقعت مسلمة أسيرة فى يد الأعداء لأصبح الجهاد فرض عين على الأمة إلى أن تفك من أسرها . ومن الأحكام المستفادة الإيمان بصحبة أبى بكر فمن أنكرها فقد كفر ؛ لأنها مذكورة نصاً فى القرآن . ومن الأحكام الأخرى : جواز استئجار الكفار إذا كان ممن عرف بالوفاء والمروءة والاستعانة فى مقابل أجر يأخذه . وقد كان ختام الآية تذكيراً بأن الله جل جلاله نصر عبده مهاجراً وحيداً فثبت قلبه وأنزل ملائكته لحراسته وأركس المشركين وأسقط كلمتهم التى تعاهدوا عليها وهى قتل محمد ، فكانت ومازالت كلمة الله هى العليا والله هو العزيز فى قدرته الحكيم فى تدبيره .

آيات تفضح المنافقين

هذه آيات من سورة التوبة فضحت فئة من الناس يقيمون بين المسلمين كما يقيم الداء العضال أو الوباء المعدى يقطفون ثمار السلم ويختفون عند الحرب ، فإذا كانت المكاسب والتجارة والمغانم رأيتهم فى المقدمة ، وإن كان الروع والقتال والخطر اختلقوا الأعذار وغابوا عن الساحة ، وما أكثرهم فى هذه الأيام كأنهم الطفيليات يمتصون جهود الأمة وخيراتها ، ويورثونها جرثومة الوهن ثم هم إذا جمعوا المال حرموه أمتهم وأنفقوه فى ديار أعدائهم ، ثم إن لهم بعد ذلك ألف عذر للتخلص من المسؤولية وترك الواجب بينما ترى لهم أساليب شيطانية إن كان النهب والرشوة والكسب الحرام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **لَو كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَت عَلَيهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحلِفُونَ بِاللهِ لَو استَطَعنَا لَخَرَجنَا مَعَكُم يُهلِكُونَ أَنفُسَهُم وَاللهُ يَعلَمُ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعلَمَ الكَاذِبِينَ * لاَ يَستَأذِنُكَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَموَالِهِم وَأَنفُسِهِم وَاللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَستَأذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَارتَابَت قُلُوبُهُم فَهُم فِي رَيبِهِم يَتَرَدَّدُونَ * وَلَو أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُم فَثَبَّطَهُم وَقِيلَ اقعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ * لَو خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُم إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوضَعُوا خِلاَلَكُم يَبغُونَكُمُ الفِتنَةَ وَفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُم وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابتَغَوُا الفِتنَةَ مِن قَبلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أَمرُ اللهِ وَهُم كَارِهُونَ * وَمِنهُم مَّن يَقُولُ ائذَن لِي وَلاَ تَفتِنِّي أَلاَ فِي الفِتنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ * إِن تُصِبكَ حَسَنَةٌ تَسُؤهُم وَإِن تُصِبكَ مُصِيبَةٌ**

يَقُولُوا قَد أخَذنَا أمرَنا من قَبلُ وَيتَوَلّوا وَهُم فَرِحُونَ * قُل لَن يُصيبنَا إلاّ مَا كُتَبَ اللهُ لَنا هُوَ مَولاَنَا وَعَلَى اللهِ فَليَتَوَكّلِ المُؤمِنُون ﴾ [التوبة : ٤٢ ـ ٥١].

أرى بسبب طول الآيات وتشعب أوصاف المنافقين أن أشرح الآيات شرحاً موجزا يوضح مفرداتها الصعبة ثم أعلق عليها إن شاء الله بما يفتحه الله . وهذا هو الشرح :

أولاً : لو كان الذى دعوتهم إليه يا محمد غنيمة قريبة أو رحلة سهلة لاتبعوك، لكنهم رأوا الشقة أي مسافة السفر نائية إلى تبوك فتخلفوا بسبب نفاقهم وضعف إيمانهم ، وسوف يحلفون لك معظم الأيمان إنهم لم يستطيعوا الخروج لأعذار يختلقونها ، وهم بهذه الأيمان يدمرون أنفسهم فى الدنيا والآخرة ؛ لأن الله يعلم كذبهم فيخبر به المؤمنين ، وبذلك يفقدون احترامهم فى الدنيا ويهلكون فى الآخرة ، ويمضى جل جلاله فيقول لنبيه الكريم : **﴿عفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أذنتَ لَهُم ﴾** كقولك لمن يعز عليك : لماذا هداك الله لا تنشط لعملك . وهنا يعاتب الله نبيه فيقول له : لماذا أذنت لهم بالتخلف عن القتال ؟! لقد كان عليك أن تؤخر الإذن حتى يتكشف لك الصادق من الكاذب ، ويمضى الحق جل جلاله فيقول : إن الأعذار والحيل وكثرة الاستئذان لا تصدر عن المؤمنين الصادقى الإيمان ، ولكنها تصدر عن الذين لا يؤمنون بالله والجزاء وامتلأت قلوبهم بالشك ، فهم يترددون وسط تيار من كفرهم وارتيابهم ، ولو أنهم كانوا صادقين ؛ لجهزوا أنفسهم للخروج ، لكن الله جل وعلا هو الذى ثبطهم لكى لا ينقلوا معهم شرورهم وكفرهم ودعوات الهزيمة الملازمة لهم ؛ وذلك لأنهم لو خرجوا معكم فإنهم لا يزيدونكم قوة ، وإنما يزيدونكم خبالاً أى فساداً بالكذب والنميمة والأراجيف **﴿ وَلأوضَعُوا خلاَلَكُم ﴾** أى ركضوا فى صفوفكم يريدون لكم الفتنة والاختلاف وفيكم من

يستمع إليهم ويصدقهم ، والله جل جلاله عليم بظلمهم ويكشف للمؤمنين مكائدهم ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ **لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ** ﴾ أى لقد خططوا من قبل لإفسادكم وظلوا متربصين ينصبون الخطط ويقلبون الأمور بإفساد الدين إلى أن جاء الحق وغلب الإسلام الكفر ﴿ **وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾ . ثم يفضح القرآن أعذارهم فيذكر أن أحدهم وهو الجد بن قيس وهو من بنى سلمة حين اعتذر لرسول الله ﷺ عذراً واهياً مضحكاً إذ قال : يا رسول الله يعلم قومى أنى مغرم بالنساء فإذا خرجت معك ورأيت نساء بنى الأصفر ـ أى الروم ـ فإنى لا آمن الفتنة ، أى الزنا ، فأذن له النبى ﷺ ونزلت الآية الكريمة وختامها ﴿ **أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** ﴾ ومعناه : أن استئذانهم هو الفتنة بعينها ﴿ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ . وتمضى الآيات الكريمة فتعلن أن المنافقين وإن كانوا يقيمون بين الأمة ويتمتعون بخيراتها وحمايتها فإنهم يستاؤون لفوز الأمة ، ويفرحون بهزيمتها ومصيبتها ، ولكن الله جل جلاله يأمر نبيه بأن يعلن استسلامه لقضاء الله وقدره وذلك بأن يقول : ﴿ **لَن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا** ﴾ وناصرنا وولى أمرنا وكل توكلنا عليه .

ثانياً : يذكر الله جل جلاله من صفات المنافقين ما يأتى ، لنكون على حذر منهم خصوصاً وقد استفحل شرهم فى هذه الأيام فى أمتنا الإسلامية .

أ ـ أنهم أسرع الناس إلى المكاسب السهلة التى لا تتطلب جهداً ولا مشقة فهم أبداً فاتحون بطونهم للمطامع .

ب ـ أنهم يلجؤون إلى الحلف الكاذب يسترون به نواياهم الخبيثة وأفعالهم الإجرامية .

ج ـ أنهم يستأذنون ويعتذرون لدى أى عمل عظيم لرفعة الأمة وأن لهم قدرة عجيبة فى اختلاق الأعذار الكاذبة .

د ـ أنهم فاقدو الثقة بقدرة أمتهم ، فما يتوقعون لها إلا الهزيمة ، ومن ثم فهم غارقون فى ريبهم وشكوكهم وترددهم .

هـ ـ أنهم يعملون فى الحرب دعاة هزيمة ، ويركضون فى سرعة بين صفوف المسلمين بالتثبيط والإشاعات المغرضة والنميمة والإفساد .

و ـ أنهم دائماً يخططون لمقاومة الإصلاح والصلاح وقتل دعوات الخير ليخلو الجو لإفسادهم وفسادهم ، فإذا جاء الحق وظهر أمر الله امتلأت نفوسهم حقداً وكراهية .

ز ـ أن انتصار الأمة يحزنهم بينما يبهجهم ما يصيب الأمة من ابتلاء ومصائب؛ ذلك لأن أجسامهم بثقلها تكون عبئاً على أمتهم ، أما عقولهم وهواهم وثقتهم فكلها منصرفة للأعداء .

وبعد فإن أمتنا فى هذه الأيام قد ابتليت بعدد كبير من عملاء الكفر ، وهم يتلاعبون بها ويفسدون وحدتها ويحاربونها فى أخلاقها ودينها وتقاليدها الكريمة، ويشيعون فى جنباتها رهبة الأعداء وضعف الثقة بالنفس ، ولا علاج لوباء هؤلاء إلا أن تعبئ الأمة طاقاتها عسكرياً وأخلاقياً لتؤدب أعداءها فى الخارج ، وإذ ذاك ينهار العملاء ؛ لأن الشك الذى فى قلوبهم يتحول يقيناً بأن الكفر إلى بوار وزوال ، وأن الله إذا أراد بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال .

المستحقون لزكاة المال فى الإسلام

هذه آية من سورة التوبة تذكر الأصناف الثمانية الذين تصرف إليهم الزكاة، أوردها وانتهز الفرصة أثناء التعليق عليها لذكر طائفة من أحكام الزكاة مما يحتاج الناس إلى معرفته فى أيامنا هذه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٦٠].

أقول وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل إنفاقنا خاليا من المن والأذى والرياء والسمعة ، وأن يجعله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم :

أولاً : هذه الآية الكريمة تتضمن ركناً من أركان الإسلام من تركه أو جحده كان كافراً يحل دمه . وكلمة صدقة فى القرآن إذا ذكرت مطلقة فهى لا تعنى إلا الزكاة المفروضة ، والحق أن فرض الزكاة معجزة من معجزات الإسلام، وآية على أنه دين الرحمة ، وأن محمداً ﷺ نبى الرحمة . وقد كان هذا الركن سبباً فى إعجاب علماء الغرب بالإسلام ، والحق أن الزكاة لو أديت على وجهها وأنفقت فى وجوهها لحلت مشكلات المسلمين اجتماعياً وعسكرياً ، ولو جمعت الزكاة كاملة من الأغنياء ووزعت فى حكمة وإنصاف ؛ لما اشتكى مجاهد فى فلسطين ولا أفغانستان ولا أريتريا ولا فى أى مكان من الأرض . وبعد أن فتح الله بركات الأرض والسماء على المسلمين اجتمع لديهم الآن من المال ما يكفى لإغناء كل فقير ، وإسعاد كل مسكين ، وتجهيز جيوش من المجاهدين يديلون من أعداء الله ولا يبالون أن يصابروا سنين ما دامت

عائلاتهم مكفولة لا تخاف عيلة ولا فاقة ولا إذلالاً بالسؤال وعلى سبيل المثال فإن ميزانيات الدول الإسلامية التى ترصد للمشروعات لا يمضى عليها عام حتى تدخل فى جيوب الشعوب ؛ لأن منفذى المشروعات يفرض أن يكونوا من الأمة ، وعندئذ تصبح هذه المبالغ خاضعة لمطلب الزكاة ، إننى أقدر أن دخل الأمة الإسلامى ومدخرها بين قومى وفردى لو أخرجت زكاته بإيمان واحتساب ووزعت بإخلاص ؛ لما ظل فى ربوع الإسلام سائل ولا بائس ولا محروم ولا مجاهد يشكو نفاد السلاح والذخيرة ، ولا وطن يرزح تحت نير العبودية والإذلال ، وبذلك يتم الله نور أمتنا ولو كره الكافرون وتكون الزكاة فى كل ما يملكه المؤمن سائمة الأنعام والزروع والثمار وعروض التجارة والذهب والفضة إذا بلغ نصاباً وحال عليه الحول ، إلا الزروع والثمار فيؤتى حقه يوم حصاده ، وحلى المرأة إن كانت للبس وبالقدر المعقول لا زكاة فيها عند معظم الأئمة .

ثانياً : لقد بسط المفسرون القول فى هذه الآية إلى عشرات المسائل وخصص لها القرطبى ــ رحمه الله ــ خمساً وعشرين صفحة من القطع الكبير ؛ ولهذا رأيت أن ألخص الأحكام الواردة فى ذلك التفسير العظيم لكى يلاحظها كل من يؤدى هذا الركن العظيم فيؤديها على الوجه المفروض الذى شرعه الله ورسوله .

ثالثاً : اشتملت الآية الكريمة على ثمانية أصناف من المسلمين تدفع لهم الزكاة، وبدأها الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ لأن كلمة ﴿ **إِنَّمَا** ﴾ تفيد القصر أو الحصر وليبين أنه لا يجوز صرف الزكاة إلا فى الوجوه التى ذكرها جل جلاله ، وقد يكون بعض هؤلاء الأصناف قد زال أو تضاءل كالعبيد والمؤلفة قلوبهم ، لكن

الأصناف الباقية موجودة وهى : الفقراء، والمساكين ، والعاملون عليها ، والغارمون، وفى سبيل الله ، وابن السبيل .

رابعاً : لا يجوز لك أن تعطى الزكاة لأبيك وجدك وإن علا ، ولا لابنك وبنتك وذريتهما ، ولا لزوجك ؛ لأن هؤلاء تلزمك نفقتهم شرعاً ، ويجوز لك أن تعطيها أخاك الفقير وأبناءه ، وأختك الفقيرة وزوجها وأبناءها ، وعماتك وخالاتك وأعمامك وأخوالك ، وتكون عندئذ زكاة وصلة ، كما يجوز أن تعطى المرأة زكاتها لزوجها الفقير على أن ينفقها على نفسه وفى سداد ديونه لا أن يشترى لها بزكاتها هدية[1] ، هذا ولا تعطى الزكاة لقوى قادر على الكسب حتى لا يتعود شباب الأمة الكسل ولينشؤوا أعزاء بالكسب والحلال . قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة – أى قوى – مكتسب » .

خامساً : الفقير والمسكين يصعب التمييز بينهما ولكن الله جل وعلا بدأ بالفقير مما يدل على أنه أشد احتياجاً ، وفى سورة الكهف ما يدل على أن المساكين لهم سفينة يعملون بها فى البحر ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكينا » . ولا يعقل أنه كان يطلب الفقر مع أنه كان يعوذ بالله من الفقر . والمسكين فى اللغة يطلق على المظلوم المضيع ومنه قول الشاعر :

مساكين أهل العشق ما كنت أشترى قلوب جميع العاشقين بدرهم

وقد يكون العاشق غنياً لكنه مسكين .

(١) فقد قال رسول الله ﷺ لزينب زوجة عبد الله بن مسعود حين استشارته فى إعطاء الزكاة لزوجها « لك أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة » .

سادساً : العاملون على الزكاة هم : الموظفون فى إدارة الزكاة كالذين يجمعونها ويحسبونها ويوزعونها . وهؤلاء يعطون رواتبهم من نفس الزكاة ، وعليهم أن يكتفوا منها بأقل ما يكفيهم لأن الصدقات كما وصفها رسول الله ﷺ هى أوساخ الناس .

سابعاً : المؤلفة قلوبهم الذين يدخلون الإسلام من زعماء القبائل وذوى الأهمية، ويُرى من سلوكهم أنهم محبون للمال فيُعطون ليتألف الحاكم المسلم قلوبهم ، ويخلصوا فى جذب قومهم إلى الإسلام . وقياساً على هذا إذا هدى الله بعض الزعماء الكبار فى أوروبا وأمريكا إلى الإسلام وثبت منهم اقتناع وحرص على الدين فسبب لهم إسلامهم مشكلات مع قومهم ، أو أرادوا أن يدعوا غيرهم إلى الإسلام ، فأعجزهم الإنفاق ، فإنه يجوز أن يعطوا من الزكاة للتمكن من نشر الإسلام فى تلك الربوع والمراكز الإسلامية التى رأيناها تبعث النور والإيمان فى ديار طبقت شركاً يجوز لها أن تستميل بعض ذوى النفوذ الكبير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام ، فإذا رأت ميلهم إلى الإسلام واعتناقهم له فى الظاهر أعطتهم من الزكاة ليثبتوا ويتألفوا غيرهم .

ثامناً : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ معناها : أنه يجوز للحاكم المسلم أن يشترى عدداً من العبيد ويعتقهم ، لأن فى ذلك ما يشدهم إلى خدمة الإسلام والإخلاص للدولة الإسلامية [1] .

تاسعاً : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ ومعناه فى تجهيز الجيوش والمجاهدين وبناء مصانع

---

(١) والغارمون هم : الذين يقعون فى الدين إما بسبب حادث أو ديات أو إفلاس أو جائحة اجتاحت أموالهم ، فهؤلاء يعطون إلى أن يسدوا ديونهم ويأخذوا كفايتهم وكافية عائلاتهم ، ومن غرم بسبب فسوقه كأن ينفق ماله فى الخمر والقمار أو يسوق سيارة وهو سكران فيقتل بها أحداً ما .

الأسلحة والذخيرة ، وكفالة عائلات المجاهدين لإعلاء كلمة الله ، وقال بعض الأشياخ ، يجوز الإنفاق على الحجاج إذا نقصت عليهم النفقة ؛ لأن خروجهم فى سبيل الله . ﴿ وَابنِ السَّبِيلِ ﴾ هو المسافر الذى نفد زاده وماله ، وهذا يعطى مهما كان ماله فى بلده عظيما ، ولكن يستحب للغنى أن يأخذ اسم من يعطيه وعنوانه ويعتبرها قرضاً ثم يرده بعد وصوله ليعطى إلى من هو أولى منه .

هذا وهناك ملاحظة مهمة وهى ألا تجزأ الزكاة أجزاء صغيرة قد لا تفيد الفقير ، ولكن يعطى الفقير بمقدار كفايته ، حتى لو أن غنياً بنى لفقير بيتاً يؤويه بدل بيته المحترق ، أو أعطى عاملاً تعوقه الإمكانيات مالاً يستأجر به محلاً ويشترى أدوات صناعية لكان ذلك من المزكى أفضل من تقسيم الزكاة إلى مبالغ ضئيلة . هذا ولا تنقل الزكاة من المكان الذى يقيم فيه المزكى إلا إذا استغنى أهل المحلة بما لديهم وزادت عن حاجتهم . والمهم الإخلاص وتجنب المن والأذى والرياء والسمعة ، والله هو العالم بالسرائر يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

من أمراض البخل .. النفاق

هذه آيات من سورة التوبة من حق الأغنياء أن يقفوا عندها ويتأملوها ويخافوا على أنفسهم إزاءها أشد الخوف . إنها توحى أن الإنسان كثيراً ما يكون فى عافية إذ هو متوسط الحال والمال ، فما هى إلا أن يبتلى بكثرة المال حتى تخرب نفسيته ، وتتغير أخلاقه ومثله ، وقد يعقبه المال نفاقاً فى قلبه فيلقى الله وقد فقد أثمن ما يملكه ومات منافقاً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَمِنهُم مَّن عَاهَدَ اللهَ لَئِن آتَانَا مِن فَضلِه لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضلِه بَخِلُوا بِه وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعرِضُونَ فَأَعقَبَهُم نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِم إِلَى يَومِ يَلقَونَهُ بِمَا أَخلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكذِبُونَ * أَلَم يَعلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعلَمُ سِرَّهُم وَنَجوَاهُم وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ** ﴾ [التوبة : ٧٥ ـ ٧٨]. أقول وأسأل الله أن يجعل أغنياءنا سمحاءنا وأمراءنا خيارنا ويملأ مجتمعنا حبا وتعاونا وبركة ، تكون ثمارها مجداً ونصراً وتمكيناً .

أولاً : جاء فى مناسبة الآية : أن رجلاً من الأنصار ، قال بعضهم هو حاطب بن أبى بلتعة ، وقال آخرون : إنه ابنه ثعلبة بن حاطب ، وكلا القولين غير صحيح لأن حاطباً وابنه ثعلبة بدريان مبشران بالجنة ، والمهم : أنه رجل من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ ، وقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً وأعاهد الله إذا رزقنى أن أسلك طريق الصالحين وأكثر الصدقة ، فقال له رسول الله ﷺ : « **قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه** » فأعاد القول فقال له رسول الله ﷺ : « **ألا ترضى أن تكون مثلى** » ؟! فأعاد الرجل الرغبة ، فدعا له الرسول الكريم بالغنى فما هى إلا

امتلأ الوادى عليه أنعاما حتى شغله المال عن الصلاة وزاد تعلقه بالمال وحرصه، فمنع الزكاة ، فنزلت فيه الآية الكريمة .

ثانياً : فى الآية ما يفيد أن أمانى المرء قد تكون مناياه ، وعلى المؤمن إذا تمنى أن يتمنى صلاح دينه وحسن عمله وأن يغنيه الله بالحلال من فضله ، وألا يحوجه إلى غير وجهه الكريم ، أما أن يتمنى أموالاً طائلة وقصوراً وأزواجاً ، فتلك قد تكون عليه شراً من حيث أراد لنفسه الخير ، لأن العبد لا يدرى ما يجرى به القضاء ، ورب غنيً جر هلاكاً وفتنة ، والخلاصة أن التمنى فى أمور الآخرة طيب محمود العواقب ، أما تمنى عرض الدنيا فربما جر على صاحبه شقاء وعذاباً ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدرى ما كتب له فى غيب الله عز وجل من أمنيته » . والحديث الآخر مشهور : « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » .

ثالثاً : قوله تعالى ﴿ **عَاهَدَ اللهَ** ﴾ يدل على أن من لفظ هذه الصيغة وجب عليه الوفاء كالنذر ، فمن قال أعاهد الله أن أفعل كذا من أفعال البر والحلال لزمه أن يوفى كما يوفى بالنذر ، وإلا كان غادراً بالعهد ، وتلك من شيم النفاق والعياذ بالله تعالى ، ويبدو أن الرجل الذى تشير إليه الآية لفظ العهد بلسانه وأكده بقوله: ﴿ **لَئِن آتَانَا مِن فَضْلِه لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِين** ﴾ . ويلاحظ التوكيد بلامين وبنونى توكيد ثقيلتين ، مما يدل على أنه أكد العهد وفرضه على نفسه .

رابعاً : يشير الله فى الآيات إلى أكبر آفات الغنى وهى ثلاث : البخل ، والتقصير فى واجبات الله ، والنفاق . أما البخل فلأن ابن آدم لا يشبع من الدنيا

ولا يملأ عينيه إلا التراب ولو أعطى واديين من ذهب لتمنى الثالث ، وإنى لأعرف من أصحاب القناطير المقنطرة من ينفق ونفسه كارهة مضطربة ، وأعرف من أهل الكفاف والعفاف من ينفق ونفسه طيبة منشرحة سعيدة ، وأما التقصير فى واجبات الدين فلأن الأموال الطائلة تتطلب أعمالاً هائلة واحتياطات واستثماراً فى البر والبحر والجو ؛ ولهذا يظل صاحبها شارداً وراءها لا يكاد يفقه ما يردده فى صلاته ، وأشهد لقد رأيت قوماً من الأغنياء شده الغنى بالهم ، ولما أصيبوا بالضغط والسكر أخبرهم الأطباء أن ذلك ناجم عن تعب فى الفكر والقلب وأن عليهم أن يفرغوا لصحتهم ، وهيهات .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ **فَأَعقَبَهُم نفَاقاً فِي قُلُوبِهِم إِلَى يَومِ يَلقَونَهُ بِمَا أَخلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكَـذِبُونَ** ﴾ يدل على أن النفاق من أمراض الغنى ، فأصحاب الأموال الطائلة يصدر عنهم الكثير من أعمال النفاق ، فهو يمدح من لا يستحق المدح ممن فى يده مصالح وعقد وحل ، وقد تكون معظم حفلاته وولائمه لقوم من أهل النفاق والجرأة على الغلول والرشوة والحرام ، وكثيراً ما ينقطع نصيب الفقراء من زيارة بيته ، فيكون كل طعامه للأغنياء ويحرم منه الفقراء ، وإنى لأعرف أغنياء كانوا أيام كفافهم يطعمون الفقراء ، فلما امتدت نعمتهم صاروا يتقززون من الفقراء ويخافون على أثاثهم الفاخر أن يتسخ ، والنفاق كما هو معروف نوعان : نفاق العقيدة وهو كفر ، ونفاق العمل وهو معصية لله ، وأكثر نفاق الأغنياء نفاق عمل يرجى معه المغفرة إذا هم صدقوا مع الله المتاب، ولكن إذا استمر معهم النفاق حتى لقوا الله وهم عليه فتلك قاصمة الظهر وربما كانت سوء الخاتمة .

سادساً : قوله تعالى **﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾** استفهام فيه توبيخ وتقرير ، فهو يوبخ الأغنياء الذين يغفلون عن هذه الحقيقة وينسون أن الله مطلع على خفاياهم وأسرارهم كما هو مطلع على ظاهر أعمالهم ونعمتهم ، وأنه جل جلاله يعلم الغيب كما يعلم الشهادة : وورود هذه الآية بعد الكلام عن النفاق فى غاية من البلاغة؛ وذلك لأن السبب الأكبر للنفاق هو اعتقاد المنافق بأن الله لا يعلم ما يكنه وما فى صدره من الفساد والسم مادام لسانه يتحرك بظاهر من الإصلاح ، وقد وضعهم الله جل وعلا أبلغ وصف فى سورة البقرة إذ يقول : **﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ* فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾** [البقرة : ٩ ـ ١١] أسأل الله لى وللإخوة القراء ولجميع المسلمين أن يطهر قلوبنا من النفاق ، وأن يجملنا بمكارم الأخلاق ، وأن يحوط نعمتنا بشكره ويجعلها بلاغا إلى مرضاته وعونا على طاعته .

تحذير للمؤمنين من المنافقين

هذه آيات من سورة التوبة تلاحق المنافقين فى عقر أوكارهم وظلام كيدهم، وهى وإن كانت تتحدث عن المنافقين على عهد رسول الله ﷺ لكنها دروس للمجتمع الإسلامى فى كل زمان ومكان تحذره أن النفاق من ألأم أدواء الإنسانية ، وأن المسلمين سوف يعانون منه كثيراً ، ولعل المتأمل فى أحوال أمتنا فى هذه الأيام يرى بوضوح كم جر النفاق على أمتنا العظيمة من ويلات ، وخصوصاً حين خلف الكفر فى مجتمعنا أذناباً لئيمة ولاء قلوبها للكافرين وزيف ألسنتها للمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [التوبة : ٧٩ ـ ٨٤].

أقول وأسأل الله أن يصفى مجتمعنا الإسلامى من كل منافق ومتربص وغاش للأمة :

أولاً : المنافقون لهم علائم يعرفون بها كتلك التى ذكرها رسول الله ﷺ وهى الكذب فى الحديث ، والخلف فى الوعد ، وخيانة الأمانة ، ونكث العهد، والفجور عند الخصومة ، وهنا فى الآيات الأولى يذكر الحق تبارك وتعالى أنهم يلمزون المطوعين فى الصدقات ؛ أى يعيبون من يتبرع فى وجوه الخير ، إن تصدق بالكثير قالوا مراء ، وإن تصدق بالقليل ضحكوا من صدقته . قيل : إن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ تبرع بنصف ماله، فقال المنافقون : ما أعظم رياءه ، وتبرع رجل من الأنصار بقليل من التمر فاستهزؤا به مع أن ذلك كان جهده ، والإسلام يرفع من معنويات الفقراء فيقبل صدقاتهم القليلة لئلا تظل صنائع المعروف قصرا على الأغنياء . إن نصف تمرة قد يرد النار عن وجه المتصدق لأن الله جل جلاله بكرمه العظيم يربه وينميه حتى لربما صار بثواب الله كجبل أحد ، وقوله تعالى : ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنهُم ﴾ دعاء عليهم وهو من قبيل المشاكلة ؛ لأنهم سخروا من المتطوعين من المؤمنين فى الصدقات ومن الفقراء الذين لا يجدون إلا جهدهم فكان جزاؤهم فى الآخرة إلقاءهم فى النار . وأى سخرية أعظم من هذه السخرية !

ثانياً : فى قوله تعالى : ﴿ استغفر لَهُم أو لاَ تستغفر لَهُم إن تَستغفر لَهُم سَبعِينَ مَرّةً فلَن يَغفرَ اللهُ لَهُم ذَلكَ بأنّهم كَفَرُوا باللهِ ورَسُولهِ واللهُ لاَ يَهدِى القَومَ الفَاسِقِين ﴾ . روى أن رسول الله ﷺ كان يقبل أعذار المنافقين فى التخلف ويستغفر لهم دون أن يطيل المناقشة ؛ إما لأنه لا تجدى معهم المناقشة ، وإما تطييباً لخاطر أقاربهم وأبنائهم المؤمنين ، وإما لأنه يعلم أن استغفاره لهم لا ينفعهم ، ومن المعروف أنه حينما توفى رأس المنافقين عبد الله بن أبى أعطى النبى ﷺ قميصاً من ثيابه لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان من الصالحين فكفن عبد الله أباه بقميص

الرسول ﷺ ، وجاء فى الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئاً ، وإنى لأرجو أن يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومه » ، وإذن فموضوع الاستغفار للمنافقين كان لونا من رد الإساءة بالإحسان لكى يتألف بالإحسان قلوب أقاربهم . والأمر فى قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمر بلاغى غرضه التيئيس من المغفرة للمنافقين ، وقوله : ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ كانت كلمة ﴿سَبْعِينَ﴾ عند العرب تدل على التكثير. قيل لأعرابى : أتبيع فرسك بمائة ، قال : لا أبيعه ولو دفعتم سبعين ، ويقولون : عفوت عنك سبعين مرة فما أجدى العفو ؛ ولذلك معنى الآية مهما استغفرت لهم وكررت الاستغفار فلن يغفر الله لهم ، والسبب هو ما بينته الآية وهو أنهم كفار فسقة وإن أظهروا الإيمان ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ ﴾ الآية يتحدث عن تخلف المنافقين فى تبوك متذرعين بحجج واهية حين قالوا ﴿لاَ تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ﴾ وما أبلغ قوله جل جلاله : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ ويعرض بضحكهم فرحين بالتخلف فيقول مهدداً متوعدا ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . والحق أنه رب ضحك قليل يجر بكاء طويلا ، فكم من فاسقين ضحكوا شامتين من مصائب الناس فدارت عليهم الدوائر وبكوا أمرَّ البكاء ، وكثرة الضحك والاستهزاء من صفات المنافقين ، ولهذا يحسن بالمؤمن أن يقلل الضحك لأنه يميت القلب ويسقط الهيبة .

رابعاً : قوله تعالى ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ....﴾ الآية ، أمر لرسول

ﷺ أن يحرمهم من شرف الجهاد ، وأن يحرمهم من الخروج إلى القتال لأنهم رضوا بالقعود أول مرة ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم وهو استمرار عار القعود وحرمانهم من شرف الأبطال . إن حرمان المنافقين من شهود القتال أسلم للجيش ، لأن المنافق سيكون فى الصفوف سوسة فساد ، وفى المعسكر داعية هزيمة ومثير فتنة ، ولهذا إذا استأذنك المنافقون للخروج وهم لن يخرجوا إلا إذا أحسوا أن الغنائم مضمونة فقل لهم : ﴿ لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُم رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ ﴾ .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُم عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُم كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُم فَاسِقُونَ ﴾ . هذه الآية لها قصة أيد الوحى فيها عمر رضى الله عنه عندما توفى رأس المنافقين عبد الله بن أبىّ جاء ولده عبد الله رضى الله عنه فقال : يا رسول الله إن والدى قد مات ، فأعطنى قميصك اكفنه به فأعطاه قميصه ثم طلب منه أن يصلى عليه فقام رسول الله ﷺ فجبذه عمر رضى الله عنه من ثوبه يريد أن يقعده عن الصلاة عليه ، لكن النبى ﷺ مضى وصلى عليه ، لأنه مسلم فى الظاهر ينطق بالشهادتين ، والباطن موكول إلى الله ، ولكن عندما رجع رسول الله ﷺ نزل القرآن مؤيداً رأى عمر ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُم عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُم كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُم فَاسِقُونَ ﴾ . واستنتج الفقهاء حكماً من الآية : وهى أن الطواغيت الذين اشتهروا بالظلم وقتل الأبرياء والعلماء ومحاربة أهل الدين لا تصلى عليهم صلاة الجنازة ولو سموا بالمسلمين ، وعبد الله بن أبى كان طاغوت المنافقين ، وأما أهل المعاصى من المسلمين ولو كانت كبائر فيصلى عليهم رجاء أن يخفف الله عنهم داموا من أهل التوحيد ، وقد

أجمع العلماء أن صلاة الجنازة فرض كفاية ، وهى أربع تكبيرات عند الجمهور، وقال البعض هى ثلاث وقيل ست تكبيرات تقرأ بعد التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وبعد الثانية الصلاة الإبراهيمية ، وبعد الثالثة يدعى للميت وبعد الرابعة يدعو المصلى لنفسه وللمسلمين ، ثم يسلم تسليمة واحدة ، وتصلى على المؤمن ولو مات بعيداً عن ديار المسلمين وهى صلاة الغائب كما صلى النبى ﷺ والمسلمون على النجاشى حين بلغهم نبأ موته . أسأل الله تعالى لى وللمسلمين أن يختم بالصالحات أعمالنا ، وأن يتوفانا على كتابه وسنة رسوله ، وأن يحيينا على طاعته ويميتنا على الشهادة فى سبيله.

عفو الله عن المتخلفين عن الجهاد
لأسباب مقبولة شرعا

من لطائف التفسير

هذه آيات من سورة التوبة تشير إلى من عذرهم الله جل جلاله عن الجهاد ومن لم يعذرهم ، والله جل جلاله حكيم عليم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة : ٩٠ ـ ٩٣].

أولاً : الأعراب هم سكان البادية الذين يقيمون فى بيوت الشعر ، ويعتمدون فى معيشتهم على الأنعام يتنقلون بها وراء منابت الكلأ ومواقع الحياة ، يشربون من ألبانها ويأكلون من لحومها وينسجون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابسهم وبيوتهم وفرشهم وأثاثهم ، هؤلاء الأعراب فيهم جفاء وخشونة . وفى الأثر : «من بدا ـ أى سكن البادية ـ فقد جفا » أى أصبح جافيا . وبسبب ما يشيع فى البادية من جهل، وبسبب قلة العلماء فى البادية ، لذا تجدهم لا يقبلون بسهولة على الدعوات الإصلاحية ، ورغم ذلك ففى الأعراب خفة الروح ، وحضور البديهة والنكتة التى لا تكلف فيها ، كما أن فيهم كرماً ووفاء وحفاظاً واحتراماً للجار، وقد منع

الإسلام أن يكون الحاضر سمساراً للبدوى أو أن يتلقاه قبل نزوله إلى السوق مخافة أن يخدعه فيشترى منه الطعام رخيصاً ويبيعه للمسلمين غالياً . وكان أهل الحاضرة يتهمون البدو بأنهم يخدعون بسهولة ، وقد تمثل الحجاج بشعر الشاعر الجاهلى الذى يصف نفسه وناقته فيقول :

قد لفها الليل بعصلبىٍّ   أروع خرّاج من الدّوىّ

مهاجرٍ ليس بأعرابىّ

ومعناه أن الليل قد جمع بين الناقة وبين سائق شديد وهذا السائق ذكى كثير الخروج من الصحراء ، لكنه مهاجر وليس بدوياً . وفى هذه الأيام تلاشى البدو بالتعليم والزراعة فتكشفوا حين تعلموا عن مواطنين أذكياء ينهضون للأعمال بقدرة وجدارة ، وبهذا يكون الأعرابى بمعناه الحقيقى غير موجود فى الجزيرة هذه الأيام.

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ المُعَذِّرُونَ منَ الأعرَابِ لِيُؤذَنَ لَهُم وقَعَدَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الله وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا منهُم عَذَابٌ أَليم** ﴾ جاء فى مناسبة نزولها : أن رهطاً من قوم عامر بن الطفيل ، وقيل من غفار ـ وكانوا أهل بادية ـ اعتذروا عن الخروج إلى الغزو بحجة أنهم إذا خرجوا هاجمت القبائل أموالهم وحلائلهم ولم يكونوا صادقين . والمعذر هو منتحل العذر الكذاب ، وكانوا إذ ذاك نوعين وهما : الأعراب ، والمنافقون الذين كذبوا الله ورسوله ، وكل من استمر على كفره منهم ولم يتب فسوف يصيبه عذاب أليم .

ثالثاً : هنالك أصناف من الناس عذرهم الله وأعفاهم من القتال مادامت قلوبهم ناصحة لله ونواياهم صادقة وأعمالهم مخلصة ، وهم الذين عناهم الله بقوله : ﴿ **لَيسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ**

يَجـدُونَ مَا يُنفقُونَ حَرَجٌ إذَا نَصَحُوا لله ورَسُوله مَا عَلَى المُحسنينَ من سَبيلٍ وَالله غَفُورٌ رَّحيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذينَ إذَا مَا أَتوكَ لتَحـملَهُم قُلتَ لاَ أجدُ مَا أحملُكُم عَلَيهِ تَوَلّوا وَأَعيُنُهُم تَفيضُ منَ الدَّمعِ حَزَنًا ألاَّ يَجدُوا مَا يُنفقُونَ ﴾ .

القاعدة الكبيرة : أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وأن الذى لا يملك شيئا لا يكلفه ، فالفقير لا يكلف الزكاة ، والمريض لا يكلف الصوم ، والمحتاج ذو الفاقة لا يكلف الحج ، وهنا فى الآية يعذر الله تبارك وتعالى الضعفاء ، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون ، يعذرهم عن الجهاد ، ويدخل فى المعذورين الأعمى والأعرج الذى يعوقه عرجه ، وهؤلاء الجماعة إذا قعدوا عن الخروج فأخلصوا لربهم وعملوا فى خدمة الأمة جهدهم ،وحزنوا لتخلفهم ؛ كتب الله لهم أجر مجاهد وهم قاعدون ، ففى الحديث الشريف الذى رواه أبو داود : أن رسول الله ﷺ قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه » . يعنى بذلك : أن كل مشقة تحملها المجاهد كتب مثل ثوابها للقاعد المعذور ؛ لأن نواياهم الصالحة ، وصدق إيمانهم ، ونصحهم لله ورسوله ، كل هذه قد سمت بنفوسهم ، وأعلت عند الله منازلهم حتى كافأهم بمنازل المجاهدين وهم فى منازلهم . وقد روت كتب السيرة أن سبعة أخوة فقراء جاؤوا لرسول الله ﷺ ولم تكن لهم نعال ولا خفاف فقالوا يارسول الله انتدبتنا للخروج معك فاحملنا أى أعطنا من الركائب ما يحملنا .

وكان الخارج إلى تبوك يحتاج إلى بعيرين : بعير يحمله ، وبعير يحمل زاده وماءه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ، ثم ما زالوا يبكون حتى سموا

البكائين، وقد جبر الله خاطرهم [1] بأن أنزل إعذارهم في محكم آياته ، وأورد في إعذارهم قاعدة شرعية ﴿ **مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ** ﴾ ؛ بأن من قام بالعمل الذي يقدر عليه بإحسان وإخلاص وإتقان فلا سبيل عليه ولا مؤاخذة في العمل الذي لا يطيقه .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

يبين الحق جل جلاله أن الذي يؤاخذ ويعاقب في التخلي عن الجهاد هو الغني القوي الذي يرضى أن يقعد وهو قادر ، ويرضى عن نفسه أن يظل مع النساء والمعذورين . وهنا شيء مخيف حقا وهو تلك الإشارة من الله تعالى بأن المتخلف عن الجهاد عرضة أن يطبع الله على قلبه ويطمس نور إيمانه ، هذا الأمر إذا فكر فيه المسلمون في هذه الأيام هو تهديد مخيف حقا إذ إن عشرات الملايين من المسلمين في هذه الأيام قادرون على الجهاد وتأديب العدو وإنقاذ المقدسات ، وحماية حوزة الإسلام ، ومع هذا فهم قاعدون عن ذلك بدون عذر مشروع ، وذلك خطر عظيم يخشى منه أن تسلب أمة محمد أغلى ما تعتز به ، وهو إيمانها بالله لأن الطبع على القلب إغلاقه عن النور والهدى وطمس ما فيه من نور الإيمان . نسأل الله جل جلاله أن يرفع فينا علم الجهاد ، ويمحق أهل النفاق والفساد وينشر رحمته على العباد .

---

(١) رزق الرسول ﷺ ركائب فأعطاهم منها وهيأ الله لهم الجهاد الذي حنوا إليه ، وقد ورد أنهم أبناء مقرن إخوة النعمان بن مقرن بطل نهاوند وشهيدها ـ رضي الله عنهم جميعا .

الإسلام دين العمل ، والزكاة طهارة للمال

الإسلام دين العمل وكل قربة إلى الله بغير العمل مردودة على صاحبها ، ومن جاء يوم القيامة مدلاً بحسبه أو صداقاته أو نسبه أو ماله أو منصبه فتلك كلها يوم القيامة هباء ، وليس إلا الحسنات قربات . الأخلاء في القيامة بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ**﴾ ، ليس إلا الموازين تثقل أو تخف بالأعمال ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا** ﴾ ، ومن هنا فقد جعل الله جل جلاله البر والإحسان والصدقة ركناً من أركان الإسلام سماه الزكاة ، لأنه يزكى النفس والمال ، وهذه الآيات من سورة التوبة تبين لأمة محمد طريق النجاة من العقاب والخلود فى النعيم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة : ١٠٣ ـ ١٠٥]. أقول وأسأل الله لى وللإخوة القراء ولسائر المسلمين أن يجعلنا من أهل المعروف ، وأن يقبل توبتنا ويتقبل أعمالنا إنه هو التواب الرحيم :

أولاً : الصدقة والصدق من اشتقاق واحد ، وفى هذا دلالة على أن الصدقة المخلصة المحتسبة تثبت صدق الإيمان . والصدقة الواردة فى الآيات هى الزكاة المفروضة ، أمر الله نبيه ﷺ وكل إمام مسلم أن يجمعها من المسلمين ، ويدعو الله لهم بالقبول والمغفرة ، فقد كان رسول الله ﷺ إذا

أخذ زكاة مسلم قال : «اللهم صل عليه» ، والصلاة من الله هى الرحمة والمغفرة وقال بعض الأئمة : الصلاة لا تكون إلا على رسول الله ﷺ ، والواقع غير ذلك ، فقد كان رسول الله عليه وسلم يصلى على أمته ـ أى يدعو لها بالرحمة والمغفرة ـ وفى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ زار بيت جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ فقال لزوجته لا تسألى رسول الله شيئاً ؛ حرصا منه على عدم إزعاج النبى الكريم ، فقالت ـ رضى الله عنها ـ يخرج رسول الله من عندنا ولا نسأله شيئا ؟! ثم قالت يا رسول الله صل على جابر ، فقال لها رسول الله ﷺ صلى الله عليك وعلى زوجك. وقوله الله تعالى : ﴿ **خُذ مِنَ أَمَوَالِهِم صَدَقَة** ﴾ يدل على أنها فرض ، وقوله ﴿ **تُطَهِرهُم وتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ معناه أن الزكاة درس إلهى من الله يربى النفوس على البر وصنائع الخير ، فهى تطهر النفس وتزكيها من الشح المطاع والبخل اللئيم ، ثم هى تصقلها فتشف وتطهر وتزكو من أوضار الجشع واللؤم وجمود العاطفة ، وقوله ﴿ **وَصَلِّ عَلَيهِم إنَّ صَلَاتَكَ سكَنٌ لَّهُم وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ معناه : إذا دفع أى مسلم زكاته فادع الله له بالرحمة والمغفرة ونماء المال ، والحق أن دعاء النبى ﷺ ودعاء كل حاكم مسلم عادل يطمئن النفس إلى القبول ، وفى الحديث الشريف : « ثلاث دعوات لا ترد » وقد ذكر منها دعوة الإمام العادل لأن الإمام العادل رحمة من الله للأمة ؛ يجمع كلمتها وينشر العدل والمحبة وصنائع الخير بينها ، إذ الناس على دين ملوكهم . وقد ختم الله جل وعلا الآية بقوله : ﴿ **وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ ليفيد بأن الله جل جلاله يسمع الدعاء ويستجيب ، ولكنه فى الوقت نفسه عليم بأفعال العباد ومدى صدق إخلاصهم فى الإنفاق، وهو ختام ملائم غاية الملاءمة لمعنى الآية وما فيه من عمل العامل ودعاء الإمام .

ثانياً : قوله تعالى ﴿ أَلَم يَعلَمُوا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلَ التَّوبَةَ عَن عِبَادِه وَيَأخُذ الصَّدَقَات وَأَنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم ﴾ آية تموج وتتدفق بالتوبة والقبول والرحمة ، إنها آية تعزى أقسى القلوب وأجحدها بالإحسان ؛ إذ هى تعلن أن المؤمن إذا أخرج صدقته ؛ أخذها الكريم جل جلاله بيديه المبسوطتين ورباها لصاحبها ولم يزال يضاعفها ويجزى عليها بغير حساب حتى إن نصف التمرة يصير بكرم الله وحسن مثوبته مثل جبل أحد . وقد قرنت الآية الكريمة بين التوبة والصدقة ، وفى هذا دليل على أن أهل الذنوب إذا أرادوا التوبة فالله جل جلاله تواب رحيم يفرح بتوبة عبده المؤمن ، لكن على التائب أن يتبع توبته بالصدقات والإحسان وصنائع الخير ليكون ممن قال الله فيهم ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهتَدَى ﴾ [طه : ٨٢].

ثالثاً : ولابد من وقفة طويلة عند قوله تعالى ﴿ وَقُل اعمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ وَالمُؤمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيبِ وَالشَّهَادَة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ ﴾ . لقد وددت لو أن هذه الآية الكريمة تتخذ شعاراً لأمة محمد ﷺ يرددونها ويعملون بها ويذكر بعضهم بعضاً بها ليجعلوا العمل شعارهم ؛ لأنه لاكرامة للعبد عند ربه إلا بعمله ، إنها الأعمال تعرض على الله جل جلاله ؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . صحيح أن الإيمان هو أساس الأعمال ، وعمل الكافر مردود عليه لكن الله جل جلاله ما ذِكر الإيمان إلا قرنه بالعمل الصالح ؛ لأن العمل هو الذى يصدق الإيمان . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعمَل مِنَ الصَّالِحَات وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلماً وَلاَ هَضماً ﴾ [طه : ١١٢] ، والدعاء مهما كان مؤثراً وشاملاً وصالحاً لا يستجاب إلا إذا

اقترن بالعمل، فقد قرأنا فى آخر سورة آل عمران دعاء فى غاية التأثير بدءاً من قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران : ١٩١] إلى قوله تعالى : ﴿ **رَبنا وآتنا ما وعَدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد** ﴾ [آل عمران : ١٩٤] ولكن عند نهاية الدعاء يقول الله جل جلاله : ﴿ **فَاستَجَابَ لَهُم رَبُّهُم أَنِّى لاَ أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ منكم مِّن ذَكَرٍ أو أُنثَى بَعضُكُم مِّن بَعضٍ فَالَّذينَ هَاجَرُوا وأُخرِجُوا من دِيَارِهِم وأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقتلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنهُم سَيِّئَاتِهِم وَلأُدخلَنَّهُم جَنَّاتٍ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ الثَّوَابُ** ﴾ [آل عمران : ١٩٥] . ومن الواضح أن الله جلَ جلاله اشترط لإجابة الدعاء صلاح العمل وصدق النية .

إن العمل هو الذى رفع بلالاً إلى طليعة الصحابة ، وهو الذى خفض أبا لهب ـ وهو عم النبى ﷺ ـ إلى دركات الشقاء ، وفى حين نرى فى بلاد الأجانب عملا دائباً فى مصانع السلاح وكافة الصناعات والحرف نرى فى ديار الإسلام تهاوناً من كثير من الشباب وعزوفاً منهم عن الطريق الصحيح للمجد ، معتمدين على مال يترفهم أو نسب يمنعهم من العمل اليدوى أو كسل يزين لهم الإخلاد إلى الدعة .

وبعد فما أحوج شباب أمتنا أن يشمروا للعمل الصالح الذى يرضى الله عنه ويرضى رسوله والمؤمنون ؛ لأن ما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن ، ومهما أخفى العامل عمله الصالح فالله يظهره ، المؤمنون عندئذ يرونه ويشكرونه ثم يكون المرد إلى الله جل جلاله فيكافىء عليه حسب ما اقترن به من إخلاص .

النفاق يحبط الأعمال ويمحق الحسنات

رب عمل يكون فى ظاهره خيراً وصلاحاً يكتب على صاحبه سيئات وخسرانا ؛ ذلك لأن النية المقترنة به كانت سوءاً وخبثاً . إن كلمة لا إله إلا الله وهى أشرف كلمة وأعظمها أجراً ، كان المنافقون يقولونها فتكتب في صحائفهم دماراً عليهم ﴿ **إذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ**﴾[المنافقون : ١] وهذه أربع آيات من سورة التوبة تحكى قصة رهط من أهل المدينة بنوا مسجداً ، فكتب عملهم خزياً عليهم فى الدنيا وعذاباً فى الآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسجداً ضِرَاراً وَكُفراً وَتَفرِيقاً بَينَ الْمُؤمنِينَ وإرصَاداً لمَن حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ من قَبلُ وَلَيَحلفُنَّ إن أَردنَا إلاَّ الحُسنَى وَاللهُ يَشهَدُ إنَّهُم لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُم فِيهِ أَبَداً لَمَسجدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقوَى من أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَن أَسَّسَ بُنيَانَهُ عَلَى تَقوَى منَ اللهِ وَرِضوَانٍ خَيرٌ أم مَّن أَسَّسَ بُنيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهدِى القَومَ الظَّالمِينَ * لا يَزَالُ بُنيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِم إلاَّ أن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُم وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة : ١٠٧ ـ ١١٠] .

أقول وبالله التوفيق وعليه التوكل وإليه الرغباء والرجاء والدعاء والعمل :

أولاً : تحكى هذه الآيات قصة بناء مسجد الضرار ، وقد بناه نفر من المنافقين على طريق الشام ليكون وكراً لمؤامراتهم ، وشجعهم على بنائه أن منافقاً اسمه أبو عامر الراهب كان قد أسلم ثم ذهب إلى الشام فتنصر وارتد عن الإسلام ، وراسل بعض ضعاف النفوس فى المدينة ، ليبنوا مسجداً يكون مجتما لهم يجمعهم بأبى عامر إذا قدم المدينة وأقنعهم أن قيصر وعد أن

يأتى إلى المدينة بجيش وينصرهم على محمد ، وعلى تلك النية الخبيثة بنوا ذلك المسجد وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو يستعد للخروج إلى تبوك، فقالوا له : يا رسول الله قد بنينا مسجداً لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ونحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة ، فقال لهم رسول الله ﷺ: « إنى على سفر وحال شغل ، فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه » ، فلما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جاؤوا إليه مرة ثانية، وقد فرغوا من بناء المسجد ، وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم ، فنزل عليه القرآن الكريم مخبراً بأنه مسجد أنشئ للضرار بمصالح المسلمين ، وعندئذ انتدب النبى ﷺ ثلاثة من الصحابة فيهم وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه فحرقوا المسجد وهدموه ، وكان الذين بنوا مسجد الضرار اثنى عشر رجلاً معظمهم من بنى غنم بن عوف .

ثانياً : هذه القصة فيها عبرة لكل من أراد أن يبنى مسجداً ، وذلك بأن يخلص العمل لوجه الله الكريم ولا ينتظر من وراء بنائه مديحاً ولا سمعة فيكتب عمله رياء ، والمرائى محروم من ثواب عمله مهما كان خيراً . أعرف فى القرى حوادث من هذا النوع فكثيراً ما تشرع حمولة فى بناء مسجد وتكون هجرتها لله ، فإذا سارت فى مشروعها نهضت حمولة أخرى مجاورة لها فشرعت فى بناء مسجد قريب من مسجد الأول لا لسبب إلا لأن المسجد الأول قام عليه رجال من غير الحمولة الثانية ، فيكون المسجد الثانى إذ ذاك قريباً من مسجد الضرار ؛ لأن أشياخنا ـ رحمهم الله ـ ذكروا أنه لا يجوز بناء مسجد إلى جوار مسجد ويجب هدم اللاحق من جنب السابق والمنع من بنائه إلا أن تكون المحلة كبيرة فيبنى الثانى ليتسع للمصلين .

ثالثاً : إذا بنى مسجد من أجل الرياء والسمعة والضرار وعرف الناس ذلك فلا يجوز أن يصلوا فيه لأن صلاتهم فيه تشجع أهل الابتداع والرياء ، ويقاس على المسجد كل ما بنى أو أنشئ وفيه ضرر للناس كبناء عال له كوى تكشف الجيران أو فرن تخرج حرارته لتؤذى الناس أو مصنع يكون لآلاته دوى شديد يؤذى سكان الحى ، فكل هذا يزال .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ ضرارا ﴾ تعرب مفعولاً لأجله ، أى بنوا المسجد من أجل الضرر ، وقد كشف القرآن عن أهدافهم اللئيمة وهى الإضرار بالمسلمين، والكفر بالله ، وانتظاراً لزعيم النفاق أبى عامر الراهب ليتخذه مباءة للتآمر، وكشف القرآن أن سلاح المنافقين هو الحلف الكاذب ، لكن الله جل جلاله لا يخفى عليه كذبهم وسوء طويتهم .

خامساً : فى الآية التالية يذكر القرآن مسجد قباء الذى بناه بنو عمرو بن عوف على نية التقوى من أول يوم وصلى لهم فيه رسول الله ﷺ ، أولئك قوم طهر الله بواطنهم كما طهروا ظواهرهم بالاستنجاء والوضوء للصلاة . يقول الله تعالى وهو يذكر مسجد الضرار : ﴿ **لاَ تَقُم فِيهِ أَبَداً لَمَسجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقوَى مِن أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ** ﴾ . إن مسجد قباء مسجد مبارك ، وقد حث النبى ﷺ على الصلاة فيه ولا يزال الناس يلتمسون بالصلاة فيه البركة والمغفرة ، وهم بذلك على حق .

سادساً : ثم يوازن الله جل جلاله بين من يبنى مسجداً لوجه الله تعالى ومن يبنى مسجداً لغير وجه الله ، فيصف رسوخ الأول ودوامه وثبوت أجره ، بينما يصف خسران الثانى وانهيار عمله وضياعه ﴿ **أَفَمَن أَسَّسَ بُنيَانَهُ عَلَى تَقوَى مِنَ اللهِ وَرِضوَانٍ خَيرٌ أَمَّن أَسَّسَ بُنيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ**

فَانهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهدى القَومَ الظَّالِمِينَ ﴾ والاستفهام الوارد فى الآية استفهام بلاغى غرضه النفى .

سابعاً : قوله تعالى : ﴿ لاَ يَزَالُ بُنيَانَهُمُ الَّذى بَنَوا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِم إلاَّ أن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ حكيم ﴾ معناه : أن هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار ـ ويقاس عليهم كل من حاك دسيسة للمسلمين ـ ستظل أعمالهم تثير الكفر والشك فى قلوبهم إلى أن يموتوا ، وعندئذ يلقون الله على ما كانوا فيه فى دنياهم من شك وريبة وضعف إيمان ، والله جل جلاله عليم بما في القلوب حكيم فى ثوابه وعقابه ، وفى قوله تعالى : ﴿إلاَّ أن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُم ﴾ كناية عن الموت.

ثامناً : لقد شاع فى هذه الأيام عمل صالح نسأل الله أن يتمه ويخلصه لوجهه وهو بناء المساجد حتى لقد أصبح بفضل الله فى كل حى مسجد أو أكثر، وكلها بفضل الله صدقات جارية تجرى على منشئها أجره فى حياته وبعد موته ، ومن ثم فهى مأثرة جليلة عظيمة الثواب فليحذر منشئو المساجد أن يضيعوا هذه المكارم الجليلة بفساد النوايا أو مقاصد الرياء لأن الصدقات الجارية ذخر يملأ الموازين ويضمن لصاحبه بإذن الله ستر الدنيا وسعادتها وفوز الآخرة ومثوبتها .

أشرف مبايعة وأربح صفقة

هذه آية واحدة من سورة التوبة تتضمن أشرف مبايعة وأربح صفقة ، المشترى فيها هو الله جل جلاله ، والبائع هو المؤمن ، والمبيع هو نفس المؤمن وماله ، والثمن هو الجنة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَموَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيهِ حَقاً فِي التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ وَمَنْ أَوفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ** ﴾ [التوبة : ١١١] أقول وأسأل الله لى وللإخوة القراء ولسائر المسلمين أن يحيينا حياة طيبة ، ويرزقنا خاتمة طيبة ، ويكتب لنا جهاداً محتسباً نحظى فيه بالشهادة والجنة :

أولاً : هذه الآية الكريمة فيها إشارة عجيبة دقيقة تملأ قلب المؤمن حباً لله وولاء لجوده وكرمه ؛ ذلك لأن الله جل جلاله هو مالك العباد ومالك نفوسهم، وهو جل جلاله السيد المعبود ، وكل ما سواه عبد ، والعبد وما ملكت يداه لسيده ، ومع هذا فإنه تبارك وتعالى يعقد مع عبده المؤمن صفقة ، فيشترى الله الذى لا إله إلا هو شيئا يملكه ، ويتصرف فيه كيف يشاء . إن العبد المؤمن الذى هو البائع لا يملك نفسه ولا شهد خلقها ولا خلق منها شيئا ، ومع ذلك فالله الخالق البارئ المصور الكريم الجواد يسوم نفس المؤمن منه وكأنه يملكها ، ويجزل له الثمن بكرمه فيجعل ثمن النفس التى تموت غداً نفساً لا تموت أبدا ، ويبدل المؤمن بالعاجلة الفانية جنة باقية عرضها السموات والأرض . روى أن أعرابياً مر على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**

أنفُسَهُم وَأموالَهُم بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّة ﴾ فقال البدوى : كلام من هذا ؟ قال: «كلام الله» فقال : بيعٌ والله مربح ، لا نقيله ولا نستقيله أى لا نبطله من جهتنا ولا نطلب من المشترى أن يبطله ، فخرج إلى الغزو واستشهد رضى الله عنه .

ثانياً : ومع أن الآية عامة فى كل مؤمن يبيع لله نفسه إلا أن لها مناسبة ، وهى أن أهل بيعة العقبة الثانية ، وكان عددهم ثلاثة وسبعين ـ رضى الله عنهم ـ اجتمعوا برسول الله ﷺ عند العقبة فقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه يا رسول الله ، اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ربى فأشترط له أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى ـ أى تحمونى ـ مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فإذا كان ذلك فماذا لنا ؟ قال رسول الله ﷺ : «الجنة» قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، أى لا نبطله ولا نطلب إبطاله ، فنزلت الآية الكريمة تخص أهل بيعة العقبة الثانية الذين أسسوا قواعد الإسلام بالمدينة، وتعم جميع المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُون ﴾ اشتراط من الحق تبارك وتعالى أن يكون القتال فى سبيل الله ، ولكى تكون كلمة الله هى العليا وكل نية تخالط هذه النية قد تفسد الجهاد وتحبطه وتمحو ثوابه ، فمن قاتل حمية أو عصبية أو ليرى مكانه فليس فى سبيل الله ولا يدخل فى هذه المبايعة الرابحة . إن الذى تنطبق عليه المبايعة هو الذى يقاتل فى سبيل الله إن قتل لم يكن قتله إلا انتصاراً لله ، وإن قتل فما كانت تضحيته بنفسه إلا لله ، إذن يكون ثمن نفسه الجنة . واستنتج المفسرون من قوله تعالى : ﴿بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّة﴾ أن الشهيد يدخل الجنة ساعة

استشهاده لأن الله جل جلاله لم يعده موتة بعدها الجنة وإنما وعده الجنة واشترى نفسه بها ، وفى سورة آل عمران : ﴿ **وَلاَ تَحسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَموَاتاً بَل أَحيَاءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرزَقُون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] وإذن فالشهيد الذى قدم لله نفسه سيكون ثمن نفسه الجنة يرتع فيها حالما يقتل ، لأن الله جل جلاله أكرم من أن يكافئ من بذل نفسه وحياته بأن يعطيه موتاً ، وإنما هو يعطيه بحياته الفانية حياة خالدة باقية فى الجنة . وساكن الجنة لا يسمى ميتا .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وَعداً عَلَيه حقاً فِي التَّورَاة وَالإِنجِيل وَالقُرآن** ﴾ معناه : أن الجهاد قد فرض على الأمم السابقة ، كالذى جاء فى البقرة عن قوم موسى وعن جيش داود . والبيع الرابح كان وما زال نافذ المفعول موثقا مثبتاً فى التوارة والإنجيل والقرآن . وقد لاحظ المفسرون فى هذه الآية كثرة أساليب التوكد ، وذلك ليطمئن المؤمن على ثمن نفسه ، ويثق بأن الجنة هى مآله العاجل ، ففى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ اشتَرَى مِنَ المُؤمِنِين** ﴾ توكيد بإن ، وفى قوله : ﴿ **بأن لهم الجنة** ﴾ توكيدان : أحدهما أن ، والثانى تقديم كلمة لهم ، وكان يمكن أن يقول : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة ، لكن جاء بالأسلوب مؤكدا فقال : ﴿ **بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّة** ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقتُلُونَ وَيُقتَلُون** ﴾ إطناب شرح فيه الجهاد ، والإطناب لون من التوكيد ، وفى بقية الآية ألوان أخرى من التوكيد .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ **وَمَن أَوفَى بِعَهدِه مِنَ الله** ﴾ استفهام بلاغى رائع غرضه النفى والتوكيد معاً ، فهو ينفى أن يكون هنالك من هو أوفى من الله ، ويؤكد حقيقة الوفاء بالبيع فيجعله عهداً على الله تعالى قطعه على نفسه،

وكل هذه الأساليب ما هى إلا من اهتمام الإسلام بالجهاد الذى به تعز الأمة وترتفع راية التوحيد ، وتنتشر دعوة الإسلام فيظهر على الدين كله ولو كره الكافرون .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ **فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** ﴾ ، الأمر هنا أيضاً توكيد لعظمة البيع والوفاء به ، وهنالك توكيد آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ﴿ **وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** ﴾ توكيد آخر وزيادة الضمير ﴿ **هُوَ** ﴾ توكيد آخر ، والرب جل جلاله إنما يتابع بين أساليب التوكيد استجلاباً للمؤمنين إلى الجهاد ، وليطمئنهم بشتى الأساليب على مصيرهم السعيد وصفقتهم الرابحة ، فيا ليت المسلمين فى هذه الأيام يعيشون هذا البيع ويذكرون هذا العهد ويستيقظون على صوت القرآن الكريم وهو يرسم لهم منهج العزة والكرامة والنصر . إن هذه الآية وأمثالها فى كتاب الله تصف الدواء لأمتنا وهو الجهاد والبذل والتضحيات لتظل أمتنا ـ كما شاء الله لها أن تكون ـ خير أمة أخرجت للناس .

حول الولاء والبراء فى الإسلام

هاتان آيتان من سورة التوبة تحددان علاقة المؤمن بعقيدته وبأقرب المقربين إليه وتعلنان أن العقيدة أجل من القرابة والصداقة وكل الاعتبارات .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ مَا كَانَ للنَّبيِّ وَالَّذينَ آمَنُوا أن يَستغفرُوا للمُشركينَ وَلَو كَانُوا أُولي قُربَى من بَعد مَا تبينَ لَهُم أَنَّهُم أصحَابُ الجَحيمِ * وَمَا كَانَ استغفَارُ إبرَاهيمَ لأبيه إلاَّ عَن مَّوعدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ منه إنَّ إبرَاهيمَ لأَوَّاهٌ حَليمٌ * وَمَا كَانَ الله ليُضلَّ قَوماً بَعدَ إذ هَدَاهُم حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إنَّ اللهَ بكُلِّ شيءٍ عَليمٌ ﴾ [التوبة : ١١٣ ـ ١١٥]. أقول وأسأل الله لى وللإخوة المسلمين أن يرزقنا حبه وحب رسوله والصالحين وأن يجعل هوانا تبعاً لكتابه وسنة رسوله :

أولاً : جاء فى صحيح مسلم وفى كتب السيرة أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية بن المغيرة ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا عم ، قل لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » فقال له أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم ـ هو على دين عبد المطلب ـ فقال رسول الله ﷺ : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ للنَّبيِّ وَالَّذينَ آمَنُوا أن يَستغفرُوا للمُشركينَ وَلَو كَانُوا أُولي قُربَى من بَعَد مَا تبينَ لهم أنَّهُم أصحَابَ الجَحَيم ﴾ ونزل فى ما كان من أبى طالب قوله تعالى فى سورة القصص:﴿إنَّكَ لاَ تَهدى مَن أحبَبتَ وَلَكنَّ الله يَهدي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أعلَمُ بالمُهتَدينَ﴾ [القصص : ٥٦] لقد كان

رسول الله ﷺ يحب أبا طالب لأنه عمه ولأنه رباه وكفله من سن الثامنة إلى أن زوجه ولأنه كان من المدافعين عنه وعن دينه حتى لقد سمى العام الذى مات فيه أبو طالب عام الحزن ، ولكن لله حكمة فى الهداية والضلال وهو أعلم بالمهتدين . وقد نهى رسول الله ﷺ أن يستغفر لعمه على الرغم من حبه له ، وفيه إظهار بأن الحكم لله العلى الكبير ، وأن محمداً ـ وإن كان أشرف الخلق وأكرمهم على الله ـ لم يستطع أن يهدى عمه ، وفى ذلك درس بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ، وثمة درس ثالث وهو أن المؤمن إذا تعارضت لديه القرابة والدين كان الدين أهم عنده من كل قرابة لأن كل أمر فى الدنيا يهون إلى جانب الدين ، وكل مصيبة فى الدنيا تهون إذا تخطت الدين ، وكل حب فى الدنيا يهون إزاء حب الله ورسوله .

ثانياً : ربما كانت الحادثة نفسها سبق أن حصلت بين إبراهيم وأبيه حين دعا إبراهيم أباه آزر إلى الإيمان فأبى وهدد أن يرجم ولده المؤمن ، فلم يكن من إبراهيم إلا أن قال له مقالة الابن البار : ﴿ **سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا** ﴾ [مريم : ٤٧] وبالفعل استغفر لأبيه ، لأنه وعده أن يستغفر له ، ولكن حين تبين له إصراره على الكفر تبرأ منه ومن جميع قومه لأن إبراهيم عليه السلام كان أواهاً حليماً ، والأواه : هو التواب الذى لا يفتأ حزيناً متأوها لذنوبه ، أما الحليم : فهو الذى يتحمل الإساءة ولا ينتقم من المسىء رغم قدرته على الانتقام . لقد كانت سيرة إبراهيم أسوة حسنة للنبى ﷺ وصحبه ، وخصوصاً حين فضلوا عقيدتهم على قرابتهم فقالوا لقومهم : ﴿ **إِنَّا بُرَآءُ منكُم وَممَّا تَعبُدُونَ من دُون الله كَفَرنَا بِكُم وَبَدَا بيننَا وبينكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغضَاءُ أبداً حَتَّى تؤمنُوا بِالله**

وَحدهُ﴾ [الممتحنة : ٤] أما قول إبراهيم عليه السلام : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ فهو موقف لا يقتدى به ؛ لأن لإبراهيم عليه السلام ظرفاً خاصاً برره له ربه ولكن نهانا جل جلاله أن نأتسى بأبينا إبراهيم فى موقف استغفاره لأبيه .

ثالثاً : فى الآيتين ما يوحى أن على المؤمن مقاطعة الكفار والمشركين وعدم موالاتهم والاستغفار لهم . أما ما ورد عن رسول الله ﷺ حين شج وجهه يوم أحد فطفق يمسح الدم وهو يقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » فقد كان رجاء منه ﷺ أن يهديهم فيعلموا ويؤمنوا ، ومن ثم يغفر لهم أما الاستغفار للميت الذى مات على كفره فمنهى عنه ؛ لأن الذى مات على الكفر لا ترجى هدايته .

رابعاً : فى هذه الأيام ارتبط كثير من المسلمين مع الكفار بمشاركات وتجارات وتبادل مصالح ، وهذا أمر لا شيء فيه إن شاء الله إذا توفرت فيه أمور : أولها : أن تكون مشاركة الكافر للضرورة ولعدم وجود من يجزئ فى المشاركة من المسلمين . والثانى : ألا تؤدى المشاركة إلى المجاملة فى الدين والعادات فيقلد المسلم الكافر على عادات الكفر ، ويتعلق ولاء قلبه بحب الكافرين وتقاليدهم فى التربية والحياة الاجتماعية . والثالثة : ألا يستحل فى الكسب ما يستحله شريكه الكافر كالاتجار فى الخمر ومزارع الخنازير أو اللجوء إلى الربا والرشوة والحرام . إن التعاون بين أفراد الإنسانية واجب ، فالإنسانية عائلة واحدة ، لكن المؤمن خلق إماماً ، وأمة محمد بعثت هادية للناس شاهدة عليهم يوم القيامة فما يجوز أن يتحول الإمام إمعة تقوده تقاليد الكفر إلى التقليد الأعمى فيضل ويضل بدلاً من أن يهتدى ويهدى .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوماً بَعدَ إذ هَدَاهُم حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إنَّ الله بِكُلِّ شيءٍ عَلِيم** ﴾ آية من المتشابه الذى يحتاج إلى وقفة مستأنية متدبرة . إن على العبد أن يعتقد بأن كل شيء من خير أو شر فى هذه الدنيا لا يمكن أن يحدث إلا بقضاء من الله ، ولا يمكن أن يحدث بغير إذن ، لكن من سنن الله الحكيمة العادلة أن الأمة المهتدية لا يمكن أن يغير الله فيها مسيرة الهدى والصلاح إلى مزالق الضلال والفسوق المؤديين إلى الهلاك والدمار إلا بعد أن يبين لها ما تتقيه من الذنوب ، وفى هذا يقول جل جلاله : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهلِكَ القُرَى بِظُلمٍ وَأَهلُهَا مُصلِحُون** ﴾ . وهذا يعنى أن الأمة المستمرة فى طريق الصلاح لا يمكن أن تتعرض للهلاك ، ولكن حين يشيع فى الأمة الفسوق الناجم عن الترف والبطر المنبثق من النعمة ، وحين تستقبل الأمة النعم بالكفران ، والنذر بالغفلات وحين تزيغ العقول برغم نداءات الكتب السماوية ، هنالك تتحقق فى الأمم سنن الله التى فى مقدمتها إهلاك الظالمين . لقد أعذر الله جل جلاله بإرسال الرسل وإنزال الكتب وهبة العقول ، فإذا زاغ الإنسان رغم نداء العقل وبيان التنزيل وتعاليم الرسل ، هنالك تكون السنن التى لا تبديل لها ولا تحويل ﴿ **وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوماً بَعدَ إذ هَدَاهُم حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إنَّ الله بِكُلِّ شيءٍ عَلِيم** ﴾ اللهم جنبنا سوء الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

حول الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة تبوك

حين تخلف عن الجهاد فى سبيل الله ثلاثة أشخاص من الصحابة قامت الدنيا من حولهم وقعدت ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . ثلاثة نفر فقط حين تكاسلوا عن الجهاد تعرضوا لأكبر مصيبة حلت بهم فى حياتهم ؛ إذ قاطعهم رسول الله ﷺ وخشى عليهم النفاق ، وقاطعهم أهلهم وأقاربهم ، ثم لما تاب الله عليهم ، عدُّوا ذلك أعظم فرحة نالوها فى حياتهم . ليت شعرى ما نظرة الله جل جلاله إلى أمتنا فى هذه الأيام وعشرات الملايين منها ما غزوا فى سبيل الله ولا حدثوا أنفسهم بجهاد .... ؟! ما نظرته إلينا ومساجد الله ومقدساته وحرماته تداس تحت سنابك الكفر ، وذرارى المسلمين تحت نير العذاب والاضطهاد تنادى وا إسلاماه فيرتد الصدى إلى آذانهم ثم لا يرون أحداً . الله أكبر هل ماتت غيرة المؤمنين؟ وهل خبت جذوة الإسلام فى القلوب ؟ ألم يأن للذين آمنوا أن يستيقظوا على صرخات الإسلام المستغيث فيخفوا إليه تحت أعلامهم ، شعارهم إعلاء كلمة الله، ولواؤهم لا إله إلا الله ، وهتافهم الله أكبر ولا عزة إلا بالإيمان؟! أقسم لو كان ذلك ما نهض الكفر لمواجهة الإسلام ساعات .

أعيد على الإخوة القراء هنا قصة الثلاثة الذين خلفوا كما جاءت فى صحيح مسلم ، وكما رواها الترمذى والتى أوردها المفسرون وهم يعلقون على هذه الآيات من سورة التوبة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ**

عَلَيهِمُ الأرضُ بِمَا رَحُبَت وَضَاقَت عَلَيهِم أنفسَهُم وَظَنُّوا أن لاَ مَلجأ مِنَ الله إلاَّ إلَيه ثُمَّ تَابَ عَلَيهِم لِيَتُوبُوا إنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين ﴾ [التوبة : ١١٧ ـ ١١٩].

خلاصة القصة أن رسول الله ﷺ أراد أن يجرى اختباراً للمسلمين ، وأراد فى الوقت نفسه أن يفهم العرب أن الجهاد لم ينته بفتح مكة والطائف وإسلام جميع العرب ، وأخيراً أراد أن يفهم الروم أن الإسلام قادم إليهم وأن عليهم أن يفتحوا الطريق له ، ويسهلوا رسالة دعاته ؛ لأن الله مُظهر هذا الدين على الدين كله ولو كره الكافرون ؛ ولهذا أراح جيش المسلمين الذى فتح مكة من شهر شوال سنة ثمان للهجرة إلى أول شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة . كان الجو فى ذلك الوقت حاراً ، والظلال طيبة فى المدينة ، والرطب الهضيم قد بدت تباشيره ـ والرطب ربيع أهل المدينة ـ فنادى رسول الله ﷺ فى الناس يدعوهم إلى التوجه إلى تبوك لغزو الروم والقبائل المحالفة لهم ، وكان عليه الصلاة والسلام ربما تكتم فى وجهته حفاظاً على الأسرار العسكرية ، لكنه فى هذه المرة ذكر تبوك بالذات ليعلم المسلمون أن الشقة بعيدة ، وتحتاج إلى سفر عشرين يوماً فيعدوا الركائب والزاد . وإنما سميت غزوة العسرة وذكر الله جل جلاله ساعة العسرة ، لأن الشدة فيها بلغت الذروة حتى لقد قال عمر رضى الله عنه : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش ، ثم ذكر أن رسول الله ﷺ استسقى لهم فأكرمهم الله بسحابة صغيرة وشربوا منها وملؤوا أوعيتهم ، ولقد كاد بعض المسلمين يرجعون لكن الله جل جلاله يشمل أولياءه برحمته ورعايته وهدايته ، فإذا أخلصوا إليه فى الرخاء؛ هداهم وثبتهم فى الشدة .

لقد كانت غزوة تبوك غزوة اختبار وتمحيص فُضحت فيها حقيقة المنافقين؛

وذلك لأنها كانت فى ظروف شديدة عصيبة ؛ كان جيش العسرة أكبر جيش جهزه رسول الله ﷺ إذ بلغ ثلاثين ألفا ، وقد استخلف النبى ﷺ عليا على المدينة فقال المنافقون خلفه كراهية له فلحق رضى الله عنه برسول الله ﷺ وأخبره ، فقال له رسول الله ﷺ: « إن قعودك يعدل فى الأجر خروجك معنا لأنك قعدت بأمر من الله ورسوله » ، وقد أقام النبى ﷺ شعبان وبضعة أيام من رمضان وكان يقصر الصلاة أثناء إقامته هناك ، ومع أنه عليه الصلاة والسلام لم يخض هناك قتالاً حاسما ومعارك ضارية فقد كان انتشار ذلك الجيش العظيم فى مناطق نفوذ الروم وبين القبائل المناصره لهم أمراً عظيم الأثر ، فقد صالح النبى الكريم عليه الصلاة والسلام كثيراً من القبائل على الجزية وبث السرايا إلى الشمال فطمأنوه أن ليس ثمة حشود للروم ، فرجع عليه الصلاة والسلام، وقد اطمأن على مكاسبه بفتح مكة وإسلام العرب .

والدرس الذى من أجله كتبنا هذه الصحفات هو أن عشرات المنافقين تخلفوا عن الغزو واعتذروا أعذاراً كاذبة خاطئة تافهة فقبل منهم رسول الله ﷺ ؛ لأنه لم يكن يتوقع منهم خيراً فى قعودهم وفى غزوهم ، لكن ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ ـ وهم من الصادقين ذوى الماضى الصالح ـ تخلفوا عن غزوة العسرة تكاسلاً وبدون عذر وجيه كان أشهرهم وأهمهم هو كعب بن مالك شاعر الدعوة الإسلامية ـ رضى الله عنه ـ أما الآخران فاسمان غير مشهورين : مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى . فلما وصل رسول الله ﷺ من تبوك وقصد المسجد كعادته عند عودته من كل غزاة جاءه المتخلفون من المنافقين يطلبون منه أن يستغفر لهم ؛ لأن ظروفهم كانت قاهرة وضيقة ، فقبل منهم واستغفر لهم لكن الله جل جلاله أخبره أن استغفاره لهم لم ينفعهم؛ لأن الله يعلم سرائرهم ، ويعلم أن ظاهر عذرهم وكلامهم كله غير صحيح ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ

الله لَهُم ذَلكَ بأنَّهُم كَفَرُوا بالله وَرَسُوله ﴾ أما الثلاثة الذين صدقوا فقد جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فأقروا أنهم تخلفوا دونما عذر ، وإنما هو الكسل والتأجيل حتى ما شعروا إلا والقافلة قد فاتتهم .

وهنا كانت معاملة النبى ﷺ لهؤلاء معاملة تربوية فقد قال لهم : « لا أستغفر لكم ولا أقبل منكم حتى يحكم الله فى أمركم » وقد استمر ذلك الاختبار الصعب لهم أكثر من خمسين يوماً ، قاطعهم فى أثنائها أهلهم وزوجاتهم والمسلمون ، وأمرهم النبى فى أواخر تلك الأيام أن يعتزلوا زوجاتهم ، فصبروا للاختبار ، واستغرقوا فى التوبة والاعتبار ، وغسلوا بدموع التوبة أوضار الخطيئة ، هنالك فتح الله لهم باب التوبة فتابوا توبة نصوحاً ، ويا لسعادتهم حين نزل قبول توبتهم من فوق سبع سموات ؛ إذ ذاك هانت عليهم مدة الاختبار ، وحمدوا الله أن لم يعاملهم رسولهم الكريم كما عامل المنافقين فقبل منهم ظاهر قولهم واستغفر لهم كما استغفر لغيرهم .

ولقد كان نزول الآيات التى أشرنا إليها بشرى بين يدى مغفرة الله وعليا الدرجات للنبى ﷺ وصحبه ، لقد تاب الله على النبى ، ولعله كان قد أخذ عليه إذنه للمنافقين ، لقد كان الرسول ﷺ كثير الاستغفار لذنبه مع أنه المعصوم عن كل ذنب يسقط الكرامة ، وتاب الله على المهاجرين والأنصار من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، فيرجعون عن القتال ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رؤوف رحيم ، ثم تاب على الثلاثة الذين خلفوا ليتوبوا ويواصلوا مسيرة الجهاد فى الله، وختم الآيات الكريمة بقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادقين ﴾ مشيراً إلى أن الصدق وإن تبعته آلام وهموم وبلاء ، فهو أفضل من كذب يكون فى واجهة النفاق . نسأل الله أن يجعلنا وسائر المسلمين من الصادقين ويبعثنا مع الصديقين ويجعل لنا قدم صدق عنده .

الإسلام دين الجهاد والعلم معا

هاتان آيتان من سورة التوبة فيهما حث على طلب العلم لخدمة الدين وفيهما حث على الجهاد لنشر العقيدة ، ومن هنا يظهر الإسلام دين الحضارة ودين القوة معاً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [التوبة : ١٢٢ ـ ١٢٣] .

أقول وأسأل الله أن يعيد أمتنا سيرتها الأولى ، قائدة فى ميادين الجهاد والتضحيات ورائدة فى حقول العلم والحضارة وهادية لمسيرة الإنسانية فى سبل السلام .

أولاً : حينما ذكر القرآن الجهاد ولام أهل المدينة وأعراب المدينة على التخلف عن غزوة العسرة أراد أن ينبه المسلمين بأن الدعوة للإسلام تتطلب أمرين: سيوف المجاهدين فى سبيل الله ، ودروس الدعاة إلى الله والناشرين لدينه ، ومن ثم ، فالإسلام دين القوة والجهاد والتضحيات ، وهو فى الوقت نفسه دين العلم والهدى والحق ، يدعو إليها على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة والبلاغة المؤثرة.

ثانياً : من مظاهر اهتمام الإسلام بالعلم وحرصه على إرساء قواعده على القراءة، أن معجزة محمد ﷺ هى كتاب ، نعم كتاب أنزله الله جل جلاله إلى محمد ﷺ ليهديهم إلى صراط العزيز الحميد عن طريق القراءة والعلم ، ولأمر ما كانت أول آية صافحت سمع الدنيا حثا على

القراءة والكتابة وطلب أنواع العلم ﴿ **اقرأ باسم ربك ـ معرفة الله ـ الذى خلق**﴾ [العلق : ١] دراسة لمخلوقات الله للوصول منها إلى عظمة خالقها وتوحيده ﴿**خلق الإنسان من علق** ﴾ [العلق : ٢] دراسة خلق الإنسان ﴿**اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم** ﴾ [العلق : ٣ ـ ٤] حث على تعلم الكتابة التى هى وسيلة حفظ العلم ﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[العلق : ٥] حث على تعلم جميع العلوم .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤمنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ من كُلِّ فِرقَةٍ مِّنهُم طَائفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَومَهَم إِذَا رَجَعُوا إِلَيهِم لَعَلَّهُم يَحذَرُون** ﴾ معناها : أن الإسلام لا يكلف جميع المسلمين أن يكونوا عسكريين ويتركوا خدمة المجتمع والناشئين من بنين وبنات ونساء ليتفرغوا إلى السلاح والمعارك الضارية ؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لضاع الأولاد والنساء واضطربت التربية والحضارة ، ولكن على المسلمين أن يختاروا من كل فرقة منهم ـ والفرقة : المجموعة الكبيرة من الناس ـ أن يختاروا طائفة ؛ أى مجموعة صغيرة ليتخصصوا فى طلب العلم فيكونوا مرشدين لقومهم داعين إلى ربهم ناشرين لدينهم يعلمون المواطنين شرع الله وأمره ونواهيه وينذرون الناس ، ليحذروا الشرك والمعاصى وما يجر غضب الله . وكلمة ﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقَةٍ مِّنهُم طَائفَةٌ**﴾ حث على النفرة لطلب العلم ؛ لأن لولا من حروف العرض والتحضيض ، وإذا قلت لولدك: لولا ذهبت إلى المسجد معناها : هلا ذهبت أى حث على ذلك . والآية تبين رسالة طالب العلم وهى أن يظل دواماً معلما وداعية ومنذراً لقومه حتى يحذروا مساخط ربهم . أما من طلب العلم ليعود بورقة ويقبع وراء مكتب فذلك لم يقدر العلم حق قدره ولا فهم القرآن حق فهمه .

رابعاً : لقد كان رسول الله ﷺ ـ على الرغم من أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ـ عظيم الحماسة للعلم والقراءة والكتابة . لقد احتاج إلى الكتابة منذ نزلت أول آية من كتاب الله ، لأنه ألهم من الله أن يكتب القرآن ليظل محفوظاً بأمر الله، وكان عليه الصلاة والسلام يلقى عناء فى مكة فى الحصول على كُتَّاب يكتبون الوحى لكنه كان يحصل عليهم فى النهاية فيكتبون ما ينزل من الوحى أولا بأول ، ومن هنا فقد كثرت أحاديث رسول الله حول طلب العلم ، ففى الحديث الشريف : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ومن العلم ما هو فرض عين كتعلم المسلم أركان الإسلام وكيفية الصلاة والصوم والحج والزكاة ، ومن العلم ما هو فرض كفاية كالعلوم العسكرية والطبيعية والكيميائية التى تخدم إنتاج الأسلحة وتحصين الحصون وغير ذلك ، فتلك يكفى أن يتقنها العدد المطلوب للدولة . وفى الحديث الشريف تفضيل العالم على العابد ؛ لأن العابد إنما يخدم بعبادته نفسه فقط ، أما العالم فينفع الله بعلمه الناس فلا عجب أن تضع الملائكة أجنحتها خدمة وتسهيلا لطالب العلم .

خامساً : قوله تعالى بعد آية طلب العلم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً** ﴾ درس غفل عنه العرب فى العصر الحديث ، فأوردهم المهالك ، ومكن للعدو المجاور لهم أن ينشر فى ديار الإسلام رجسه وفساده ، واحتلاله البغيض . أذكر فى الستينات من القرن الميلادى الحالى أن العدو كان مشغولاً بتعبئة الرجال والأسلحة وكان يوزع اعتداءاته على المسلمين لكى يردعهم ويرفع من معنوية شعبه الجبان المجرم ، فى حين شغل بعض العرب أنفسهم باعتناق الشيوعية ومؤتمرات الحياد الإيجابى وسباب الرجعيات وسياسة الشتائم ، فأوسعوا اليهود سبا ، لكن اليهود ذهبوا بالإبل ! كما جاء فى المثل الجاهلى

حين هجم قوم على راع ونهبوا إبله فلما سأله قومه عما حصل قال : أوسعتهم سبا وراحوا بالإبل !

القرآن الكريم يضع يد العرب على موضع الداء ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ وهى إشارة إلى أن المعركة يجب أن يخوضها مؤمنون وأن يبعد عن الساحة كل فاسق وملحد ومنحل دنس الماضى ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم** ﴾ أى لا تشغلوا أنفسكم بالأعداء البعيدين عن بلادكم واستأصلوا شأفة الأعداء الذين يجاورونكم؛ لأن ذلك يطهر ساحتكم ويرفع معنوياتكم ويرهب أعداءكم ، ويؤكد القرآن هذه الحقيقة فيقول : ﴿ **وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً** ﴾ أى عاملوهم بقسوة ليرهبوا بأس المسلمين ، ولا تلينوا لهم فيفسروا الحلم ضعفاً .

لكن الذى حصل هو أن اليهود هم الذين قسوا وغلظوا على ذلهم وقلة عددهم واحترفوا المذابح منذ دير ياسين إلى مذبحة الأمس القريب فى بلدة خليل الرحمن ، فى حين تبنى العرب المسلمون سياسية البحث عن السلام ، فلم يجد اليهود منا الغلظة التى حثنا الله عليها ! حتى لقد افتخر باجح منهم فقال : نتحدى أن تغير على مدن إسرائيل طائرة عربية وفى حين نرى طيرانهم يجوس خلال ديارنا بغاراته لم تجرؤ طائرة عربية أن تعكر مزاج الأعداء . وأقسم لو أغار طيران المسلمين على المدن التى فيها تجمعات بشرية يهودية لكان حالنا الآن غير حالنا، ولكن الذى حصل أننا مردنا على سياسة اللين والسلم ، لا سياسة الغلظة التى رسمها لنا ربنا ، فكان ما كان من خزى وهوان وانعكس الوضع فوجدنا نحن الغلظة والوحشية من أعدائنا ! وإلى الآن نغنى لهم نغمة السلام تسجع بها حمامة الزيتون فيسمعوننا زئير الوحوش الجائعة ، ما أجمل ما نادت به آية الذكر الحكيم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ** ﴾ والمعنى كفار العرب واليهود المجاورين ومشركو الجزيرة ، وليجدوا فيكم

غلظة لتغرس مهابتكم فى قلوبهم ، واعلموا أن الله مع المتقين إن الفرصة لا تزال أمام المسلمين ليجد اليهود منهم غلظة ، فو الله الذى لا رب غيره ما تمكن اليهود أن يغرسوا لأنفسهم مهابة رغم المذابح والوحشية ، ومازال الجميع يذكر أن ما حدث من الغلظة الإسلامية فى حرب رمضان هدم نفسيات اليهود حتى لقد استعدت رئيستهم للانتحار وبدا عليهم الذل والمسكنة .

النبى على المؤمنين حريص ، بهم رؤوف رحيم

هاتان آيتان ختمت بهما سورة التوبة ، وهما نموذج بلاغى رائع لجمال الخاتمة ، لقد بدأت سورة التوبة عارمة كالبركان تنذر المشركين وتهدر دماءهم، وانتهت السورة فى رقة وعذوبة كأنها أعلام البشائر بين يدى مواكب السرور. هاتان الآيتان يستحب الإكثار من تلاوتهما لما اشتملتا عليه من وصف لرسول الله ﷺ ، وهو وصف يملأ القلوب بحبه وحب دينه وشريعته الغراء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ [التوبة : ١٢٨ ـ ١٢٩] .

أقول وأسأل الله لى وللإخوة المسلمين أن يرزقنا حبه وحب رسوله ، ويجعل محمداً ﷺ نور أخلاقنا فى الدنيا وشفيعنا يوم القيامة :

أولاً : هاتان الآيتان وصفهما أبى بن كعب رضى الله عنه بأنهما أقرب القرآن بالسماء عهداً ، وفعلاً يحس الإنسان من أسلوبهما كأنهما ختام لسيرة محمد ﷺ . وقد روى فى فضل الآيتين آثار جليلة ، ففى سنن أبى داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ؛ كفاه الله ما أهمه » . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن يثبت آية فى المصحف إلا بشهادة رجلين ، فجاءه صحابى من الأنصار اسمه خزيمة بن ثابت رضى الله عنه بهاتين الآيتين من آخر سورة التوبة ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** .....﴾ إلى آخر السورة فأحس عمر رضى الله عنه لأسلوبهما وقعاً مؤثراً فى نفسه ، وقال لخزيمة : والله لا أسألك عليها بينة ، كذلك كان رسول الله ﷺ . ويبدو

أن عمر رضى الله عنه قبلهما من خزيمة لأن لديه دليلاً سابقاً على ثبوتهما . وقد رأينا من الأشياخ من يردد قراءتهما ويتخذهما ورداً يعتصم به من كل سوء ، وذلك لأن فى ختامهما توكلا مطلقا على الله جل جلاله بعد استنفاد وسائل الدعوة والعمل ﴿ **فَإِن تَوَلَّوا** ﴾ أى بعد دعوتهم والاجتهاد فى إبلاغهم وإقناعهم ﴿ **فَقُل حَسبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ** ﴾ .

ثانياً : الآية الأولى من الآيتين الكريمتين تشير إلى نعمة كبيرة أنعمها الله على العرب ، وهى أنه نقل النبوة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل ، ولله حكمة بالغة فى قدره وتدبيره ، وعلى العرب أن يدركوا أهمية هذه النعمة الجلى بالحفاظ على تكاليف النبوة ، وبنصرة النبى الكريم الذى شرفت به الأمة ، وتمت به النعمة . لقد كانت بعثة محمد ﷺ من العرب إيذانا بحرمان بنى إسرائيل من النبوة إلى يوم القيامة ؛ وذلك لأن رسالة محمد هى خاتمة الرسالات ؛ ولأن محمداً ﷺ هو خاتم الرسل ؛ ولهذا فقد وقعت نبوة محمد على رؤوس اليهود وقع الصاعقة، وكان رد فعلها عند اليهود أن جندوا كل طاقاتهم ولؤمهم ومكائدهم للقضاء على العرب واللغة العربية ودين الإسلام حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق .

ثالثاً : ذكرت الآية الأولى أربع صفات لرسول الله ﷺ : ﴿ **لَقَد جَاءَكُم رَسُولٌ مِّن أَنفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾، وهذه الصفات تملأ قلوب المؤمنين بحب رسول الله ﷺ . الصفة الأولى : أنه من أنفس المؤمنين فهو بشر بكل ما للبشرية والإنسانية من معنى ، إنه من أنفس المؤمنين يتواضع لهم ويعد نفسه أحدهم ويعلن قائلاً: ﴿ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثلُكُم يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ ، وكثيراً

ما كان يقول: إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في شعاب مكة» وقرئت الآية ﴿مِنْ أَنفَسِكُمْ﴾ أي من أعلاكم عنصراً وأخلاقاً وفضائل . الصفة الثانية أنه يعز عليه ويصعب على نفسه الشريفة أن تتعبوا فهو أبداً يسأل الله لكم التخفيف والتيسير ، بل لقد بعث من الله جل جلاله ليضع عن الإنسانية آصارها ويحررها من الأغلال التي كانت عليها ، فهو بحق رسول منقذ للإنسانية يريد لها اليسر ولا يريد لها العسر ، فما خير بني أمرين إلا اختار أيسرهما . لقد كان كثيراً ما يترك عبادة محببة إلى نفسه خشية أن تفرض على أمته وكان ينهى أمته عن كثرة السؤال حتى لا يشدد عليهم . وقوله تعالى : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ معناه صعب على نفسه الكريمة عنتكم ومشقتكم ، فعزيز خبر مقدم ، وعنتكم وهو المصدر المؤول من ما والفعل أما الصفة الثالثة : فهي أنه حريص على المؤمنين حريص على دنياهم وآخرتهم يريد لهم سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، روى أنه لما نزل عليه قوله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أنه قال : « لن أرضى وواحد من أمتي في النار » لقد كان رسول الله ﷺ يضن بأمته وبأصحابه وبالمؤمنين أن يصيبهم أي ضرر ، ولا يتنافى هذا مع دعوته إياهم للجهاد والاستشهاد ، فالاستشهاد في منطق الإسلام معناه البقاء والخلود والحياة ، لكنه كان يضن بأمته أن تذل أو تهان أو تجبن أو تفقد عزتها التي اكتسبتها بالإيمان . وأخيراً تأتي الصفة الرابعة: وهي في الحقيقة صفتان من صفات الله وهي قوله تعالى : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أنه عظيم الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، والرؤوف والرحيم اسمان من أسماء الله، ومن المعروف أن أسماء الله وصفاته يمكن أن يسمى ببعضها العباد ، ولا يجوز أن يسمى العباد بالبعض الآخر ، فالكريم والرؤوف والرحيم والشاكر أسماء يمكن أن يسمى بها العباد ، أما الخالق والبارئ والمصور والجبار والمتكبر والمهيمن وأمثالها مما يفهم منه العظمة والجبروت والكبرياء فتلك خاصة بالله جل جلاله .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوا فَقُل حَسبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ** ﴾ فى هذه الآية الكريمة إشارة إلى أنَ التوكل يأتى بعد إفراغ الجهد فى العمل ، يفهم هذا من قوله تعالى : ﴿ **فإن تولوا**﴾ ومعناها : إذا أنت أنذرتهم ودعوتهم إلى توحيد الله ، وأفهمتهم دعوة الإسلام ، ثم لم تنفعهم الذكرى ولا لانت قلوبهم للإيمان فإذ ذاك قل حسبى الله ، وأعلن توكلك عليه . وما أروع وأجل العبارة التى أمر الله رسوله أن يرددها إذا رأى عناد المشركين ، وهى التى يستحب تكرارها سبع مرات كلما تليت ؛ وذلك نظرا لما اشملت عليه من ألفاظ الإيمان والصبر والتوكل والانقياد لله وإخلاص التوحيد ﴿ **حَسبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ** ﴾ ، ﴿ **حَسبِيَ الله** ﴾ معناها : تكفينى نصرة الله ، ورضاؤه مهما تألبت من حولى قوى الطاغوت ، وفى هذا اعتقاد بأن قوة الله فوق كل قوة ونصرة الله فوق كل نصر ، ثم تأتى الكلمة الثانية ﴿ **لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ ، إنها كلمة التوحيد التى لو وزنت بالسموات والأرض لرجحت بهما ، وكلمة ﴿**عَلَيه تَوَكَّلت** ﴾ فيها قصر بلاغى بتقديم الجار والمجرور ، ويكون المعنى: ما توكلى إلا عليه. إن توكلى عليه ، لا على غيره . والكلمة الأخيرة ﴿ **وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيم**﴾ صفتان من صفات الله تناسبان ما سبقهما من معانى القوة والوحدانية والتوكل المطلق ، إنه جل جلاله قادر على نصرة عباده المؤمنين؛ لأنه رب العرش العظيم ومعناها : ملك عرش الكون المتصرف بالخلق كيف يشاء . ما أجمل أن يعلن المؤمن انتماءه إلى حزب الله والتماسه نصرة الله ، وتوكله المطلق عليه ويردد فى كل مناسبة بعد إفراغ جهده : ﴿ **حَسبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ** ﴾ .

حول روعة المطلع فى سور القرآن

من أروع ما يطالع القارئ حين يقرأ القرآن روعة المطلع فى السور ، وعظمة البلاغة فى خواتيم السور ، وهاتان آيتان من سورة يونس عليه السلام ، أوردهما ثم أعلق بما يتيسر لى مستنبطا بعض أسرارهما وإشاراتهما البلاغية والمعنوية .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **الَر تلكَ آيَاتُ الكتَابِ الحكيم * أكَانَ للنَّاسِ عَجَبـاً أن أوحينا إلَى رَجُلٍ منهُمْ أن أنذرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذين آمنُوا أنَّ لَهُم قدَمَ صدقٍ عندَ ربِّهم قَالَ الكَافرُونَ إنَّ هَذَاَ لَسَاحرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [يونس ١ ـ ٢] . أقول وأسأل الله لى ولإخوانى المسلمين أن يجعلنا من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته ويعملون بأحكام شرعته ويسيرون على أنوار هديه :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ **الَر تلكَ آيَاتُ الكتَابِ الحكيم** ﴾ قيل فى ﴿ الَر ﴾ إنها الحروف الثلاثة الأولى من كلمة الرحمن ، فإذا أضفت إليها حم ، وهى مطلع لبضع سور ، وأضفت ن صارت الرحمن . والصحيح والله أعلم : أن هذه الحروف التى وردت فى مطالع السور هى أكثر حروف اللغة شيوعاً وروداً وتردداً فى الكلمات ا ل م ر ح ع ك هـ ص ى س ق ط ن ، ولما أكثر الكفار الكلام والإرجاف حول القرآن الكريم ؛ طلع عليهم القرآن الكريم بهذه الحروف الشائعة فى مطالع السور ، ليبين لهم أن هذا القرآن ما هو إلا كلام عظيم من عند الله حروفه وألفاظه عربية من ألفاظكم ، فأتوا إذن بمثله إن استطعتم ، وهنا فى مطلع سورة يونس يقول لهم ﴿ **الَر تلكَ آيَاتُ الكتَابِ الحكيم** ﴾ ومعناها : أن هذه الآيات العظيمة الحكيمة التى تسمعونها فى القرآن مكونة من أمثال هذه الحروف العربية ﴿ الَر ﴾ فما هى بسحر ولا هى بكهانة ولا هى بإيحاء من

الجن ، إن هو إلا لغتكم لأن الرسول يرسل بلسان قومه ليبين لهم فيكون منهم ـ بعد التبشير والإنذار ـ ضال ومهتد ومؤمن وكافر .

ثانياً : بعد هذه الحروف فى مطالع السور يأتى ذكر القرآن الكريم أو ذكر التوحيد مما يدل على أن هذه الحروف تشير إلى القرآن ، ففى مطلع البقرة: ﴿ **الٓمٓ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ [البقرة : ١ ـ ٢]، وفى مطلع آل عمران ﴿ **الٓمٓ * اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٤]وفى مطلع سورة الأعراف ﴿ **الٓمٓصٓ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ**﴾ [الأعراف ١ ـ ٢]، وفى مطلع يونس ﴿ **الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** ﴾ [يونس : ١] ومثل ذلك ﴿ **طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى** ﴾ [طه : ١ ـ ٢] ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**﴾ [ق : ١] وهذا يؤكد أن هذه الحروف الكريمة التى ترد فى مطالع السور تشير إلى أن القرآن ما هو إلا كلمات من الحكمة تكونت منها آيات عظيمة نزلت على قلب محمد ورسخت فى صدور الذين أوتوا العلم .

ثالثاً : بعد هذه الحروف يذكر الله جل جلاله أوصاف القرآن ، ففى سورة البقرة أنه الكتاب الذى لا ريب فيه وهو هدى للمتقين ، وفى سورة آل عمران أنه الكتاب الذى يقرر حقيقة التوحيد ، وفى سورة يونس أنه الكتاب الحكيم ، وفى سورة يوسف أنه الكتاب المبين ، وفى سورة ق أنه الكتاب المجيد ، والحق أن من يدرس السور ؛ يجد أن سورة البقرة أبرز ما فيها الدعوة والهدى ، وسورة آل عمران موضوعها الرئيسى التوحيد ، فحوالى مائة آية فى مطلعها تحكى قصة عيسى وما دار بين النبى ﷺ وبين وفد

نجران حول البنوة المزعومة ، وسورة يونس موضوعها الرئيسى حكمة الله فى الرسالة ، وسورة يوسف بيان ممتع يسلى الرسل والمؤمنين عما يلقونه فى الدعوة من عناء على ضوء قصة يوسف عليه السلام ، وهكذا يتضح فى هذا الكتاب العظيم أسرار وإشارات تزيد أولى النهى إيماناً ويقيناً أن هذا الكتاب أنزل بعلم الله وأنه لا إله إلا الذى أنزله .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **تلكَ آيَاتِ الكتَابَ الحكِيم** ﴾ استعمل تلك وهى إشارة للبعيد بدلاً من هذه ، وهى الإشارة للقريب وبدلاً من قوله : هذه آيات الكتاب الحكيم قال ﴿ **تلك** ﴾ . وعلماء البلاغة يرون أن الإشارة للقريب بأداة البعيد فيها تعظيم للمشار إليه ، ويكون التقدير هذه الآيات التى تبدو سهلة قريبة هى فى الحقيقة بعيدة المنال .

خامساً : قوله تعالى ﴿ **أكَانَ للنَّاسِ عَجَبًا أن أوحَينَا إلَى رَجُلٍ مِّنهُم أن أنذرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذين آمَنُوا أنَّ لَهُم قَدَمَ صدقٍ عندَ ربِّهِم قَالَ الكَافِرُونَ إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِين** ﴾ يتضمن الإشارات المعنوية والبلاغية التالية :

أ ـ ﴿ **أكَانَ للنَّاسِ عَجَبًا أن أوحَينَا إلَى رَجُلٍ مِّنهُم** ﴾ استفهام بلاغى إنكارى يبين قصر النظر فى أولئك الذين استغربوا أن يكون الرسول بشراً ، فهل كان رسل الله جميعاً إلا رجالاً ؟ وإذن فلماذا يتعجب الناس من إرسال محمد من البشر ؟ ولعل ذلك كان رداً على الذين قالوا : ألم يجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ؟! لولا أنزل الله ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين .

ب ـ لخصت الآية رسالة الرسل أنها إنذار للناس جميعاً من الكفر وعواقبه ومصير أهله والعذاب الذى ينتظر كل كافر بربه ، ثم هى بشارة لكل مؤمن بأن له عند ربه قدم صدق ، وكلمة ﴿ **قَدَمَ صدق** ﴾ معناها : عملا مقدماً منه يزينه الصدق والإخلاص والقبول ، وقدم الصدق هذا هو بشرى بين يدى العبد

الصالح بأن الجنة فى انتظاره .

جـ ـ الكافرون واجهوا القرآن بافتراءات منها : أنه سحر يفرق بين الولد وأبيه وبين الرجل وزوجه . والحق أن الكثرين ممن دخلوا فى الإسلام دخلوه متأثرين ببلاغة القرآن . ولما أشربته قلوبهم لم يبالوا أن يفقدوا أزواجهم وآباءهم فى سبيل عقيدتهم . إن قول المشركين بأن القرآن سحر هو أكبر دليل على عظمة القرآن وروعة تأثيره ، لكنه ليس سحراً إنما هو شىء أجل وأعلى لأن السحر يستعمل فى أغراض رخيصة ضارة ، وهذا نور وهدى وبصائر تبعث الإيمان فى القلوب وتنير جوانبها بنور الفضائل والأعمال الصالحة .

الشمس ضياء ... والقمر نور

هاتان آيتان من سورة يونس فيهما إشارة علمية دقيقة بأن القمر تضيئه الشمس ، وأن الشمس هى مصدر الضوء ، أما القمر فهو جسم منير فقط وليس منبعاً للضوء . ومثل هذه القضايا العلمية كثيراً ما تتغير مفاهيمها ، لكن ما تعرض له القرآن من هذه القضايا ظل ثابتاً لم يختلف ، وهذا من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرهُ مَنَازِلَ لِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالحَقِّ يُفَصِّلُ الأَيَاتِ لِقَومٍ يَعلَمُون * إنَّ فِى اختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّموَاتِ وَالأَرضِ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَّقُون** ﴾ [يونس : ٥ ـ ٦]. هاتان هما الآيتان ، وهذه بعض الإشارات العلمية الدقيقة فيهما :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرهُ مَنَازِلَ لِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَاب** ﴾ حقيقة علمية أثبتها العلم وبخاصة حين هبط بعض أهل الأرض على سطح القمر ، وإذا هو كتلة من اليابسة تشبه طبيعتها طبيعة الأرض ، وهو منير فى جزئه المقابل للشمس ، فالشمس ضياء أى منبع ضوئى والقمر هو الذى يتلقى الضوء فينير به ، ومثل هذا تكرر فى سورة نوح . يقول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ **أَلَم تَروا كَيفَ خَلَقَ اللهُ سَبعَ سَموَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً** ﴾ [نوح : ١٥ ـ ١٦] فالشمس هى السراج المتوهج بالحرارة والضوء ، والقمر هو نور من شعاع ضوئها.

ثانياً : وإكمالاً لنعمة الله بخلق الشمس التى تدفئ الأرض وتضيئها ، وخلق

القمر الذى يهتدى بنوره السارى ، فقد قدر الله القمر منازل ، فيطلع القمر كل ليلة فى منزلة غير المنزلة التى فى الليلة السابقة والليلة اللاحقة، وبسبب تنقله في المنازل ، يواجه الشمس فى جزئه الذى نحو الأرض ، فيكون بدراً ويصدُّ عنها فيكون محاقاً ، ومن هنا يعرف الناس بالقمر والشمس عدد السنين والحساب ، ويعلمون الشهور فيتعاملون بحسابها ، وكل من الشهور القمرية والشهور الشمسية هى من تقدير الله، وليست الشمسية إفرنجية والقمرية عربية ، فقد كان العرب والمسلمون يتعاملون فيما بينهم بحساب الشهور القمرية لكنهم يحسبون لزرعهم ولمواقع الحيا والأنواء بالأبراج الشمسية .

ثالثاً : وثمة إشارة معنوية بليغة في ختام الآية العظيمة وهى قوله تعالى : ﴿ **مَا خَلَقَ الله ذَلكَ إلاَّ بالحَقِّ يُفَصِّلُ الأيَاتِ لقَومٍ يَعلَمُون** ﴾ ﴿ **ما خلق الله ذلك** ﴾ ويعنى به ضوء الشمس ونور القمر ومنازله وتعاقب الليل والنهار الذى به يعرف الحساب ، كل هذا ما خلقه الله عبثاً ولا لهواً ولا لعباً ولا مصادفة ، إنما خلقه بحكمته وتدبيره وإرادته العظيمة ، خلقه لأمر عظيم وهو الدلالة على قدرته ووحدانيته ، خلقه ليفكر فيه الإنسان بعقله ، فينفذ من خلال هذا التفكير لإدارك الحكمة التى خلقه الله من أجل تحقيقها ، وهى التى ذكرها فى قوله : ﴿**وَمَا خَلَقتَ الجنَّ وَالإنسَ إلاَّ ليَعبُدُون * ما أُريدُ منهُم مّن رِّزقٍ وَمَا أُريدُ أن يُطعمُونَ** ﴾ . إن كثيراً من سكان هذا الكون لا يعيرون نظرة اعتبار وتفكير لخلق الشمس والقمر وما يقدمان للأرض من خدمات سخرها ربهما لها . إن الشمس والقمر والنجوم كلها مسخرة لخدمة الإنسان ولهداية الإنسان ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الأرضِ جَمِيعاً مِّنه**﴾ . نعم إن كل خلق من خلق الله ما أوجده الله إلا بالحق ، فما فى

خلق الله جل جلاله من عفوية ولا مصادفة ولا لعب سبحانه وتعالى عما يصفون . وإذا كانت نجوم السماء تعد بالملايين ، فإن أصغر نجم فيها مما لا تراه العيون مخلوق لإكمال توازن الكون ، ومخلوق ليسخر لخدمة الإنسان فى الأرض ، أى كرامة هذه للإنسان ، وأى منزلة هذه للإنسانية ما أجمل أن تعقل الإنسانية منزلتها العظيمة عند الله ، إذن لأحلت ربها من قلوبها المنزلة اللائقة بجلاله لكن الإنسان للأسف جهل منزلته ، وسفه نفسه ، فهو يمر عن آيات الله دونما إعمال للفكر، ودونما تدبر ، وتأمل في الملكوت **﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيهَا وَهُم عَنهَا مُعرِضُونَ وَمَا يُؤمِنُ أَكثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُشرِكُونَ ﴾**، ثم يختتم الله الآية ختاماً فى غاية الملائمة للسياق وهو جل جلاله **﴿يُفَصِّلُ الأَيَاتِ لِقَومٍ يَعلَمُونَ ﴾**؛ وذلك لأن أمور الشمس والقمر والضوء والنور والمنازل والحساب كل هذه أمور علمية ، فإذا شرحها الله تبارك وتعالى وفصلها ؛ كان المخاطب بها بشكل خاص هم العلماء ، سبحانه يفصل الآيات أو يبينها لقوم يعلمون .

رابعاً : قوله تعالى **﴿ إِنَّ فِى اختِلاَفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَّقُونَ ﴾** ، قيل فى مناسبة نزولها إن قريشاً كانت تلح على رسول الله ﷺ بمعجزة أو آية من الخوارق كعصا موسى ، وخاتم سليمان ، وقدرة عيسى على شفاء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذنه ، فنزلت هذه الآية التى فهم منها أهل الفتوح إشارة فى غاية من الدقة ، إنها تقول لأمة محمد ﷺ إن دينكم هو دين المنطق والفكر والعقل ، وليس دين الخوارق . إذا كنتم تطلبون من نبيكم معجزة فانظروا من حولكم تجدوا أن كل ما يحيط بكم من خلق الله ؛ معجزات اختلاف

الليل والنهار وما يترتب على ذلك من تقدير أعماركم وتنظيم عملكم آيات عظيمة ، وكل ما خلق الله من بدائع الخلق فى السموات والأرض آيات عظيمة ، وكلها حين يفكر فيها المؤمن ، تبعث فى قلبه التقوى وهى مخافة الله ، لأنه يستدل بها على عظمة الخالق ، فيقدره حق قدره فيخشاه؛ ولهذا كان ختام الآية ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ .

إن محمداً ﷺ كانت حياته خالية من الخوارق ، انتصر عليه الصلاة والسلام حين أعد كل مقومات النصر فى المعارك ، وأصيب هو وأصحابه حين حصل فى التصرف ثغرات كما حصل يوم أحد حين خالف الجيش أمر قائده ، وكما حصل يوم حنين حين أعجبت المؤمنين كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا . لم ينتصر محمد ﷺ بخارقة من الأحداث كما انطبق البحر على قوم فرعون فأغرقهم ، وكما غمر الطوفان قوم نوح فأهلكهم ، وكما دمرت الريح عاداً وكما أهلكت الصيحة ثمود ، وكما قلعت مدينة قوم لوط ، ما حصل لمحمد ﷺ شيء من هذا ، ومات عليه الصلاة والسلام دون أن يدمر قومه ، لقد كانت كل خطوات دعوته تدريجية حين تحمل الأذى ثلاث عشرة سنة ، ثم تحول إلى المدينة مهاجراً بدينه ، ثم انتصر في بدر ، وأصيب فى أحد ، كانت كل قوته منبعثة من إيمانه العظيم ، ومن أخلاقه التى أكرمه الله بها ، وهذا أكبر دليل على أن دين محمد هو دين الإنسانية الناضجة التى شبت عن طوق الخوارق ، وبلغت سن الحكمة ، وحسبك دليلاً على ذلك أن معجزة محمد الكبرى هى كتاب علم ، كله حثٌّ على التفكر والتدبر والعمل . إنها معجزة لا تحير العقل ولكنها تنيره ، ومن خصائصها : أنها لم تنته كما انتهت معجزات الرسل بهلاك أممهم لكنها أنزلت لتبقى ما بقيت السموات والأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

حقيقـة الدنيــا

هذه ثلاث آيات من سـورة يونس تحكى بالأسلوب الخـاطف قـصـة الدنيـا والآخرة ، وليس كالقرآن فى القدرة على الإيجاز والإطناب ، والإيجاز فى القرآن من السمات البلاغية البارزة ، وهنا حكايتان عظيمتان فى بضعة أسطر .

بسم الله الرحـمن الرحـيم : ﴿ إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاة الـدُّنـيَا كَمَاء أنـزَلـنَاهُ منَ السَّمَاء فَاخـتَلَطَ به نَبَاتُ الأرض ممَّا يَأكُلُ النَّاسُ وَالأنعَام حتَّى إذَا أخَذَت الأرضُ زُخرُفَهَا وَازَّيَّنَت وَظَنَّ أهلُهَا أنَّهُم قَادرُونَ عَلَيهَا أتَاهَا أمرُنَا لَيلاً أو نَهَاراً فَجَعَلنَاهَا حَصيداً كَأن لَم تَغـنَ بالأمـس كَذَلكَ نُفَصّلُ الآيَات لقَوم يَتَفَكَّرُونَ* وَاللهُ يَدعُو إلَى دَار السَّلاَم وَيَهدى مَن يَشَاءُ إلَى صرَاط مُستَقيم * للَّذينَ أحسَنُوا الحُسنَى وَزيَادَةٌ وَلاَ يَرهَقُ وُجُوهَهم قَتَرٌ وَلاَ ذلَّةٌ أولَئكَ أصحَابُ الجَنَّة هُم فيهَا خَالدُونَ ﴾ (يونس : ٢٤ ـ ٢٦) .

أقـول وأسـأل الله أن يكتب لنا وإياكم دار السـلام ويهـدينا إلى صـراطه المستقيم، ويصون وجوهنا عن القتر والذلة .

أولاً : الحياة الدنيا قصتها خاطفة ، ومن ثم فلا يغتر بها إلا كل أحمق قصير النظر ، أما أولو الألباب فينظرون إلى هذه الحياة على أنها دار ممر ومزرعة عمل ، يمر المرء منها إلى الدار الآخرة ، وقد حمل معه ما يسره الله له من عمل . والآية الأولى تشبيه تمثيل فى قمة الإعجاز ، ومما يذكر أن كلمة ﴿مثل﴾ فى القرآن الكريم تعنى تشبيه أمر يفتقر إلى الوضوح بأمر أشد منه وضوحاً ، وهنا يضرب الله مثلاً للحياة الدنيا وكيف تتبرج لبعض الناس وتقبل عليهم حتى إذا وصلت إلى القـمـة فى معطيات الملذات وبهرج الشهوات إذا الموت يقضى على كل زخرفها فى لحظة واحدة ،

فترى عبارة الحياة الدنيا هى المشبه ، أما المشبه به فهو ماء نزل من السماء فصادف أرضا خصبة معطاء ، فلما خالط النبات أخرج شطأه وآزره المطر بالسقيا والأرض بالجودة ، فاستغلظ فاستوى على سوقه، ولم يزل يزين الأرض بروعة الخضرة وجمال الخصب حتى بلغ القمة ، وبدت الأرض به كالحسناء التى أخذت زخرفها ، وتجملت بأروع الزينة ، وبينا أهلها يفكرون فى الحصاد والغنى والثمار صدر أمر الله بليل أو نهار ، وإذا هى فى ساعة واحدة حطام مهشم قد احترق ثمره ، وتفحمت نضرته كأن لم يكن له وجود بالأمس ، فيا لبؤس حال أصحابه حين جاؤوه فلم يجدوا إلا منظراً تقطعت له نياط قلوبهم !! .

ثانياً : هذا التشبيه عجيب حقاً ، فهنالك الماء الذى نزل من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس من الحبوب والخضر والشجر المثمر ، وهنالك الكلأ الذى تأكله الأنعام ، كل هذا النبات ثار من الأرض حين أحس بتوفر البيئة الخصبة فنما وسمق على سوقه حتى كان آية فى الخصب ، هذا المشبه يصور قصة الحياة الدنيا حين تقبل على بعض الناس بكل إمكاناتها وعطائها وزينتها ومباهجها وترفها ، وبينا هى فى قمة الغنى إذا هى فى لحظة واحدة لاشىء . وكلمة ﴿ **كَأَن لَّم تَغْنَ بِالأَمْسِ** ﴾ مأخوذة من غنى بالمكان يغنى ، أى أقام وسكن فى نعمة ، ومن ذلك كلمة المغانى ، ومعناها : المساكن الآنسة ، وفى القرآن الكريم ﴿ **كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا** ﴾ أى كأن لم يسكنوها فى أنس ونعمة .

ثالثاً : هنالك ألفاظ فى الآية لها إيقاع فى غاية الجمال منها ما يلائم العطاء المتبرج ، ومنها ما يلائم الدمار المفاجئ . فمن الأولى ، قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَت وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ**

عَلَيهَا ﴾ أى واعتقد أهلها أن الحصاد أو القطاف أمر مؤكد يمكنهم أن ينفذوه متى شاؤوا . ومن الألفاظ المروعة المعبرة عن الدمار قوله تعالى : ﴿أتَاهَا أمرُنَا لَيلاً أو نَهَاراً فَجَعَلنَاهَا حَصِيداً كَأن لَم تَغنَ بالأمس﴾ ، إنها تصوير للدمار المفاجئ الذى يجتاح النعمة فلا يبقى لها أثراً ، وما أجمل ختام الآية الملائم للسياق ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ ومعناها نحن نعرض للناس هذا المثل ليتفكر كل حى فى عواقب أمره ، ولا يغتر بعاجل غناه ، فالعبرة بالخواتيم ، نسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين خاتمة السعادة ولطفا فى ما تجرى به المقادير .

رابعاً : بعد أن ذكر الله جل جلاله قصة الحياة الدنيا وخاتمتها المرعبة ، ذكر داراً أخرى أجل وأسمى من كل ما توفره العاجلة ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَاللهُ يَدعُو إلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهدِى مَن يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُستَقِيم ﴾. ومعناها : أن الله عز وجل إذ يحذر من غرور الحياة الفانية المليئة بالمصائب والترويع ، يدعو إلى دار كلها أمن وسلام وسعادة ، وهو يهدى إليها عباده الصالحين الذين يتبعون صراطه المستقيم غير مغترين بما توفره الدنيا الفانية لأهلها من نعيم زائل ، ودار السلام كناية رائعة عن الجنة وقد سماها كذلك ؛ لأن أبرز نعيمها هو السلام والطمأنينة والسكينة الهانئة فى القلوب . إن الجنة هى دار السلام وتحية أهلها فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ليهنئوهم بالمنزل المبارك وليقولوا لهم ﴿ سَلاَمٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرتُم ﴾ ، بل إن الله جل جلاله من عالى مقامه ليتيح لأهل الجنة وقتا يكون عندهم أغلى من كل نعيم الجنة حين يتجلى عليهم فيرونه ويقول لهم : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيكُم ﴾ ، هذا الوقت يتطلع

إليه أهل الجنة ، ويدعونه أى يطلبونه . إنه الرضوان الأكبر [١] وهو أسمى من المطاعم والمشارب وكل الملذات ﴿ لَهُم فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَولاً مِّن رَّبٍ رَّحِيمٍ ﴾ ، بل إن الملائكة لتبشر المؤمنين أهل الاستقامة بتلك اللحظات السعيدة وهم يحتضرون ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُم تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُم فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُم وَلَكُم فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِّن غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت : ٣٠ ـ ٣٢) ومعناها : ضيافة لكم فى رحاب ربكم يحييكم أثناءها بالسلام ، اللهم ياذا الجلال والإكرام حيِّنا وإخواننا المسلمين بالسلام ، إنك أنت السلام، وجنتك دار السلام، وتحيتك المباركة الطيبة هى السلام .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُم قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ إكمال للبشرى التى ساقها الله إلى أهل الاستقامة والهداية ، إنه يبشرهم بأن جزاء إحسانهم سيكون الحسنى وزيادة ، أى أنهم سيرون ثوابهم هو الحسنى ، والحسنى اسم تفضيل فإحسانهم سيجزى بالأحسن ، وحسنتهم ستضاعف بالحسنى وزيادة ، ومع أن موقف الحشر مهول ، ومخوف يطول يومه ، وتغلى الأدمغة فى شمسه ، ويغرق الناس فى العرق ، إلا أن السعداء الذين فضلوا دار السلام على دار الغرور لا يغشى وجوههم غبار ولا

---

(١) وروى مسلم فى صحيحه عن صهيب ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى : « تريدون شيئا أزيدكم » فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟! قال فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل ».

يتعرضون لمواقف الذلة ، والزيادة التى فى الآية هى ما أشرنا إليها من رؤية وجه ربهم . وقد خرج النسائى عن صهيب أن رسول الله ﷺ سئل عن الزيادة فقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم موعداً عند الله يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ألم يبيض الله وجوهنا ويثقل موازيننا ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر ولا أقر لأعينهم» .

اللهم يارب أذقنا حلاوة الإيمان ، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم .

آيات تثبت فؤاد النبى وتدفع الشك عن أمته

هذه خمس آيات من سورة يونس فيها مسائل تحتاج إلى جلاء وإيضاح ، ولعلى إن شاء الله أوفق فى إيضاح مراميها وإشاراتها البلاغية والمعنوية .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٥ ـ ٩٨] .

هذه الآيات فيها أمور لابد من الوقوف عندها وتأملها وخصوصاً قوله تعالى مخاطباً رسول الله ﷺ : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ ، ومع أن رسول الله ﷺ قال حين نزلت الآية : «لا أشك ولا أسأل» ، إلا أن الآية لا تخلو أن تكون من المتشابه الذى يحتاج إلى إيضاح ، فأقول وبالله العون والتوفيق والفتوح :

أولاً : هذه الآية نزلت فى وقت كان رسول الله ﷺ فيه فى غاية الشدة والضيق والبلاء ، لقد نزلت بعد حادثة الإسراء حين ارتد بعض ضعاف الإيمان، وكان عام الحزن الذى توفى فيه أبو طالب وخديجة رضى الله عنهما ، وتلك أمور شديدة لابد أن قلب رسول الله ﷺ يتأثر بها ؛ ولهذا أراد الله أن يبين لمحمد ﷺ أن نبوته مثبتة فى الكتب السماوية ، وأن أهل الكتاب

يعرفون نبوة محمد معرفة لا تقل عن تأكد محمد من نبوته وتأتى إن بمعنى لو ، فتكون حرف امتناع للامتناع ، ولهذا ختم الحق جل جلاله الآية بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين ﴾ والممترى : هو المشكك ، ومحمد ﷺ لا يحيد عن أمر القرآن ، ومن ثم فهو لم يمتر ولم يسأل؛ لأن إيمان محمد ﷺ رغم الشدائد الجائحة والإيذاء العنيف لا يمكن أن يتطرق إليه الشك ، والتعبير فى الآية الكريمة ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِك ﴾ ما هو إلا لون من أساليب التوكيد التى تستعمل فى اللغة العربية ، يؤكد به جل جلاله أن رسالة محمد هى فوق الشك ، وأن علماء أهل الكتاب يعرفونها ويتأكدون من صدقها كمعرفة محمد لرسالته وتأكده من صدقها . وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة إن علماء أهل الكتاب يعرفون من صدق نبوتك المثبتة فى كتبهم ، مثل الذى تعرفه أنت ، إنهم يعرفون وصفك ونبوتك كما يعرفون أبناءهم ؛ ولهذا فلو أن شكاً تسرب إليك على أثر ما تلقاه من هموم وشدائد ، لرأيت درءا لهذا الشك عند علماء أهل الكتاب ، إن رسالتك هى الحق من عند الله فإياك أن ينزغك نزغ الشيطان فيسرب إلى قلبك الشك .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِين ﴾ تحذير لمحمد ﷺ ولكل مسلم أن يغتروا بالمكذبين فيتبعوهم فيكتبوا فى الخاسرين ، ومع أن محمداً ﷺ معصوم من التكذيب بآيات الله ، لكن الله يثبت بالقرآن فؤاده فتراه يخاطبه فى آخر سورة القصص ـ وهى سورة نزلت قريباً من سورة يونس فى التوقيت ـ ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ * وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى

رَبِّكَ وَلاَ تكُونَنَّ منَ المُشركينَ * وَلاَ تدعُ مَعَ الله إلَهاً آخرَ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجهَهُ لَهُ الحُكمُ وَإلَيه تُرجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٦ ـ ٨٨] تحذير لمحمد ﷺ من أمور هو معصوم منها تثبيتاً لفؤاده ، وخطاباً فى الوقت نفسه لأمته؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قدوة المؤمنين .

ثالثاً : قوله تعالى ﴿ **إنَّ الَّذينَ حقَّت عَلَيهم كَلمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤمنُونَ وَلَو جَاءَتهُم كُلُّ آيَةٍ حتَّى يرَوا العَذَابَ الأليمَ** ﴾ تعريض بمصير فرعون وأهل الشقاء، وتقريع للمشركين الذين يطلبون من محمد ﷺ معجزات خارقة . إن فرعون قد رأى بأم عينه تسع معجزات لموسى عليه السلام ، ومع ذلك حق عليه العذاب ولم تنفعه الآيات ؛ وذلك لأن فى سنن الله الحكيمة أن الأشقياء فى علم الله لا تغنى عنهم الآيات والنذر ، ولا يمكن أن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، وذلك ما حدث لفرعون ، ولمن قبله من قبائل العرب البائدة كعاد وثمود ، ومن هنا فمطالبة المشركين بمعجزات خارقة، ما هى إلا نوع من الجهل والتنطع ؛ وذلك لأن هذه المعجزات لم تفد الأمم السابقة التى حق عليها العقاب كعاد وثمود وقوم موسى ، ومن هنا فالرب جل وعلا يؤكد للمشركين أن الآيات الخارقة قلما هدت قوما، وعلى العرب أن يؤمنوا بالآية المعجزة البينة التى ليس فيها خرق للعقول لكن فيها نوراً للقلوب ألا وهى القرآن ، ومن ثم فالمطالبون بمعجزة خارقة من محمد هم قوم جهلوا الحقائق ﴿ **وَلَو أنَّنَا نزَّلنَا إلَيهمُ المَلائكَةَ وَكلَّمهُمُ المَوتَى وَحَشَرنَا عَلَيهم كُلَّ شيءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا ليُؤمنُوا إلاَّ أن يَشَاءَ اللهُ وَلَكنَّ أكثَرَهُم يَجهَلُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١١].

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **فَلَولاَ كَانَت قَريَةٌ آمنَت فَنَفَعَهَا إيمَانُهَا إلاَّ قَومَ يُونَسَ لَمَّا آمنُوا كَشَفنَا عَنهُم عَذَابَ الخزي فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَمَتَّعنَاهُم إلَى حين** ﴾

معنى هذه الآية : هلا آمنت تلك القرى التى بعث فيها الأنبياء ؟! وهلا صدقت رسلها لينفعهم إيمانهم وليصرف عنهم عذابهم ؟! إنهم لم يفعلوا ذلك إلا قرية واحدة كانوا فى علم الله الأزلى من السعداء الناجين؛ ولهذا فقد آمنوا فى آخر لحظة قبل وقوع العذاب فنجوا وكشف الله عنهم العذاب المخزى الذى كان ينتظرهم ومتعهم الله جل جلاله بما تبقى من أجلهم فعاشوا سعداء. وقصة قوم يونس عليه السلام تتلخص فى أنهم كانوا من أهل نينوى ، فبعث الله لهم نبيهم يونس عليه الصلاة والسلام فمكث فيهم فى بعض الروايات تسع سنين ينذرهم عذاب الله وهم فى شك وعناد . وهنا قال لهم : إن عذاب الله جل جلاله سيأتيكم بعد ثلاثة أيام وله مقدمات سوف ترونها ، فخافوا خوفاً شديداً ، وبحثوا عن يونس عليه السلام فوجدوه قد خرج من قريتهم ، فقالوا : عهدناه صادقاً فآمنوا، ولم يستمروا فى المعاندة كما فعلت عادت قوم هود حين رأوا العذاب مستقبل أوديتهم فقالوا : هذا سحاب سيمطرنا ، واستمروا على عنادهم حتى وصل إليهم، وإذا هو ريح صرصر فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . لو أجل قوم يونس الإيمان يوماً واحداً لما نفعهم إيمانهم ؛ لأن من يؤمن حين يرى العذاب لا ينفعه إيمانه . ألا ترى أن فرعون حين أدركه الغرق آمن بأنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل فلم ينفعه ذلك الإيمان ؛ لأنه جاء بعد أن أتت آية العذاب ﴿ **يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْراً** ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

نسأل الله أن يكتبنا فى السعداء ويصرف عنا العذاب ، وينفعنا بالنذر والآيات ، ويكتب لنا فى الدنيا والآخرة عليا الدرجات .

من دلائل الإعجاز الإلهى

هاتان آيتان من سورة هود تتيحان للمتكلم والمستمع جلسة متأملة فى رحاب الإيمان ؛ لما اشتملتا عليه من دروس التوحيد ، ودروس البلاغة ، وقصة الإيمان ، وروعة الإعجاز العلمى .

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ وَمَا من دَابَّةٍ فِى الأرض إلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا وَيَعلَمُ مُستَقَرَّهَا وَمُستودَعَهَا كُلٌّ فِى كتَاب مُّبِينٍ * وَهُوَ الَّذى خلَقَ السَّمَوَات وَالأرضَ فِى ستَّة أيَّامٍ وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاء لِيبلُوَكُم أيُّكم أحسَنَ عَمَلاً وَلَئِن قُلتَ إنَّكُم مَّبعُوثُونَ من بَعد المَوت لَيَقُولَنَّ الَّذين كفَرُو إن هَذَا إلاَّ سحرٌ مُّبِين﴾** [هود : ٦ ـ ٧] أقول وأسأل الله إيماناً راسخاً تقبل به الأعمال ، ونصراً لأمة محمد تحقق به الآمال :

أولاً : هاتان الآيتان هما من سورة هود ، وسورة هود وأخواتها شيبن رسول الله ﷺ قبل أوان الشيب ، ويبدو أن سورة هود شيبت رأس الرسول الكريم ؛ لاشتمالها على مصارع الأمم السابقة التى كذبت أنبياءها ، فحق عليها قول ربها وصدرت إرادته الحكيمة بإهلاكها ، لقد اشتملت على قصص مروعة للمصائر التى لقيها قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وتختم بمصير قوم موسى وهم آل فرعون ، وهذه القصص أوردها الحق جل جلاله فى شيء من البسط والتفصيل مما يجعل لها وقعا مؤثراً فى نفوس من يرتلون السورة فى تدبر وتفهم واعتبار.

ثانياً : سورة هود نزلت فى عام الحزن ، واقترنت بأشد أنواع الإيذاء ، حتى لقد تجرأ السفهاء على رسول الله ﷺ بعد وفاة أبى طالب فلقيه أحدهم فوضع على رأسه تراباً ، فلما وصل رسول الله ﷺ إلى بيته وقد غير التراب شكله

أقبلت إحدى بناته تبكى وتنفض التراب عن رأسه ، تبكى لهذا الإنسان العظيم الشريف الذى ينال منه السفهاء هذ المنال ، فيقول لها رسول الله ﷺ : « لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك وحافظه » ، فنزلت سورة هود تحمل فى طياتها إنذاراً لقريش أن تصيبهم بما صنعوا قارعة كتلك القوارع التى دمرت عتاة الكفر من عهد نوح إلى عهد موسى ، فلا غرو أن شاب رأس رسول الله ﷺ من هود وأخواتها ؛ لأنها نذر بين يدى عذاب شديد ، ولأن فى كل كلمة من كلماتها نبض الوعيد .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا من دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ آية من أعظم دلائل العظمة والقدرة والعلم الإلهى ، فكل دابة تدب على الأرض من إنسان أو حيوان أو طير أو حشرة لها عند الله جل جلاله سجل محفوظ فى كتاب لديه شديد الوضوح، وقد تكفل ربنا جل جلاله برزقها لا كفالة وجوب ، لكنها كفالة مَنٍ وكرم ، وقد سجل الله تبارك وتعالى فى سجلها كم تستقر على سطح الأرض ، وكم من الزمن تستودع داخل الأرض . إنه يعلم عمرها فى الحياة وفى البرزخ ، كل هذا فى سجل عظيم ! الله أكبر حين يتصور المؤمن كم على الأرض من دواب لا تحصى ، ومن ثم كم تكون سعة الكتاب المبين الذى سجلت فيه أرزاقها وآجالها .

رابعاً : الآية لا تعنى دعوة المخلوقات إلى الكسل عن طلب العيش ، لكنها تدعو الإنسان أن يتدبر أمر المخلوقات ، كيف يأيتها رزقها بأمر الله ثم بسعيها، كما تطمئن الإنسان أن رزقه فى السماء مكتوب وهو آتيه لا محالة ، فمن ثم عليه أن يطلبه فى غير حرص شديد ، ولا رهق مرهق ، ولا طمع مرد ، ولا وسائل ممقوتة محرمة .

خامساً : فى الآية أسلوب حصر ، فقد قصر رزق الأحياء على ربهم لكى لا يعّبدوا أنفسهم إلا لخالقهم ، وإذا أدرك المؤمن أن رزقه فى السماء ، وأن أجله فى الكتاب ، فقد تلاشت من نفسه كل أسباب الخوف والعبودية ، وعرف رسالة خلقه وهى أن يعبد الرزاق ذا القوة المتين . وكلمة ﴿ **كل** ﴾ تشير إلى الرزق والمستقر والمستودع . والكتاب المبين هو : اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة .

سادساً : ثم تأتى الآية الثانية العظيمة مضيفة إلى الآية الأولى عظمة خلق الله ، وأن هذا الخلق يهدى الإنسان إلى خالقه فينجح فى اختباره ويؤمن أن الذى أنشأه أول مرة على غير مثال قادر أن يبعثه بعد أن عرفت صورته وسمته ﴿**وَهُوَ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَات وَالأرضَ فى ستَّة أيَّامٍ وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاء ليَبلُوَكُم أيُّكم أحسَنُ عَمَلاً ولَئن قُلتَ إنَّكُم مَبعُوثُونَ من بَعد المَوتَ لَيَقُولَنَّ الَّذين كَفَرُو إن هَذَا إلاَّ سحرٌ مُّبين**﴾ . هذه الآية تتطلب وقفة متأنية متدبرة ؛ لأنها تتحدث عن بدء الخليقة وتبين أن عرش الله جل جلاله كان على الماء ، فخلق السموات والأرض فى ستة أيام ليبلو بنى آدم أيهم أحسن عملا . وهنا أمور تشير إليها الآية لابد من إيضاحها .

أولهـا : كان عرشه جل جلاله على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض .

ثانيهـا : أنه خلق السموات والأرض ليبلو الناس أيهم أحسن عملا .

وثالثها : أن الكافرين ينكرون البعث مع أنه أهون من النشأة الأولى .

بخصوص الأولى ﴿ **وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ** ﴾ يجب أن نؤمن بكل كلمة قالها ربنا دون انتظار أن يؤيدها ما يسمى بالعلم الحديث ؛ لأن العلم الحديث نفسه ـ وخصوصاً ما يتعلق ببدء الخليقة وبخلق السموات والأرض ـ لا يزال

فرضيات قابلة للنفى والإثبات . وقد وقع فى تفكيرى ، وأسأل الله التوفيق والسداد أن الكون كله كان ماء يحمل عرش الرحمن ، وأن الرب جل جلاله حين صدرت مشيئته بخلق السموات والأرض وبخلق الإنسان شكل ذلك الماء بحيث يسخر لحاجات الإنسان ، ومن هنا خلق الأرض ، وأكرمها بالماء الذى جعل منه كل شىء حى ، وملأ به محيطات الأرض وبحارها وأنهارها ، وملأ جوها بعنصر رئيسى من عناصر الماء وهو الأكسجين ، والحق أن الأرض لها منزلة عظيمة عند الله ، فقد خلقها وقدر فيها أرزاقها وبارك فيها فى أربعة أيام من الستة التى خلق فيها السموات والأرض ، وإنما خصها بكل هذا الوقت ؛ لأنه يعيش عليها أكرم المخلوقات على الله وهو الإنسان .

لقد أراد الله جل جلاله أن يعرف عن طريق العقل ويعبد أيضاً ويوحد عن طريق العقل ، فخلق الإنسان ومنحه العقل الموصل إلى الحقائق ، وسخر الله ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وأسكنه الأرض مستخلفاً ليعمرها .

ومما يؤكد عظمة شأن الأرض عند الله أن العلم الحديث حتى الآن وعلى كثرة السفن الفضائية وصورها لم يتوصل على وجه التأكيد إلى وجود الماء فى أى كوكب ، ويقينا أنه غير موجود فى النجوم ؛ لأنها كتل نارية ومن هنا كانت الأرض أجمل جرم من مخلوقات الله بما فيها من حياة وحدائق وأنهار وبحار ومحيطات تموج بالمياه والخضرة . وقادر ربنا جل جلاله على معالجة الماء ليخلق منه كتلاً نارية ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : ٦] أى اشعلت ناراً ولعل هذا هو ما حصل حين كان عرشه على الماء ، فقد خلق من الماء كل شىء حى وأبقى بعضه ماء ، وحلل بعضه ليكون جو الأرض كما خلق النار من الماء، وهى التى تكون الشمس والنجوم ، لقد حول جزءاً من الماء إلى دخان كون منه السموات أول الأمر ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ

دُخَانٌ﴾[فصلت : ١١]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ إن هذا الإنجاز الهائل يثبت أنه جل جلاله قادر على أن يبعث الموتى ، ومع كل هذه البراهين ترى الكفار من بنى الإنسان ينكرون البعث وإذا قلت لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت استغربوا ذلك وقالوا عن القرآن هذا سحر مبين !

طرف من قصة نوح عليه السلام

هذه آيات من سورة هود ختمت بها قصة قوم نوح حين أخذهم الطوفان فهلكوا بذنوبهم وهى خاتمة ذات دروس وعبر ، يجدر أن نقف عندها ونتأملها لعل الله يشفى بها صدرونا ويتم بها نورنا .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٥ ـ ٤٩] .

أقول وأسأل الله لى ولإخوانى المسلمين أن ينفعنا بسير الأنبياء ، ويجنبنا مصائر الأشقياء ، ويكتبنا فى الدنيا والآخرة من المباركين السعداء والموفقين العتقاء .

أولاً : نوح عليه السلام من أولى العزم من الرسل ، تحمل فى سبيل دعوته ما لا تطيقه الجبال من الأذى ، فقد اشتهر قومه بالظلم والطغيان والعناد ، كانوا يضربونه حتى يتركوه مغشياً عليه، وكانوا ربما وقذوه ـ أى ألقوه ـ من حالق فظل موقوذا حتى ينقذه بعض أولاده ، وضرب فى الصبر رقما قياسياً ؛ إذ صبر على البلاء تسعمائة وخمسين عاماً إلى أن صدر أمر الله وقضاؤه الحكيم بإهلاك أولئك الجبابرة غرقا فى طوفان هائل فار من

تنور، فسبحان مخرج الماء من النار، وأنجى الله نوحاً والقلة المؤمنة التى معه فى فلك صنعها نوح بيديه وحده ، وهلك من ضمن الهالكين ولد لنوح قيل اسمه يام ، وتقطع قلب أبيه حين رأى الموج يحول بينهما ورآه يغرق ويلفظ أنفاسه ونوح عليه السلام بشر وأب والابن بالنسبة لأبيه عالم من الحب العظيم ، لم ينس نوح عليه السلام ذلك المشهد وظلت نار الأسى فى قلبه يذكيها حنان الأبوة حتى إذا نفد قضاء الله فى الظالمين ، وبلعت الأرض ماءها ، وأقلعت السماء ، وغيض الماء ، وقضى الأمر، ورست الفلك على جبل الجودى فى ناحية الموصل ، وانتهت قصة الكافرين على تلك الصورة الهائلة ، هنالك ذكر نوح ابنه ، فدعا ربه قائلاً: ﴿ **رَبِّ إِنَّ ابنِي مِن أهلِي** ﴾ وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى ووعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . ومع أن الكلام خبر إلا أنه خبر بلاغى غرضه الدعاء، فهو يدعو ربه وإن لم يطلب صراحة ، ويثنى على الله بصفاته العظيمة بأنه وعده الحق ، وأنه أحكم الحاكمين ؛ بمعنى أن أحكامه هى أعدل أحكام وأعظمها حكمة .

ثانياً : فى الرد الإلهى العظيم على سيدنا نوح عليه السلام قول فصل وحكمة بالغة ﴿ **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ الله أكبر كيف يكون ابنه الذى من صلبه ليس من أهله ؟ إنه إعلان من الرب جل وعلا ألا قرابة إلا قرابة الإيمان، وكل ما عداها لغو ، فما ترى قوماً رسخ الإيمان فى قلوبهم يمكن أن يمنحوا حبهم وودهم إلى من يعادى الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ؛ لأن الإيمان الذى نقش فى قلوبهم، والروح الإلهى الذى يثبتهم، والجزاء الكريم الذى ينتظرهم ، كل هذه تملأ نفوسهم بحب الله ورسوله ، وإذ ذاك يهجرون

كل من يعادى حبيبهم الأعظم ولو كانوا أبناءهم ومهج قلوبهم . إن كل عمل غير صالح يجب على المؤمن أن يبرأ منه حتى ولو كان فلذة كبده ، ومن هنا كان الأسلوب الإلهي في الرد على نوح لا يخلو من شدة في التربية والتأديب ﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ومعناها : لا تطلب منى شفاعة فى أمر يخالف السنن الإلهية، وإنى إذ أنهاك عن ذلك ، فإنما أفعله خشية أن تنحدر إلى مستوى الجاهلين الذين يزنون الأمور بالعواطف .

ثالثاً : وفي الحال آب نوح عليه السلام واستغفر استغفاراً من أعظم مأثور الدعاء ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ومعناه : ألجأ إليك ، وأحتمى بحماك أن أكون جاهلاً ، وقد أخطأت فى سؤالى فاغفر لى وارحمنى وإلا كانت حياتى كلها خسراناً .

رابعاً : حين رست السفينة كان كل من فيها مؤمنين ، كانوا قلة ، ولكنها عند الله قلة مباركة ، ومن ثم ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وقد بنى الفعل قيل للمجهول ، لأن القائل معروف جل جلاله ولأن العبرة بالأحداث ، وقد تكرر بناء الأفعال فى هذا السياق للمجهول كقوله : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾، ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ ، ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ لأن الضوء مسلط على عظمة الحكم الألهى ؛ ولأن الفاعل معلوم حق العلم ، وإن بنى فعله للمجهول . وفى هذه الآية أسلوب رقيق فى خطاب نبى الله نوح ؛ لأنه عليه السلام تاب فى الحال وأناب واستغفر ودعا ، ومن هنا ففى الآية بشائر بأن الله يبارك نوحاً ومن معه ، أما ذريته فسوف يمتعهم إلى أجل ، ثم تمضى فيهم السنن

الإلهية التى يمضيها الله فى كل من يقابل النعمة بالكفران .

خامساً : الآية الأخيرة هى خلاصة درس إلهى لمحمد ﷺ ، وهى على إعجاز عظيم يسمى الإعجاز الغيبى ، فالقرآن يشتمل على أنباء من الغيب ما كان يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام ولا قومه من قبل نزول القرآن .
وقد سكت المشركون المعاندون وهم يقرؤون هذه الآية فلم يقولوا : إن قصة نوح وقومه ومصرع قومه وولده كانت معروفة لدينا ؛ مما يدل على أن القرآن الكريم هو من عند الله ، وإلا فكيف تأتى لمحمد النبى الأمى أن يعرف تفصيلات الغيب الدقيقة الواردة فى قصص الأنبياء ؟! ما أجمل وأروع هذه الآية الختامية للقصة وهى موجهة إلى محمد تأمره أن يصبر كما صبر نوح وأولو العزم فكانت العاقبة والنصر لهم ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

بين منطق الإيمان الواضح
ومنطق الكفر المتبجح

هذه آيات من سورة هود تحكى قصة نبى الله هود ، وهى نموذج لكل قصص الأنبياء ، وما يتجلى من منطق الرسل متدفقاً بالرفق والأدب ، والموضوعية والكلام الطيب ، وما يقابله من منطق الكفر عارماً بالغوغائية والبجاحة وغرور القوة . وإنى مورد إن شاء الله هذه الآيات ، ومتبعها بسرد موجز واف لقصة هود وقومه عاد وبلده إرم ذات العماد .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : ٥٠ ـ ٦٠] .

أولاً : كانت قبيلة عاد تسكن فى إقليم حضرموت على موازاة سلسلة جبال

الأحقاف الممتدة من اليمن إلى خليج عمان فى جنوب الجزيرة العربية ، وكانوا قوماً ضخام الأجسام أولى قوة وبأس شديدين ، فاستغلوا قوتهم فى الظلم والسلب والنهب ، ولما امتدت نعمتم خرجوا من بيوت الشعر وبنوا عاصمتهم إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وقد بعث الله فيهم نبيهم هوداً وهو أول نبى بعد نوح وكان عليه الصلاة والسلام مشهوراً بالحلم والأدب ورقة الشمائل ، فدعا قومه إلى ترك عبادة الأصنام بأسلوب فى غاية الأدب والرفق . قال : ﴿ يَا قَومِ اعبُدُوا الله مَالَكُم مِّن إلَهٍ غَيرِهِ ﴾ إنكم باتخاذكم الأصنام تفترون على الله الكذب ، وكانت لهم أصنام ضخمة يعبدونها ، من بينها : صنم هائل يقال له الهتار ، ومن مظاهر حلمه أنهم لما قالوا له : ﴿ إنَّا لَنَرَاكَ فى سَفَاهَةٍ ﴾ لم يزد على أن قال لهم : ﴿ يَا قَومِ لَيسَ بِى سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُم رِسَالاَتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِين ﴾ ولم يجبهم بمثل بذاءتهم فيقل لهم بل أنتم السفهاء . ثم ذكرهم بنعم الله عليهم وأنه زادهم ضخامة فى الأجسام وبسطة فقالوا له : كيف نترك معبودات آبائنا لنعبد إلها واحداً ؟ وإذ ذاك خوفهم من عذاب الله فقالوا له : إن كنت صادقاً فأتنا بما تعدنا من العذاب ؟ وعندئذ دعا عليهم ، فأصدر الله جل جلاله عليهم حكمه العادل بأن يهلكهم بريح عنيفة كانت تطير بهم فى الجو فينزلون منقلبين على رؤوسهم ، فتندق أعناقهم ويموتون . ولما أخبرهم هود بالمصير الذى ينتظرهم استهزؤوا به . والغريب أنهم ظلوا مصرين على الكفر حتى حينما شاهدوا العاصفة مقبلة عليهم من وراء الأودية ، ولما رأوا السحاب مستقبل أوديتهم قالوا هذ سحاب سيمطرنا ، وهنا قال لهم هود عليه السلام : ﴿ بَل هُوَ مَا استَعجَلتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شىءٍ بِأَمرِ رَبِّهَا فَأَصبَحُوا لاَ يُرَى إلاَّ

مَسَاكِنهم ﴾ [الأحقاف : ٢٤ ـ ٢٥] لقد كان منظرهم منظراً يروع القلوب ، فقد بدوا فى الساحة المنكوبة منكوسين رؤوسهم فى الرمل، وأرجلهم فى الهواء . فيخيل للناظر إليهم أنهم نخل مخلوع من أسفله قد سقط فطار جريده ولم يبق إلا الجذوع ساقطة مقلوبة محترقة .

ثانياً : مما يلفت النظر فى القصص القرآنى ذلك الحوار الذى يدرو بين الرسل وقومهم ، وهو حوار تلمح فيه أسلوبين مختلفين جداً ، أما أسلوب الرسول فيتميز بالأدب والحلم وصدق الرغبة فى الإصلاح والهداية . انظر فى الآيات وهو يكرر كلمة ﴿**يا قَومِ**﴾ مرات ليبين لهم أنه أخوهم ، وأنه لا يمكن أن يرجو لهم غير الصلاح ﴿ **يَا قَومِ اعبُدُوا الله مَالَكُم مِّن إلَهٍ غَيرِه** ﴾ ، ﴿ **يَاقَومِ لاَ أسألُكُم عَلَيه أجراً إن أجرِىَ إلاَّ عَلَى الَّذى فَطَرَنِى**﴾ ، ﴿ **وَيَا قَومِ استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إلَيه يُرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيكُم مِّدرَاراً وَيَزِدكُم قُوَّةً إلَى قُوَّتِكُم** ﴾ . ويختم كلامه العذب المقنع بقوله : ﴿**فَإن تَوَلَّوا فَقَدَ أبلَغتُكُم مَّا أُرسِلتُ به إلَيكُم وَيَستَخلفُ رَبِّى قَوماً غَيرَكُم وَلاَ تَضُرونَه شَيئاً إنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىءٍ حَفِيظٌ**﴾ كلام يموج بصدق المقصد النبيل وسمو العاطفة المحبة ، ثم انظر إلى عجرفة العناد والجبروت المتغطرس فى كلام القوم : ﴿ **مَاجِئتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَن قَولِكَ** ﴾ ـ أى بسبب قولك ـ لابد أن بعض آلهتنا قد آذاك فأنت حاقد عليهم ، وهنا يقول لهم الرسول الكريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : إنى أشهد الله وأشهدكم أنى متبرئ من آلهتكم محتقر لها فاتحدوا أنتم وآلهتكم وكيدونى ، افعلوا كل ما فى وسعكم من أذى ولا تمهلون ، أى افعلوه الآن فإنى متوكل على الله ربى وربكم الذى يمسك بناصية كل حى ، وهو الذى يهدى إلى الصراط المستقيم. ورغم هذا الوعظ البليغ مضوا فى طاعة كل جبار عنيد ، وهنا جاء أمر

الله ، ومضت سنته فى إهلاك الظالمين ، فكانت الريح الصرصر العاتية التى تدمر كل شيء بإذن ربها ، وما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته بالياً متمزقاً ، واستمرت سبع ليال بثمانية أيام مشؤومة فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم .

ثالثاً : والنبى يبعث من أشرف القوم نسباً ، وأكملهم خُلقاً وخَلقاً وأوسعهم حلماً وفكراً ليكون وعاء صالحاً لشرف الرسالة ، وقد كان هود على السلام من أجمل الناس وأكملهم وأحلمهم ، وكان قبل الرسالة موضع ثقتهم واحترامهم ، ولكن حين جاءهم بالتوحيد والحق والهدى ردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا : ﴿**إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ**﴾ . وقد كان الرسل عليهم السلام إذا تجولوا فى مسرح الكارثة ورأوا قومهم صرعى كأعجاز النخل أو كهشيم المحتظر ، أو رأوهم غرقى فى الطوفان أو اليم تأثروا بالمنظر فيخاطبونهم وهم موتى : ﴿ **يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ** ﴾ لقد كنتم لا تحبون الناصحين . لقد عمر هود عليه السلام مائة وخمسين عاماً قضى معظمها فى الدعوة إلى الله فما وجد إلا الكفر والعناد ، هنالك لم يجد بداً أن يدعو عليهم وهو كاره لكى تمضى فيهم سنة الله التى لا تتبدل ألا وهى إهلاك الظالمين . اللهم إنا نعوذ بك من أن يحل بنا سخطك ، فاشملنا برحمتك واصرف عنا عذابك .

الملائكة تبشر إبراهيم وتهلك قوم لوط

بعد أن قص الله على رسوله محمد ﷺ فى سورة هود قصة نوح أتبعها بقصة هود مع قومه عاد ؛ لأنه أول نبى بعد نوح ، وأتبعها بقصة صالح مع ثمود ، وهى قصة تشبة قصة هود إلا أن عاداً أهلكوا بالريح حين طغوا بقوتهم ، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة حين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وهذه آيات من نفس السورة تحكى قصة إبراهيم وابن أخيه لوط عليهما السلام . وسندرس فى هذه الصفحات الآيات التى تحكى قصة إبراهيم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود : ٦٩ _ ٧٦].

أولاً : كان سيدنا إبراهيم عليه السلام أشبه الأنبياء برسول الله ﷺ خلقاً وخلقا ، وقد كان نبينا ﷺ يعبد الله على ملة إبراهيم ، وفى القرآن الكريم أكثر من أمر للنبى الكريم أن يتبع ملة إبراهيم حنيفا ، ويقتدى هو والمسلمون بسيرة إبرهيم . وفى حديث الإسراء يذكر النبى ﷺ أن إبرهيم أشبه الأنبياء به . كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام كريما لا يكاد يستقبل

الضيف حتى يصنع قراه دون أن يخبره ، وكان أواهاً ، أى كثير الحزن مما يذكر ذنوبه ، وكان حليماً يتحمل الأذى ويدفع بالحسنى .

ثانياً : بعث الله تبارك وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام نبيا لقومه بالعراق وقومه من الكلدانيين وهم موجة من الساميين سكنت العراق ، كانوا يعبدون الأصنام ، وكان أبو إبراهيم هو الذى يصنعها ؛ ولهذا فقد كانت عبادة الأصنام بالنسبة لوالد إبراهيم مصدر رزق ، ومن ثم فقد كان شديد الغضب على إبراهيم حين دعا إلى التوحيد . وقد هدده أن يرجمه ، وأمره ألا يريه وجهه ، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن قال له : ﴿**سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً**﴾ [مريم : ٤٧]ولا غرو فهو قدوة الأنبياء فى البر والأخلاق .

ثالثاً : كان على العراق أيام إبراهيم طاغية جبار اسمه نمروذ دعا الناس إلى عبادته ، فلما دعا إبراهيم إلى التوحيد ، وكسر الأصنام ، وأحرج قومه حين بين لهم عجز الأصنام وتفاهتها ، هنالك غضب نمروذ وأمر بإلقائه فى النار ، وجمع الناس ليوم مشهود ، وأعد المنجنيق وأوقدت نار هادئة ، ولشد ما كانت دهشة نمروذ حين رأى إبراهيم يوم التنفيذ رابط الجأش غير مكترث ، وقد روى أن جبريل قال لإبراهيم وهو يقذف فى النار : ألك حاجة لدينا ؟ فقال إبراهيم أما إليك فلا ، وأما إليه فعلمه بحالى يغنى عن سؤالى ، ونجح إبراهيم فى امتحان الإيمان ، فقال ربنا جل جلاله : ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ . وهنا خاف نمروذ وتعجب ، وقال لإبراهيم : ارحل عن بلادى لأنى لا أريد أن أفقد ملكى وأومن بك، فرحل هو وابن أخيه لوط إلى فلسطين ، فأقام هو فى بئر السبع ، وأقام لوط فى بلدة سدوم التى كانت فى موقع البحر الميت فى

غور الأردن .

رابعاً : وأمحلت تلك الديار فذهب إلى مصر ، وهنالك حاول ملك مصر أن يغصب منه زوجته ساره فشل الله يديه عنها ولم يعودا إلى طبيعتهما حتى دعا له إبراهيم ، وهنالك أكرم إبراهيم ، وعاد عليه السلام إلى فلسطين بمال وفير وبجارية وسيمة أهداها له ملك مصر وهى هاجر أم إسماعيل والعرب ، ولما وصل إلى فلسطين وافقت سارة أن يتزوج هاجر ؛ لأن سارة لم تلد له أولاداً فتزوجها وانجب منها إسماعيل ، ثم من الله على سارة وهى عجوز بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، كان إسماعيل أكبر من إسحق وهو الذى بلغ معه السعى وبنى معه البيت الحرام، وأقام بمكة بأمر من الله لحكمة عظيمة ، وهى أن يبعث من ذريته محمداً ﷺ فى العرب. أما إبراهيم فتوفى فى مدينة الخليل ودفن هو وسارة وبعض أولادهما وأحفادهما هناك .

خامساً : القصة التى تحكيها الآيات هى أن إبراهيم عليه السلام كان ذات يوم جالساً فى بيته ، فقدم عليه ثلاثة ضيوف فى غاية من الوجاهة والشخصية والوسامة فسلموا عليه فرد التحية ، وحالما جلسوا تسلل إلى أهله وأعد عجلاً مشويا وقربة إليهم، فلما رأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام خاف منهم ؛ لأن من عادة القوم أن من أراد أن يغدر أو يبطش بإنسان لا يأكل من طعامه ، فقال لهم إبراهيم: إنا خائفون منكم لأنكم لا تأكلون طعامنا، فقالوا له لا تخف نحن رسل ربك وملائكته وقد جئناك ببشرى ، وهى أن زوجتك سارة ستنجب لك إسحق نبيا ، ويكون من ذريته يعقوب نبيا ، فسمعت سارة البشرى فصاحت أنا عجوز وهذا زوجى شيخ كبير، وضربت وجهها بيديها على عادة النسوان ، فقال لها الملائكة :

﴿أتَعجَبِينَ مِنِ أمرِ الله﴾ وهو استفهام تعجبى إنكارى ، ومعناه : ما يكون لك أن تعجبى مادام الأمر من الله . وقد أصدر الله جل جلاله، هذا الأمر رحمة بكم وبركة من عنده عليكم ، وهو أهل الحمد والمجد . ولما ذهب الخوف عن إبراهيم وتلقى البشارة العظيمة سألهم : أين تذهبون الآن؟ فقالوا له : نحن مأمورون أن نتوجه من عندك إلى بلدة سدوم ، ولدينا من الله أمر أن نهلك القرية ، وذلك بأن نقتلعها من الأرض ونرفعها إلى حالق ثم نقذف بها ، وفى أثناء ذلك نمطر عليها حجارة من طين معلمة من الله ، كل حجر منها يقتل كافراً من القوم ، وسوف ننجى لوطاً والقلة التى آمنت معه وأهله إلا امرأته التى كانت تفشى أسرار ضيوفه .

سادساً : ولما كان يتمتع به إبراهيم من شفقة ورقة وعطف ، ظن أن فى الأمر وساطة ، وإذ هو عليه السلام يتوسط ويجادل فى قوم لوط ، ويطلب إمهالهم لعلهم يسلمون ، وهنا نبهته الملائكة أن أمر الله جل جلاله إذا صدر بالعذاب فلا يمكن أن يرد ؛ ولهذا فإن عليك يا إبراهيم أن تعرض عن هذا الأمر وتترك الجدل والوساطة لمن سبق الأمر بإهلاكهم ، نعم ! إن إبراهيم لنبى ذو صفات تتسم كلها باللين والرفق ، فهو حليم أواب بالتوبة ، كثير الحزن من مخافة ربه ، وهو منيب إلى ربه رجاع إليه كلما وسوس إليه الشيطان .

سابعاً : فى الآيات الكريمة كثير من الإشارات البلاغية ، فهنالك مواطن من الإيجاز ، كذلك التعبير الخاطف ﴿ **فَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلامٌ قَومٌ مُنكَرُون**﴾ وهنالك إيجاز حذف أيضاً فى قوله : ﴿ **فَرَاغَ إِلَى أهله فَجَاءَ بِعِجلٍ حَنِيذ فَلَمَّا رَأى أيدِيَهُم لاَ تَصِلُ إِلَيهِ نَكِرَهُم** ﴾ ، فلقد حذفت فى هذه العبارة عدة جمل يفهمها القارئ من السياق ، وإيجاز الحذف

أمر دقيق ؛ لأن من شروطه ألا يختل السياق ، وأن يكون المحذوف ساطعاً كأنه مثبت . وما أجمل استفهام التعجب فى قول الزوجة ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وأنا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ ؟! . والاستفهام البلاغي على لسان الملائكة: ﴿ أَتَعجَبِينَ من أمرِ الله ﴾ ؟؟ وما أحلى خواتم الآيات وأبلغ مناسبتها للسياق ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ رَحمَةُ الله وبركَاتُهُ عَلَيكُم أهلَ البيتَ إِنَّهُ حَميدٌ مَّجيد ﴾ ومعناهما : جدير بالشكر والتمجيد لما يسوقه من خزائن رحمته لأحبابه ، حتى إنه ليرزقهم ما لايتوقعونه بعد انقطاع أسبابه . اللهم ارزقنا حبك وحب أنبيائك وارزقنا القدوة الصالحة بهم ، وأدخلنا فى شفاعة محمد عليه الصلاة والسلام .

تمادى قوم لوط فى شذوذهم عجل بإهلاكهم

إن قصة لوط وقوم لوط معروفة ، ذكرت فى الكتاب فى أكثر من موضع ولما فيها من عبرة لأهل الشذوذ ، أورد هذه الآيات من سورة هود عليه السلام ، ثم أتبعها إن شاء الله بسرد مركز موجز لقصة لوط مع قومه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٧٧ ـ ٨٣]. أقول وأسأل الله أن يطهر مجتمعنا الإسلامى من الفاحشة وسوء الفتن ما ظهر منها وما بطن .

أولاً : كان لوط عليه السلام ابن أخى إبراهيم عليه السلام ، وكان يسكن معه بلاد بابل ، فلما بعث الله إبراهيم دعا ابن أخيه لوطاً إلى الحنيفية السمحة، فآمن لوط عليه السلام ، ولما هاجر إبراهيم إلى فلسطين ، وأقام ببئر السبع هاجر معه لوط فى سبيل الله ، ثم استأذن لوط عمه إبراهيم إن يقيم فى منطقة سدوم بالأردن فأذن له ، وكانت مكونة من خمس مدن آمنت للوط منها واحدة وكفرت أربع . وقد اشتهر لوط عليه السلام بالشهامة وكرم الضيافة والشجاعة

كعمه إبراهيم ، لكنه لم ينجب أولاداً ذكوراً وكانت له بنتان فقط فكان ذلك سبباً فى جرأة الكفار من قومه عليه .

ثانياً : حينما استقر لوط عليه السلام فى مدينة سدوم وجد مجتمعاً هناك فى غاية الفساد ، فقد استشرى فى المجتمع الشذوذ الجنسى ، وترتب على تلك الرذيلة رذائل ومنكرات أخرى ؛ وذلك لأن الرجل الذى يتعود على تلك الخصلة يزول منه الحياء ، فيصبح منحلاً يصنع ما شاء ، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام كما جاء فى سورة العنكبوت : ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** ﴾ . لقد كان الرجل منهم إذا فقد شرفه ذهب حياؤه فشكلوا عصابات من السفهاء يقطعون على الناس السبيل ، وكانوا إذا جلسوا فى ناديهم كانت كل تصرفاتهم منكراً وسخرية بالناس وبذاءة . ولا غرو فإن الرجل الذى لا يستحى أن يؤتى، يفقد كل مقومات الرجولة فيهون عليه عرضه وشرفه وكلامه .

ثالثاً : لما أنذرهم لوط عواقب أفعالهم الشائنة قابلوه بسخرية ، وقالوا : ﴿ **لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ** ﴾ ثم لما لم يتركهم قالوا : ﴿ **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ ، وهى كلمة سخرية تعنى هؤلاء جماعة يحترفون الطهارة كأنهم أحسن من قومهم ، وأخيراً قالوا له : لا تستقبل ضيوفاً وبذلك تنجو من مضايقاتنا ، لكن لوطا عليه السلام كان كعمه إبراهيم لا يخلو يوماً من الضيوف وكانت له زوجة تحب قومها المشركين فإذا رأت ضيوفاً سارعت إلى السفهاء ـ وكلهم سفهاء ـ تخبرهم فيحضرون إلى بيت لوط عليه السلام . وقد ذكرت الكتب القديمة أن اسمها واعلة .

رابعاً : لما حضرت الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل إلى بيت لوط عليه

السلام كانوا على هيئة بشر فى غاية الجمال فاستاء لوط وضاق بهم ذرعاً وقال: هذا يوم عصيب شديد الكوارث ، وفى الحال ذهبت زوجته فأخبرت قومها بأن أجمل الناس قد نزلوا ضيوفا عند لوط فهرعوا أى انطلقوا فى سرعة وزحام ، والفعل هرع لا يأتى إلا مبنياً للمجهول، وذهب القوم مسرعين مستبشرين إلى بيت لوط ، فلما أقبلو أقفل الباب وناداهم من داخل الدار : يا قوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، ولم يكن من ابينهم عاقل واحد ، فطرقوا الباب طرقا عنيفا ، فقال لهم فى سبيل شرف ضيوفه : ما رأيكم أن أخرج لكم بناتى تتزوجونهن حالاً ، فقالوا أنت تدرك جيداً أن لا حق لنا فى بناتك وإنك لتعلم ما نريد، وكلمة ما نريد كناية مؤدبة عن الفاحشة ، فالتفت إلى الملائكة وقال : لو أستطيع أن أتسلح بكم وتكونوا لى عوناً وركناً وسنداً ، وهنا قالوا له ـ ولم يكن حتى تلك اللحظة يعلم حقيقتهم ـ نحن رسل الله وملائكته ، اعلم أنهم لن ينفذوا إلى أغراضهم الخبيثة فافتح الباب ، واخرج واستعد للرحيل الليلة ، فقد صدر أمر ربك بهلاكهم ، فخرج لوط عليه السلام ودخل القوم وحرجموا حول الملائكة فصفعهم جبريل عليه السلام بجناحه فطمست أبصارهم . وإلى هذا يشير قوله تعالى فى سورة القمر : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧] وفى الليل جمع لوط أهله ومنهم امرأته واعلة وأمرهم ألا يلتفت منهم أحد نحو العذاب ، وأخبرهم أن من يلتفت يصيبة من العذاب ما أصاب القوم، وتوجه بعد أن مضى قطع من الليل إلى القرية المؤمنة ، ولما سمعوا ضوضاء العذاب لم يلتفتوا ، لكن واعلة التى كانت

محبة لقومها خافت عليهم فالتفتت وفى الحال اختفت مع الغابرين ، وقد كانت عقوبة قوم لوط عبرة لأهل الشذوذ ؛ إذ أدخل جبريل عليه السلام جناحه الهائل تحت القرى الأربع واقتلعها ، وصعد بها إلى السماء ثم قلبها رأساً على عقب ، وأنزل الله على القوم مطراً من الحجارة فلم يبق لهم أثر . ولقد تعجب الجيولوجيون من وضع البحر الميت (بحيرة لوط) وكيف تكون فى مكانه والحق أن القرآن يشرح الأمر فهو مكان القرى الأربع التى قلعت ويصب فيه الآن نهر الأردن وبسبب الحر والبخر من حوله فإنه ماء ثقيل ملىء بالمعادن .

خامساً : يبدو لوط عليه السلام فى القصة شهما كريماً شجاعاً مضحياً من أجل ضيوفه ، إنها قصة تحبب المستمع فى هذا النبى الطاهر وفى صبره على الأذى وكرمه على ضيوفه ، وهذا دأب القرآن فى عرضه قصص الأنبياء ، فما منهم إلا وهو مثل أعلى للكمال الإنسانى هذا هو القرآن ، ولكن هل يدرى المستمع ماذا ذكر كتاب النصارى عن لوط ؟ لقد قرأنا فى كتاباتهم : أن لوطاً عليه السلام قد تآمرت عليه ابنتاه فأسكرتاه ولما غاب عقله أتى كلاً منهما فولدت ولداً . شلت ألسنة المفترين أن يكون لوط الطاهر الصالح الكريم الأصل يفعل مثل هذا . إن كتب النصارى تنسب إلى الأنبياء فواحش وكبائر ، بينما جاء القرآن الكريم لينصف هؤلاء القدوات من أكاذيب المفترين ويجلو من أفعالهم ما تقتدى به البشرية عمرها ، فسبحان من أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، اللهم زدنا بصيرة بالقرآن ، واجعلنا من أهله الذين يتلونه ويعملون به .

قصة نبى الله شعيب
مع قومه : مدين

هذه حكاية نبى الله شعيب عليه السلام مع قومه مدين : أصحاب الأيكة ، وقد وردت القصة فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، ولكنها فى سورة هود مبسوطة مفصلة الحوار ، وهذه هى الآيات التى تحكى تلك المأساة :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

برَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَت الَّذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُود ﴾ [هود : ٨٤ ـ ٩٥].

أقول وأسأل الله أن يجملنا بأخلاق الأنبياء ويجنبنا مصارع الأشقياء .

أولاً : أول ما يلفت النظر فى الآيات هذا الأسلوب العذب الرقيق الذى يتبعه الأنبياء فى الدعوة إلى الله ، كما يتجلى ذلك فى محاورتهم لقومهم ؛ إنه أسلوب يجمع اللين والمنطق والموضوعية فى حين ترى أسلوب قومهم فى المحاورة فظاً طافحاً بالسباب والبذاء . إن شعيبا عليه السلام كان فصيح اللسان حتى لقبه المفسرون خطيب الأنبياء ، وكان إلى جانب فصاحته قوى المنطق والحجة ، وكان عذب الكلام رفيقا حليما . انظر إلى كلامه كما يرويه عنه القرآن الكريم : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَتَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُم إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ وتأمل ردهم الغوغائى عليه إذ يقولون له : أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة أصنامنا وأن تحجز حريتنا فى التصرف فى أموالنا إنك لعاقل عظيم العقل ناضج الرشد ؟! ويمضون فيقولون له: إنا لا نفقه معظم كلامك . ويعنون بذلك أنه لاقيمة له ، ولولا حمولتك لقتلناك مرجوماً ، وما أنت علينا بصعب لو أردنا قتلك . وعندئذ يمضى هو فى منطقه النبوى فيقول لهم : يا قوم حين أكون متاكداً من رسالتى ويرزقنى ربى فضلاً عظيماً من عنده وهو الرسالة ، كيف أكتمها عنكم؟ أم كيف تريدوننى ، أن أعود إلى أصنامكم ؟ ثم إننى لا آمركم بأمر وأخالفكم فى اتباعه بل ارتضى لكم ما أرتضيه لنفسى وما توفيقى إلا بالله عليه وتوكلت وإليه إنابتى ورجوعى ، وإذا لم تؤمنوا فاعملوا على

طريقتكم ، وسأعمل على طريقتي ولكن سوف تعلمون من منا سيهلك ومن منا سينجو ، فلننتظر ما يقضي به الله بيننا.

ثانياً : كان قوم شعيب ينتمون إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام وقد سموا ديارهم مدين ، وتقع في الجزء الشمالي من خليج السويس ، وكانوا يعملون في التجارة ، لكن كانت لهم عادة سيئة وهي الغش في المكيال والميزان فقد كان لهم مكيال يسمونه الوافر يشترون به ، ومكيال منقوص يبيعون به ، وكان شعيب عليه السلام ضريراً ، لكنه حي الضمير متفتح البصيرة ، فكان ينكر عليهم ذلك التصرف الظالم ، وينكر عليهم عبادتهم للأصنام ، لكنهم يردون على كلامه الرقيق اللين بعنف وصلف، ويعدون نصحه لهم بترك الغش في الوزن نوعاً من التدخل في حريتهم ، وهذا ما أشار إليه الله جل جلاله بقوله على ألسنتهم : يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا أو نتصرف في أموالنا كيف نشاء ؟! ونجمعها كما نشاء وقولهم : ﴿ **إِنَّكَ لأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ تهكم ظاهره : إنك لأنت العاقل ، الراجح العقل وباطنه عكس ذلك .

ثالثاً : صبر شعيب عليه السلام على خشونتهم وعلى غطرستهم وإيذائهم واستمر في تحمله يسمع منهم قارص القول ويسمعهم لينه حتى استيأس منهم عليه الصلاة والسلام ، واعتقد أنه لا خير فيهم ولا أمل في انعطافهم إلى الحق، هنالك دعا عليهم شعيب عليه السلام فقال ﴿ **رَبَّنَا افتَح بَيننَا وَبَينَ قَومِنَا بِالحَقِّ** ﴾ أي افصل بيننا واحكم على الظالم منا بحكمك . وهنا استجاب الله دعوة شعيب فأرسل على القوم حراً شديداً ، كأن جهنم قد فتحت عليهم باباً من أبوابها فأووا إلى بيوتهم ، فلم

يجدوا لها ظلاً وهنا خرجوا إلى البر ، فأرسل الله لهم سحابة باردة فاجتمعوا كلهم تحتها ، فما هى أن انتظم شملهم حتى سمعوا من السحابة أو الظلة صيحة هائلة فارتجفوا ونظروا أعلاهم وإذا نار من السحابة تنقض عليهم فجثموا فى أماكنهم محروقين ، فلما مر عليهم شعيب ورأى حطام جثتهم رفاتاً محترقاً قال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم فكيف أحزن على قوم كافرين ؟!

رابعاً : وكانت تقيم بجوار مدين قبيلة يبدو أنه كانت لهم أيكة أى بستان ملتف الشجر أغن ، فأرسل الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة ومكث فيهم ردحاً من الزمن، فلم يستجيبوا لدعوته ولم يتعظوا بمصائر من قبلهم ، فكان أن سئم شعيب منهم واستيأس من هدايتهم فكان مصيرهم ظلة أخرى كظلة مدين تركتهم جاثمين فى موطن العذاب وقد احترقت أجسادهم .

خامساً : إن قصص الأنبياء التى ساقها القرآن هى إكرام لأمة محمد ؛ لأنها تكشف لهم مصائر الكفار ومصارعهم ، لكى يلجؤوا إلى رحاب الإيمان ويبتعدوا عن مساخط الله التى أوردت من قبلهم موارد الهلاك والخسران وفى الأثر : طوبى لمن اتعظ بغيره ولم يجعل نفسه عبرة لغيره .

ومن فضل الله تعالى على أمة محمد أن أطلعها على جرائم الأمم من قبلها كالشرك والفواحش والتطفيف ، لكى يتجنبوا كل تلك الجرائم الموبقة ، وليظلوا ـ كما شاء الله لهم ـ خير أمة أخرجت للناس ؛ آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر عظيمة الإيمان بربها .

سادساً : إن محمداً ﷺ قد لقى من قومه أكثر مما لقيه أى نبى قبله و لكنه عليه الصلاة والسلام لم يدع عليهم ، وهاجر يبتغى لدعوته مناخاً خصباً، فكان بحق سيد أولى العزم من الرسل وصابر يدعو الله لهم بالهداية

ويدعوهم باللين حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة ونجت أمته من مصارع الأمم التى سبقتها وعاشت من بعده وستعيش إن شاء الله قائمة بالحق منصورة به إلى يوم القيامة . اللهم أتمم علينا نعمة الإيمان ، واصرف عنا وعن إخواننا همزات الشيطان ، واختم لنا بالسعادة والإحسان.

الكفار أهلكوا أنفسهم بظلمهم

حين يقص القرآن الكريم على محمد وأمته قصص الأمم السابقة يتبع القصة أحيانا بتعليق بين خاطف ومطنب ، ويكون التعليق عادة بين إنذار أو بشرى أو عبرة ، لكنه يكون قمة فى التأثير على كافة أحواله ، وهذه الآيات من سورة هود نموذج من التعليق القرآنى ، وقد أورده الله تبارك وتعالى بعد أن قص على رسوله ﷺ قصص نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وهارون عليهم السلام ، وذكر ما لقوه من مصير الغرق والريح الصرصر والصيحة والحاصب والرجفة ؛ ولهذا فقد جاء التعليق هائلاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ذَلِكَ من أنبَاء القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيكَ منهَا قَائمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمنَاهُم وَلَكن ظَلَمُوا أنفُسَهُم فَمَا أغنَت عَنهُم آلِهَتُهُم الَّتِي يَدعُونَ من دُونِ الله من شيء لَمَّا جَاءَ أمرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُم غَيرَ تَتبِيب * وَكَذَلكَ أخذُ رَبِّك إذَا أخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالمَةٌ إنَّ أخذَهُ أليمٌ شَديد** ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٢]. أقول وأسأل الله أن يصرف عنا عذاب الدنيا والآخرة ويجنبنا وإخواننا فتنة المحيا والممات:

أولاً : ألفاظ هذه الآيات جاءت فى غاية السطوع والتألق والإشراق ، ولاغرو فآيات الاعتبار والموعظة تكون ساطعة الوضوح لتتملاها النفس دون أى انصراف إلى مشكل من اللفظ أو ملتو من المعنى ، وقد اشتمل الأسلوب على بعض الحلية اللفظة الأصيلة الجميلة كقوله تعالى : ﴿ **منهَا قَائمٌ وَحَصيد** ﴾ ، وهو طباق في غاية الجمال ، وكقوله تعالى : ﴿ **وَمَا ظَلَمنَاهُم وَلَكِن ظَلَمُوا أنفُسَهُم**﴾ وفيها إشارات معنوية فى قمة البلاغة

كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أخــذُ ربِّك إذا أخذَ القرَى وَهِيَ ظَالمَة ﴾ فقوله : ﴿وَهِيَ ظَالمَةَ﴾ مَجاز جميل وإيجاز حذف ، فالقرى ليست هى الظالمة ولكن أهلَ القرى هم الظالمون . ومثله ذلك الإطناب البلاغى فى ختام الآية الكريمة الأخيرة فى قوله : ﴿ إنَّ أخذَهُ أليمٌ شَديد ﴾ . وانظر إلى ذلك الانسجام الهائل بين الألفاظ ومناسبتها للمعنى فالألفاظ قائم وحصيد ، وكذلك ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم وكذلك أخذ ربك، وهى ظالمة ، أليم شديد . كل هذه من حيث المعنى نذر مروعة ومن حيث الإيقاع يأخذ بعضها بأعناق بعض فى تناسق إيقاعى معجب حقاً . إنك حين تقرأ الآية الأولى تحس أنك لو كررتها عشرات المرات ما أحسست تنافراً بل إنها لتزداد سهولة على اللسان بالتكرار وتحلو ﴿ ذَلكَ من أنبَاء القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيكَ منهَا قَائمٌ وَحَصيد ﴾ . سبحان من هذا كلامه ، أى بلاغة معجزة وأى إعجاز بليغ !!

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ ذَلكَ من أنبَاء القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيكَ منهَا قَائمٌ وَحَصيد ﴾ معناه : إن ذلك البيان الذى سقناه إليك على شكل قصص إنما هو أنباء أمم بادت بالعذاب وبقيت قراهم وآثارهم بعضها ماثل للعيان على هيئة خرائب مهجورة ، وبعضها قد دمر تدميراً تاماً كما فى قرى قوم لوط . وما أجمل الصورة البلاغية فى كلمة حصيد ، وكأن القرى وأهلها زرع دمرته جائحة ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكلمة ﴿ ذَلكَ ﴾ إشارة إلى مجموع القصص ، فأورد اسم الإشارة مذكر ، أما فى أعقاب قصة نوح وما كان من غرق قومه فقد استعمل اسم الإشارة المؤنث ؛ لأنها قصة واحدة يعلق عليها ﴿ تلكَ من أنبَاء الغَيب نُوحيهَا إليكَ مَا كُنتَ تَعلَمُهَا أنتَ وَلاَ قَومُكَ من قَبلِ هَذَا ﴾ أى تلك القصة العظيمة الهائلة وهى قصة نوح وقومه .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمنَاهُم وَلَكِن ظَلَمُوا أنفُسَهُم فَمَا أغنَت عَنهُم آلِهَتُهُم الَّتِى يَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَىءٍ لَمَّا جَاءَ أمرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُم غَيرَ تَتبِيب ﴾ معناها نحن لم نظلمهم حينما دمرنا عليهم وأخذناهم بالعذاب ولكنهم ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى ، ظلموا أنفسهم حين سفهوا عقولهم ولجؤوا إلى آلهة من الأصنام والحجارة لا تضر ولا تنفع ، وظلموا أنفسهم حين سخروها فى معصية الله ، وقد خلقت لطاعته وتوحيده ، هنالك جزيناهم بظلمهم ولم نظلمهم ، وأخذوا درساً كيف أن من يعوذ بغير الله ويعبد شركاء مع الله فإنهم لن ينفعوه إذا صدر أمر الله بالعذاب . بل إن تلك الآلهة لا تزيدهم إلا هلاكاً وخسراناً ؛ لأنهم يرونها فى وسط حمأة العذاب مهينة ذليلة ، فتزيدهم حسرة إلى حسراتهم، وتنطق بغير لسان عن جهلهم وسفههم ، فينقلبون عنها بألم فى ضمائرهم كأنما يتساءلون أين كانت عقولهم حينما اتخذوا من دون ربهم الديان معبودات عاجزة عن أى ضر أو نفع ؟! إن قوله تعالى ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ : يشير إلى ما يكون من موقف المشركين حين يرون أصنامهم فى غمرات العذاب أو فى ساحات القيامة ، فيدور حولها نقاش يقول المشركون يارب هؤلاء هم الشركاء الذين أضلونا فعبدناهم ، إنهم هم الذين يتحملون مسؤولية إضلالنا ، هنالك تلقى تلك المعبودات إليهم القول : إنكم لكاذبون ، وترفع لله جل جلاله ولاء الاستسلام وتتلاشى من أمامهم ؛ هنالك يتخبطون فى الحيرة والذهول والحسرة والندامة ولا تزيدهم آلهتهم غير هلاك وخسران إلى جانب هلاكهم وخسرانهم .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أخذُ رَبِّكَ إذَا أخَذَ القُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ إنَّ أخذَهُ ألِيمٌ شَدِيد ﴾ إن كلمة ﴿ أخذُ ﴾ أعظم وقعاً فى النفس من كلمة

عقاب؛ لأن في الأخذ معنى الدمار الشامل ، في حين يكون العقاب دماراً جزئياً الأخذ يوحي للنفس صورة مخيفة حقاً ، وكأن الله جل جلاله الذي خلق القرى وبوأها أماكنها وأجل لها آجالها أراد بحكمته أن يأخذها فيردها إلى العدم الذي كانت فيه قبل وجودها ، وحين يصدر الله حكمه العادل بالإعدام على تلك القرى الظالمة ، فتلك طريقة أخذه لها، وهي التي قصصناها عليك في قصص الأنبياء وأقوامهم وجميعها في غاية من الإيلام والشدة ، والآية الكريمة تتكون من جملتين أولاهما : **﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾** وفي قوله تعالى : **﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾** إطناب بليغ غرضه الاحتراس؛ فالله جلَّ جلاله أورد هذه الجملة المعترضة ليَبين أنه لا يعاقب القرى وأهلها إلا وهي ظالمة ، أما إطناب التذييل فهو ذلك التعليق الذي ورد بعد الجملة الأولى **﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾** **﴿ أَلِيمٌ ﴾** لأنهم يستحقون الألم بعد أن آلموا نفوس الرسل وآذوهم وضيعوا جهودهم في العناد والإنكار ، وشديد ليتناسب في شدته مع فداحة جريمتهم ، وهي الشرك بالله وعقوق الرسل الكرام ، والجزاء من جنس العمل ومن هنا كانت العقوبة مؤلمة وشديدة لتتناسب مع إيلامهم لرسل الله وعظمة ظلمهم حين أشركوا بالله .

وبعد فما أجدر أن تحفظ هذه الآيات الثلاث ، لأنها خلاصة شافية مؤثرة لمصائر الظالمين من الأمم السابقة ممن عصوا رسلهم ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فكان أن ظل ذكرهم في الدنيا مشفوعاً باللعنة ، ويوم القيامة **﴿ بئس الرفد المرفود ﴾** أي بئس العون الذي يلقونه من معبوداتهم ومن الشياطين الذين أضلوهم .

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى ، وصفاتك العلى ، واسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت أن تجنب أمة محمد مصارع السوء ، ومصائر العصاة وأن تكتب لها نصراً مؤزراً يعز به الإسلام ، ويذل به الكفر ، وتقام به الصلاة وتؤتى الزكاة ، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر .

أوامر إلهية كفيلة بسعادة البشرية

بعد أن قص الله على رسوله ﷺ فى سورة هود مصارع القرون الأولى ، وقصص الأنبياء الكرام ؛ أثبت فى نهاية تلك الدروس والعبر هذه الخلاصة العظيمة الشافية مشتملة على العبرة المستفادة من تلك الدروس .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود : ١١٢ ـ ١١٧] .

أقول وأسأل الله أن يرزقنا وإياكم الاستقامة على طريق الهدى والشهادة والنجاة :

أولاً : بعد أن قص الله على رسوله والمؤمنين مصارع الكافرين من قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وقوم فرعون ، أورد فى آخر السورة أعنى سورة هود تعليقات عقب بها على أخبار الأمم الغابرة ، هذا التعليق المذكور فى الآيات يرسم لرسول الله ﷺ طريق النجاة فى الدنيا والآخرة وهو طريق السلامة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : شيبتنى ﴿ **فاستقم**

كما أمرت﴾ وسبب ذلك والله أعلم : أن كلمة ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ أمر ينطوى على جميع الفضائل ؛ لأن الاستقامة ضد الاعوجاج ، والاستقامة كلمة جامعة لكل خصال الخير ، ولكل عزائم السلوك الفاضل ؛ ولهذا حين أمر بها رسول الله ﷺ أحس بعظمة التكليف فحمل لذلك هما شيب رأسه ، وفى الحديث دليل أن فهم رسول الله ﷺ للقرآن كان فهماً عميقاً يحس منه ﷺ أنه مكلف بتنفيذ كل حرف من كتاب الله . ومن هنا فهم الآية الكريمة من أول لحظة أنها كلفته وأمته شيئاً هائلاً وهو أن يستقيموا على الطريقة التى أمرهم الله أن يلتزموها فى الشريعة والأخلاق والمعاملات والعبادة ، وألا يتجاوزوا الحد فيطغوا عن المعالم المرسومة والحدود المحددة ، وذلك لأن الله جل جلاله بصير بأحوال عباده ما أظهروه منها وما أخفوه .

ثالثاً : قوله تعالى ﴿ **وَلاَ تَركَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَالَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن أَولِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ** ﴾ . فى الآية السابقة ذكر الله اثنين من مقومات النجاة ، وهنا يذكر ثالثاً وهو عدم الاعتماد أو الارتكان أو الاستناد إلى قوة الظالمين ؛ لأن من يتخذ الظالمين أنصاراً يعتمد عليهم فلابد أن يتبع طريقتهم فى سبيل أن ينصروه ، وطريقتهم تؤدى إلى النار والخيبة ، حين يرى من يحالفهم أنهم لا ينفعونه من دون الله وأن مصير كل محالف للظالمين هو النار .

رابعاً : ثم يأتى المقوم الرابع من مقومات الفوز والنصر والسعادة وهو إقام الصلاة فى أوقاتها طرفى النهار وزلفاً من الليل ، ويبدو والله أعلم أن الظهر والعصر هما طرفا النهار ، وأما زلف الليل فهى أوقات صلاتى المغرب والعشاء ووقت صلاة الصبح ، ومن الجائز أن الله جل جلاله يحث

محمداً على الصلاة المكتوبة وعلى النوافل بأن يؤديها فى جميع الأوقات من الليل والنهار ، وهنا إشارة وردت فى القرآن والسنة بأن الحسنات - ويعنى بها هنا الصلوات المكتوبة بشكل خاص - يغفر الله بها اللمم من الذنوب ، فمن وقع فى خطيئة من غير الفواحش، ثم أدركته الصلوات فصلاها فإن الله يغفر له ما بين الصلاة والصلاة من الصغائر واللمم .

فقد جاء فى الصحاح : أن أحد الصحابة واسمه أبو اليسر أصاب من امرأة قبلة فجاء إلى رسول الله ﷺ وأخبره وقال له : يا رسول الله عاقبنى كما تشاء ليغفر الله لى ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى حضرت الصلاة فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بالآية ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ . فسأل النبى ﷺ: عن الرجل فقال هأنذا يارسول الله فقرأ عليه القرآن وفيها بشرى بأن الله جل وعلا غفر خطيئته بالصلاة، فقال الصحابة : هذه الآية له وحده أم لكل المسلمين ؟! فقال رسول الله ﷺ : «بل لكل لمسلمين » وفى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾: حث للمؤمن إذا عمل سيئة أن يتبعها بحسنة وتوبة ، وفى الحديث الشريف : « واتبع السيئة الحسنة تمحها » وفى قوله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ مشيراً إلى أن إقام الصلاة يحدث للمؤمنين ذكرى مستمرة تذكرهم بذنوبهم ، وتدعوهم للإنابة إلى ربهم ، والتوبة من خطاياهم .

خامساً : أما المقوم الخامس من مقومات السعادة والنجاة من العذاب فمذكور فى الآية الرابعة وهى قوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾؛ وذلك لأن أهل الإحسان وأهل الدعوة لابد أن يتعرضوا

لأذى السفهاء وألسنة المرجفين، ومن ثم فلابد أن يعتصموا بالصبر واثقين أنه مهما ألح من حولهم الأذى والإرجاف ، فإن إحسانهم لا يضيع أجره عند الله ، والحق أن الصبر يجب أن يظل من ملازمات الإحسان ، وهذا ما أشار الله إليه جل جلاله في سورة العصر ، وهو يذكر السعداء الرابحين : ﴿ وَالعَصرِ * إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسرٍ * إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوا بِالصَّبرِ ﴾ [العصر ١ ـ ٣] .

سادساً : الآية الخامسة من الآيات تحتاج إلى بيان وتوضيح وهي قوله تعالى : ﴿فَلَولاَ كَانَ مِنَ القُرُونِ مِن قَبلِكُم أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنهَونَ عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرضِ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّن أَنجَينَا مِنهُم وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُترِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجرِمِينَ ﴾ وفيها حث وتحضيض للناس أن تظل منهم فئة من ذوى الباقيات الصالحات تنهى عن الفساد وتقاومه . ومعنى الآية هلا آمنت الأمم السابقة وكان منها مؤمنون أولو بقية وأعمال صالحة ينهون عن الفساد غير أولئك النفر القلائل الذين آمنوا بالأنبياء فنجوا لكنهم اتبعوا سبيل المترفين وأعمال المجرمين فهلكوا؟! والدرس لأمة محمد ﷺ أن يعتبروا بمن هلك من القرون الأولى ، وأن يكون منهم دعاة إلى الحق ونهاة عن الفساد في الأرض حتى لا تدركهم مصائر الأمم السابقة .

سابعاً : أما الآية السادسة والأخيرة فهي تشرح سنة من سنن الله في خلقه وهي سنة عادلة تليق بأفعال الله جل جلاله ، هذه السنة الحكيمة تتجلى في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهلِكَ القُرَى بِظُلمٍ وَأَهلُهَا مُصلِحُونَ ﴾ ومعناها : أن الله جل جلاله ، حرم على نفسه الظلم ، ومن ثم فما دام أهل القرى قائمين على الإصلاح ناهين عن الإفساد ، فإن الله جل جلاله لا يمكن أن يهلكهم ، وفي الآية بشرى للناس بأنهم ماداموا

سالكين سبل الإصلاح فهم فى مأمن من عذاب الله؛ لأن عذاب الله لا يساق إلى الأمم إلا إذا انحرفت عن نهج الحق ، وشاع فيها الفساد وغيروا ما بأنفسهم من الولاء لله وطاعته لكنهم إن فعلوا ذلك، فإن الله عندئذ يطبق عليهم سنة أخرى من سننه وهى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ .

خواتيم السور خلاصات
جامعة رائعة الإعجاز

كلما قرأت سورة من سور القرآن الطوال أقف ملياً عند خاتمتها ، فأجد فى خواتيم السور أسلوباً مدهشاً يترك فى نفس القارئ أثراً عجيباً ، ومن هنا كان بعض السلف يتخذ له ورداً من خواتيم السور ، فيقرأ ثلاث آيات من آخر سورة البقرة وست آيات من آخر سورة الأنعام ، وآيتين من آخر سورة التوبة ؛ وذلك لأن خواتيم السور الكريمة تكون خلاصة جامعة رائعة الإيجاز لكل ما فى السورة من مرام حكيمة .

ولقد تدبرت بصورة خاصة خواتيم السور الطوال التى نزلت عليه وهو فى أوقات الشدائد وفى عام الحزن ،كسورة يونس وسورة هود وسورة الإسراء وسورة القصص وسورة النمل ، فوجدت آيات تخشع القلوب لإعجازها وتبهر البلاغة لكمالها وإيجازها ، وإنى ملتقط هذه الآيات العظيمات التى ختمت بها سورة هود ؛ لأقف بالقارئ عندها ونرى عظمة أثرها فى قلوب المؤمنين :

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم وَتَمَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ * وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيكَ مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الحَقُّ وَمَوعِظَةٌ وَذِكرَى لِلمُؤمِنِينَ * وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ اعمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُم إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَإِلَيهِ يُرجَعُ الأَمرُ كُلُّهُ فَاعبُدهُ وَتَوَكَّل عَلَيهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعمَلُونَ ﴾** [هود : ١١٩ ـ ١٢٣]. هذه هى الآيات الخاتمة لسورة هود ـ عليه السلام ـ وهذه بعض إشاراتها البلاغية والمعنوية والأخلاقية :

أولاً : قلنا إن سورة هود ـ عليه السلام ـ نزلت والرسول ﷺ فى كرب شديد ؛ ولهذا فقد قصت عليه عدداً من القصص تدور كلها حول متاعب الأنبياء فى الرسالة وما لقوه من قومهم من إعراض وعناد وإيذاء ، ثم ما لقيه قومهم من عذاب الله جل جلاله ، وفى هذه القصص أكبر عزاء لرسول الله عما كان يلقاه فى عام الحزن ، ثم لما فرغت السورة من أنباء الرسل جاءت هذه الخاتمة خلاصة شافية للتعزية الإلهية الكريمة الرحيمة العظيمة ، وقد جاء فى كلام بعض الأشياخ أن خاتمة سورة هود هى خاتمة التوراة ، ومعنى هذا أنها كررت فى الكتب السماوية لعظمتها .

ثانياً : أول آية فى هذه الخاتمة العظيمة هى آية عجيبة حقاً وعميقة الفكر والمرمى ، وهى أربعة مقاطع لكل مقطع منها معنى كبير ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ .

لو شاء ربك يا محمد لخلق الناس جميعاً مؤمنين أو خلقهم جميعاً ضالين كافرين ، لو شاء ربك لخلق إنساناً صالحاً مؤمناً ، ثم سحب عليه نسخاً طبق الأصل حتى ملأ الأرض مؤمنين ، ولو شاء لعمل العكس فخلق الناس جميعاً نسخة طبق الأصل عن إنسان كافر فاسق ، والحق أن ذلك أهون على الله ؛ لأن المطبعة تسهل عليها أن تطبع مائة ألف نسخة طبق الأصل عن صفحة واحدة ، وهو أسهل من أن تطبع مائة نسخة عن مائة صفحة مختلفة ؛ لما فى ذلك من إعادة شكل الصفحة وحروفها .

إن الله جل جلاله اختار أن يخلق الناس مختلفين كما فى الألسنة

والألوان والعقول والأمزجة والعواطف ، فما من إنسان فى الدنيا يشبه إنساناً آخر فى كل شىء . ولقد اختار هذا الأسلوب المعجز العظيم فى خلق الناس ؛ لأنه أراد أن ويعبد من منطلق الفكر والاختيار والبصيرة لا من منطلق القهر والتسيير ، فخلق العقول وما بينها من تفاوت وأراد الحق جل جلاله أن يصل الناس إلى التوحيد عن طريق الفكر ، فخلق الناس مزودين بالقدرة المختارة على التفكير ، وأراد الله جل جلاله أن تظهر آثار عظمته وإعجازه ، فخلق الناس مختلفين فى كل شىء حتى فى رؤوس أصابعهم ، وشكل أعينهم ، وألوان بشرتهم ، فما من أسود يكون صورة طبق الأصل عن أسود وإن تشابها إلى حد كبير ، وهذا من أعظم دلائل القدرة ، ومن آياته خلق السموت والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم **﴿ إن فِي ذَلكِ لآياتٍ للعَالمِينَ ﴾** وقوله تعالى : **﴿ ولاَ يَزَالُونَ مُختَلفِينَ إلاَّ مَن رَّحِمَ ربُّكَ ﴾** معناه : أن الله جل جلاله خلق الناس من أجل عقيدة التوحيد يصلون إليها بالفكر المستنير المختار لكنهم اختلفوا من حول العقيدة ، فآمن القليلون وكفر الكثيرون ، ومن هنا تمت كلمة ربك وصدرت إرادته الحكيمة أن يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ؛ وأهل النار هم الذين طمسوا نور الفطرة فى خلقهم وانحرفوا إلى طريق الشيطان منقادين وراء نزوات الشهوة ، ولا يزال الناس مختلفين من حول العقيدة إلا من رحمهم الله من المؤمنين ، فهؤلاء يظلون على عقيدة التوحيد ونهج العبادة ترشدهم إليها عقولهم ودلائل القدرة من حولهم .

ثالثاً : بعد أن ذكر الله عز وجل حكمته فى اختلاف الناس كان ذلك إرشاداً لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ألا يجزع لاختلاف الناس من حول العقيدة ؛ لأن الله جل جلاله حكمته العظيمة فى اختلافهم ، وهنا فى الآية التالية أسلوب ثان فى تعزية الرسول الكريم **﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيكَ من**

أنبَاءِ الرُّسلِ مَا نُثَبِّتُ به فُؤادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذه الحَقُّ وَمَوعظَةٌ وَذكـرَى للمُؤمنين ﴾ ومعنى الآيَة الكريمة : أننا نقص عليك كل ما قصصناه من أنباء الرسل لكى نثبت قلبك على طريق الجهاد والصبر من أجل الدعوة، ولقد جاءك فى هذه ـ أى فى هذه الأنباء ـ ما يرشدك إلى الحق ويوفر لك وللمؤمنين موعظة بالغة وذكرى تنفعهم بأخبار من سبقوهم .

رابعاً : قوله تعالى ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ اعمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُم إنَّا عَامِلُونَ* وَانتَظِرُوا إنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تهديد مروع للكافرين ، ومعناه : قل يا محمد لمن لا يؤمنون بالبعث والحساب : اعملوا على طريقتكم وسنعمل على طريقتنا وانتظروا مصيركم فنحن ننتظر مصيرنا ، فإن المرجع كله إلى الله جل جلاله الذى له غيب السموت والأرض وإليه يرجع أمر الكون كله ومرجع الخلق جميعهم .

خامساً : إن الآية الكريمة الخاتمة هى خير ما يمثل أسلوب الختام العظيم البليغ : ﴿ ولله غَيبُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ وَإلَيهِ يُرجَعُ الأمرُ كُلُّهُ فَاعبُدهُ وَتَوَكَّل عَلَيهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعمَلُونَ ﴾ ومعنى الآية : أن ربك الذى تعبده وتتوكل عليه هو الذى يملك غيب السموات والأرض ، ومعنى غيب السموات والأرض، أى ما لا يراه الناس من ملكوتهما وما لا يعرفونه من مقاديرهما ، وهو الذى يقضى فيهما بأمره ، ومن ثم فمصيرهما ومرجع كل ما فيهما إليه ، وإذن فوحده واعبده ، واجعل توكلك عليه ، فما هو بغافل عن أعمال عباده ، بل هو جل جلاله مطلع على كل أفعال العباد وتصرفاتهم ، وقد تميز أسلوب الآية الأخيرة بما فيها من أسلوب القصر والحصر كقوله تعالى : ﴿ ولله غَيبُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ ﴾ فقد قدم الجار والمجرور ؛ ليكون المعنى : أن غيب

السموات والأرض هو لله لا لغيره . وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيه يُرجَعُ الأمرُ كُلُه ﴾ هو أسلوب قصر آخر ليكون المعنى : أن مرجع أمور العباد له لا لغيره ، ومن هنا وجب أن تصرف عبادتك إليه وتوكلك عليه ؛ لأن جميع أفعال العباد لا تخفى عليه .

قصة يوسف عليه السلام

فى هذه الحلقة سوف استعرض سورة يوسف ـ عليه السلام ـ فى تفصيل غير ممل وإيجاز غير مخلٍ فأقول وبالله التوفيق :

أولاً : سورة يوسف مكية نزلت أثناء الشدة التى ألمت برسول الله ﷺ فى عام الحزن ، وبعد حادثة الإسراء ، أفتتحها ربنا بذكر القرآن المبين الذى يبين للناس طريق النجاة ، ثم قال : **﴿ نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أحسَنَ القَصَص﴾**[يوسف : ٣] وهو يعنى أن قصة يوسف المروية فى السورة هى أحسن القصص ، والحق أنى كلما قرأتها على الناس أنصتوا كل مرة كأن لم يسمعوها ، وأسلوب سورة يوسف هادئ كأنما هو تعزية رقيقة ، لكل داعية يلقى الأذى فى سبيل دعوته فيصبر حتى ينتصر ، ثم يعفو عفواً جميلاً لا يشوبه كدر .

ثانياً : كل قصة من قصص الأنبياء كررها ربنا فى أكثر من موضع ؛ وذلك لأنه جل جلاله يوزع مواطن العبرة على المواقف ، فترى فى كل تكرار موقفاً جديداً وعبرة جديدة ، لكن قصة يوسف وردت فى القرآن مرة واحدة ، وقد وردت مفصلة حتى لقد استغرقت السورة كلها ، ولم يكررها ربنا جل جلاله ؛ لأنها جاءت مستكملة عجيبة التفصيلات ، وكانت بحق دليلاً ساطعاً على صدق نبوة محمد ؛ لأنها اشتملت على أنباء من الغيب ما كان يعلمها محمد ولا قومه ، وهو عليه الصلاة والسلام يقصها على قومه ، كأنه شهدها ، وإلى هذا أشار الحق جل جلاله إذ يقول فى خاتمة السورة : **﴿ ذَلكَ من أنبَاء الغَيب نُوحيه إلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم ﴾** [يوسف : ١٠٢] أى لدى إخوة يوسف**﴿ إذ أجمَعُوا**

أمـرَهُم وَهُم يَمكُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٢] وتتـجلى فى السـورة روعـة الأسلوب الجذاب فمطلعها : ﴿ نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحسَنَ القَصَصِ ﴾ وهو قمة فى التشويق وبراعة الاستهلال ، وختامها : ﴿ لَقَدَ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبرَةٌ لأُولِي الألبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] نموذج مثالى لحسن الختام .

ثالثاً : تتميز قصة يوسف الواردة فى السورة بتنوع الشخصيات الواردة فيها ، مما يجعل العبر المستقاة منها عظيمة ومفيدة لأصناف عديدين من الناس ، ففى السورة أنبياء وفيها إخوة لأب أكل الحقد قلوبهم ، وفيها تجار لا يبالون بكسب المال من حرام أو حلال ، وفيها وزير مصر الذى اشتراه ، وملك مصر الذى أخرجه من السجن وآمن به ، وفيها عدد من النساء يمثلن الشهوة والكيد معاً ، ثم إن فيها عبراً تستقى من مواقف الحسد والصبر ، والتآمر والكذب ، والجشع والعفاف ، واحتمال العذاب وحل الأزمات ، والإخلاص فى المنصب والسياسة الحكيمة ، وكتمان السر والعفو عند المقدرة ، والإخلاص فى جميع الأحوال لله جل جلاله ، ولدعوة الحق .

كما تمتاز السورة بأنها تقرأ للتسلية والاعتبار ، فى حين تقرأ قصص القرآن الأخرى للإنذار والتخويف والاعتبار بمصائر الظالمين ، والسبب أن قصص الأنبياء غير يوسف ، تنتهى غالباً بدمار القوم ، فى حين انتهت قصة يوسف باجتماع الشمل وقطاف ثمار الصبر المرير جنىً حلواً كأنه ثمار الجنة وتتنوع الأساليب فى السورة ، وتتغير فيها ألحان الألفاظ على حسب الأجواء ، فأنت من ألفاظ سورة يوسف بين ألحان حزينة تبلغ ذروتها وهى ترسم صورة للأب المبتلي بحبيبه يطول بلاؤه فيفقد حبيبه الثانى ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشكُو بَثِّي وَحُزنِي إِلَى اللهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] ،

﴿ وَتَوَلَّى عَنهُم وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابيَضَّت عَينَاهُ مِنَ الحُزنِ فَهُوَ كَظِيم ﴾ [يوسف : ٨٤]وأحياناً ترسم لك جو السعادة والفرج حين خرج يوسف من السجن وتولى خزائن الأرض ، حتى تبلغ الذروة حين يقول يوسف ـ عليه السلام ـ في جو من السعادة والشكر والنظر البعيد :
﴿ رَبِّ قَد آتَيتَنِى مِنَ المُلك وَعَلَّمتَنِى مِن تَأوِيلِ الأحَادِيث فَاطِر السَّمَوَاتِ وَالأرضِ أنتَ وَلِيِى فِى الدُّنيَا وَالآخِرَة تَوَفَّنِى مُسلِماً وَأَلحِقنِى بِالصَّالِحِين ﴾ [يوسف : ١٠١].

رابعاً : العبرة الكبرى فى قصة يوسف ، هى أن الإنسان حين يصدق فى علاقته بربه ويخلص فى تضحياته من أجل دعوته ، يصبح عبداً ربانياً ينشر الهدى والحق أينما توجه ، وترعاه العناية الإلهية سواء فى غيابة السجن أو على كرسى الوزارة والملك ، فيوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ألقى فى الجب فملأه ذكراً ودعاء وابتهالاً ، ودخل بيت العزيز فأفعمه إيماناً وطهراً وعفافاً ، وأدخل السجن فحوله إلى مدرسة تعلم التوحيد ، كما تعلم الصبر ومكارم الأخلاق ، روى أنه كان يطوف على السجناء يقول لهم : اصبروا على البلاء ، فإن الله يجزى الصابرين أحسن العقبى ، ثم يفسر لهم أحلامهم، ولكن بعد أن يعلمهم التوحيد ، يبين لهم أن الله كرمه بمعرفة الرؤيا ، لأنه ترك ملة الكافرين واتبع ملة آبائه الأنبياء ، والحق أن رسولنا ﷺ كان يعجب بأخيه يوسف الصديق، وروى عنه ﷺ أنه قال : « لقد عجبت من أخي يوسف وكرمه وصبره ، والله إنه كان حليماً ذا أناة ».

خامساً : لقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه أن أكرم الناس نسباً وأشرفهم أرومة بين كل أهل الأرض هو يوسف عليه السلام ؛ لأنه نبى ابن نبى ابن نبى ابن نبى، وهو شرف فى النسب لم يجتمع لبشر غيره ، لكن هذا الإنسان

العظيم الشريف تحمل فى سبيل الله ما لا تطيقه الشم الرواسى ، فقد ضربه إخوته حتى أشرف على الموت ، وألقوه فى ظلمة البئر ثم بيع عبداً فى أسواق النخاسة بمصر، واشتغل فى قصر أحد الوزراء خادماً يكنس ويغسل الصحون ، ولما بلغ أشده هبت عليه تيارات الشهوات ، وكانت كافية أن تجرف الجبال ، ففضل السجن ، وفعلاً أدخل السجن بتهمة ملفقة ؛ لأن العزيز وبعض رجال الدولة أرادوا أن يستروا على نسائهم اللاتى قطعن أيديهن ، وراودنه عن نفسه ، وفى السجن مكث أربع عشرة سنة فى بعض الروايات ليخرج بإذن الله من السجن ، وزيراً للخزينة . ثم لما أقبلت عليه الدنيا ، واجتمع شمله بالوالدين والإخوان ، عفا قادراً ومقدراً، ونظر إلى بعيد إلى حسن الخاتمة ورضوان الله ، فقال يخاطب ربه ويدعوه ﴿ **فَاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ أنتَ وَلِيى فَى الدُّنيَا والآخِرَةِ تَوفَّنِى مُسْلِماً وأَلحِقنِى بالصَّالِحِينَ** ﴾ ، وعلى الرغم من عظمة الصدق والإخلاص فى سيرة الصديق ـ عليه السلام ـ فقد أحصى ربه عليه هفوة سببت له زيادة سنوات فى السجن ، فقد ورد فى الأثر أن جبريل قال له فى السجن : ياطاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ، أما استحييت منى أن استشفعت بالآدميين ! فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين . قال يوسف : يا أخى وهل هو فى ذلك راضٍ عنى ؟ قال: نعم قال إذا لا أبالى . كل ذلك لأنه قال لساقى الملك الذى تنبأ له يوسف أن يسقى ربه خمرا : اذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان أن يذكر الملك بيوسف فلبث فى السجن بضع سنين .

سادساً : هذه إشارات خاطفة إلى بعض المواضع البلاغية والمعنوية فى السورة قوله تعالى : ﴿ **اطرَحُوهُ أرضاً** ﴾ [يوسف : ٩]معناها : ارموه فى أرض نائية بحيث لا يعثر عليه .

وفى قوله :﴿ يَخلُ لكُم وَجهُ أبيكُم ﴾ [يوسف : ٩] كناية عن الاهتمام والإعزاز والمحبة .

وفى قوله : ﴿ وَرَاوَدَتهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيتِهَا عَن نَّفسِهِ ﴾ [يوسف : ٢٣] كناية فى غاية العظمة، وكأن من يزنى فقد فرط فى روحه وحياته .

وفى قوله : ﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيتِهَا ﴾ كناية مؤدبة تجنب بها ذكر المرأة .

وفى قوله : ﴿ لَولاَ أن رَّأى بُرهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : ٢٤] روى أنه حينما حدثته نفسه سمع هاتفاً يقول له : أنت نبى ، والفاحشة لا تليق بالأنبياء .

وفى قوله : ﴿ وَألفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ ﴾ [يوسف : ٢٥] معناه : وجدا زوجها عند الباب ، والكلام يوحى أن الرجل فى البيت له السيادة .

وفى قوله : ﴿ قَطَّعنَ أيدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] مجاز يفيد البعض ، والمعنى : خدشن وجرحن ، ولم يحدث التقطيع .

وفى قوله : الاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ أأربَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيرٌ أم الله الوَاحِدُ القَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] استفهام بلاغى غرضه اثبات حقيقة التوحيد.

وفى قوله: ﴿ مَا كَانَ يُغنِي عَنهُم مِّنَ اللهِ من شَيءٍ إلاَّ حَاجَةً فِي نَفسِ يَعقُوبَ قَضَاهَا ﴾ [يوسف: ٦٨] معناه : حين دخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم ما كان هذا يرد قضاء الله ، لكن الأمر حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وهى شفاء عاطفة الأبوة ، وهنالك إشارة معنوية حين قالوا لأبيهم ،: ﴿وَنَمِيرُ أهلَنَا وَنَحفَظُ أخَانَا ﴾ [يوسف: ٦٥] وبعدها قالوا لأبيهم:﴿ إنَّ ابنَكَ سَرَقَ ﴾ [يوسف: ٨١]. وحين طلبوه من أبيهم قالوا: أخانا ، وحين وجدوا معه السقاية رجعوا يقولون لأبيهم: إن ابنك سرق يشيرونه أنه ابنه وهو مربيه،فاللوم فى السرقة يقع على أبيه ، هذه قطعة من ملامح بحر بلاغة السورة .

تعليق بلاغي على قصة يوسف

هذه عشر آيات ختمت بها سورة يوسف ، وهي بحق أعظم خلاصة ، وأروع تعليق بلاغي على القصة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ذَلكَ من أنبَاء الغيَب نُوحيه إليكَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إذ أجمعُوا أمرَهُم وَهُم يمكُرُونَ * وَمَا أكثَرُ النَّاس ولَو حَرَصتَ بمؤمنينَ * ومَا تَسألُهُم علَيه من أجرٍ إن هُوَ إلاَّ ذكرٌ للعالَمينَ * وكَأيِّن مّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأرضِ يَمرُّونَ علَيهَا وَهُم عنهَا مُعرِضُونَ * وَمَا يؤمن أكثَرُهُم باللهِ إلاَّ وهُم مُّشركُونَ * أفَأمنُوا أن تأتيَهُم غَاشيَةٌ مّن عذَاب الله أو تأتيَهُمُ السَّاعَةُ بَغتَةً وَهُم لا يَشعُرُونَ * قُل هَذه سبيلي أدعُو إلَى الله عَلَى بَصيرَةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبعَنِ وَسُبحَانَ اللهِ وَمَا أنَا من المُشركينَ * وَمَا أرسلنَا من قَبلكَ إلاَّ رجَالاً نُوحي إلَيهِم مّن أهلِ القُرَى أفَلَم يَسيرُوا في الأرضِ فَينظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقبَةُ الَّذينَ من قَبلهم ولَدَارُ الآخرَةِ خَيرٌ لّلَّذينَ اتَّقَوا أفَلاَ تَعقلُونَ* حتَّى إذَا استَيئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أنَّهُم قَد كُذبُوا جَاءَهُم نَصرُنَا فَنُجّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأسُنَا عَنِ القَومِ المُجرِمين * لَقَد كَانَ في قَصَصهِم عبرَةٌ لأُولي الألبَابِ مَا كَانَ حَديثًا يُفتَرَى ولَكن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيه وتَفصيلَ كُلِّ شيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً لّقَومٍ يُؤمنُونَ**﴾ [يوسف : ١٠٢ ـ ١١١].

أقول وأسأل الله السداد في القول والتوفيق في العمل :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ **ذَلكَ من أنبَاء الغيَب نُوحيه إليكَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إذ أجمعُوا أمرَهُم وَهُم يمكُرُونَ** ﴾ معناه : أن هذا القصص الذي حكيناه لك هو من أخبار الغيب التي لم تكن تعلمها ، ولا كان قومك يعلمونها لكنها نزلت عليك وحياً من عند الله ، وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف

وهم يخططون لقتله ، ويمكرون به وبأبيه .

وهنا سؤال هو : ما دامت الأخبار التى وردت فى هذه السورة كانت من الأخبار المغيبة التى لم يعرفها محمد وقومه ، فمن أين إذن عرفها ذلك العربى الأمى المقيم بمكة ؟ الجواب الطبيعى هو : أن محمداً نبى يوحى إليه بما يجهله هو وقومه من الأنباء ، وكلمة ذلك إشارة إلى القصص. وانظر إلى أسلوب الإقناع المنطقى فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إذ أجمَعُوا أمرَهُم وَهُم يَمكُرُون ﴾ إنها بديهية مفروغ من صدقها ، فمحمد ﷺ لم يعش أيام يوسف ولا شهد إخوة يوسف وهم متحدون على المكر به . واستعمال البديهيات فى الوصول التدريجى إلى الإقناع هو من أهم أركان المنطق .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أكثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصتَ بِمُؤمِنِينَ ﴾ ست كلمات فيها تقرير لحقيقة من حقائق القدر الإلهى الحكيم ، وفيها إشارة إلى حرص النبى ﷺ على إيمان العباد رأفة ورحمة منه بهم ، والحقيقة التى يقررها القرآن هنا هى أنه مهما حرص الأنبياء على هداية الناس فسيظل أكثرهم عازفين عن الإيمان ، وهى حقيقة كانت ومازلت عبر تاريخ الإنسانية ، ويكفى أن تعلم أنه من بين سكان العالم من البشر فى أيامنا هذه يعيش أكثر من تسعين بالمائة بين ملحد جاحد لوجود الله ، ومشرك يجعل لله ولداً ، وضال لا يهتم بشىء اسمه الإيمان والإله . وفى الآية تعزية لرسول الله ﷺ تضع عواطفه فى نصابها وتضع حداً لأسفه وحزنه، وهو يرى إعراض الناس عن الإيمان ، وما أجمل إطناب الاعتراض فى قوله تعالى : ﴿ ولو حرصت ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسألُهُم عَلَيهِ مِن أجرٍ إن هُوَ إلاَّ ذِكرٌ لِلعَالَمِين ﴾

معناها : أن الناس يعرضون عن الإيمان ؛ مع أنك لا تطلب منهم أجرة ولاخرجاً على تبليغهم وإيمانهم ، وما القرآن الذى تتلوه عليهم إلا ذكر لمن أراد أن يتذكر ، وما يبتغى منه عرض من أعراض الدنيا ، وفى قوله تعالى : ﴿ ذكرٌ للعَالَمِينَ ﴾ إعلان من الله جل جلاله أن دين محمد هو دين جميع الكون ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسَلنَاكَ إلاَّ رَحمَةً للعَالَمين ﴾ أما قوله تعالى : ﴿وَإنَّهُ لَذكرٌ لَّكَ وَلقَومكَ ﴾ فلأن القرآن نزل بلغه العرب ، وهو بذلك شرف وأى شرف للعرب لو أنهم صانوه وعملوا به .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَكَأيِّن مِّن آيَةٍ فِى السَّمَوَات وَالأرضِ يَمُرُّونَ عَلَيهَا وَهُم عَنهَا مُعرِضُون ﴾ معناه : ما أكثر الآيات والدلائل القائمة على الوحدانية، إنها تملأ السموات والأرض لكن الناس يمرون عليها ليلاً ونهاراً وهم معرضون عنها غير متأملين فيها ولا متدبرين ، وحسبك من الآيات آيات القرآن الكريم التى يتصدى لها الكافرون فيعرضون عنها ولا يؤمنون بها .

خامساً : فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤمِن أكثَرُهُم بِاللهِ إلا وَهُم مُّشرِكُون ﴾ تحذير من الشرك الخفى الذى يدب إلى قلب الإنسان ، أخفى من دبيب النمل، إن الآية تتحدث عن المؤمنين ، لكنها لاتبرئهم من وقوع الشرك منهم، فكثير من المؤمنين يحلفون بغير الله ويطلبون الشفاء من غير الله ، ويراؤون فى عبادتهم لغير الله ، ويتخذون من الملائكة والأولياء وسائط بالتوسل .

وكثير من المؤمنين تحملهم مصالح الدنيا على موالاة الكفار ومصادقتهم، وقد يعزون النفع والضرر لغير الله كقولهم : لولا فلان لكانت كارثة ، ومن ثم كان رسول الله ﷺ يقف على باب حمى التوحيد ، وقفة الأسد

على باب عرينة يمنع أى صحابى ، أن يلفظ بأي كلمة أو يفعل أى فعل ينافى كمال التوحيد ؛ لأن التوحيد هو أهم ما يحمله المرء فى قلبه عند لقاء الله ، إذ به يضمن الجنة بإذن الله ، وما أعظم صدق اللهجة وإعجاز الإيجاز ، وأسلوب الحصر فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إلاَّ وَهُم مُّشْرِكُون** ﴾ .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذه سَبِيلي أدعُو إلَى اللهِ عَلَى بَصيرَةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبحَانَ اللهِ وَمَا أنَاَ مِنَ المُشرِكِين** ﴾ درس إلهى لكل داعية فى الثبات ومعناه : إذا أشرك الناس فأعلن منجهك وطريقتك ، وقل لهم هذه هى طريقة الإيمان التى أدعو إليها على بصيرة من أمرى وبفكر واقتناع منى ، أنا وكل الدعاة صابرين على آلام الأذى ، منزهين ربنا عن كل شريك ، معلنين إيماننا بوحدانيته ونبذ كل شريك . وفى الآية أربعة دروس للداعية :

أولها : إعلان الحق وإيضاح المنهج مهما عربدت من حوله أصوات الضلال.

والثانى : أن يصدر فى دعوته عن بصيرة وفكر وعلم اقتناع لا عن غوغائية وعفوية وتخبط .

والثالث : أن يكون هو نفسه قدوة فى عبادة الله وتنزيهه ونبذ الشرك ، لا أن يأمر الناس وينسى نفسه .

والرابع : أن يصطفى من بين القوم من ذوى الفكر المستنير من يتبعونه ويدعون بدعوته ، كما زكى رسول الله ﷺ ، ذلك النفر من الغر الميامين من صحبه عليهم رضوان الله :

سابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أرسَلنَا مِن قَبلكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إلَيـهِم مِّن أهلِ القرى ....** ﴾ الآية رد على من قالوا : لو شاء الله لأرسل إلينا ملائكة ، فهو يذكرهم ، أن جمع رسل الإنسانية كانوا بشراً ويدعون الناس العقلاء أن يسيروا فى الأرض ، ويروا بأنفسهم مسارح دعوات الرسل ، ومصائر المكذبين من أقوامهم.

ثامناً : ثم يختم السورة أروع خاتمة بأروع كلمات وكما بدأها بقوله : ﴿**نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أحسَنَ القَصَصِ**﴾ وهى قصة يوسف ، وما تعاقب فيها من مواقف وأحداث ختمها بالدرس المستقى منها ؛ إذ يقول جل جلاله : ﴿**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه** ﴾ يعنى من الكتب السماوية . وتفصيل كل شىء يعنى وإيضاح كل أمر يهم الناس فى معاشهم ومعادهم ﴿**وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ وهذا هو مسك الختام فى الأهداف الإلهية التى من أجلها ينزل الله كتبه ويرسل رسله .

من بدائع الخلق ودلائل القدرة

هذه آيات كريمات افتتح الله بها سورة الرعد ، وسورة الرعد من السور المكية، موضوعها التوحيد ، ومسرح آياتها السموات والأرض ، وما فيها من بدائع الخلق ، ودلائل القدرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **المر . تلكَ آيَاتُ الكتَابِ وَالَّذى أُنزلَ إلَيكَ من رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤمنُونَ * اللهُ الَّذى رَفَعَ السَّموَاتِ بغَيرِ عَمَدٍ تَرَونَهَا ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمرَ كُلٌّ يَجرى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بلقَاءِ رَبِّكُم تُوقنُونَ * وَهُوَ الَّذى مَدَّ الأَرضَ وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسىَ وَأَنهَارًا ومن كُلِّ الثَّمرَاتِ جَعَلَ فيهَا زَوجَينِ اثنَينِ يُغشى اللَّيلَ النَّهَارَ إنَّ فى ذَلكَ لآيَاتٍ لقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفى الأَرضِ قطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّن أَعنَابٍ وَزَرعٌ وَنَخيلٌ صنوَانٌ وَغَيرُ صنوَانٍ يُسقَى بمَاءٍ وَاحدٍ وَنُفَضِّلُ بَعضَهَا عَلَى بَعضٍ فى الأُكُلِ إنَّ فى ذَلكَ لآيَاتٍ لِّقَومٍ يَعقلُونَ * وَإن تَعجَب فَعَجَبٌ قَولُهُم أَإذَا كُنَّا تُرَابًا أَئنَّا لَفى خَلقٍ جَديدٍ أُولَئكَ الَّذينَ كَفَرُوا برَبِّهم وَأُولَئكَ الأَغلاَلُ فى أَعنَاقهم وَأُولَئكَ أَصحَابُ النَّارِ هُم فيهَا خَالدُونَ** ﴾ [الرعد : ١ : ٥].

أقول وأسأل الله أن يفقهنا وإياكم فى كتابه ويكتبنا فى أوليائه وأحبابه :

أولاً : سورة الرعد ، من أول كلمة فيها إلى آخر كلمة تعرض دلائل قدرة الله لتوصل العباد بها إلى وحدانيته وعبادته ، وإلى التصديق بكتبه ورسله ، افتتحها ربنا بقوله : ﴿ **المر . تلكَ آيَاتُ الكتَابِ وَالَّذى أُنزلَ إلَيكَ من رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤمنُونَ** ﴾ واختتمها تبارك وتعالى بقوله : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَستَ مُرسَلاً قُل كَفَى باللهِ شَهيدًا بَينى وَبَينَكُم**

﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد : ٤٣] ولم تعرض سورة الرعد فى طياتها مصارع الأمم السابقة ؛ لتغرس الإيمان عن طريق الإنذار ، لكنها عرضت ملكوت الخالق المبدع ، وتقدير العزيز العليم ليكون الإيمان عن طريق التفكير المتأمل . يقول أستاذنا الإمام الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ : سورة الرعد من النصوص القرآنية التى أقف منها وقفة المتهيب ، أن أمسها بأسلوبى البشرى القاصر ، شأنها شأن سورة الأنعام ثم يقول : هذه السورة تطوف بالقلب البشرى وتعرض عليه الكون كله فى السموات المرفوعة بغير عمد، فى الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، فى الليل يغشاه النهار ، فى الأرض الممدودة وما فيها من رواسى ثابتة وأنهار جارية وجنات وزروع ونخيل مختلف الألوان والطعوم ينبت فى قطع متجاورة من الأرض ويسقى بماء واحد ، وفى البرق يخيف ويطمع ، وفى الرعد يسبح بحمد ربه ، وفى الملائكة تخاف وتخشع ، وفى الصواعق يصيب بها ربنا من يشاء وفى السحاب الثقال ، والمطر والأدوية ، وفى الزبد يطفو على الماء فيعجبك منظره كما يعجبك منظر أهل الباطل وشكلهم ، ثم لا يلبث أن يذهب جفاء ليمكث الماء الذى ينفع الناس .

ثانياً : إذا خلوت إلى سورة الرعد ترتلها فى تدبر وتأمل ؛ عرفت ربك بآياته ومخلوقاته ، وعبدته بآلائه وأفضاله وتجلت لك صفاته العلا تنطق بأسمائه الحسنى ، فأنت من سورة الرعد فى دروس من التوحيد الخالص تغرس الإيمان فى قلبك ، والإخلاص فى عبادتك ، والخشوع لمصورك ومبدعك .

والطابع البلاغى العام فى السورة كثرة التشبيهات والأمثال البيانية ، وكثرة الطباق والمقابلات المدهشة ، فمن التشبيهات التى أوردها : صورة الباطل على هيئة زبد يعربد فوق الماء ثم يذهب جفاء ، وصورة الحق منغمراً

تحت الزبد لكنه يمكث ويدوم ؛ لأنه ينفع الناس ، وهنالك تشبيه من يتبع الباطل بالأعمى، ومن يتبع الحق بالبصير ، وتشبيه الباطل بالظلمات والحق بالنور .

أما المقابلات الطباقية فكقوله : ﴿ يُغشي اللَّيلَ النَّهارَ ﴾ ،وقوله ﴿ هَلْ يَستَوي الأعمَى والبصيرُ أم هَل تَستوَى الظُّلُمَاتُ والنّورُ ﴾ وقوله : ﴿فأَمَّا الزَّبَدُ فيَذهَبُ جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ فِي الأرض ﴾ وسيأتي إن شاء الله كل شيء من هذا القبيل في موضعه .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ المر * تلكَ آيَاتُ الكتَابِ وَالَّذى أُنزِلَ إليكَ من رَّبِّكَ الحَقُّ ولَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ معناه : أن آيات القرآن المعجزة، والمكونة من حروف الهجاء تدل على أنه منزل من عند ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون على الرغم من اعترافهم بإعجاز القرآن ، وأن أحداً من أبلغ البلغاء لا يستطيع الإتيان بمثله ، وهذه الآية هي عنوان السورة ؛ إذ جميع السوره إثبات لنبوة محمد وصدق القرآن العظيم .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجرِى لأجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأمرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بلقَاءِ رَبِّكُم تُوقِنُونَ ﴾ هذه الآية والآيتان التاليتان لها عرض لمخلوقات الله العظيمة ، ودلائل قدرته التي تثبت أنه قادر على أن يحيي الموتى والعباد ليوم القيامة ، والآية هذه تعرض آيات القدرة في السماء ، بينما تعرض الآية التي تليها آيات القدرة في الأرض وما فيها من جبال وأنهار ، وأما الثالثة فتعرض للحياة النباتية المعجزة . لقد ذكر في هذه الآية أنه رفع السماء بغير عمد نراها ، وذلك إشارة أنه يمكن أن يكون لها عمد لا نراها ، ومن يدري لعل العمد التي تمسك

السماء أن تقع على الأرض هى الأنظمة الإلهية التى أخضع الله لها الأرض والسماء كنظام الجاذبية ، ومن المعروف أن الجاذبية تتناسب مع حجم الأجسام المتجاذبة ومع المسافة الواقعة بينها ، وقديماً كنا نحل مسائل الجاذبية على أساس قانون تعلمناه ، منطوقه أن قوة الجذب تتناسب طردياً مع حجمى الجسمين المتجاذبين ، وعكسياً مع مربع المسافة بينهما . هذا هو القانون ، ولكن من الذى أخضع الأجسام فى السموات والأرض لهذا القانون؟

ثم عرض فى الآية استواءه على عرش ملكوته وهو استواء تعجز عن إدراكه الأبصار ، ولا تنهض لتصوره العقول ، إنه استواء يليق بجلال الخالق العظيم ، الذى كل الأرض قبضته ، والسموات كلها مطويات بيمنه ، وذكر فى الآية آية ثالثة من قدرة الله وهى أنه سخر الشمس والقمر للإنسانية ؛ لكى تتمتع بالدفء والتوازن ، ولتعلم عدد السنين والحساب ، وختم الآية مشيراً إلى تدبيره الحكيم لأمر السموات والأرض وهو تدبير يغرس اليقين فى القلوب .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوجَيْنِ اثنَيْنِ يُغشِى الَّيلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ معناه : أن من دلائل قدرة الله فى الأرض أنه مدها ليستقر عليها البشر ، وجعل لها جبالاً تمسكها وتبثتها ، وأنهاراً جارية ، يحيى موات تربتها وتؤثر أيضاً فى توازنها ، والفرق بين الجبال والأنهار فى حفظ توازن الأرض : أن الجبال توازنها وهى ثابتة ، والأنهار تحدث توازنها وهى جارية ، وكل ذلك يحتاج إلى تفكير عميق لإدراك عظمة القدره ، والوصول من أثنائها إلى الوحدانية ، وفى الآية إشارة

علمية لم تعرف إلا حديثاً وهى : أن كل نبتة مثمرة لا تنضج ثمرتها إلا إذا لقحت من ذكر وأنثى ، وقد كان العرب يعرفون كيف تلقح النخلة من النخلة والزهرة من الزهرة ، ولكن جاء القرآن يؤكد أن كل النبات يتكون من ذكر وأنثى ، وأن كثيراً من النباتات تكون أجهزة التذكير والتأنيث في داخلها ، فتضغط نفسها ليلتقى التذكير والتأنيث ، ويتم اللقاح .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ معناه : أنك قد ترى قطعاً متجاورة من الأرض ، قد غرست أشجاراً أو زرعت زروعاً ، فتنوعت أشكالها وألوانها بقدرة الله بين أعناب ممتدة ، وزروع سندسية البسط ، ونخيل بعضها عدة نخلات تخرج من أصل واحد ، وبعضه نخلة واحدة من الأصل الواحد ؛ ومع أن النخيل كله نخيل ويسقى بماء واحد، إلا أننا نفضل بعضها على بعض في الثمار ، فمن أين جاء هذا التفاضل في عشرات الأصناف من أنواع الرطب والتمر ؟!

سابعاً : والآية الأخيرة : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد** .... ﴾ الآية ، هذه الآية معناها : إذا أردت أن تعجب فإن من أعجب العجب أن يرى الكافرون دلائل قدرة الله من حولهم في السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم ، وفي الأرض وما فيها من رواسى وأنهار ، وزروع وثمار ، ثم يقولون :كيف يحيينا الله بعد أن نصبح تراباً ؟ غافلين عن أنه أنشأهم أول مره ، وخلق كل ما يرونه وما لا يرونه من دلائل القدرة . وأبسط تفكير يكفى أن يرشدهم إلى أن الله قادر على أن يحيى الموتى ويجزيهم بأعمالهم .

فى رحاب قدرة الله ووحدانيته

هذه مجموعة أخرى من آيات سورة الرعد ، وهى تمضى فى عرض الدلائل الشاهدة على قدرة الله ووحدانيته ، وهى آيات يراها المكابرون ثم ينكرونها جهلاً وعناداً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَيَستَعجلُونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبلَ الحَسَنَةِ وَقَد خلَت من قَبلهِمُ المَثُلاتُ وَإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغفرَةٍ للنَّاسِ عَلَى ظُلمهم وَإنَّ رَبَّكَ لَشَديدُ العقَاب * ويَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَولاَ أُنزلَ عَلَيه آيَةٌ مِن رَبِّه إنَّمَا أنتَ مُنذرٌ وَلكُلِّ قَومٍ هَاد * اللهُ يَعلَمُ مَا تَحملُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغيضُ الأَرحَامُ وَمَا تَزدَادُ وَكُلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدَارٍ * عَالمُ الغَيب وَالشَّهَادَة الكَبيرُ المُتَعَال * سَوَاءٌ منكُم مَن أَسَرَّ القَولَ وَمَن جَهَرَ به وَمَن هُوَ مُستَخفٍ باللَّيل وَسَاربٌ بالنَّهَار * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ من بَين يَدَيه وَمن خَلفه يَحفَظُونَهُ من أَمر الله إنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بأَنفُسهم وَإذَا أَرَادَ اللهُ بقَومٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم من دُونه من وَالٍ * هُوَ الَّذي يُريكُمُ البَرقَ خَوفاً وَطَمَعاً وَيُنشئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعدُ بحَمده وَالمَلاَئكَةُ من خيفَته وَيُرسلُ الصَّوَاعقَ فَيُصيبُ بهَا مَن يَشَاءُ وَهُم يُجَادلُونَ في الله وَهُوَ شَديدُ المحَال** ﴾ [الرعد ٦ــ ١٣] .

أقول وأسأل الله أن يجعل القرآن الكريم شفيعاً لنا عند ربنا ، وحجة لنا بين يديه لاحجة علينا :

أولاً : كان الكفار من قريش إذا دعاهم رسول الله إلى الإسلام ، يقولون له : إن كنت صادقاً فأسقط السماء علينا كسفاً أو ائتنا بعذاب أليم ، وكان بعضهم يقولون ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا**

حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ فأنزل الله جل جلاله : ﴿ويَستَعجِلُونَكَ بالسيِّئَة قَبلَ الحَسَنَةَ وقَد خلَت من قَبلِهِمُ المَثلاَث......﴾ الآية . ومعناها : أن المشركين يطلبون منك العذاب ، ويستعجلونه ، وقد سلفت من قبلهم مصارع الأمم السابقة وعقوبات المكذبين الرادعة ، والله جل جلاله ، وإن كان غفاراً لظلم الناس لكنه حين يعاقب يكون عقابه شديداً أليما ، والمثلاث معناها : العقوبات الرادعة ، وما أجمل المقابلة البلاغية فى قوله تعالى : ﴿ وإن رَبَّكَ لَذو مَغْفرَة للنَّاس علَى ظُلمِهِم ﴾ وقوله ﴿وإن رَبَّكَ لشَديد العقَاب﴾ . وما أجمل الإطناب البلاغى فى قوله تعالى: ﴿ على ظُلْمِهم ﴾ إذ هو إطناب اعتراضى أفاد الإمعان فى المغفرة رغم الظلم ، وقد أكد ربك مقطع المغفرة بثلاث مؤكدات وهى : إن ، واللام ، وإطناب المبالغة ، وأكد مقطع العقوبة بمؤكدين هما : إن ؛ واللام ، ليدل على أنه إلى المغفرة أقرب ؛ خصوصاً وقد قدم المغفرة على العقوبة ، ولا غرو فهو جل جلاله أهل التقوى وأهل المغفرة ، أما تقديمه العقوبة على المغفرة في ختام سورة الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ إنَّ ربَّكَ سَرِيعُ العقَابَ وإنَّهُ لَغفُورٌ رَّحيمٌ ﴾ فلكى تكون خاتمة السورة هى المغفرة ، ثم إنه أكد المغفرة بإن وباللام فى قوله: ﴿ لغفور﴾ ولم يؤكد العقوبة إلا بكلمة إنّ .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَولاَ أُنزِلَ عَلَيه آيَةٌ مّن رَّبِّه إنَّمَا أنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِ قَومٍ هَاد ﴾ كان كفار قريش يطلبون من محمد ﷺ أن يأتيهم بمعجزات كما أرسل الأولون ، ونسوا أن محمداً ﷺ قد أرسل إليهم بآية ما مثلها فى الآيات ، ألا وهى القرآن الكريم يتلى عليهم فى كل حين فيملأ القلوب إيماناً ، وشتان ما بين معجزة خارقة للعقل تنتهى بنهاية مجلسها وبين معجزة تدوم أبد الدهر ، وتنور العقل والفكر

وفى هذا يرد الله تبارك وتعالى عليهم فى سورة العنكبوت فيقول : ﴿ أَوَ لَم يكفِهِم أنَّا أنزلنا عليكَ الكتابَ يُتلَى عليهم إنَّ في ذَلكَ لَرحمةً وَذكرَى لقَومٍ يُؤمِنُون ﴾ [العنكبوت : ٥١] وقبل هذه الآية الكريمة : ﴿ وَقَالُوا لَو أُنزِلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُل إنَّمَا الآيَاتُ عندَ الله وَإنَّمَا أنَا نَذيرٌ مُّبِين﴾ [العنكبوت : ٥٠]، والرد في آية الرعد هو نفس الرد فى سورة العنكبوت ، ﴿ إنَّمَا أنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَومٍ هَاد ﴾ ومعناها : أن وظيفة الإنذار هى عملك وأما أمر الهداية فهو موكول إلى الله جل جلاله . وفى قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَومٍ هَاد ﴾ تشير كلمة هاد إلى الله جل جلاله . ويلاحظ أسلوبان من أسلوب الحصر وهما: ﴿إنَّمَا أنتَ مُنذِرٌ﴾ وفيه قصر الله محمداً ﷺ على الإنذار والرسالة ، فما محمد إلا منذر ، ومن ثم فما يجوز له أن يتألم إذا لم يهتدوا ؛ لأن الهداية قصر على الله جل جلاله.

ثالثاً : والآيات الأربع التالية تتحدث عن علم الله الذى لا حدود له ولا نهاية ، وإنما أورد علم الله فى هذا الموضع لأن السورة كلها تتعلق بالعقيدة والتوحيد ، والعلم من صفات الله العلا، والعالم والعليم وعلام الغيوب من أسمائه الحسنى، يقول الله تعالى:﴿ اللهُ يَعلَمُ مَا تَحمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأرحَامُ وَمَا تَزدَادُ وَكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِمِقدَارٍ *عَالِمُ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَال * سَوَاءٌ مِّنكُم مَّن أسَرَّ القَولَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُستَخفٍ بِاللَّيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ يَحفَظُونَهُ مِن أمرِ اللهِ إنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأنفُسِهِم وَإذَا أرَادَ اللهُ بِقَومٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَال﴾ ومعنى الآيات الكريمة: أن الله جل جلاله يعلم كل شىء وضده، فبمجرد استقرار النطفة فى الرحم يعلم الله جل جلاله ما تحمله الأنثى، وهو يعلم نقص الأرحام حين تسقط ما فيها من جنين، ويعلم زيادتها

بنمو الجنين فى كل لحظة ، وكل شىء عند الله بقدر حكيم وبمقدار معلوم، ثم إن علم الله جل جلاله لا تؤثر فيه الحواجز ولا النور والظلام، فالمستخفى منكم بالليل واضح فى علم الله كالبارز جهرة فى نور النهار ، ومن يهمس بالقول ويسر به هو كمن يجهر بالقول ويعلنه ، وكل إنسان قد وكل به ملائكة تعقب على أعماله ، وتحفظه بأمر الله إلى أن يأتى أجله ، وقد ورد فى الأثر أن على كل إنسان عشرين ملكاً منتشرين قدامه وخلفه ، لكل واحد منهم عمل معين من أعمال الكتابة والحفظ ، وكلمة من ﴿ أمر الله ﴾ معناها : بأمر الله أو عن أمر الله ، وقد ختم الآية بحكمة ليتها تنقش فى عقولنا ، ومعناها : أن الله لا يغير ما بالقوم من نعمة حتى يغيروا استقامتهم إلى انحراف ، ولا يغير ما بقوم من سوء حتى يبدلوا انحرافهم استقامة ، وإذا صدر أمر الله بعذاب قومه فلا يمكن أن يرده راد أو ينصرهم من دون الله ناصر .

وقد لاحظ المفسرون كثرة ورود الطباق فى آيات العلم هذه خاصة وفى آيات سورة الرعد بشكل عام ؛ وذلك لأن علم الله جل جلاله لا يتفاوت بالأضداد ، وانظر إلى الألفاظ المتقابلة : ﴿ **مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ** ﴾ ﴿ **الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ﴾ ، ﴿ **مَّنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ** ﴾ ، ﴿ **وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ** ﴾ ، ﴿ **من بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** ﴾ ، ﴿ **لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا** ﴾ ؛ ولهذه المقابلات أثرها فى النفس لما تحدث من مفاجأة سببها تصور الشىء وضده .

رابعاً : والآيتان التاليتان تتحدثان عن آية من دلائل قدرة الله فيها طباق عجيب ، فيها الرجاء كما فيها الخوف ، وفيها الرزق كما فيها الموت ، هذه الآية الباهرة هى إنزال المطر وما له من مقدمات الرعد والبرق : ﴿ **هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ**

وَهُم يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ ﴾ جاء فى مناسبة نزول الآيات : أن عامر بن الطفيل قدم مع رهط من العامريين فيهم أربد بن ربيعة ، أخو لبيد الشاعر فأراد عامر أن يسلم ، ولكنه اشترط على رسول الله ﷺ ، أن يكون له الأمر بعد وفاة الرسول ﷺ أو أن يتقاسم ملك العرب هو ورسول الله ﷺ ، فيكون للرسول ملك الحضر ولعامر ملك الوبر أو البادية ، فأجابه رسول الله ﷺ : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، واشترك فى المجادلة أربد فنزلت عليه صاعقة أحرقته ، وأما عامر فسلط الله عليه داء خبيثاً أذله وانتهى بموته ، ومعنى الآيات : أن الله جل وعلا هو الذى يريكم البرق بين يدى المطر فيحدث فى قلوبكم خوفاً من الصواعق والدمار وطمعاً ورجاء فى الرحمة والمطر ، ثم لا يكاد البرق ينتهى حتى تتألف السحب فتصبح ثقيلة بالماء ، ويكون رعد هائل ما هو إلا تسبيح بحمد الله ، يتلوه تسبيح من الملائكة ، سببه خوفهم من جلال الله ، ومع روعة المشهد تجد كثيراً من الناس يجادلون فى الله ، فلا غرو أن يرسل الله الصواعق ليصيب بها من يشاء وتنطق إذ ذاك بشدة محاله ، أى بعظمة قدرته وحوله . والطباق أيضاً رائع فى هذه الآيات وانظر إلى قوله تعالى ﴿ **خَوفًا وَطَمَعاً** ﴾ ﴿**ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته** ﴾ ، وما أروع كلمة ﴿ **الثقال** ﴾ لأن سحابة واحدة قد تنتشر فى أفق قوم ربما تدمر المنطقة كلها بفيضان ، ولا تقدر بآلاف الملايين من الأطنان ، فسبحان من رفعها بقدرته من البحر إلى السماء ، وتبارك الذى أودعها كل هذا القدر من الماء ، وفى قوله : ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعدُ بِحَمده وَالمَلائكَةُ من خيفَته** ﴾ درس فى التوحيد ، فقد كان بعض الأقوام يعبدون المَلَائكة كَملك الرَعدَ ، والله جل جلاله هنا يبين لهم أن الرعد نفسه يسبح بحمد الله ، وأن الملائكة أنفسهم يخافون ، وربما صعقوا للكلمة من أمر الله ، فيا من يعظم ملكاً أو جناً أو بشراً ، أو خلقا دالاً على العظمة اترك كل هذا ، واعبد الذى خلق الملائكة والجن والبشر، وكل ما فى السموات والأرض من مظاهر القدرة ودلائل الوحدانية .

الله وحده .. هو المستحق للعبادة

هذه آيات من سورة الرعد تضرب أمثالاً ، أى تورد تشبيهات بلاغية للحق متمثلاً فى التوحيد ، والرب الواحد ، وللباطل متمثلاً فى الشرك والأرباب الذين لا يضرون ولا ينفعون .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٤ ـ ١٧] .

أقول وأسأل الله لى وللإخوة القراء ولسائر المسلمين يقيناً بالقرآن لا ينهض له شك وإيماناً بالله لا يخالطه شرك :

أولاً : اشتملت الآية على عدة صور من البيان الرائع المعجز ، ولهذا ختمها الحق جل جلاله بقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ ، والتشبيهات التى يوردها القرآن الكريم يكون غرضها فى الغالب زيادة المعانى وضوحاً، وخصوصاً حين تشبه شيئاً متصوراً بشىء محسوس .

ثانياً : في قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونه لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ معناه : أن الذى يدعى بحق ويملك استجابة الدعاء بقدرته هو الله لا غيره . أما المعبودات التى تدعى من دونه كالأصنام والبشر والجن والإنس، فكل هذه لا تستجيب لمن يدعوها بشيء ولا تفيده إلا بمقدار ما يستفيد إنسان جالس على شفا بئر يمد يده إلى الماء ليشرب ولكن لا تستطيع أن تصل إلى الماء أو أن توصل الماء إلى فمه ؛ ولهذا فكل دعاء يوجه لغير الله ؛ ويصرف لغيره إنما هو فى ضياع وضلال . وما من معبود يستجيب الدعاء ويجيب المضطر ويكشف السوء ويهب الخير إلا الله جل جلاله .

والتشبيه تمثيلى رائع : فهنا إنسان قائم بين يدى صنم يدعوه منطلقاً فى دعائه من جهالة جهلاء ، فيضيع جهده بلا طائل ، ويذهب دعاؤه سدى ضائعا ضالا . وهنا فى المقابل مشبه به وهو إنسان جالس على حافة بئر لا ينال ماؤه إلا برشاء ، والإنسان يمد يده إلى الماء فلا يكاد يلمسه ، وهو يريده أن يبلغ فاه والتشبية تمثيلى ؛ لأن وجه الشبه فيه صورة ذات جزئيات منها موقف الحائر، ومنظر الجهد الضائع ، والرهق المضنى وانتظار المستحيل ، وخيبة الرجاء، والجرى الواهم وراء السراب ، وعلى الجملة فإنك حين تستحضر صورتين أولاهما لإنسان جاهل مشرك يمد يديه ضارعاً بين يدى معبود مخلوق ، والثانية صورة إنسان ظمآن يبسط يده إلى ماء بعيد ليبلغ فمه ترى أن وجه الشبه صورة وليس أمراً مفرداً .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ آية سجود إذا تلاها من يقرأ القرآن ، فيشرع له أن يسجد سجدة كسجود الصلاة يكبر لها عند السجود ويكبر له فى بعض الأقوال عند الجلوس منها ، ولكن حين يسمع سامع آية سجود من قاص ، أو واعظ ، أو فى سياق مناسبة تعليمية ، فإنه بفضل الله يعفى ، ومعنى الآية الكريمة التى نحن بصددها : أن كل من فى السموات والأرض من مخلوقاته ما هى إلا شواهد قائمة تنطق بعظمته ، وتسبح بحمده وتخبر بغير لسان بوحدانيته وقدرته ، فكأن جميع مخلوقاته له سجود له فى محراب العبودية ، إنها تسجد له طوعا منقادة له بالعبودية ماعدا الكافرين فإنهم يسبحون بحمده كرهاً لأن خلقهم يشهد بوحدانيته وقلوبهم تنكرها ، والشىء إذا سجد سجد ظله والظل نفسه وما فيه من انتقال عن اليمين والشمائل هو أيضا شاهد على الوحدانية ، ومن ثم فكل شىء وظله يسجدان لله ، فى الغدو حين يكون الظل جهة الغرب ، وفى المساء حين يتحول الظل جهة الشرق . لقد ورد تسبيح المخلوقات وسجودها لربها فى عدة آيات من كتاب الله كقوله تعالى فى سورة النور ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وكقوله فى سورة الإسراء : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ وثمة آية السجود فى سورة النحل ، وآية السجود الأولى فى سورة الحج ، وغيرهما مما يثبت أن لكل مخلوق من مخلوقات الله تسبيحاً خاصاً قد لا نفقهه ، ولكن علينا أن نؤمن به.

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّه ...... ﴾ إلى آخر

الآية الكريمة . معناها : اسألهم يا محمد من رب السموات والأرض ، وأجب بأنه هو الله ، لأن المشركين يؤمنون بتوحيد الربوبية ، ثم اسألهم كيف تقرون بأنه هو الخالق ، ثم تتخذون من دونه شركاء ترجون نصرتهم ، وهم لا يملكون حتى لأنفسهم أى منفعة أو مضرة ؟! ثم أخبرهم أن الأعمى ليس كالبصير، وأن الظلمات ليست كالنور ، وأن المشرك المتخبط فى شركه وجهله وضلاله المكب على وجهه ليس كالمؤمن البصير المستنير الماشى على صراط مستقيم . واسألهم هل شركاؤكم هؤلاء خلقوا مخلوقات كمخلوقات الله ، فتشابهت مخلوقاتهم ومخلوقاته عليكم ؟ وأخلص أخيراً بنتيجة الكلام وزبدته وهى أن الله هو خالق كل شيء ، ومن ثم فهو المتوحد بصفات الجلال والكمال، وهو القاهر فوق كل العالمين .

وفى الآيات صورة جميلة موضحة : كتشبيه المؤمن ضمنياً بالبصير ، والإيمان بالنور ، وكتشبيه الكافر تشبيها ضمنياً بالأعمى ، والشرك بالظلمات . ويلاحظ تتابع الاستفهام البلاغى الجميل كقوله تعالى : ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وغرضه لفت الأنظار إلى حقيقة بديهية وكقوله : ﴿ **أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا**﴾ وغرضه الإنكار والتوبيخ ، كقوله : ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ**﴾ وغرضهما النفى ، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿ **أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**﴾ غرضه النفى الساخر بعقولهم .

رابعاً : فى الآية الكريمة الأخيرة يضرب الله مثلاً للحق ، والباطل فى تشبيه رائع البلاغة : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا**

رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ وشرح المثل أو التشبيه كالغثاء إذا سالت الأودية وهدر موجها رأيت على وجه الماء زبداً يعجبك شكله أبيض طافياً مضطرباً يغطى ما تحته ، وإذا صهرت ذهباً لتشكله حسب طلبك، رأيت فوقه زبداً يتكون مما يخالط الذهب من أخلاط رخيصة ، تراه أبيض أيضاً يغطى تحته الذهب ثم لا يلبث الزبد الذى كان يشد بصرك وانتباهك أن يرمى بلا فائدة ؛ ليظل الماء الذى ينفع الله به والذهب الذى يعرف قدره ، إنهما مثلان أو تشبيهان ضربهما الله للحق الذى يبقى مهما اختفى تحت زيف الباطل وبهرجه والباطل الذى يتلاشى مهما عربد من فوق الحق .

إن هذا التشبيه فى غاية الواقعية فأهل الزيف والباطل فى الأمة تراهم فى كثير من الشعوب يشكلون من أنفسهم واجهة متصدرة ، وجنود الأمة الحقيقيون تراهم كرصيد الذهب من وراء الأوراق مختفياً لا يظهر إلا فى الملمات لكن النتيجة الحتمية هى أن الحق هو الذى يدوم ؛ لأنه اسم الله وصفته ، والباطل هو الذى يزول ؛ لأنه سلاح الشيطان وما أجمل ما تتابع فى الآيات من طباقات حلوة كقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ وكقوله : ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ، و ﴿الْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ ،﴿ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ ، ﴿الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ، ﴿ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ ، ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ ﴿ يَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ فسبحان من هذا كلامه .

حول صفات المؤمنين وجزائهم عند الله

هذه ست آيات من سورة الرعد ، تجلى خصائص المؤمنين وصفاتهم ، وأعمالهم المصدقة لإيمانهم ، وما أجمل أن يتدبر الإنسان هذه الآيات ليرى كم منها تتحلى به نفسه ويتجلى فى أخلاقه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ١٩ ـ ٢٤].

أقول وأسأل الله أن ينظمنا فى سلك المؤمنين ، ويدخلنا برحمته فى عباده الصالحين :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ هذه الآية فيها حشد هائل من الإشارات البلاغية . إن معنى الآية الكريمة : هل المؤمن الذى آمن بما أنزل الله ، وعلم علماً يقيناً أنه الحق ، مثل الأعمى الذى كفر بالله وظل متخبطاً فى شركه ؟! ثم يختم الآية بتذييل مناسب للموازنة وهو قوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ ومعناها : أن الذكرى لا تنفع إلا أولى العقول ، أما ذو البصائر المطموسة ، فلا تنفعهم الذكرى ، إن فى كلمة ﴿أعمى﴾ صورة بليغة عظيمة ، فالله جل جلاله يشبه المشرك المتخبط فى ظلام

الشرك بالأعمى وفى أكثر من موضع يضرب الله جل جلاله للمؤمن والكافر مثلاً من البصير والأعمى ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة فاطر : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴾ : ويقول جل جلاله فى سورة الأنعام : ﴿ أَفَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ومعناها : أفمن كان كافراً يتخبط فى جهله وضلاله ، فعلمناه وجعلنا له نوراً من العلم والإيمان هل هذا كمن هو أعمى جاهل مشرك ؟! ثم إن الاستفهام البليغ المؤثر، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ هو استفهام يفيد النفى القاطع ، وما أجمل إطناب التعليق الواقع فى آخر الآية : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ ، وأولو الألباب هنا هم المؤمنون ؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين .

ثانياً : والآيات الخمس التالية كلها فى وصف المؤمنين أخلاقهم وعقباهم الخيرة فى الجنة ، وقد وصفهم ربهم جل جلاله فى الآيات الكريمة بسبع صفات هى فى الحقيقة جوامع الأخلاق .

الصفة الأولى : أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون أى ميثاق أخذوه على أنفسهم ، وخلاصة الصفة أنهم يوفون بالعهد . والحق أن الوفاء بعهد الله كلمة موجزة لكنها هائلة المعنى ، فالمؤمن منذ أعلن إسلامه أعطى الله عهداً أن يلتزم أوامره ، ويجتنب نواهيه وتعهد أن يلتزم حدوده ، ويؤدى حقوقه ، وفرض على نفسه أن يتمسك بكل طيب من الأخلاق ، ويهجر كل خبيث منها ؛ ولهذا قلت : إن الصفات المذكورة فى الآيات هى جوامع الأخلاق والفضائل والعبادات.

الصفة الثانية : أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ممن تربطهم بهم أواصر الرحم ، وأخوة الدين ورابطة الجوار ووشائح المحبة فى الله . إنهم أهل صلة لكل

من له حق وبخاصة الأرحام ، والحقيقة أن الله جل وعلا أمر بتواصل واسع المدلول بين المؤمن ، وكل من حوله بداية بالرحم وانتهاء بالبشرية التى جعلها الله شعوباً ، وقبائل لتتواصل وتتعارف وتتخذ التقوى مقياساً لكرامتها ، والمؤمن وَصول لكل ما تجب صلته ، لا يقصر فى وصل ما أمر الله به أن يوصل .

والصفة الثالثة : مخافة الله وخشية الحساب ، وهى صفة تحكم سلوك الإنسان وتغرس فى قلبه مراقبة ربه ، فهو أينما توجه لا يأتى عملاً ولا يتصرف تصرفاً إلا بعد أن يعرضه على ميزان الخشية والمراقبة ، ومن هنا تجد كل أعماله وتصرفاته تصنع على عين الله ، وطبقاً لمرضاته مما يجعله فى نهاية المطاف عبداً ربانياً ينظر بنور الله .

والصفتان الرابعة : الصبر ، وهو من أعظم الفضائل ؛ لأنه مظهر الرضا بقضاء الله ، مهما عظم فيه البلاء وطال الامتحان ، ومن أجل ذلك يوفى الله الصابرين أجرهم بغير حساب . ويوصى بالصبر فى محكم آياته فى نيف وسبعين موضعاً من كتابه الكريم .

والصفتان الخامسة والسادسة : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصدقة ، فى السر والعلانية ، وهذا يعنى القيام بجميع أركان الإسلام ، والعبادات المفروضة ؛ لأن المحافظ على صلاته ، المؤدى لزكاته ، الحريص على الإحسان ، لن يقصر فى بقية أركان الإسلام كالصوم والحج .

أما الصفة السابعة والأخيرة : فهى عظيمة ما يلقاها إلا كل صابر عظيم الحظ من مثوبة الله ألا وهى ، مقابلة السيئة بالإحسان ، وذلك مما ينشر فى المجتمع المحبة والإخاء ، أما حين تقابل الإساءة بمثلها فإذ ذاك يغصُّ المجتمع بالسيئات وتعربد فيها العداوات ، ويموج بالانتقام والتشفى بالثأر .

ثالثاً : إذا اجتمعت فى المؤمن هذه الصفات ، يرشده إليها دينه وعقله ، استحق أن ينال من الله جل جلاله حسن الخاتمة وكرم العاقبة ، وأمن المنتهى ، لأنه ينال الجنة حيث رضوان الله ونعيمه الذى لا يزول ويتم الله فيها نعمته على المؤمنين فيجمع شملهم بالمؤمنين من ذرياتهم ، وآبائهم وأزواجهم ، وقد يتساءل متسائل:

ألا يتأثر المؤمنون ويحزنون فى الجنة إذا تفقدوا بعض أرحامهم وأحبائهم فيها، فعلموا أنهم صاروا إلى النار بكفرهم ؟ والجواب : أن الله جل جلاله يحول أهل الجنة عباداً ربانيين لا يحبون إلا من أحب الله ورسوله ، بل إنهم ليبرؤون من كل كافر ولو كان أبا أو ابناً أو أخاً أو قريباً . ومن هنا تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه ، وتبرأ نوح من ابنه حين علم أنه عمل غير صالح .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَاب سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار ﴾ ، أى : تأتيهم الملائكة بالتحف والهدايا من الله من جميع الأبواب وتحييهم قائلة لهم : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم ﴾ أى: بلغكم الله الأمن والسلام بصبركم ، فنعم ما أورثكم من دار الخلد.

إن المؤمن حين تتبرج له الدنيا مغرية إياه بالمعاصى والحرام فيردها بالصبر عن محارم الله يكتبه الله فى الصابرين ، وتذكره الملائكة فى الجنة بصبره، لترفع بذلك من معنويته ، وإلا فما من أحد يدخل الجنة بعمله، إنما هو كرم الله ومنه وجوده الذى لا يحد . وفى الأثر عن على بن الحسين رحمه الله : إذا كان يوم القيامة نادى مناد فى أهل الموقف : ليقم أهل الصبر فيقوم ناس من الناس بإلهام من الله، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون: إلى

الجنة ؟ فتقول لهم الملائكة : قبل الحساب ؟ فيقولون : نعم ، فتقول لهم الملائكة : ومن أنتم ؟ فيقولون نحن أهل الصبر صبرنا أنفسنا على طاعة الله وصبرناها عن معاصى الله ، وصبرناها على مصائب الدنيا ، فتقول لهم الملائكة سلام عليكم بما صبرتم ، وهذا الأثر مناسب مع قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

خامساً : ونعود إلى ما تميزت به سورة الرعد من تكرر الطباق ، وهو ذكر المعنى وعكسه ؛ وذلك لأنها فى مجموعها عرض للعقيدة وإثبات للتوحيد الساطع البراهين ، ودحض للشرك الذى لا سلطان له ولا برهان ، وفى الآيات نرى طباقاً بين : ﴿ أفمن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنــزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ وقوله : ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ وبين ﴿ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّه ﴾ ، ﴿ وَيَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّه ﴾ التى وردت في آيات لاحقة طباق وبين ﴿ ويصلون مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَنْ يُوصَلَ ﴾ و ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَن يوصل﴾ طباق آخر ، وبين قوله تعالى :﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ وقوله:﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ طباق رابع ، وبين قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الــدَّار ﴾ وقوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الــدَّارِ ﴾ طباق آخر ، وسورة الرعد يتكرر فيها هذا ؛ لأن التوحيد لا يبدو سطوعه وجماله إلا إذا قيس إلى الشرك وما يكتنفه من قبح وظلام .

اللهم إنا نسألك خلوص التوحيد ، وصفاءه من كل شائبة ، ونعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

حول القرآن والرسول والوحدانية

هذه ثلاث آيات من سورة الرعد ، وجدت فى ألفاظها ومعانيها ما يحتاج إلى جلاء وتفسير ، وتتعلق الآيات الكريمات بالموضوع الكبير لسورة الرعد وهو العقيدة ، وتدور أولاها : حول القرآن وصدقه ، والثانية : حول الرسول وتصديقه، والثالثة : حول الوحدانية ، وتعرية الشركاء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٣١ ـ ٣٣] .

هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض أسرارها البلاغية والمعنوية :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ . هذه الآية إشادة بعظمة كتاب الله وعظمة تأثيره ، وقد حذف فى الآية جواب شرط لو والتقدير : ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن الذى أنزل على محمد ، ولكن اقتضت حكمة

الله ألا يفعل القرآن هذه الأمور العظيمة فى الظاهر ؛ لأن تسيير الجبال ، وإحداث الانهيارات فى الأرض ، وتكليم الموتى كل هذه وجميع الأمور العظيمة وغيرها هى بيد الله وحده ، وحذف جواب الشرط بعد شائع فى كلام العرب ، كقولهم : لو كان يطاع لقصير أمر والتقدير : لو كان يطاع لقصير أمر لما حصلت المصيبة ، وكما يقول القائل : لو كانت السعادة تشترى لو أن حياة تدوم أبداً ، والحق أن القرآن الكريم صنع أعاجيب لا تقل عن تسيير الجبال وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى ، فالقرآن صنع فى النفوس ما لا تستطيع قوة أن تصنعه ، وإن شئت فانظر ما صنع بالعرب وماذا أحدث فى عقولهم ، وعزائمهم وقلوبهم حين أخضع لهم كل عصى وجبار ، لقد غير بالقرآن مسيرة الدنيا وأخذ بيدها من شفا جرف كاد ينهار بها فى نار جهنم إلى عالم جديد من الحياة الفاضلة حيث العدل والمساواة والرحمة والإحسان .

وفى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ قال كثير من المفسرين : إن كلمة ﴿ يَيْأَسِ ﴾ معناها : يعلم ويتبين فى لغة النخع وهوازن ، حكاه الجوهرى فى الصحاح ، ورواه ابن عباس ، وورد فى الشعر العربى (يئس) بمعنى : علم وتبين . ويصبح المعنى : ألم يعلم المؤمنون أن الله جل جلاله لو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولكن حكمة الله هى التى اقتضت اختلافهم ؛ ولهذا فهم يتمارون بالقرآن وصدقه وتوجيهاته العظيمة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ معناه : سيظل الذين كفروا يرون القوارع والمهالك الزاجرة تصيبهم ، وتصيب من حولهم لكى يتعظوا بهذه النذر المروعة ، ولكن حين لا يتعظون ، ولا يرجعون إلى الإيمان فإذ ذاك يأتى وعد الله ، وسنته التى لا تتبدل ألا وهى إهلاك الظالمين ، والله جل جلاله لا يخلف ميعاده ولا يبدل سنته .

وخلاصة هذه الآية العظيمة من سورة الرعد : أن القرآن الكريم هو أعظم الكلام ، وأشده قوة وتأثيراً ، ولو أن كلاماً بليغاً حرك الجبال ، أو صدع الأرض، أو استنطق الأموات ، لما كان إلا هذا القرآن ؛ لكن الأمر فى كل هذه الأمور لله وحده ، أما هؤلاء المشركون الذين يكفرون بالقرآن فسوف تظل تقرعهم القوارع أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى أجلهم ، وعندئذ تتحقق فيهم سنة الله بعذابهم وتدميرهم ، وهذا هو ما حل بمكة إذ أخذ أهلها بالسنين، ثم هلك صناديدهم فى بدر وما بعدها ، والله جل جلاله لا يخلف الميعاد .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ تعزية لرسول الله ﷺ فى غمار أحزانه ، وفقده لأحبائه واستهانة الطواغيت بشأنه ، ومضمون التعزية لرسول الله ﷺ أن رسلاً كثيرين قد تعرضوا مثلك للاستهزاء ، فأمددت المستهزئين فى طغيانهم حتى تمادوا ، وإذا ذاك أخذتهم ذلك الأخذ الأليم الشديد الذى علمته وعلمه الناس، وما أروع ذلك الاستفهام البلاغى فى قوله تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾، وهو استفهام لا يحتاج إلى جواب ، إنما هو يقرر حقيقة معروفة ، وهى أن الله جل جلاله إذا أخذ القرى بظلمها كان أخذه لها أليماً وعقابه لها شديداً ، وقد تكرر مثل هذا الاستفهام فى سورة القمر بعد ذكر مصارع الطغاة، إذ بعد ذكر العذاب يقول جل جلاله : ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ [القمر : ١٨] والجواب البديهى : لقد كان عذاب الله شديداً ، وكانت نذره هائلة ، وكثيراً ما يتكرر مثل هذا الاستفهام فى كلامنا كأن يقول أب لابنه : كيف كانت تلك الهدية التى نلتها لنجاحك ؟ ويقول لابنه الآخر : كيف كان ذلك الخزى الذى حل بك لإهمالك ؟ وهما سؤالان لا يحتاجان إلى إجابة لكنهما يقرران حقيقة معروفة بالبديهة .

ثالثاً : هذه الآية الثالثة عجيبة حقاً طافحة بالألوان البلاغية ، والأساليب الإنشائية ذات الأغراض الطريفة ، ومن هنا فلابد من وقفه متأملة عندها نعيش أثناءها فى ظلال إمتاع بلاغى مدهش حقاً .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّـذِيـنَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

الإشارة البلاغية الأولى فى الآية : هذا الاستفهام التعظيمى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ومعناه : هل ذلك الإله العظيم الذى يهيمن على كل نفس قيماً عليها وعلى كل عمل تعمله ، وعلى كثرة ما فى العالمين، من نفوس فهو لا تعزب عنه خافية منها ، هل هذا الإله القادر القاهر القيوم الحفيظ يجعل له شركاء ؟ وفى الكلام إيجاز حذف ، والتقدير : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ يمكن أن يكون له شركاء من الحجر والبشر ؟

الإشارة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُم ﴾ معناه : ومع اعترافهم بقيام الله عليهم وعلى أعمالهم فقد اختلقوا لله شركاء ، ثم يأتى هذا الأمر البلاغى : ﴿ قُلْ سَمُّوهُم ﴾ ومعناه : قل يا محمد للمشركين : اذكروا أسماء أولئك الشركاء ، إن أسماءهم نفسها لا تدل على شىء من الصفات العلا كالهيمنة والعلو والكبرياء والخلق والرزق والإحياء والإماتة ، والغرض من الأمر ﴿ سموهم ﴾ هو احتقار أولئك الآلهة خصوصاً وقد كان للمشركين عدد كبير جداً من الأصنام ليس لها أسماء أبداً ، وهم يعبدونها على مجهوليتها وجمودها وهوانها .

الإشارة الثالثة : هذان الاستفهامان المحرجان حقاً :

﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ ﴾ ومعناه : أم أنكم تخبرون الله بأمر من أمور الأرض قد خفى عليه فهو لا يعلمه ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ ومعناه : أم أنكم تخبرون الله بأمر واضح ظاهر غير خفى ، كلتا الحالتين فأنتم لستم على شيء ؛ لأنه جل جلاله لا يخفى عليه شيء من خفيٍّ ولا سارب . والحق : أن هذين الاستفهامين فى قمة من الصياغة المعنوية ، غرضهما دحض حجج الكفار والسخرية بهم وبمعبوداتهم .

الإشارة الرابعة : هى هذا الحكم الإخبارى الذى علق به على مفارقات الشرك وضعف عقول المشركين ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ وغرض الخبر فى المقطعين الأولين تقبيح عمل المشركين وفى المقطع لأخير ، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ حكمة تعليمية بالغة من شاء أن ينهل من نبع البلاغة الصافى ومن منهلها العذب الشافى ، فليقرأ هذه الآيات وأمثالها من كتاب الله ؛ ليرى كيف يسمو هذا الفرقان بالأذواق والأخلاق وبالعقول والأفهام.

القرآن خاتم الكتب والمهيمن عليها

هذه أربع آيات من سورة الرعد ، الأوليان منهما : حول القرآن مهيمناً على الكتب السماوية ، والثالثة : حول رسول الله ﷺ خاتماً للأنبياء ، والرابعة : حكمة تتعلق بالقضاء والقدر ، والآيات كلها قبس من نور العقيدة ونهلة من ينابيع الإيمان .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٦ ـ ٣٩] .

هذه الآيات فيها مواطن تحتاج إلى جلاء كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ ، ومثل قوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ . وبعض الآيات لها مناسبة ؛ ولهذا فسوف أقف عند هذه المواضع وقفة متأنية ، فأقول وبالله التوفيق :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ . هذه الآية الكريمة توضح موقف فئتين من القرآن الكريم : أولاهما عبر عنها بقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ، والثانية سماها : ﴿ الأَحْزَابِ ﴾ وقد تتبعت فى القرآن الكريم عبارة : ﴿ وَالَّذِينَ

آتَيْنَاهُمُ الْكِتَاب﴾ فوجدتها تختلف عن عبارة ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب ﴾ وعبارة : ﴿ أَهْلُ الْكِتَاب﴾ إن عبارة ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَاب﴾ تعنى عدداً من علماء أهل الكتاب أكرمهم الله بعلم الكتب السماوية السابقة ، من أمثال : عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ، وعدد آخر ممن ورثوا كتاب الله وفهموه ، وقد مر على بعضهم سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ فى رحلة إسلامه ، وفى هؤلاء وأمثالهم يقول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه ﴾ [البقرة : ١٢١] ويقول تبارك وتعالى فى سورة المائدة: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [البقرة : ١٢١] ويقول جل جلاله فى البقرة والأنعام : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٦] أى يعرفون محمداً وصفاته كما يعرفون أبناءهم ويقول فى سورة التوبة :﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين﴾ [الأنعام : ٦] وفى سورة القصص يقول تبارك وتعالى:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُون ﴾ [القصص: ٥٢] وفى سورة العنكبوت يقول الله تعالى: ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء﴾ (أى ومن مشركى مكة)﴿من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ [العنكبوت: ٤٧] ، وإذن: فالعبارة القرآنية : ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ تعنى: عدداً من أحبار اليهود ، ورهبان النصارى أكرمهم الله بعلم الكتاب ، فكان أولئك القوم ينتظرون محمداً، ولما بعث عليه الصلاة والسلام، وتلا على الناس ما أنزل إليه كان أولئك العلماء يبتهجون ويفرحون بالتنزيل القرآنى، لأنه يوافق ما عندهم من علم الكتاب، أما الأحزاب ـ وهم مجموعة القبائل الموجودة فى مكة وما حولها بزعامة قريش ـ فقد كان منهم من إذا اطلع على القرآن أنكر بعضه واستحسن البعض الآخر ، ومن هنا أمر الله جل جلاله نبيه محمداً ﷺ ألا يقبل

أن يؤمن ببعض ، ويكفر ببعض ، ومن ثم ختمت الآية بهذا الأمر الإلهى للنبى الكريم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَئَابِ﴾ ومعناها : أعلن يا محمد للناس أن العبادة إنما هى لله ، وأن الشرك مرفوض جملة وتفصيلاً ، والله جل جلاله هو وحده المستحق للعبادة، ومن ثم فدعوتى إليه لا إلى غيره ، ومآبى إليه وحده لا شريك له وفى ختام الآية أسلوبان من أساليب الحصر البلاغى : ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ مَئَابِ ﴾ بتقديم الجار والمجرور، وذلك لإفراد الرب جل جلاله بالدعوة والمآب .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ كلمة ﴿ حُكْمًا ﴾ هنا معناها : بيان بليغ ، وفى الأثر : إن من الشعر لحكماً ، أى بلاغة ، وتقول العرب : كلامه حكم ، أى : بليغ قيم ، والحق أن عدداً كبيراً من عقلاء العرب ، وشيوخهم فى الجاهلية كانت لهم أحكام جادة يتعارفون فيها على ما فيه العدل والكرم والرجولة والوفاء والقول الموزون فى المجامع وينكرون فيها المهاترة والظلم والكلام الساقط المنحدر ، وكانت لهم مثل عليا يتعارفون عليها حتى لقد عرف البعض كلمة الطيب من المآكل وما تستطيبه أذواق العرب ، والخبيث ما تستخبثه أذواق العرب ، ولو قرأت شعر العرب لوجدت لحكمائهم حكماً فى منتهى السمو الذوقى ، ومن ثم فقد طلع القرآن على العرب بإقرار أخلاق الكرام منهم، وأحكام العقلاء منهم ، وأعلن رسول الله ﷺ أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق وأن للأخلاق عند العرب بدايات سوف يتممها الإسلام، ولعلك لو قرأت قول زهير يصف مجالس العقلاء من قوم ممدوحه لعرفت أن للعرب حكما ذوقية يستحق أن يشار بها ، وحسبك أن تستمع قول

الحطيئة على الرغم من سلاطة لسانه يصف قوم ممدوحه :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعمى عليهم جزوا بها ... وإن أحسنوا لا كدّروها ولا كدوا
مطاعين فى الهجا مكاشيف للدجى ... بنى لهم آباؤهم وبنى الجدُّ

فإذا قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ فمن الجائز أن يكون المعنى : أن القرآن هو وما فيه من أحكام فى الأخلاق والتشريع والعادات هو مما تعارف عليه أهل العقول والأفهام والأحلام من العرب .

ومن المعروف أن كثيراً من حكماء العرب وعقلائهم كانوا ينكرون ما كان عليه أهل النزق والسفه والظلم كما أنكر عقلاء قريش سفاهة أبى جهل حين أكل حق الرجل الغريب فى ثمن بعيره ، وكان من أثر هذا ، أن عقدوا حلف الفضول فى بيت عبد الله بن جدعان ، وفيه تعاهدوا أن يعيدوا الحق ويردوا الظلم عن أى مظلوم فى البلد الحرام مهما كان مركز الظالم ، وهو حلف شهده رسول الله ﷺ وهو يافع وأشاد به ومدحه وهو نبى وقد ختمت الآية بقوله تعالى:﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ ، وهو ختام يوضح أن المنهج الإسلامى يكره أحكام الهوى ويأخذ بأحكام العقل والمنطق ، والهوى معناه : الغوغائية وإصدار الأحكام دونما خلفية من المنطق السليم ، وقد جاء الأمر على هيئة تهديد ؛ مع أن الرسول ﷺ معصوم من الهوى ؛ وذلك ليدرك المؤمنون جدية الإسلام فى محاربة الهوى والغوغائية فى الأحكام .

ثالثاً : أما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾

فهو رد على بعض أهل الكتاب الذين اعترضوا على اهتمام النبى ﷺ بالزواج والإنجاب ، وهو فى الآية يذكرهم أن الأنبياء من قبل محمد ـ باستثناء النادر ـ كانت لهم أزواج وذرية ، ومنهم : داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ اللذان كانت لديهما عشرات الزوجات . وفى الآية تأييد للزواج والإنجاب ، وهذا ما حث عليه الرسول ﷺ حين لم يؤيدا التبتل وحث على الزواج فقال : « من تزوج فقد ملك نصف دينه » وقال : «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ تفرقت فيه أقوال الأئمة المفسرين ومن ثم فيجب الوقوف عند النص : وهو أن الله جل جلاله يعلن أنه يمحو من القضاء ما يشاء ، ويثبت منه ما يشاء بحكمته ، ولكن كل محو وكل إثبات مذكور فى اللوح المحفوظ الذى هو أم الكتاب ، وفى هذا منتهى العدل من الله جل جلاله حتى لا يقول عبد ماذا أفعل إذا كان الله قد أثبتنى فى اللوح من الأشقياء ؟!

وقد روى عن عمر أنه رؤي يطوف حول الكعبة وهو يبكى ويقول : اللهم إن كنت كتبتنى من أهل السعادة فأثبتنى فيها ، وإن كنت كتبتنى من أهل الشقاوة والذنب فامحنى واثبتنى من أهل السعادة ومن القانتين .

الله شهيد على عباده .. ومحاسبهم على أعمالهم

هذه أربع آيات ختم بها الله تبارك وتعالى سورة الرعد ، وقد سبق أن قلت مراراً إن خواتيم السور الطوال من أعظم النماذج البلاغية ، يوردها ربنا فى ختام السور ليكون الإعجاز البلاغى آخر ما يشنف المسامع ويلمس أوتار القلوب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤٠ ـ ٤٣].

أقول وأسأل الله لنا ولدعاة الإسلام ثباتاً فى الشدائد ونصراً على الطغاة :

أولاً : الآيات الأربع فيها مسحة التهديد ، ولهذا جاء أسلوبها من النوع المرهب، وهذا هو ما يناسب المقام ؛ إذ لابد أن يخاطب مشركو مكة بما يتناسب وعنادهم الجاهل الشرس الذى استمر ثلاث عشرة سنة ، يرين على تلك القلوب القاسية، فيحجب عنها نور الإيمان ، والحق أن مشركى مكة ضربوا أفظع الأمثال للشرك الجاهل المتغطرس ، وللقلوب المقفلة التى لم تستطع النُذر الإلهية، والبلاغة القرآنية والشخصية النبوية أن تنفذ إلى شغافها بشىء من النور ، فظلت حتى شاء الله أن يحطم كبرياءها بقوة السلاح ويذلها بعزائم المؤمنين من المهاجرين والأنصار ؛ ولهذا جاءت خواتيم السور المكية الطوال عنيفة ، كأنها الصواعق بعد أن أثبت أقطاب الشرك ؛ أن الآيات والنذر لا تغنى عن قلوبهم الميتة ، وانظر إلى أساليب

التهديد متراوحة بين الإنشاء والخبر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ وفي قوله : ﴿ أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وكلها أساليب لها غرض واحد ألا وهو التهديد والوعيد .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ معناه : سواء عشت يا محمد حتى ترى وقوع العذاب بهم ، أو توفيناك قبل أن يعذبوا فاعلم أن وظيفتك هى التبليغ ، وأما الحساب والعقاب فهو علينا ، أى على الله جل جلاله . وكلمة : ﴿إِمَّا﴾ المذكورة فى الآية هى كلمة « إن » الشرطية مدغماً فيها « ما » الزائدة التى تكسبها توكيداً.

وفى الآية ما يشير إلى أن الباطل قد يستمر فى طغيانه ، حتى إنه قد يموت النبى قبل أن يرى انتصار الحق ومصارع الكفار ، لكن النتيجة الحتمية فى النهاية ، هى انتصار الحق ودمار الكافرين .

ويمتاز أسلوب هذه الآية الكريمة بتتابع التوكيدات وأسلوب الحصر ، ففى كلمة ﴿ إما ﴾ توكيد ، وكذلك ﴿ نرينك ﴾ ، و﴿ نتوفينك ﴾ ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغ ﴾ توكيد بإنما وقصر بتقديم الجار والمجرور ومثل ذلك فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ معناه أفلا يرى المشركون أنا ننقص أطراف الأرض بموت العلماء كما ننقصها بموت الأجيال المتلاحقة وانهيار الدول بعد قيامها وننقصها بما يجتاح جنباتها من زلازل وبراكين وفيضانات ؟! والله جل جلاله إذا أصدر حكمه فلا يمكن أن يرده رادٌّ ،

أو يعقب عليه معقب ، وهو جل جلاله سريع الحساب ، ويلاحظ أن هذه الآية والتى قبلها ختمتا بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ لأن الآيات كما أسلفنا ترسم جواً من التهديد.

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ معنى الآية الكريمة : أن الأمم السابقة من قبلهم قد مكروا برسلهم ، وخططوا لإحباط دعواتهم، لكن الله جل جلاله هو أهل التدبير الحكيم ؛ لأنه تدبيره مقترن بعلمه العظيم فهو يعلم ما تكسب كل نفس من عمل ومن مكر وتدبير . وفى ختام الآية الكريمة يجيء هذا الأسلوب الإخبارى الذى غرضه التهديد ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ومعناه : سوف يعلم هؤلاء الماكرون من الذى سينال الفوز فى نهاية الأمر .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ومعنى الآية الكريمة : أن الكافرين يكذبون برسالتك ويقولون لك : أنت لست مرسلاً فقل لهم يا محمد : إن لدى شاهدين على رسالتى ، أولهما : ربى الذى آتانى الكتاب المعجز المحكم الذى عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله وكفى بالإله العظيم شهيداً ، الشاهد الثانى : كل من لديه علم من الكتب السابقة من أحبار اليهود ورهبان النصارى، فكل من عنده علم الكتاب يشهد بنبوتى ، وذلك لأنها مثبتة فى الكتب السماوية بشرح واف لأوصاف محمد عليه الصلاة والسلام . وفى قوله تعالى : ﴿ كَفَى بالله شَهيداً ﴾ يعرب لفظ الجلاله : فاعلاً ، والباء حرف جر زائد ، والتقدير كفى الله شاهداً ، وتعرب كلمة ﴿ شهيداً ﴾ تمييزاً أو حالاً.

واستشهاد النبى ﷺ بعلماء اليهود والنصارى دليل من أعظم الدلائل على صدق رسالته ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقرأ كتبهم ، فهو أمى فكيف عرف عليه الصلاة والسلام أن الكتب السماوية نبأت برسالته ؟! إنه وحى الله وتنزيله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟!

ويلاحظ أن خاتمة سورة الرعد ، ومطلعها متلائمان فى المعنى ؛ لأن السورة كلها درس فى العقيدة وصدق النبوة المحمدية ، فقد ابتدأت بقوله تعالى : ﴿**تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّه شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾ ومن هنا كان يمكن أن يقال إن سورة الرعد ذات موضوع واحد ، وهو شواهد التوحيد والرسالة .

إنذار إلهى لأهل الكبر والصد عن سبيل الله

هذه هى الآيات الأربع التى افتتح الله بها سورة إبراهيم ، وسورة إبراهيم من السور المكية ، ومع أن موضوعها هو موضوع سورة الرعد لكن طريقة عرض الموضوع هنا فريدة من نوعها ، إذ هى تدير رحى المعنى حول النبوة ، من لدن أبى الأنبياء ، إلى خاتم الأنبياء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم : ١ ـ ٤].

هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض أسرارها المعنوية والبلاغية :

أولاً : الآية الأولى : ﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ صورة بلاغية رائعة : يصور فيها ربنا جلت عظمته قوماً يخبطون فى ظلام دامس لا يبصرون معه شيئاً ، يخبطون فيه على غير هدى فيتساقطون فى هوىً لايرونها ، ولا يدرى الباقون أين يتوجهون ، فما هى إلا أن خرج منهم رجل مخلص خبير بالطريق ، وفى يده مصباح منير، فدعاهم بأعلى صوته : أن أقبلوا إلىّ تجدوا طريقاً مستقيماً لا تخشى معه العثار وإلى جانب استقامته ، ووضوح المعالم والصُّوى فى جانبيه ، فهو أيضاً مضاء لكى تجتمع فيه

السلامه والطمأنينة ، ولا يرى سالكوه أثناء سلوكه خوفاً ولا وحشة ، إن كلاً من كلمتى ﴿ الظُّلُمَاتِ ﴾، ﴿ النُّورِ ﴾ استعارتان تصريحيتان رائعتان ؛ إذ النور المذكور هو الإيمان ، والظلمات هى الشرك وعبادة الطواغيت ، ثم يعلن الحق جل جلاله أن الهداية والخروج من الظلمات إلى النور ، لا يتمان إلا بإذن الله ؛ لأنه هو جل جلاله المتصرف فى القدر خيره وشره ، وقد ختم الآية بقوله : ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ؛ مشيراً إلى أن قضاء الله جل جلاله يتجلى فيه صفتان عظيمتان من صفاته : وهما عزته القاهرة ، وحكمته الباهرة، التى تستحق الحمد مهما كان نوع القضاء ، فالله جل جلاله قاهر فوق عباده بقضائه ، وهو حميد ، أى : أهل للحمد مهما قدر .

ثانياً : فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ لفظ الجلاله بدل ، والاسم الموصول صفه ، وقد ختم الآية الكريمة بذكر العذاب ؛ لتتم المطابقة بين من يخرجهم الله بإذنه من الظلمات إلى النور ، وبين الذين يصرون على كفرهم فيحل بهم الويل والعذاب الشديد .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ وصف للكافرين ، وكلمة ﴿الذين﴾ فى مطلع الآية نعت في محل جر لكلمة الكافرين فى الآية السابقة ، وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ معناه : يفضلون الدنيا على الآخرة ، وذلك لعدم إيمانهم بالبعث واليوم الآخر ، ووصفهم أيضاً بأنهم يصدون الناس عن الإسلام ويحاولون أن يجدوا فى الإسلام عوجاً ليعملوا فيه ألسنتهم ومعاول هدمهم ، وقد ختم الله الآية بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ ومعنى الضلال البعيد :

الموغل فى التيه بحيث يصعب معه الاهتداء ؛ وذلك لأن أعمالهم وأوصافهم التى عددها تدل على بعد سحيق بينهم وبين الهداية ؛ فتفضيلهم الفانية على الباقية ، وصدهم عن الإسلام وهو طريق السعادة، والتماسهم اعوجاجاً لدين الله القيم كل هذه تدل على تعلق عقولهم بالمستحيل، وضلال أحلامهم وراء الأباطيل .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يبدو أنه رد على من قالوا : لو أنزل القرآن بلغة الأعاجم ؛ لأنهم يشكلون الكثرة الكاثرة من أهل الأرض . وقال بعضهم لو نزل القرآن على بعض عظماء الأعاجم ؛ لكان أدنى أن يؤمن به الناس ، فرد عليهم ربهم فى سورة الشعراء بقوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ . وفى سورة فصلت يرد عليهم الحق جل جلاله بقوله : ﴿ **ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى** ﴾ [فصلت : ٤٤]ومعناه : لو أنزلنا على محمد قرآنا أعجمياً لقالوا مشركو قريش : لولا وضح الله لنا آياته كيف ينزل قرآن أعجمى على عربى، وكيف ينذر شعب عربى بقرآن أعجمى ؟! وفى آية سورة إبراهيم التى نحن بصددها يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾ . وهنا يبين الحكمة من نزول القرآن بلسان العرب ، فقد أرسل الله كل رسول من رسله بلغة قومه ليكون البيان واضحاً ، والوعد والوعيد مفهومين، ومحمد ﷺ ما هو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ؛ ولهذا أرسله إلى العرب، ومعه قرآن عظيم حكيم معجز أنزل بلغة العرب ؛ ليفهموا بشراه وإنذاره وحلاله وحرامه ، ثم بعد ذلك ينفذ قدر الله الحكيم ، فينقسم الناس من حول الدعوة إلى ضُلاَّل ومهتدين إلى

كافرين ومؤمنين ، وقد ذكر الله جل جلاله أهل الضلال قبل أهل الهداية ؛ لأنهم في كل زمان أكثر عدداً من المؤمنين ، وقد ختم هذه الآية بقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ؛ ليدل على أن قضاءه جل جلاله فى أمر الهداية والضلال يصدر من منطلق عزته القاهرة وحكمته الباهرة ، وهو العزيز الحكيم .

ونزول القرآن بلسان عربى إيذان بأن الله جل جلاله سيحرس اللغة العربية إلى يوم القيامة ، ويرد عن حماها كيد كل متآمر حقود على القرآن والإسلام ، وهذا ما أثبتته الأحداث عبر القرون المتتابعة ، فقد انقرضت لغات رغم حرص أهلها عليها ، وبقيت اللغة العربية رغم تفريط أهلها فيها ، وتآمر العرب أنفسهم عليها ، وحسبك دليلاً أن دعاة العامية وأعداء الفصحى كلهم من العرب ، ومع ذلك فقد أركس الله مكائدهم ونصر اللغة الشريفة التى شرفها الله بأن جعلها وعاء شفافاً وضاء لكتابه الحكيم وتقوم الحجة على كل أعجمى إذا ترجم له ما جاء به محمد .

يقول النبى ﷺ : « أرسل كل نبى إلى أمته بلسانها ، وأرسلنى الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه » ، وفى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه : «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » .

إن القرآن ذو فضل عظيم على العرب ، فقد رأينا عيانا حرص إخواننا من علماء المسلمين فى ديار الأعاجم على تعلم لغة العرب ؛ لكى يفقهوا إشارات القرآن وبلاغة القرآن وأحكام القرآن ، ورأينا هناك من الصبيان والشباب والكهول من يرتل القرآن أعذب ترتيل ويجوده أصح تجويد ، وكنا نحادثهم فنجد منهم حباً للعرب ؛ لأن لسانهم القرآن ، والحق أننا وجدنا فى مسلمى باكستان ،

والهند ، وإندونيسيا ، وماليزيا ، وسائر المسلمين شوقاً لتعلم القرآن وخشوعاً عند تلاوته ، واستشرافاً للتعرف على العرب الذين نبغ منهم محمد ﷺ ، ثم لما تأملنا الوسط الأدبى فى البلاد العربية ، وجدنا العرب زاهدين فى قرآنهم ، بل لقد وجدنا أقلاماً عربية مجندة لمهاجمة الفصحى التى هى وعاء القرآن ولمهاجمة الإسلام الذى هو تفصيل للقرآن ، وساءنا أن يستحى الأجانب من النصارى أن يهاجموا القرآن هجوماً مكشوفاً ، ثم تكون الشرذمة التى تتصدى لهذا العمل الوقح ممن يتسمون بالمسلمين . ألا ما أشد كنودهم حين يتصدون لمهاجمة كتاب كان هو السبب الرئيسى فى مجدهم وذكرهم وشرفهم .

أعمال الكفار الخيِّرة لا تغنى عنهم من الله شيئا

هذه ثلاث آيات من سورة إبراهيم عليه السلام تجيب عن سؤال قد يسأله كثير من الناس وهو : ما حكم ما يفعله اليهود والنصارى والمشركون من أفعال البر وما يتبرعون به من أموالهم لمؤسسات المعوقين وما يقدمونه من حسنات للإنسانية ، هل يفيدهم يوم القيامة ؟

وقد سألنى مرة طالب بالمرحلة الثانوية سؤالا لا يخلو من طرافة ، خلاصته : أن لبيتهم جارين عن يمين وشمال ، أحدهما نصرانى ، والآخر مسلم . أما النصرانى فحلو المنطق لا تصدر عنه إلا الكلمة الطيبة ، وقد ربى أولاده تربية عجيبة ، فهم مجتهدون مهذبون نظيفون لا يصدر عن بيتهم ضجيج ولا ضوضاء، ثم إنه هو وامرأته يعطيان الفقراء كلما سألوهما ويجاملان الجيران ، أما أخونا المسلم غفر الله له ـ فقد كان هو وأطفاله على عكس ذلك كله ، الرجل غليظ القلب ، والأولاد يتعوذ الشارع من ضجيجهم وحجارتهم وألفاظهم ، ثم هو وزوجته ينهرون السائل ، ولا يحفظون عهد الجار ، ويختم الطالب بقوله : هل نقول فى غير تردد : إن النصرانى فى النار والمسلم فى الجنة؟ إن هذه الآيات الكريمات من سورة إبراهيم تجيب عن السؤال .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : ١٨].

وسيرى الأخ القارئ ـ إن شاء الله ـ إجابة السؤال من خلال الشرح

والتعليق على هذه الآيات ، فأقول وبالله التوفيق والعون وبه الحول والقوة :

أولاً : إن أعظم عمل يقدمه العبد بين يدى معاده هو توحيد الله جل جلاله، ونبذ كل شريك ، وإعطاء ولاء القلب لله الخالق البارئ المصور الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبتحقيق هذا التوحيد ومتطلباته يصبح للعبد حق على ربه أن يدخله الجنة؛ لأن التوحيد هو حق الله على العبيد ، والجنة حقهم على ربهم إذا هم عبدوه مخلصين له الدين . وهو حق كتبه الله على نفسه تفضلا منه وتكرما ؛ إذ هو جل جلاله أجل من أن يلزم بأمر إلا بإرادته وكرمه ، كما كتب على نفسه الرحمة ومغفرة الذنوب .

ثانياً : إذا كان يوم القيامة ، وعرضت الأعمال رأى الكفار أعمالهم الحسنة بأعينهم ثم لا يلبثون أن يروها وقد طارت من موازينهم فلم يستفيدوا منها خيراً، ولم يقدروا منها على شىء ؛ ولهذا ضرب الله لأعمالهم مثلاً كومة من رماد هبت عليها عاصفة فلم تبق منها شيئاً ؛ وذلك لأن ضلالهم وراء الشرك كان ضلالاً بعيداً عن العقل والفهم والمنطق ، إذ كيف يمنحون ولاء قلوبهم للشيطان والطواغيت والحجارة والحيوانات، وهم يرون بأم أعينهم آيات الله ودلائل وحدانيته متمثلة فى مخلوقاته العظيمة ؟!

ثالثاً : قوله تعالى بعد الآية التى تذكر الشرك وحبوط كل عمل منه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ هتك لستر الشرك ، إذ كيف يشرك الإنسان وهو يرى بأم عينه ، أن الله جل جلاله خلق السموات والأرض فى حين لم يخلق أى من الشركاء شيئاً ، وإلى جانب ذلك ، فالله هو القادر على

الإحياء والإماتة ، وليس عليه بصعب أن يهلك جيل المشركين وكل الخلائق ، ويأتى بخلق جديد يعبدونه حق عبادته .

رابعاً : أغير ما يغار الحق جل جلاله على قلوب المؤمنين ، فهو لا يقبل من أى من عباده أن يعطى الولاء لأى شريك كائناً من كان ملكاً أو رسولاً ، أو حجراً أو شجراً أو غير ذلك ، ومن هنا فهو يعتبر الشرك خيانة عظمى لا تغتفر أبداً فى حين يغفر كل الذنوب غير الشرك ، والحق أن كل الملوك يهتمون أعظم ما يهتمون بولاء القلوب ، فلو أن مواطناً قدم للدولة ألف ألف خدمة ، ثم ثبت أنه فى سره عميل لملك غير مليكه ، فإن جميع أعماله تضيع وتتحطم على صخرة الخيانة ، ومن ثم فالله جل جلاله : ﴿ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ .

خامساً : حين رأى جل جلاله انصراف إبراهيم الخليل عليه السلام إلى حب ولده الذى جاء على الكبر وبلغ معه السعى ، أراد أن يختبر ولاء قلبه للحبيب الأكبر ، فأراه الرؤيا . ولما صدقها إبراهيم ونجح فى اختبارها ، وتل صفيّه للجبين، واجتاز ذلك البلاء المبين ، استحق من ربه أن يظل صفيه وخليله ، وافتدى النبى إسماعيل ـ عليه وعلى جميع الأنبياء السلام ـ بذبح عظيم يليق بعظمة الصبر والاختبار .

سادساً : لا يغرنك ما يقدمه المشرك من حسنات فى الدنيا ما دام قلبه موبوءاً بالولاء الأعمى للطواغيت . لقد جاء حين على بعض النصارى ممن جاورناهم، وصادقناهم كانت ألسنتهم أحلى من الشهد ، حتى لقد وثق بهم أغنياؤنا فاتخدوهم وكلاء وأغدقوا عليهم الأموال ، ثم لما رأوا شياطينهم فيما بعد نبذوا الصداقة ، واتحد الكفر صليبياً وصهيونياً ، واتضح أن قلوب أولئك النصارى لا تقل حقداً عن قلوب الصهاينة .

سابعاً : أن المسلم الذى وصفه لى السائل بأن أولاده يزعجون الشارع وأن فيه فظاظة ؛ لابد عاجلاً أو آجلاً أن يؤتى إيمانه عملاً صالحاً ، ولو رآك تتعرض إلى سوء من عدو كافر ، فإنك حينئذ سترى جذوة الإيمان الحانية فى قلبه ، وقد انفجرت بقوة ربانية تدمر الباطل وتنصر الحق ؛ ولهذا أوصانا ربنا جل جلاله بقوله : ﴿ وَلا تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُم ﴾ وهو قول فى القرآن الكريم ورد على ألسنة الكفار ، لكنه فى الوقت نفسه درس للمسلمين : أن يحتاطوا فلا يأمنوا أيضاً إلا لمن تبع دينهم .

إن الأعداء فى هذه الأيام يحاولون أن يخدعوا المسلمين فى الأرض المحتلة ببعض المشروعات ؛ ليوقعوا فى قلوب الضعفاء والجهلة أن حكم اليهود ، أرغد من حكم العرب الذين حكموا الضفة والقطاع ، ووالله إن كل عمل من أعمال الصهاينة يحمل فى ظاهره الخير ، إنما يقصد به ما يقصده الجزار حين يعلف القطيع ، وهو يضمر ذبحه وابتزاز ثمنه .

ثامناً : حاشا أن يكون ظلماً من الله جل جلاله أن يحبط كل حسنات المشرك وأعماله ، فالله جل جلاله ما خلق الجن والإنس إلا من أجل التوحيد ، وما خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات ، إلا كدلائل تقود الفكر إلى الوحدانية ، ولهذا فإن المشرك الذى لم يتدبر الملكوت ولم تغن عنه النذر ، ورمى بعقله تحت أقدام الحماقة وقلة العقل حين عبد ما لا يضره ولا ينفعه ، أقول : هذا المشرك اقترف خيانة ذات حجم هائل لا تنهض لها أعمال عابرة تصدر عنه من منطلق نوايا لا تمت إلى الإيمان بصلة .. ومن ثم فحسنات الكافر قد يستفيد منها فى الدنيا ذكراً واحتراماً لكن المشركين جميعاً متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .

ندم الكفار يوم القيامة وتبرؤ الشيطان ممن اتبعوه

هذه آيات كريمات من سورة إبراهيم عليه السلام ترسم فى بلاغة رائعة مشهداً رائعاً من مشاهد القيامة ، فيه عبره للمؤمنين بمقدار ما فيه حسرة على الكافرين ، يشترك فى حوار هذا المشهد المستضعفون من الكافرين ، والمتكبرون منهم كما يشترك فيه إبليس لعنه الله ، ويسود المشهد كله جو من الكراهية والندامة ، حين تفتضح الأكاذيب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ [إبراهيم : ٢١ - ٢٣] .

أقول وبالله الفتوح والتوفيق وعليه التوكل وإليه الرغباء :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً ...... ﴾ الآية معناه : إذا كان يوم القيامة، برز الناس جميعاً لله واضحين ظاهرين من قبورهم لا يتخلف منهم أحد، أما المؤمنون فلا يثور بينهم جدل ولا ضوضاء ؛ لأنهم كانوا مؤمنين بيوم البعث وبالحساب والجزاء ؛ ولهذا فقد كانوا يتوقعونه فى

قبورهم بين آونة وأخرى ، فلما جاءهم لم يزيدوا على أن قالوا : إن وعد الله حق . أما الكافرون فيثور الجدل من مستضعفيهم الذين كانوا أتباعاً وبين المستكبرين الذين كانوا يتسلطون على الضعفاء ، فيحملونهم على طريقتهم ، وذلك لأنهم كانوا ينكرون البعث ؛ ولهذا يفاجئون به ويرونها كرة خاسرة ، وهنا حين يرى الكافرون ما ينتظرهم من حساب عسير وعذاب شديد ، فيقول الأتباع المستضعفون لسادتهم المستكبرين : لقد كنا أتباعاً لكم فقدتمونا إلى الكفر فهل تستطيعون أن تدفعوا عنا شيئاً من العذاب ؟! وإذ ذاك يجيبونهم جواباً يحمل في طياته الضيق والسآمة ويقولون لهم: لقد أضللنا أنفسنا قبل أن نضلككم ، ولو ملكنا الهداية لأنفسنا لهديناكم ؛ ولهذا فليس أمامنا وأمامكم إلا الاستسلام وسواء علينا أجزعنا وغرقنا في الأحزان ، أم صبرنا على العذاب فما لنا منه مفر ولا محيد . ومن الواضح أنه جواب المتبرئ الذي ضاق بنفسه والذي لا يجد لمشكلته حلا ، فكيف يحل مشكلة غيره ؟

ولكي يعلم أتباع الشيطان فداحة ما جنوه من جريمة الشرك يقف الشيطان خطيباً فيلقي فيهم كلمة يلصق فيها بهم كل أنواع الغباء والحماقة والضلال . ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾. وهو قول يبعث الندامة في كل قلوب المشركين متدفقة في كل حرف من حروفه ومعناه : حين يقضى الأمر بين العباد ويعرف أهل النار مصيرهم المظلم يقول الشيطان لأتباعه، إنكم تتحملون كامل المسؤولية فيما حدث لكم ، فقد وعدكم ربكم وعد الحق والصدق ، ووعدكم الثواب والجزاء والبعث والحساب والجنة للمحسنين والنار للكافرين ، ووعده مستند إلى الدليل والبرهان الساطع ، ثم جئت فوعدتكم الأباطيل والأكاذيب ، ولم يكن لي في وعدكم دليل ولابرهان ولا كان لي عليكم تسلط ولا إجبار ، ومع أنني دعوتكم إلى ضلالات لا برهان

لها ولا سلطان ، فقد أضللتكم عن وعد الله ، واستجبتم لى ضاربين عرض الحائط بوعد الله ، وإذن فلا تلوموني ولوموا أنفسكم التى سارت وراء الهوى ، فأردتكم إلى دروب الهلكة ، ثم يعلن يومئذ ضعفه واستسلامه فيقول لهم : لا أستطيع أن أغيثكم مما أنتم فيه من عذاب ، ولا يمكن أن تغيثونى مما أنا فيه من عذاب وزيادة فى النكاية ، يعلن لهم أنه هو نفسه كافر بعبادتهم له غير معترف بأى شرك من شركهم ؛ لأن الشرك ظلم عظيم وإن الظالمين لهم عذاب أليم .

ثانياً : وعلى الجانب الآخر من المشهد ، ترى هنالك قوماً وجوههم ناضرة لا تبدو عليها قترة الخوف ، بل يلفها نور الطمأنينة ، فهى مسفرة وضاءة متألقة يقضى ربها فيها أيضاً بالحق ، فيأمر أن تدخل جنات ، أى : حدائق لا يحيط بها الوصف تجرى الأنهار من تحتها خالدين فيها بإذن ربهم ، يتلقون فى ليلهم ونهارهم تحيات من الملائكة ، ولعل أغلى تحية تبلغهم الملائكة إياها هى : تحية ربهم جل جلاله ، بل إن لهم بين الفينة والأخرى نزلا وضيافة فى رحاب الله ، حيث يتلقون السلام قولاً من رب رحيم حين يكشف عن وجهه الحجاب ، فيرون من جمال وجهه ما يتضاءل عنده كل نعيم ، فو الله ما رأوا فى كل نعيم الجنة مثل رؤيتهم لوجه الله ،كم يحلو ذكر الجنة والسلام والنعيم ورضاء الله ، وخصوصاً حين يأتى فى مقابل ذكر العذاب والحسرات والمجادلات ، وتبرؤ كل فئة من الكافرين من الفئة الأخرى ، والضد يظهر حسنة الضد .

ثالثاً : فى الآيات الكريمات دروس إلهية ، إذا وعاها العبد وعمل بها نجا بإذن الله من خزى الدنيا وعذاب الآخره .

منها : ألا يكون تابعاً لظالم أو يربط رزقه ومصيره بالعصاه ، أو يكون إمعة لا

شخصية له ، أو يغتر بأهل السلطان من الظلمة ، فيعصى الله لإرضائهم ؛ لأنهم لن يغنوا عنه فى الحساب من الله شيئاً حين يراهم فى ساحات القيامة ، وهم أذل ما يكونون فيتساءل : ترى أين ذلك العز الزائل الزائف ، الذى خدعنى فأنسانى العزة بالإيمان ، وأودى بى فى طرق الشيطان ؟!

ومنها : أن يستنير المرء بنور بصيرته ويصغى لنداء عقله ، وألا يأتى من الأمر إلا ما يهدى إلى الرشد ويستند إلى الدليل والبرهان . أما اتباع الهوى دونما سلطان ولا دليل ، ولا منطق فذلك هو المردى فى هاوية الهلاك .

ومنها : أن كل الحسنات هى ما يقبلها العقل ويرتاح إليه القلب ، وتطمئن إليه النفس المؤمنة ، أما المعاصى فينكرها العقل ويرتاب فيها القلب وتحيك فى النفس المؤمنة.

رابعاً : ومن اللطائف البلاغية فى الآيات : تنوع الأساليب فى الآيات على حسب أصحابها ، فالضعفاء فى أسلوبهم انكسار كما كان حالهم من المذلة فى الدنيا ، والجملة التى يقولونها تعكس ذلك الإنكسار : ﴿ **إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ أما الذين استكبروا ، ففى أسلوبهم ضيق وسآمة ، كما كان فيهم أيام الحياة ضيق وسآمة ، واستمع إلى الجملة التى يقولونها طافحة بذلك الضيق : ﴿ **لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ** ﴾ .

وأما خطبة الشيطان فبليغة حقاً تحمل ألواناً من النكاية والشماتة ، والتبرؤ ، والتنصل من المسؤولية ، ولا غرور فهو شيطان ، وفى الجمل طباقات تجمل الأساليب كقوله تعالى : ﴿ **فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** ﴾ ، ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا** ﴾ ، ﴿ **فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ** ﴾ . وفى الحوار كله حجة بالغة على كل من تقوده النفس الأمارة إلى المعصية ، فسبحان من هذا كلامه ، اللهم زدنا به بصيرة وإيماناً ويقيناً .

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

إن التشبيهات الرائعة البليغة التى يوردها القرآن الكريم تستحق أن يوقف عندها وقفات متأملة متدبرة ، يسميها القرآن أمثالاً ؛ لأنها توضح المعنى بعقد شبه بين متماثلين ، ومن ثم فقد خصص كثير من العلماء مؤلفات كاملة للبحث فى أمثال القرآن . وهنا فى سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ يورد مثلين أو تشبيهين لكلمة الحق وكلمة الباطل فى قمة البلاغة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٧] .

أقول ـ وأسأل الله أن يثبتنا وإخواننا المسلمين على عقيدة الحق وكلمة الصدق مهما تقلبت من حولنا القلوب وعصفت الأهواء :

أولاً : الكلمة الطيبة عامة فى كل كلام يتوفر فيه الحق والصدق والنفع ، والكلمة الخبيثة عامة فى كل كلمة يكون فيه الباطل والكذب والفساد ، وقد شبه الله جل جلاله الكلمة الطيبة ، وهى كلمة الحق : بشجرة طيبة الأصل والمنبت والثمر ، كما لو اخترت نخلة من أجود أنواع النخيل فغرستها فى تربة طيبة ومكان مناسب ، يضحى للشمس والهواء ويحتجب عن العواصف وغذيتها الغذاء المناسب ، فجاء ثمرها عذباً هضيماً رائع الطعم والنهكة لا يتخلف عن أوانه ، ولا يظلم من أُكِله شيئاً ، والحق أن

النخلة المكرمة الأصيلة مثل رائع من الشجرة الطيبة ، ففى الحديث الشريف : «أكرموا عماتكم النخل فإنها من طينة أبيكم آدم» . وإنك حين تلقى ببصرك إلى نخلة سامقة فى الفضاء فى قوة وشموخ وخضرة رائعة تتصور فيها فى الحال القوة والثبات فى وجه العواصف ، والنفع فى كل جزء من أجزائها ، هذا إلى جانب ثمرها الحلو المغذى الشافى ، يعشو إليه الجائع فى التيه المنقطع ، فإذا تناول منه رطبات يانعات ، أحس بروح الحياة ينضر عروقه الجافة :

ثانياً : إن الكلمة الطيبة مثل للحق وأهله ، فهم فى كل زمان ومكان مثل عليا للثبات مهما عصفت من حولهم أعاصير الباطل ، ومثل عليا للعطاء الدائم المستمر من تضحيات تحيا عليها الأجيال من معاصريهم وتقتدى بها الأجيال التى من بعدهم ، ثم هم بعدئذ مثل عليا للجميل والمعروف، يبذل للمعترف وللمنكر ، ويقدم فى أريحته للشاكر والكنود ، والمعروف حلو الطلعة وإن جحده المنكرون ، بل إن طلعه المعروف تزداد زكاء وجمالاً كلما أنكره المنكرون ، ومن ثم فأهل الحق ثابتون عليه ماضون فى عطائه وإسدائه ؛ ولهذا فإن الله جل جلاله يرزقهم الثبات فى الحياة الدنيا مهما حاول الطغاة فتنتهم ثم هو جل جلاله يثبتهم على الإيمان فى قبورهم عند سؤال الملكين ، إذ لا يكاد الملكان يسألانه عن دينه ومعتقده حتى يبادرهما غير هياب ولا وجل : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبيى محمد ﷺ ، وأنا مؤمن بالله وبكل ما جاء به رسله الكرام.

ثالثاً : أما الكلمة الخبيثة التى تمثل الباطل ، فقد ضرب الله جل جلاله لها تشبيهاً من شجرة خبيثة الثمر والرائحة ، هى لا تقوم على أصول تشدها وتثبتها لكنها مقلوعة ، لا تكاد تهب عليها ريح حتى تعصف بها بعيداً عن منبتها ، إنها لا قرار لها ولا ثبات ، ولا عطاء لها ولا ثمر ولا أصول

قوية لها تعطيها خصائص الرسوخ .

والحق : أن الباطل كان ومازال على هذه الشاكلة فهو قد يخدع ويبهرج ولكن إلى حين . ولرب طاغية يعجبك موكبه ويسمع كذبه ، فيظن عندئذ ألا يقدر عليه ، وإذ ذاك يتسلط ويكثر الادعاء ولربما حمل الناس على اتباع باطله وكتب لهم من الباطل شرائع ظالمة يحملهم على اتباعها ، ثم ما هى إلا أن يطيح إلى مصيره المظلم ، وإذا كل زيفه ينقض وكل باطله يجتث؛ لأنه لم يكن يوماً ذا مبدأ مستقيم على الحق والخير والعقل ... إن الكلمة الخبيثة التى تمثل الباطل لا تملك أى مقوم من مقوم الثبات ؛ لأن الباطل نفسه لا يستند إلى سلطان من منطق العقل المستبصر السليم .

وإنك لو استعرضت فى ذهنك ألوان الباطل من الشرك والزيف والخبث والفساد والظلم والطغيان لوجدت أنه لا صلة لها بحكم العقل ، ولا بمنطق الحقائق ، بل إن كل باطل أو مبطل لا يكاد ينزاح كابوساً حتى يتحطم متبوعا بلعنة العقل بل وبلعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

ثالثاً : إن الجو الذى ترسمه الآية الأولى للكلمة الطيبة ـ التى ترمز للحق وأهله دعاته ـ هو جو من الثبات والعطاء ، والحب ، والمعروف ، ومن ثم فقد منحهم الله جل جلاله وعداً أن ينصرهم فى الدنيا ، وأن يمنحهم البقاء الأزلى والثبات على كلمة الحق فى قبورهم ، وفى حسابهم حتى يتحقق لهم وعد ربنا بالجنة.

إن أسلوب الآية الأولى التى تضرب المثل للكلمة الطيبة له تألق يتلألأ به كل لفظة من ألفاظ الآية ، كشجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، كلها كلمات عذبة مطمئنة حلوة الوقع فيها الطيب وزكاء الأصل ، وسمو الفرع وتتابع الجود والعطاء وهذا شأن حزب الله

ودعاة الحق فى كل زمان ومكان ، تكون حياتهم مثمرة ويكون موتهم مثمراً ويستمر نور حياتهم وسناؤها حتى بعد موتهم ، بل إن منهم من لا تثمر حياته إلا بعد موته حين ينتصر حواريوه الذين يحملون رسالته فيتم الله نورها ، بعد أن يكون صاحبها قد ودع الدنيا بأجيال .

رابعاً : أما الجو الذى رسمته الآية الثانية فهو جو قاتم قتام الباطل ومثل كلمة خبيثة ، كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض ، ما لها من قرار .

إن كل لفظة من ألفاظ الآية الثانية تساهم فى رسم الصورة البشعة للباطل ، فهو أولاً خبيث لا يصدر إلا عن الويلات والأضرار والفساد ثم هو سطحى لا جذور له تثبته وتمنحه عناصر البقاء ، ولا يغرنك أن ترى الباطل ذا منظر أحياناً فإنه كشجرة اقتلعت من جذورها ، فبدت ناضرة أول الأمر ، ولكنها حتما لن تلبث أن تذوى وتطيح ؛ لأن عناصر البقاء المستمدة من التربة الطيبة مفقودة لديها .

إن هذه الآيات الكريمة الثلاث من سورة إبراهيم هى أعظم حافز يعطى دعاة الحق قوة ودفعاً وثباتاً ؛ لأنها تنال من الباطل نيلا شديداً ، إذ هى تفضح جذوره لتكشف أنه لا يملك عناصر الخلود ، ومن ثم فهى تبعث فى قلوب أنصار الحق جذوات من الروح تحقر الباطل ، والزيف والفساد حتى فى عنفوان طغيانها ، وتمضى فى طريق التضحيات ثابتة على صراط الخير ، حتى تصنع للباطل وأهله نهاية مظلمة : ﴿ **هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا** ﴾، ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾.

مصير الظالم رهيب مظلم

هذه آيات مباركة من سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ تصف فى بلاغة معجزة ما ينتظر الظالم من مصير مظلم وخاتمة رهيبة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٦].

هذه هى الآيات الكريمات وهذا عرض لبعض أسرار البلاغة ومظاهر الإعجاز فيها :

أولاً : الأسلوب فى الآيات هادر هدير الصواعق ؛ وذلك لأن موضوع الآيات يتطلب مثل هذا الأسلوب الجزل الهائل . إن موضوع الآيات ومثل هذا الموضوع يتطلب أسلوباً فيه دوى الإنذار ، ولعل العبارات الآتية نموذج لهول الأسلوب : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ .

ثانياً : فى الآيات ما يحتاج إلى تفسير لغوى ؛ ولهذا أضع ما يحتاج إلى الجلاء فى الجدول الآتى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ معناه : يؤجل عذابهم ليوم الحساب ، يوم ترى فيه أبصار الظالمين مفتوحة فاغرة لا تطرف لشدة الذهول .

وقوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِم ﴾ معناه : مسرعين رافعى رؤوسهم بحيث لا يبصرون الأرض . وإنما هم ماضون فى رهق وسرعة ينظرون إلى فوق.

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُم ﴾ معناه : لا يفتؤون محدقين ، وقد يكون معناها أنهم ينظرون باستمرار ولكنهم لا يبصرون .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾ معناه : قلوبهم فارغة ليس فيها فكر ، ولا عقل ولا إدراك ولا تدبير .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَال ﴾ معناه : ألم تكونوا تقسمون أيام الحياة أنكم لن تبعثوا إلى الله ولن تزولوا من الدنيا .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ : أن الله يسجل مكرهم ، ويقف له بالمرصاد لكى يحبطه ويرده دماراً عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَال ﴾ معناه : إن مكرهم لن يستطيع أن يزيل الجبال ، وكلمة : (إن) معناها : ما النافية فيكون المعنى : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال وفى الآية تشبيه ضمنى يفهم ضمنا : بأن من أراد أن يمكر بالحق ودعاته فذلك مثله كمثل من يحاول إزالة الجبال وما هو بقادر .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُون ﴾ فيه تسلية لكل مظلوم وتهديد لكل ظالم . إن الظالم قد يمهله الله وقد تبدو له نعمة حتى إنه لتصور له نفسه بأن الله يكرمه ، والحقيقة أن الله جل جلاله أجله إلى يوم فظيع الأهوال ، ليس فى سوقه إلا الأعمال .

رابعاً : ترسم الآية التالية صورة متكاملة الأجزاء لمنظر الظالمين فى القيامة وهى صورة تمثيلية حقاً فيها الذهول ، والذل ، والرهق ، والإسراع ، وزوال

العقل كل هذه الأجزاء تتجلى في قوله تعالى : ﴿ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾ .

خامساً : الآية التالية تتطلب وقفة طويلة ، وهى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ** ﴾ ، إذا كان يوم القيامة ورأى المجرمون والكافرون قيمة الأعمال الصالحة فى الموازين دعوا الله جل جلاله أن يعيدهم إلى الحياة ولو ساعة واحدة، ويحسبون ما يمكن أن يعملوه من أعمال الخير فى الساعة ، فيجدون أنه قد يكفى بإذن الله ؛ لنقلهم من النار إلى الجنة، لكن الله جل جلاله يذكرهم بأعمار طويلة منحوها فضيعوها وكانت كافية أن يتذكر فيها من تذكر، ويبلغ من حرصهم على الوقت الثمين أنهم يتمنون لو يستطيعون السجود ولو سجدة واحدة ، ويحاولون ذلك وإذا أجسامهم جامدة لا تنثنى فلا يستطيعون ، فيبكون إذ ذاك على زمن ضيعوه ، وعمر أهدروه حين كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون .

إن هذه الآية درس إلهى لمن يضيع عمره فى المعصية حتى إذا رأى العذاب تمنى لو يؤخر لحظات يعمل فيها خيرا . إن المجرم يعرف مصيره المظلم حالما تخرج روحه ، وهنا يصيح : ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ** ﴾ فيقال له : ﴿ **كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا** ﴾ أى : إرادة وقضاء قضاه الله ، ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ ، هذه الإرادة أن يمر الناس بحياة برزخية فى القبر تتوسط بين الدنيا والآخرة ، ومن ثم فلا رجعة بعد الموت إلا يوم القيامة .

سادساً : من أروع الاستفهام البلاغى قوله تعالى فى الرد على الكافرين الذين يطالبون أن يعيدهم الله إلى الحياة :﴿ **أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ**

وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَال ﴾ . إنه استفهام يحمل أشد أنوع التقريع ؛ إذ هو يذكرهم بما كانوا فيه من غفلات ، مع أن بعضهم كان يسكن فى مدائن ثمود ، ويرى عاقبة الكفر بأم عينه حين يتأمل مصارع القوم وزوال نعمتهم ، وتهديم بيوتهم، فما وعظتهم الديار ولا استمعوا إلى كتاب الله يضرب لهم الأمثال ، اللهم بارك لنا فى أعمارنا وأخلص لمرضاتك أعمالنا ، وباعد بيننا وبين الظلم واكتب لنا من لدنك سعادة الدارين .

بلاغ إلهى يقرع الأسماع
ويهز القلوب

هذه الآيات الست الكريمات هن الخاتمة التى ختم الله بها سورة إبراهيم عليه السلام ـ وهى فى مجموعها إنذار هائل لكل مجرم ، يصور المشهد المهين الذى يعرض فيه الكافرون على شر صورة ، وفى الآية الأخيرة خلاصة بليغة لأهداف القرآن السامية ، حتى لقد سئل أحد الأشياخ : هل للقرآن الكريم عنوان ؟ قال : نعم آخر آية من سورة إبراهيم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم : ٤٧ ـ ٥٢] .

هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض لطائفها البلاغية والمعنوية :

أولاً : قوله تعالى: ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ معناه أن الله جل جلاله قد وعد كل رسول من رسله أن ينصره الله على الكافرين، مهما ألح الخطب وعظم البلاء ؛ لأنه جل جلاله متفرد بعزة لا تنال، وهو المنتقم الجبار ، ومن هنا فسوف ينتصر دعاة الحق مهما عربد من حولهم زيف الباطل ، ولكن النصر لا يأتى إلا بعد جهاد كبير يتميز به المجاهد والصابر، وتتمحص فيه العناصر وقد تشتد بالبلاء قبل انتصار الحق ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ والآية

الكريمة تتركب من جملتين : أولاهما أسلوب نهى تعليمى ، يعلم رسول الله ﷺ أن وعد الله للرسل الكرام بالنصر لابد أن يتحقق والجملة التى بعدها ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ وهى إطناب تذييل يعلق على جملة النهى ، وفى الآية توكيدان ، أحدهما : بنون التوكيد في : ﴿ولا تحسبن ﴾ والثانى كلمة : ﴿إِنَّ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾.

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ آية رهيبة حقاً ، إذ أى ذعر أهول من منظر الأرض وقد تبدلت حتى لم تعد تشبه الأرض ، ومن منظر السموات قد تبدلت فأصبحت غير السموات والأرض من شدة الزلزلة تتغير كل معالمها وتلقى كل ما فيها من أثقال ومعادن فتتخلى عنها . والسموات كذلك تنطفئ نجومها وتكدر شمسها وتنفطر نفس السماء وتنشق ، ويبعث الناس حينئذ بارزين لله لا يسترهم شيء ، ولا تخفى منهم خافية ، هنالك لا يعرفون من الأرض معلماً واحداً ، وينظرون إلى السماء والأرض فلا يرون شيئاً مما كانوا يرونه من ملكوت السموات والأرض .

ثالثاً : ومهما كان شأن المجرمين كبيراً فى الدنيا ، فإن منظرهم فى البعث فى غاية من الذل والمهانة ، فهم يقرنون فى القيود أى يقرن كل اثنين منهم فى غل شديد تغل به رقابهم ، ويلبسون ملابس من القطران الأسود ، الذى تطلى به الجمال الجرب ، والقطران من البترول وهو سريع الاشتعال؛ ولهذا يكونون مهيئين للاحتراق فى كل وقت حين تغشى وجوههم النار فيشتعل القطران ويحرقهم .

إن هذه الصورة قمة فى الإهانة . تصور أنك ترى جماعة من السجناء من

العريقين فى الإجرام ، وقد غل كل اثنين وقيدوا فى قرن ، وبدوا سوداً بملابسهم القطرانية ، والنار تغشى وجوههم فيشتعل القطران ليحرقهم ، إنه منظر لا يتصور العقل أنكى منه ، ولا أشد إيلاماً من هذا الاستعراض المهين .

رابعاً : أما قوله تعالى:﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، فهو يوضح أن الله إذ يعذب المجرمين عذاباً مهيناً لا يصنع بهم ذلك إلا جزاء وفاقاً لأعمالهم التى كسبوها من ظلم وإجرام وغرور واستكبار عن الحق . ومن ثم فعذاب المجرمين ما هو إلا تطبيق للعدالة التى رسم الله للعباد منهاجها القويم، وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تذييل من الإطناب البلاغى .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ يوضح أربعة أهداف للقرآن الكريم :

الأول : أنه بلاغ للناس يبلغهم كل ما فيه خيرهم ، وإذن فهو علم ونور يهتدى به الناس سبل الخير والسعادة ، وهو فى الوقت نفسه ينذرهم فيبلغهم عواقب الشر الوخيمة وما ينتظر أهل الشر من سوء الحساب .

والثانى : أنه إنذار لأهل الإجرام والمعصية ، يحذرهم عواقب الشرك والظلم والإجرام .

والثالث : أنه يعلم الناس توحيد الخالق ، وإفراده بالعبادة نابذين كل شريك مع الإله الواحد .

والرابع : أنه ذكرى مستمرة لأصحاب العقول يردهم دائماً إلى منهجه العظيم ، فى الحياة ، والأخلاق ، والعبادة .

ومن هنا استحقت هذه الآية أن تسمى عنوان القرآن .

سادساً : هذه الآية الخاتمة منسجمة مع الآية التى افتتحت بها السورة ، ففي مطلع السورة وضح الله هدف القرآن الأعظم بقوله : ﴿ **الٓر * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [إبراهيم : ١]. إنه الهدف الأسمى من كتاب الله ، ألا وهو إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد ، ومن دروب الشر ﴿ **إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ ومعناه : أن هذا القرآن هو بلاغ ينذر كل حى من الناس ﴿ **وَلِيُنذَرُوا بِهِ** ﴾ ومعناه : وقد أنزله الله جل جلاله لتنذر به البرية أجمعين ﴿ **وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ ومعناه : أن القرآن الكريم إنما نزل ليتدبره الناس فيعلموا من دراسته أن الله هو الإله الواحد الذى لا شريك له ، ﴿ **وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ ومعناه : أن القرآن الكريم يذكر الناس جميعاً ، بربهم ودينهم ورسالة خلقهم ومنهج الإسلام فى أخلاقهم، فيتذكر منهم أولوا الألباب ويجعلون القرآن مرشداً لهم يذكرهم كلما غفلوا ، ولا غرو فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿ **سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى** ﴾.

سابعاً : يتجلى فى الآيات أسلوب الإنذار بكل ما فيه من فخامة مرعبة ، فالألفاظ فى مجموعها ذات دوى يملأ القلب رعباً ، وانظر في هذا الصدد ، إلى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ** ﴾ ، ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ** ﴾ ، ﴿ **وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ وانظر كيف اختار هذين الاسمين العظيمين من أسماء الله الحسنى كقوله فى آية سورة غافر: ﴿ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾ تضاءل الشركاء المزعومون وتجلى الرب جل جلاله فى جلال الوحدانية والقهر .

سخرية من الكفار .. وتحدٍ بإعجاز القرآن من الله

هذه هى الآيات الكريمات التى استهل بها الحق تبارك وتعالى سورة الحجر، وسورة الحجر مكية نزلت فى الظروف القاسية التى مر بها رسول الله ﷺ ، بين عام الحزن وعام الهجرة . وكانت تلك فترة محزنة استأسد فيها الكفار بعد موت أبى طالب وموت خديجة ، لقد توقف مد الإسلام أثناءها فى مكة المكرمة ، وبدأ رسول الله ﷺ يبحث عن المنعة والحماية فى القبائل الأخرى مستيئسا من قومه قريش . فى هذه الأثناء تتابع نزول السور ، كالأنعام ، والأعراف ، ويونس، وهود ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، وكلها تسلية للرسول ﷺ عن همومه ، وتثبيت له فى غمار الأحداث . وسورة الحجر من بين هذه السور تتميز بقصر الآيات ، شأن معظم السور فى الأجزاء الأخيرة من القرآن وقصر الآيات ، يجعل وقعها مرهباً وإيقاعها كنفير الإنذار .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ١ ـ ٩].

هذه هى الآيات الكريمات وهذه قطرة من بحر إشاراتها العظيمة :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ معناه إن هذا الذى ننزله إليك ما هو حروف عربية ، وهو آيات كريمات من تنزيلنا من القرآن

الذى يبين للناس أمور دينهم ودنياهم ، وهذا الافتتاح وأمثاله كان يفيض على نفس نبينا ﷺ ، روحا يريح نفسه ويسعدها ؛ لأن أشرف الشرف هو شرف الوحي والنبوة وأى سعادة أعظم عند محمد ﷺ من أن ينزل عليه الوحي بآيات ، إنه أمر لا يتشرف به إلا صفوة اختارها الله من بين البشرية؛ ليكونوا مصابيحها فى مجاهل الحياة .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ربما وربما لغتان فى الكلمة ، ورب لا تدخل على الفعل لكنها حين تدخل عليها (ما) تصبح كافا ومكفوفا ، وتدخل على الفعل ، وللكلمة أكثر من معنى .

وهى هنا تعنى الكثرة ، كقولك لرجل أساء الأدب إليك ربما يغنى الله محروماً ويحرم غنياً ومعناه : إن مما يكثر في الحياة أن يحدث هذا . وفى الآية طباق جميل ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ وفيها تهديد بأنه سيأتى على الكفار يوم يتمنون فيه لو كانوا مسلمين .

ثالثاً : ثم يمضي القرآن فى أسلوب التهديد ، فيقول تبارك وتعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ومعناه : اتركهم ولا تكترث بهم ، ولايغرنك ما تراهم فيه من أطايب الأكل والمتعة وطول الأمل ، فسوف يعلمون ما ينتظرهم من عاقبة وخيمة ، وقد ورد فى الآية الكريمة أسلوبان من التهديد ، أحدهما : إنشائى بصيغة الأمر ، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ والثانى : بأسلوب الخبر ، وهو قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن طول الأمل ربما يلهى صاحبه عن واجبه وعن دينه ، ويحمله على تأجيل التوبة والعمل الصالح فيأتيه الأجل قبل إنجاز العمل ، وفى الآيات إشارة إلى أن الكافر قد تطول مدة إمهاله وظهور النعمة عليه ، ولكنه لن يفلت من العذاب .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ يوضح السبب فى أن بعض القرى الظالمة يمكن أن تزدهر على الرغم من شيوع الظلم فيها ، وهو أن الله جل جلاله حدد لكل أمة أجلاً يهلكها فيه ، وإذا جاء هذ الأجل فلن تستأخر ساعة عن العذاب ، ولن تستقدم بل سيحل عليها فى الوقت الذى وقّته الله لها ، فمثلا نرى أن بعض مدن فى أوروبا يطفح فيها الفساد ، ويستشرى حتى إنها لتكاد ترجع إلى حياة البهائم . إن مثل هذه المدن لها أجل أجله الله لها ولعل إمهاله فى هذه الأيام ، ناجم عن بقايا ولو ضئيلة من صنائع الخير فى مجتمعها كعدل فى حاكم ، أو أمانة فى تاجر ، أو إخلاص فى طبيب ، فإذا خلت نهائياً من كل خير وصوحت فيها غراس الفضيلة ، فحينئذ تنطبق عليهم سنة الله فيحل بهم العذاب هذا والواو فى الآية : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ حالية، والجملة بعدها حال وأما (من) فى قوله تعالى ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ فهى : زائدة تفيد التوكيد، وقرية مفعول به مجرور لفظاً منصوب تقديراً . والكتاب المعلوم كناية عن الكتابة التى فى اللوح المحفوظ.

خامساً : ثم يبين الله الأسلوب الغوغائى الذى يتعامل به الكفار مع أنبيائهم وهو يستند إلى البذاء والأهواء التى لا يدعمها سلطان ولا دليل : ﴿ وَقَالُوا يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ قولهم: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ تهكم ؛ لأنهم لم يكونوا يؤمنون أن محمداً نزل عليه الذكر من عند الله ، ولكنهم يستعملون هذا الأسلوب للسخرية ، كما تقول لإنسان يدعى الفصاحة تعال ياصاحب

السحر الحلال وأنت تهزأ به ، وهم هنا يقولون لمحمد ﷺ بأسلوب التوكيد الشديد: ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُون * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ﴾ ومعناه : إذا أنت لم تنزل علينا ملائكة من السماء ، فاعلم أنك مجنون إذا اعتقدت أن نؤمن لك ، ويرد الله عليهم أن تنزيل الملائكة لا يكون إلا لأمر عظيم إما بآيات القرآن ، أو بالعذاب المدمر الذى تعرضت لمثله الأمم السابقة كما نزلت الملائكة بالعذاب لقوم لوط مثلاً .

سادساً : وهنا فى وسط الظروف الشديدة يبشر الله نبيه محمداً ﷺ بأنه إنما نزل القرآن ليحفظه ، إلى الأبد إن شاء الله تعالى ، ويستعمل الحق جل جلاله أساليب التوكيد المتلاحقة ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ فهنا سبع كلمات فيها خمسة أساليب من التوكيد ، فـ ﴿إِنَّا﴾ تفيد التوكيد و﴿ نحن﴾ يعرب توكيداً لفظياً و ﴿نَزَّلْنَا﴾ أسلوب توكيد ، وكلمة : ﴿إِنَّا﴾ الثانية توكيد ؛ لأن وزن فعّل يفيد التوكيد ، وكلمة إِنَّا الثانية توكيد وفى تقديم كلمة ﴿ له﴾ توكيد ، واللام فى ﴿لَحَافِظُون ﴾ مؤكده . وقد حقق الله جل جلاله وعده بحفظ القرآن رغم المؤامرات عبر التاريخ .

وحسبك أن تعلم فى هذه الأيام أن أقلاماً مأجورة لشعراء أو كتاب أو قصاصين، ممن يتسمون بالعرب والمسلمين ، لاعمل لهم فى هذه الأيام إلا الهجوم على اللغة العربية الفصحى ، ومع تآمر الأعداء ، حفظ الله القرآن الكريم وحطم مكائد أعدائه على صخرة الوعد الإلهى الصادق ، مع أن لغات كثيرة انقرضت وهى لم تلق من التآمر عشر ما لاقته لغة العرب والقرآن الكريم .

من آيات الله فى الكون

هذه أربع آيات من سورة الحجر ، أحسب أن لو أراد عالم راسخ فى الفيزياء أن يحيط بأسرارها لألف فى تلك الأسرار كتباً ، ولكنى سأقف عندها وقفة متدبرة أسأل الله فيها الفتوح والتوفيق ، كما أسأله للإخوة المسلمين أن تشملنا وإياهم بركة القرآن ، وتهدينا وإياهم أنوار القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : ١٩ ـ ٢٢].

أولاً : الأرض التى أكرمنا الله بسكناها وعمارتها هى من أعظم آيات الله ، فقد مدها ربنا للإنسان ليتمكن من التجول فيها ، ويسلك سبلها ذللاً ويتمتع بأنحائها وجمالها وخيراتها ، وقد ألقى ربنا فيها جبالاً راسية عظيمة ثقيلة تحفظ توازن الأرض ، إن توزيع الجبال وسلاسل الجبال على وجه الأرض، لم يأت مصادفة ، وإنما هو أمر مدبر محسوب مهندس أروع الهندسة ، وأجلها فمن سلاسل الجبال ما يمتد من الشرق إلى الغرب كذلك الحزام الهائل يمتد من شرق أسيا عبر جبال هملايا إلى أن يكمل امتداده فى الشمال الأفريقى جبال الألب ومنها تلك السلسلة التى تمتد من جنوب أمريكا الجنوبية إلى شمال أمريكا الشمالية والمسماه بجبال ركى ، ومنها جبال متناثرة فى المحيطات ، وكل جبل منها وضعته يد القدرة بحيث يضغط بثقله الهائل على الأرض ليحدث التوازن ، وبعد أن مد الله عز وجل هذه الأرض ، وثبتها بالرواسى هيأها للحياة النباتية

فأنبت فيها ملايين الأصناف من الحياة النباتية .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ تعبير فى غاية من الإعجاز العلمى يشير إلى أن كل صنف من النبات سواء أكان نجما أو شجراً أو عشبا قد جعل الله لعناصره وجزئياته التى يتركب منها نسباً وزنية مقدرة موزونة بأدق من ميزان الجوهر ، وتختلف النسب الوزنية للجزئيات والعناصر من نبات إلى آخر ، ولعل هذا الاختلاف هو الذى يسبب اختلاف الثمر والخصائص ، فترى من الأعشاب ما هو مرىء للحيوان ومنها ما هو سام ، وترى نوع البقول، والثمار يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ألا ما أروع كلمة موزون التى تصف كل نوع من أنواع النبات ألا ما أعظم الوزن ، وما أدق الميزان وما أروع الموزون .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ يشير هذا القول الحكيم إلى أن الله جعل فى موارد الأرض وخيراتها ، ما يوفر العيش لكل سكانها من إنسان وحيوان ، ونبات ، ولا خوف على الأحياء أن ينضب رزقهم وخصوصاً بعد أن اكتشف الإنسان عناصر الأرض والهواء والماء وتعلم التحليل والتركيب . إن الأرض ملئية بالخيرات فى برها وبحرها ، وما اكتشف الإنسان حتى الآن إلا جزءاً صغيراً من بركات الأرض وكلما زاد سكان الأرض توفرت مصادر الرزق لهم ، لأن رزقهم على ربهم ، والإنسان مهما عظم شأنه لا يستطيع أن يخلق رزقا فالله تعالى يرزق بنى آدم ، ويرزق من لا يستطيع الآدميون رزقه من البهائم والطير والأسماك ؛ إذ ما من دبة فى الأرض إلا على الله رزقها.

رابعاً: قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ هذه الآية لها معنى عظيم حقا ، ومعناها أن كل شيء من الرزق الذى به قوام الإنسان والبهائم هو محفوظ فى خزائن لدينا ، ونحن ننزل منه بالقدر المعلوم ، الذى يقوم بحوائج المخلوقات وهذا يعنى أن رزق الخلائق مضمون ، وجاهز لدى ربنا جل جلاله ، إن طعام الخلائق وشرابها ومصادر الطاقة اللازمة لها وكل ما يلزمها من كساء وأدوات وآلات ، ومعادن كل هذه فى خزائن عظيمة محفوظة لدى ربنا جل جلاله ، وهو ينزله بالقدر اللازم ، إن الطاقة البخارية ، والكهربائية ، والذرية، وغيرها مما يعلمه الله كانت وما زالت فى خزائنها لدى ربنا ، وقد كشفها الله للإنسانية فى أوقات معلومة ، ويخلق مالا تعلمون ، ومهما تكاثرت الخلائق فإن مصادر رزقها لا تنضب ، وكل من يخشى على الإنسانية أن تزحم الأرض ويضيق بها الرزق فهو واهم ، فاقد للثقة بالله ؛ لأنه جل جلاله حين خلق الأرض بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأرزاقها ولن تنفذ منها الأرزاق ، إلا حين يريد الله جل جلاله أن ينهى قصة الحياة الدنيا ويرد الخلائق إليه .

خامساً : ومن أعظم آيات القرآن وقعاً ومعنى ونظماً قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ وقبل أن كشف العلم الحديث عملية التلقيح فى النباتات والأزهار والسحب تذكيراً وتأنيثاً، أشار القرآن الكريم إلى هذا قبل قرابة قرن ونصف من الزمان . لقد ثبت الآن أن عملية تكوين السحب ونزولها المطر تم كالتالى : يسوق الله جل جلاله فى السماء سحباً متناثرة متكونة من بخار الماء المتصاعد من البحار ، وتكون فى أول أمرها متفرقة وفى المرحلة الثانية يحدث تجاذب بين هذه السحب فينجذب الصغير منها إلى

الكبير يؤلف الله بينها كأنما بينها حب وألفة ، فإذا اجتمعت فى السماء سحب كبيرة متراكمة ، بعث الله فى كل سحابة ركامية شحنة كهربائية، ويكون بعض هذه الشحنات موجبة ، والبعض الآخر سالبة ، وتماماً كما يخلق من الناس ذكراً وأنثى ، وتأتى الرياح فتسوق السحب بعضها نحو بعض موجبها نحو سالبها ، ثم إذا تقاربتا بفعل الريح تلاقحت فاتحد الموجب والسالب وكان التفريغ الكهربائى متمثلا فى البرق ، وكنتيجة لهذا التلاقح ينزل السحاب ودقاً وبرداً وماءً ، وتعود الرياح مرة أخرى لتلقح الأرض بماء المطر. ثم تتم عملها التلقيح فتهب بين النبات لتلقحها بنقل عناصر التذكير من الذكر النباتى إلى الأنثى ، فسبحان من أرسل الرياح لواقح تؤلف بين السحب وتؤلف بين العائلة النباتية ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

سادساً : قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ يذكر الله جل جلاله نعمتين من نعمه فى المطر ، الأولى : أن الله جل جلاله يسقى هذا المطر الناس والأنعام فيحييهم به ويبنى أجساماً، ويستعمل الفعل سقى يسقى بفتح الياء استعمالاً غير استعمال الفعل سقى يضمها فتقول : الأم أسقت ابنها حليبة وهى تسقيه ، وتقول : الراعى سقى الغنم ، وهو يسقها، والأول يعنى رفع اللبن باليد وتقريبه إلى فم الطفل ، أما الثانى فيعنى إيصال الغنم إلى الماء وتركها عنده لتشرب بنفسها .

وفى الآية ما يفهم أن الرب جل جلاله يسقى الأناسى والأنعام بيده الكريمة، هذا وفى الآية نعمة ثانية : وهى عملية التخزين ، وهى حفظ الماء نقيا رائع العذوبة فى الأرض ، وتخزينه فى الأرض نعمة جليلة ، لأنه لو لم يخزن فى

الأرض لزال فى أيام ولم يستطع الخلق تخزين ما يكفى منه مهما جهزوا من الخزانات ، ثم إنه لو لم يخزن فى باطن الأرض لما احتفظ بصحيته وعذوبته ، ثم إنه يكتسب فى الأرض أملاحاً ضرورية للإنسان . وقد أشار الله جل جلاله إلى نعمة التخزين هذه فى سورة المؤمنون فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ والحق أنه لو احتكر الماء وبيع فى الأسواق لما استطاع الناس أن يشتروه لكن الله جل جلاله أسكنه فى الأرض ليظل محفوظا وزائداً عن حاجة الأحياء .

مطلع رائع لسورة النحل

هذه هى الآيات الأربع التى يستهل بها ربنا جل جلاله سورة النحل ، وسورة النحل من السور المكية وسماها بعض أشياخنا سورة النعم ، لكثرة ما ذكر الله عز وجل فيها من نعمه على الإنسان ، يقول شيخنا الإمام الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ عن سورة النحل : هذه السورة هادئة الإيقاع وهى كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى ، لكنها تعالج موضوع الوحدانية بأسلوب هادئ لا تسمع فيه جلجلة سورة الأنعام ، وسورة الرعد ، وإنما تخاطب جوارح الإنسان : العقل لكى يعى ، والعين لتبصر ، والأذن لتسمع ، واللمس ليستشعر، والوجدان ليتأثر . إن سورة النحل لم تناقش موضوع العقيدة والوحدانية عن طريق ذكر العقوبات والمثلات التى حلت بالأمم السابقة ، وإنما ناقشت الأمر عن طريق مخاطبة الإنسان بجميع جوارحه لكى يصل إلى التوحيد عن طريق النظر فى ملكوت الكون وفى نعم الله العظيمة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّه فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١ ـ ٤] هذا هو المطلع الرائع لسورة النحل ، وهذه بعض أسرار بلاغته ودلائل إعجازه :

أولاً : كان مشركو قريش يستعجلون محمداً ﷺ بالعذاب فيقولون له إن كنت صادقاً فأنزل علينا كسفاً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، والآية الأولى من سورة النحل رد على أولئك المعاندين ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّه فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ومعناها أن أمر الله جل جلاله بعذاب المشركين قد أتى . وقد استعمل الفعل الماضى ولم يقل سيأتى أمر الله

لأنــه جل جلالــه قــد أصدر الأمر فعلاً بعقاب المشركين ، ولم يبق إلا أن ينفذه فى الأجل القريب الذى حدده بقدره الحكيم وحكمته البالغة. والعرب يستعملون الفعل الماضى ليدل على المستقبل فيقولون : وصلت العطلة ، وأدركنا الوقت ، وحل الموسم قبل الوصول والإدراك والحلول وذلك لقرب وقوع الفعل وكل ما يقع في القريب العاجل فكأنه قد وقع وقد ختم الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ لينبه أولئك المعاندين ، أن ثمة أمراً أهم من مطالبتكم بالعذاب وهو أن تفكروا فى أمر شرككم وما فيه من تفاهة التفكير وطمس العقل ، حين تشركون بخالق السموات والأرض حجارة لا تضر ولا تنفع ولا تخلق شيئاً ، بل ولا تملك لنفسها دفاعاً ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إن سورة النحل من السور التى تصب كل آياتها فى محيط واحد ألا وهو التوحيد، فإذا ذكرت آيات الله أو نعمه ، أو روائع خلقه ، أو الدعوة بالحكمة فكل هذا وغيره فروع للموضوع الكبير ، ألا وهو التوحيد .

ثانياً : وبعد آية المطلع العظيمة هذه شرع الحق فى ذكر نعمه على الخلائق، فذكر أعظم النعم قاطبة وهى التى أهم من المطاعم والمشارب والمراكب الفارهة، إنها نعمة إرسال الرسل ، التي لولاها لظل الناس في ظلام دامس من الشرك والخرافة والجهل ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنـــذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ . إن الله جلت قدرته ينزل الملائكة بالوحى على فئة مصطفاة من خلقه هم الأنبياء لينذروا الناس بأنه لا إله إلا الله ، ومن ثم فإن على الخلائق أن يؤمنوا بواحدنيته ويتقوه . إن الإيمان بالله ومخافته هى أهم أركان العقيدة ؛ لأن بالإيمان والتقوى يتحقق القول والاعتقاد كما يتحقق العمل ، ويلاحظ تتابع الموضوع الكبير فى الآيتين ، وفى الثالثة التى ستأتى ، ولا غرو ففى

سورة النحل من آيات التوحيد عدد عظيم ، حتى إن إحدى آيات سورة التوحيد قد لخصت عمل الرسل ورسالتهم فى كلمتين ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت ﴾ فلخص رسالة الرسل فى أن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده ، ونبذ كل طاغوت مما يشرك بالله . وحسب هذه الآية شرفاً أن فيها كلمة التوحيد بنصها ﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُون ﴾ . ولقد كان كثير من أشياخنا الصالحين يتبركون بالآيات المشتملة على كلمة التوحيد ، كقوله تعالى : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَـنُ الرَّحِيم﴾ [البقرة : ١٦٣] ، وكآية الكرسى ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم﴾ [البقرة : ٢٥٥]، وكمطلع سورة آل عمران : ﴿ الـم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٢] وكقوله فى مطلع سورة آل عمران:﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] ويلتقطون من القرآن الكريم أمثال هذه الآيات العظيمة فيتخذون منها ورداً يرددونه ؛ لأن كلمة التوحيد ترجح بالسموات والأرض .

ثالثاً : ويمضى الحق جل جلاله فى الآية الثالثة فيذكر شاهداً عظيما من شواهد التوحيد ، ويتبعه بتنزيه الله عن الشرك ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هما جملتان إحداهما ذكر الشاهد المثل على الوحدانية ، ألا وهو خلق السموات والأرض ، الثانية تنزيه لله المتفرد بالخلق والأمر عن الشريك والمثيل ﴿تعالى عما يشركون﴾ ، أرأيت إلى التناسق الجميل البليغ بين الآيات ، إنها تتسلسل كالسلسل العذب، لتثبت الحقيقة الكبرى ، والرسالة الخالدة ، ألا وهى الوحدانية التى ينفرد بها ربنا وبما يتبعها من

صفات الجلال والكمال والجمال.

رابعاً : وبعد ذكر السموات والأرض كشاهد على الوحدانية ذكر فى الآية الرابعة شاهداً آخر ، هو خلق الإنسان من نطفة ، خلق هذا الكائن العجيب الذى استحق الاستخلاف فى الأرض بما جهزه به من عقل يستوعب العلم ، وحافظة تحفظه، وإدارك يميز بين النجدين ، كل هذا خلق من نطفة ، إنها من أعظم دلائل القدرة ، وذكر خلق الإنسان بعد خلق السماوات والأرض تكريم واضح للإنسان، ولكن الآية تذكر مفارقة مضحكة حقاً من المفارقات التى تصدر عن الإنسان ، لقد خلقه الله من نطفة بكل ما فيه من عقل وإدراك وسمع وبصر وفؤاد ، خلقه بقدرته ليفكر فى خلق نفسه ، فيؤمن بموجده ؛ لكنه بدلاً من ذلك تحول إلى مجادل معاند يغفل عن خالقه وينساه ، ويجادل فى آيات الله ، ويتخذ مع خالقه شركاء ضاربا بعقله عرض الحائط ! اللهم أخلص توحيدنا من كل شوائب الشرك ، وابعثنا إليك مؤمنين موحدين .

خلاصة جميع الرسلات : الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك

هذه خمس آيات من سورة النحل تلخص الرسالة الخالدة التى جاء بها جميع الرسل وخاتمهم محمد عليهم الصلاة والسلام وخلاصة هذه الرسالة ، عبادة الله جل جلاله ، ونبذ كل نوع من أنواع الشرك . والإيمان باليوم الآخر وما فيه من قضاء بين الناس ، ومن ثواب على العمل الصالح وعقاب على الظلم والفساد .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٣٦ ـ ٤٠] . هذه الآيات الكريمات من أعظم دروس التوحيد ، وقد اشتملت على قدر عظيم من مسائل العقيدة الهامة، فأقول وبالله الحول والهداية والتوفيق :

أولاً : من عدالة الله جل جلاله أنه لا يعذب أمة إلا بعد أن يرسل لها رسولاً يعلمها الإيمان والتوحيد والحلال والحرام ، ومع أن العقول بفطرتها ترشد إلى الإيمان والعمل الصالح ، فقد أراد جل جلاله أن يتم رحمته على البشرية فأرسل الرسل ردءاً للعقول ، مبشرين لكل مؤمن صالح ، منذرين لكل كافر مفسد لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولئلا يقولوا ما جاءنا من نذير ينذرنا بين يدى العذاب .

وجميع رسل الله من لدن آدم إلى محمد عليهم السلام ، جاؤوا برسالة

واحدة ودين واحد هو دين التوحيد توحيد الله بعبادته وحده ، ونبذ كل طاغوت يعبد من دون الله وهو راض بالعبادة ، وهنا انقسم الناس فى تلقى الرسالة فريقين: فريقاً هداه الله فاتبع الرسول باختياره وهدى عقله ونور بصيرته ، وفريقا حق عليه الضلال فكفر بالرسل باختياره وقاده شيطانه إلى الهاوية ، فحق عليه وعلى أمثاله عذاب الله ، وإذا شئتم أيها المعاندون أن تعرفوا مصير كل كافر معاند ، فسيروا فى الأرض وانظروا بأعينكم آثار الخسف والعذاب فى مدائن صالح ، وفى إرم ذات العماد ، وفى مدائن لوط وغيرها .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴾ بيان لرسول الله أن وظيفته هى التبليغ والإنذار ، أما الهداية فلا يمكن أن يقدر عليها إلا الله . أعرف أحد العلماء اهتدى بدروسه مئات الشباب فأقبلوا على الصلاة وسائر العبادة ، ولكنه لم يستطع أن يهدى ابنه ، مع أنه فى وعظه لولده كان يستعمل من أساليب البلاغة والدعاء بل والبكاء ، ما لا يستعمله فى دروسه العادية . إن نبينا محمداً ﷺ لم يستطع هداية عمه ، ومن قبل ذلك لم يستطع نوح هداية زوجته وابنه ، ولا قدر إبراهيم على هداية أبيه ، ولا استطاع لوط أن يهدى زوجته، مع أن امرأة الطاغية فرعون هدها الله إلى الإيمان فكانت من أهل الجنة ، وإذن فالهداية هى من شأن الله جل جلاله وما على الرسل إلا البلاغ ، والذين حقت عليهم الضلالة لن تستطيع قوة أن تهديهم وما لهم من دون الله من ولى ولا مرشد ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴾ [النحل : ٣٧] .

ثالثاً : الآيات الثلاث التاليات تدور حول اليوم الآخر وإثباته. يقول الله جل جلاله: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ**

حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ كان كفار قريش ينكرون البعث ويرون أنه صعب بعد تمزق الأجساد وذوبان العظام ، حتى إن أحدهم أقسم بالله مجتهداً فى اليمين بأن الله لن يبعث الأموات ، وجاء أحدهم إلى رسول الله ﷺ وبيده عظم قد تآكل وذاب فقال : من يحيى هذه العظام وهى رميم ، ونسى ذلك المشرك أن الله جل جلاله الذى أنشأ الإنسان من نطفة لا ترى بالعين ، وصنعه على غير سابق نموذج قادر أن يحيى الموتى .

وهنا يرد عليهم الله عز وجل بقوله : ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ ومعناها بلى سيبعث الله الموتى ، وقد وعد وعداً حقاً بذلك ولكن أكثر الناس ذوو إدراك محدود ، فهم يظنون أن إنشار العظام أمر شديد .

رابعاً : فى الآية الرابعة ذكر الله جل جلاله الهدف العظيم من البعث فيقول : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ وضحت الآية الكريمة هدفين عظيمين للبعث : أولهما : أن يحكم الله بين الناس فى كل ما كانوا فيه يختلفون ، سواء من مسائل التوحيد ، أو من أمور الحقوق ، وهذه الجملة فيها إيجاز قصر عظيم ، فقوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ يشمل جميع مسائل الحياة والموت التى انقسم الناس حولها وجميع الحقوق التى اختلف عليها العباد ، أما الهدف الثانى فهو أن تتجلى الحقيقة العظمى حين ينادى ربنا جل جلاله لمن الملك اليوم حتى إذا ساد الصمت وخرس كل مزعوم من الشركاء جلجل نداء الحق : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ .

وكل هذه الأمور العظيمة من البعث وإحياء الموتى وإنشار العظام لا تحتمل أكثر من كلمة واحدة من الله ألا وهى : ﴿كن﴾ فيكون بعدها كل ما أمر به الله .

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون ﴾ وقد جاءت الآية بأسلوب القصر للدلالة على أن أمر البعث لا يحتاج من الله إلى أى شىء أكثر من كلمة أمر مكونة من حرفين .

أربعة أشربة خلقها الله لبنى آدم

هذه خمس آيات من سورة النحل ذكر الله فيها أربعة أشربة خلقها الله لبنى آدم ، لكل شراب مصدره ، ولكل شراب وظيفته وطعمه ونكهته ، وكما أن كل شراب منها يخرجه الله من مكان لا يتصور عقل الإنسان أن يخرج من مثله.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل ٦٥ ـ ٦٩].

هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز فيها :

أولاً : يذكر الله فى هذه الآيات الكريمة أربعة أشربة خلقها لنا :

أولها : الماء من السماء ، وهو قوام الحياة للإنسان والحيوان والنبات .

وثانيها : اللبن من بطون الأنعام ، يخرجه الله جل جلاله نقياً صافياً سائغاً للشاربين ، مع أنه يخرج من بين فرث ودم .

وثالثها : عصير الفواكه والمربى الذى يصنع منها .

ورابعها : العسل من بطون النحل فيه شفاء للناس .

وكل هذه الأشربة يتجلى فيها إعجاز الصنعة ؛ لأنها تخرج من أماكن لا يتصور خروجها منها كنزول الماء من السماء بعد برق شديد الحرارة ، وخروج اللبن عذباً سائغاً من بين فرث ودم ، وخروج العصير حلواً من تراب الأرض ، وخروج العسل شافيا شهداً من حشرة ، مع أن معظم الحشرات ضارة .

ثانياً : في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ استعارة جميلة ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فالأرض التى تموج خضرة تنبض بالحياة ، والأرض الجافة التى لا زرع فيها ولا شجر توحى لناظرها بالموت ، وختام الآية مناسب أعظم المناسبة لبدئها، ولعلك تتصور روعة الخاتمة حين تقوم من نومك فى هدأة من الليل فتسمع نزول المطر غزيراً له حين يلامس الأرض ، وقع من أعذب الإيقاعات حين يشنف أسماع المزارعين ، وخصوصاً حين يتحول سيلاً يبشر بتوفير الماء فى الأودية ، ومصادر المياه الجوفية : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ، وفى الآيات تعريض بالكافرين بأن لهم آذاناً ولكنهم لا يسمعون بها .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ نعم إن فى الضأن والمعز والبقر والإبل عبرة لمن يتدبر ، وبخاصة حين يتأملها تأكل التبن والشعير والأعشاب ، فتتحول فى بطونها فرثاً غير مقبول الرائحة ، ثم ما هى إلا ساعات حتى يخرج من بين الفرث والدم لبن خالص لا خلط فيه مما يحيط به وهو سائغ مغذ لمن يشربه ، فسبحان من سخر الأنعام للإنسان ، منهم ركوب وطعام وشراب وانظر إلى المقابلة الرائعة بين فرث ودم وبين

﴿ لبنا خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ هذه الآية كانت أول إشارة فى القرآن إلى الخمر بأنها ليست رزقاً حسناً ؛ ولهذا انقطع كثير من الصحابة عن شربها عند نزول هذه الآية وقبل نزول آية التحريم القطعى التى وصفت الخمر بأنها رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .

والآية تشير إلى نعمة الله فى هذه الفواكه التى تتخذ من أنواع النخيل والأعناب ، وقد ذكر النخيل أولاً ؛ لأنه فاكهة وغذاء معاً وثنى بالأعناب ولعلها تشير إلى سائر الفواكه الأخرى ، وختم الآية بقوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ ، كما ختم آية سورة الرعد التى تدور حول الفواكه بقوله : ﴿**لعلكم تعقلون** ﴾ إذ التدبر فى أمر الحياة النباتية يتطلب إعمال العقل ، أى إعجاز إلهى هذا حين نرى بأعيننا شجرة الفاكهة تتغذى بالتراب والسماد ، والسماد فى مجموعه بين سام وقذر ، ثم إذا هى بعد ملايين العمليات المعقدة تعطينا من التراب والسماد رطبا وعنباً وثماراً حلوة وحامضة و حريفة ، جل الذى أودع جذورها وسيقانها وفروعها وأوراقها هذه القوى المختلفة ، والوظائف المتنوعة ، إن شجرة البرتقال كشجرة الليمون منظراً وفصيلة فلماذا وهما متجاورتان وتسقيان بماء واحد ، تعطى أولاهما حلواً له نكهة خاصة ، وتعطى الأخرى حامضاً له عطر ونكهة آخرى وكلها لإمتاع الإنسان وتفكيهه ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ .

خامساً : الآية المتعلقة بالنحل : ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** ﴾ أى ألهمها بما أودع فيها من فطرة وغرائز ﴿ **أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ**

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ألهمها أن تبنى بيوتها الشمعية وخلاياها فى سفوح الجبال وقممها وفوق الأشجار وفيما يعرشه الناس لأشجار العنب وغيرها، كما أوحى إليها أن تأكل من كل الثمرات مذللاً لها كل السبل فى السهول والجبال ،كل هذا لكى يخرج للإنسان من بطون تلك الحشرات العجيبة عسلاً مختلف الألوان يشفى بإذن الله من أمراض كثيرة ، وقد أجمع الأطباء فى مشارق الأرض ومغاربها أن العسل شفاء ، وحتى لو لم يجمعوا فالله أصدق حديثاً ، ترى من علم النحلة أن تجمع الشمع من مصادر عجيبة ثم تبنى فى الخلية تجويفات على هيئة أشكال سداسية منتظمة كأنها تحمل أدق أدوات القياس ثم كيف يتحول الأرى الذى تشتاره عسلاً ؟! تلك هى القدرة القادرة التى لا يفهمها إلا قوم يتفكرون.

أجمع آية فى القرآن

هذه آية واحدة من سورة النحل تكفى لو عمل بها الأفراد والجماعات أن ترسى قواعد مجتمع فاضل مؤمن ينعم بالحب والأمن والإخاء والسعادة ، وقد اختار الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ هذه الآية ليرددها خطباء الجمعة على المنابر ليذكروا الناس بما اشتملت عليه من مقاصد الإسلام النبيلة، وحرصه على مكارم الأخلاق والفضيلة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] هذه هى الآية الجامعة الشاملة وهذا قبس من أنوارها وهداها :

أولاً : هذه الآية الكريمة عظيمة المعانى حقاً قال فيها ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : هذه الآية أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ، ولشر يجتنب ، وقد روى أن هذه الآية تليت على أبى طالب فلما سمعها وتأملها قال : يا معشر قريش ، اتبعوا ابن أخى فإنه يأمر بمكارم الأخلاق. وروى أن عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنه ـ وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام قال : ما أسلمت أول الأمر إلا حياء من رسول الله ﷺ حتى نزلت عليه آية سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ وأنا عند رسول الله ﷺ فثبت الإيمان فى قلبى ، وكان الوليد بن المغيرة ـ كما هو معروف عنه ـ من أشد الناس عناداً للقرآن والإسلام فقرأ عليه الرسول ﷺ هذه الآية وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... ﴾ إلى آخرها فقال : يا ابن أخى : أعد ، فأعدت عليه فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله لمورق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما هو

بقول بشر . إنها آية أخذت بمجامع قلوب من سمعها من المشركين ، ولا غرو فإلى جانب وقعها ورصانة لفظها فقد جمعت من المعانى النبيلة، والإشارات الجميلة ما يكفى لبناء أسعد المجتمعات ، وأنبل الشخصيات . ولو أن مجتمعنا الإسلامى فى الوقت الحاضر يطبق هذه الآية ؛ لأصبح كما أراد الله له أن يكون خير مجتمع أخرج للناس .

ثانياً : أول ما ذكرت الآية من أوامر الله التى أمر بها وارتضاها للمسلمين أفراداً وجماعات العدل : وهو أن ينال كل فرد فى المجتمع حقه كاملاً غير منقوص ، سواء أكان غنياً أو فقيراً سوقة أو أميراً ، بغض النظر عن اعتبارات الصداقة والوساطة والرغب والرهب والحب والكراهية ، قال عليه الصلاة والسلام حين استشفعه أسامة بن زيد بن حارثة فى السيدة المخزومية القرشية التى سرقت : «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ، وعقب قائلاً : « إنما أهلك من كان قبلكم أنه كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد» : ويضيق المقام إذا أردنا تعداد مواقف الخلفاء والأئمة والقضاة من السلف من إنصاف المظلوم ، وحسبنا مثلاً أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنصف مظلوماً نصرانياً من مصر وسلمه العصا ليقتص لنفسه من شريف قرشى هو ابن أمير مصر عمرو بن العاص ، ثم قال كلمته الشريفة موجهة إلى أعظم أمير من أمراء الأقاليم : يا عمرو ، متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟! وكانت أول خطبة له ـ رضى الله عنه ـ تلك التى قال فيها عبارته العظيمة : ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له وإن أضعفكم عندى القوى حتى أخذ الحق منه . أين هذا مما عليه المسلمون الآن حيث القاضى نفسه فى كثير من الأحوال قد يكون كافراً، وإن كان مسلماً فهو بلا صلاة ولا صوم ولا

زكاة ولا حج، وأهم من هذا كله أن كثيراً من القضاة الآن لا يؤمن بحكم الإسلام كنموذج أعلى للعدل ومنهج كامل للقضاء.

ثالثاً : الأمر الثانى هو الإحسان ، وهو أعلى مراتب الإيمان ، وكلمة الإحسان فى الاصطلاح معناها : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وحسبك بمن يعبد الله كأنه يراه من إنسان يراقب الله على كافة أحواله ، ولا يأتى من الأعمال إلا بما يرضيه ، ولقد ذكر الإحسان بعد العدل ؛ لأن العدل هو الذى يحكم به أولاً ، ثم يجىء الإحسان حين يتنازل صاحب الحق عن حقه ويقدر ظرف مخاصمه ويبدو وجه الأخوة الجميل فوق المقاصة والاستيفاء . وقديماً سأل أحد القضاة متخاصمين: أتحبان أن أقضى بينكما بالعدل أم بما هو أفضل من العدل ؟ قالا : وهل ثم شىء أفضل من العدل ؟ قال : نعم الإحسان .

رابعاً : الأمر الثالث : هو إيتاء ذى القربى ومعناه : أن تبدأ فى صنائع الإحسان بذوى قرباك ؛ لأنهم أولى بالمعروف ، ولو أن كل ذى إحسان شمل بإحسانه ذوى قرباه ، فسوف تكون النتيجة أن يشيع فى الأسر الإسلامية الحب والولاء والتعاون ، ثم تنتقل هذه المثل العليا من الأسر والأفراد إلى المجتمعات فتزيدها قوة وتماسكاً ووئاماً .

خامساً : ثم جاءت النواهى بعد الأوامر فنهت الآية أول ما نهت عن الفحشاء ، وهى كل عمل يتجاوز فيه المرء حده ليعتدى على حق غيره ، وقد تطلق الفحشاء على الزنا ؛ لأنه من أفظع العدوان على شرف الغير ومروءته ، أما المنكر فكل ما ينكره المؤمنون من أفعال السوء ، وكل ما تستنكره العقول من الأفعال المشينة .

سادساً : أما النهى الثالث فى الآية فهو نهى عن البغى ، والبغى هو الظلم ،

والإسلام لا يرضى أن يظلم المسلم أخاه ؛ لأن الظلم من أفظع عوامل الحقد والكراهية فى المجتمعات ، والظالم عاقبته وخيمة ؛ لأن دعوة المظلوم لا ترد يرفعها الله فوق الغمام ثم يقول : « وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » .

وبعد .. فتصور فرداً لا يصدر فى حكمه إلا عن العدل ، ولا يصدر فى معاملته مع الناس إلا عن الإحسان ، ثم هو منتشر الفضل ، ولكنه يبدأ بالفضل مع أقاربه ليكون فضله مروءة وإحساناً وصلة رحم ، ثم تصور هذا الفرد وهو يستنكف عن الفاحشة وينكر كل منكر ، ويباعد بين نفسه وبين الظلم . وتصور أيضاً مجتمعاً شعاره العدالة والإحسان وصلة الرحم ، مضافاً إليها تجنب الفحشاء والمنكر والظلم ، ألا يكون الإنسان المشار إليه أنبل الناس والمجتمع المشار إليه أسعد المجتمعات، ليت المسلمين فى هذه الأيام يكتفون من كل الخطب والكلام بهذه الآية ، إذن لعاد مجتمعنا قوياً ، كما كان أيام السلف قوياً من قوة الله مهيباً من هيبة الله منتصراً بإذن الله ومشيئته .

من أعلن الكفر بلسانه مكرهاً فلا حرج عليه

هذه آية كريمة من سورة النحل نزلت فى عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ وكانت لها مناسبة من تاريخ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وقد فتحت هذه الآية للفقهاء المسلمين مجال الاجتهاد فى أحكام الإكراه ، وإنى موردها هنا ثم متبعها ـ إن شاء الله ـ بذكر لطائف حول تأويلها :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦] أقول وبالله العون والتوفيق :

أولاً : هذه الآية تذكر نفراً ارتدوا عن الإسلام ، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وأخ لخالد بن الوليد اسمه قيس ، وهى تتكون من جملة رئيسية تبين عقوبة المرتد ، ومن كلام معترض فى وسط الجملة ، نزل من أجل عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ أما الجملة الرئيسية التى تتحدث عن الذى يرتد بمحض اختياره فهى قوله : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ .... فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وأما الاعتراض الذى نزل لتبرئة عمار ـ رضى الله عنه ـ فقوله : ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ ، وبهذا يكون معنى الآية: أن الذى يرتد عن الإيمان منشرح الصدر مختاراً ، فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم ، لكن من ارتد مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان، فهذا ليس داخلاً فى حكم المرتد .

ثانياً : ورد فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أن المشركين أخذوا عماراً وأباه

وأمه سمية وصهيباً وخباباً وسالماً وبلالاً ، فعذبوهم أشد العذاب وقتل أبو جهل على مرأى منهم سمية ـ رضى الله عنها ـ وزوجها ياسر ـ رضى الله عنه ـ فلما رأوا منظر القتل والتعذيب ، قالوا للمشركين : نفعل ما تطلبون وتطلقون سراحنا ؟! فقالوا لهم : سبوا محمداً ، ويبدو أن عماراً وصحبه ماعدا بلالاً فعلـوا ما أمرهم به الكفار على سبيل التقية ، فذهب عمار إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه ما حدث ، وأخبره بما صدر عن لسانه ، فقال له رسول الله ﷺ : « كيف تجد قلبك؟» فقال : أجده مطمئناً بالإيمان فقال له رسول الله ﷺ : « فإن عادوا فعد» ونزلت هذه الآية الكريمة رحمة من الله بعباده الذين يكرههم الطغاة على المعصية .

ثالثاً : أن عقوبة الردة فى الإسلام هى : أن يقتل المرتد ، وقد أخذت الردة فى أيامنا هذه أشكالاً مقنعة ، ولكنها على كل الأحوال لا تخرج عن كونها ردة إذا ذهب مسلم إلى بلاد أوروبا ليتعلم ، أو يسيح ، أو يتاجر ، ثم يرجع يهزأ بالعبادات وينكرها فهو مرتد ، ولو لم يعلن تغيير دينه ، وإذا ذهب مسلم إلى بلاد الشيوعيين فاعتنق الشيوعية ثم عاد إلى بلاد الإسلام لنشر ذلك المذهب الهدام فهو مرتد ، وإن قال لك: إنه لم يغير دينه ، وإذا نشأت أحزاب فى ديار الإسلام تدعو إلى غير المنهج الإسلامى فى السلوك الاجتماعى والسياسى والعسكرى وغيرها ، فكل الحزب مهما بلغ عدد أفراده مرتدون ، وهذه الأشكال من الردة قد شاعت فى هذه الأيام فى العالم الإسلامى ، فجرت على ديار المسلمين انقسامات كانت السبب الرئيسى فى الهزائم والويلات ، ولن يغنى عن أولئك المرتدين يوم القيامة أنهم عاشوا فى دولة عربية وكتب فى أوراقهم أنهم مسلمون ؛ لأن الإسلام قول وعمل واعتقاد ، والردة قد تكون فى القول والعمل والاعتقاد ، نعوذ بالله من ضلال بعد هدى ، ومن كفر بعد إيمان .

رابعاً : أسلوب الآية فى ذكر عذاب المرتدين عنيف مهول تنبض كل كلمة من عبارته بالتهديد المخيف ، وانظر إلى كل لفظة فى العبارة ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لأن من ينتقم وهو غاضب يكون انتقامه فظيعاً حقاً ، وهنا توحي العبارة أن الله ينتقم منهم ، وهو غاضب عليهم ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، ثم انظر كيف وصف العذاب بأنه عظيم وفى قوله: ﴿ فعليهم غَضَبٌ مِّن الله ﴾ بإسناد الغضب إلى الاسم الأعظم دليل على أنه غضب مقرون بالجبروت ، ولو قال فعليهم غضب واكتفى ، لكان الأمر أهون ولكنه غضب من الله.

خامساً : استنتج أشياخنا المجتهدون ـ رحمهم الله ـ من هذه الآية أحكاماً تتعلق بالأفعال التى يفعلها العبد وهو مكره ، والحق أن الذى يقترف معصية وهو مكره عليها من قوة غاشمة تهدد حياته تكون له عند الله معاملة خاصة تختلف عن معاملة من يقترف المعصية وقد شرح بها صدراً . وقوله تعالى : ﴿ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ معناه : أدخل على قلبه انشراحاً باقتراف المعصية ، أى : أنه عصى ربه وهو يعد المعصية أمراً ساراً ليس له من جريرة ، بل هو السرور والمتعة . إن الذى يفعل فاحشة وضميره يؤنبه ثم يتبعها بالتوبة ، غير الذى يفعلها جذلاً بها مستطيباً لإثمها مصراً على تكرارها ، وهذه بعض أحكام استنبطها الفقهاء مما ينطبق على المكره :

أ ـ من أظهر الكفر خاشياً على نفسه القتل ، وظل قلبه مطمئناً بالإيمان ، فلا إثم عليه هذا إذا كان الإكراه بالقول ، أما إذا أكره على الفعل الشنيع كأن يقتل مسلماً مثلاً فلا يجوز الاستجابة ، وقال جمهور من الفقهاء : إن الإنسان إذا أكره تحت تهديد القتل فزنى أو سجد لصنم أو شرب خمراً أو أفطر فى رمضان، فإن الله جل جلاله لا يؤاخذه مادام قلبه مطمئناً بالإيمان منكراً

للمعصية والشرك .

وقال الأشياخ : إن من أكره على طلاق زوجته أو إعتاق عبده فلا شيء عليه ولا يعتبر الطلاق ولا الإعتاق . وقالوا : إن من أكره على النكاح بأن زوج رغما عنه فإن وطئها بعد العقد الذى أكره عليه مكرهاً لم يلزمه النكاح وإن وطئها باختياره ثبت النكاح . وقالوا : إن المكره على اليمين والمكره على الحنث لا يلزمهما شيء ، فلو أكره رجل أن يحلف يميناً على أمر ، أو أكره أن يحنث فى يمين حلفه فإن الله غفور رحيم ، وقالوا : إذا أكره على الكفر فاختار القتل ولم يستجب للإكراه ، فذلك أفضل من الذى يأخذ بالرخصة ويظهر الكفر ويبعث الأول بإذن الله شهيداً ، وقد روى أن مسيلمة ألقى القبض على رجلين مسلمين فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله . قال : نعم . قال . مسيلمة : أو أتشهد أنى رسول الله . قال : نعم . وأما الرجل الثانى فرفض أن يشهد أن مسيلمة رسول الله فقتله ، ولما عاد الذى نجا إلى رسول الله أخبره بالأمر فقال : « أما صاحبنا فقد أخذ بالثقة ، وأما أنت فقد أخذت بالرخصة » ثم قال له : « أنت على ما أنت عليه » .

منهج الإسلام فى الدعوة إلى الله

هذه هى الآيات الأربع التى ختم بها ربنا جل جلاله سورة النحل ، وهذه الآيات درس لكل داعية مسلم تكشف له منهج الإسلام الحنيف فى الدعوة إلى الله ، وهى فى الوقت نفسه تبين أن الإسلام دين حضارى ، لا يلجأ فى الدعوة إلى الفظاظة والإكراه والابتزاز ، إنما يكتفى ببيان الحقيقة وتعليم الدين ثم يترك للناس الاختيار .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٥ ـ ١٢٨] هذه هى الآيات العظيمات ، وهذا بيان لبعض ما اشتملت عليه من المقاصد النبيلة والأحكام الجليلة .

أولاً : الدعوة إلى الله لا يجوز أن تقترن بالغلظة والشراسة والفظاظة والبذاء ، بل لابد أن تقترن بالعقل الرزين الهادئ الحكيم ، والجدل لا يجوز أن يكون صخباً ومهاترة وفرض رأى بالغوغائية ، بل لابد أن يكون بالتى هى أحسن ، والتى هى أحسن تعبير عجيب فيه كناية عن كل الأدب والحسنى وعفة اللسان . ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . إن الداعية إلى الله مطالب أن يتحلى بالحكمة وحلاوة الموعظة ويشترط أن يكون جدله بالحسنى فلا يثور فى الجدال ولا يفقد توازنه ، وهو مطالب أيضاً أن يعتقد أن الهداية بيد الله ، وأن

الهادى هو الله وهو العليم بأحوال العباد واستعداداتهم للضلال وللهداية، وما على الرسول وكل دعاة الخير إلا البلاغ والبيان وبذل الجهد فى الدعوة والتبليغ؛ إن هذه الآية الكريمة ترسم للدعاة المسلمين منهجاً حضارياً عقليا يختلف كل الاختلاف عن تلك الطرق الوحشية التى لجأ إليها أصحاب المذاهب ، وحسبك أن تدرس الفظائع التى اقترفتها الكنيسة حين ساقت الآلاف من مخالفيها إلى محاكم التفتيش والمقاصل .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ قيل فى مناسبة نزول الآية : إن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على جثة حمزة وإذا بطنه كان قد بقر ، وجدعت أذناه وأنفه ، ومزقت كبده ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : « لأمثلن بسبعين من المشركين » فنزلت هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ ومعنى الآية : إذا كنتم ولابد مصممين على رد العقوبة ، بالعقوبة فلتكن العقوبة على قدر الإساءة والذنب ، ولكن إذا استطعتم أن تصبروا وتعفوا ، فذلك هو الأفضل لكل صابر ، وهنا عدل رسول الله ﷺ عن يمينه التى حلفها بأن ينتقم ويمعن فى الانتقام ، بل لقد صبر واختار العفو عند المقدرة . إن الداعية لله يجب أن يتحمل ويصبر ، وأن يفضل العفو والصبر على الثأر والانتقام ، ودعوة الإسلام إلى عدم المغالاة فى العقوبة بل وإلى الصبر وعدم الانتقام يدل على أنه دين فى قمة الحضارة خصوصاً ، وقد نادى بهذه الفضائل العظيمة فى عصر كان شعاره الثارات ، وحياته الغارات ، ومن المعروف أن المجتمعات البدائية هى التى تحكمها الانفعالات والغضب ، وكلما أوغل المجتمع فى الحضارة حكم العقل وأوقف

الجموح والنزوات ، وفى الحديث الشريف : « ما صبر عبد على مظلمة إلا عوضه الله خيراً منها » . إن مقابلة الإساءة بالإحسان يجعل المجتمع حافلاً بالمحبة خالياً من الأحقاد والدخول ، وهذا من أهم المقاصد النبيلة لهذا الدين ، والداعية بالذات هو أحوج الناس إلى الصبر ؛ لأنه يريد أن تتألف القلوب ، ومن أجل ذلك لم يظهر النبى ﷺ بمظهر القائد الفتاك الذى يثخن فى القتل ، مع أنه كان فى جميع المعارك قمة الشجاعة وقائد المقدمة ، وفى السيرة : أن رسول الله ﷺ لم يقتل فى حياته بيده إلا رجلاً واحداً ؛ لأنه بعث رحمة للناس ولم يبعث جباراً .

ثالثاً : وتؤكد الآية الثالثة فضيلة الصبر : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ومعناها : اصبر يا محمد على ما فعلته قريش من التمثيل والفظاعة فى غزوة أحد ، ولا تحزن لفداحة المصاب الذى أصابتكم به جنود الشيطان ، ولا يضق صدرك بمكرهم وتخطيطهم ، اصبر على كل هذا ، فالصبر بإذن الله حميد العواقب ، واعلم أن النصر مع الصبر ، والآية هذه تدل على أن سورة النحل مكية ومدنية ، ففى آياتها أسلوب المكى وفيها أسلوب المدنى ، وأسلوب الآيات الأربع الأخيرة منها هو أسلوب هادئ جميل الإيقاع يضفى على النفس المؤمنة روحاً هادئة يملؤها بالصبر والثقة بالله، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، هذه الآيات لا تحمل ذلك الإرعاد الذى فى السورة المكية بل تتدفق بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالحسنى، والصبر على الأذى ليكون مسك ختامها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

رابعاً : من أروع خواتيم السور الآية الخاتمة للسورة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أى شرف أجل من أن يكون الإنسان فى معية ربه ؟! ومن يكن الله معه فقد أمن الأمن الحقيقى فى الدنيا والآخرة ، لكن هذه المعية المشرفة العظيمة ، لا ينالها إلا من جمع صنفين هما أعظم ثمرتين للإسلام

والإيمان ، هاتان الصفتان هما : مخافة الله أولاً ، والإحسان بمعناه الواسع الكبير الذى يشمل أداء الأعمال الصالحة فى إخلاص لله حتى كأنك تراه ، وكأنه معك ، من أجل ذلك بشر الله أهل الإحسان أنه معهم ؛ لأنهم يرونه معهم بقلوبهم على كافة أحوالهم وتصرفاتهم ، والإحسان هو أسمى مراتب العقيدة وأجلها ، ويأتى عادة بعد أن يحقق المسلم أركان الإسلام وأركان الإيمان ، ولقد سأل جبريل عليه السلام نبيناً محمداً ﷺ : « ما الإحسان ؟ » فأجابه تلك الإجابة الملهمة : « هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

نسأل الله أن يجعلنا ـ والإخوة القراء ، وسائر المسلمين ـ من الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الله يُسَرِّى عن نبيه ويخفف من بلائه

هذه هى الآية الكريمة التى افتتح بها الحق جل جلاله سورة الإسراء ، وسورة الإسراء من السور المكية ، نزلت فى أصح الأقوال قبل الهجرة بثلاث سنين بعد حادثة الإسراء ، وسورة الإسراء كأنها بستان متنوع الفواكه بدأت بتسبيح الله عز وجل ، وانتهت بحمده وتكبيره ، وقد مرت بحادثة الإسراء مر الكرام ؛ لأن المهم فى الإسراء حدوثه وليس تفصيلاته ؛ إذ حدوث الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وإمامة محمد ﷺ بجميع الرسول دليل على أن محمداً قد أعطى ميراث الرسل جميعاً من النبوة ، وأنه خاتم الأنبياء وأن النبوة قد انتقلت من بنى إسرائيل بظلمهم ، ولن تعود إليهم إلى الأبد . ويلفت نظر المتدبر للسورة : أن الله جل جلاله ذكر حادثة الإسراء فى الآية الأولى وانتقل حالاً إلى نبوة موسى والحديث عن بنى إسرائيل ، وكأنه يعطى أمة محمد درساً بألا يسلكوا سلوك اليهود فى الإفساد ، فيضيع منهم ميراثهم العظيم كما ضيعه بنو إسرائيل ، وعلى أمة محمد أن يعتصموا بقرآنهم الذى يهدى للتى هو أقوم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

هذه هى الآية المباركة وهذه لطائف مما يتعلق بها :

أولاً : تفسير الآية باختصار : تنزه الله جل جلاله الذى نقل رسوله محمداً فى رحلة ليلية خاطفة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالقدس ؛ لكى يرى محمداً فى هذه الرحلة من بديع آياته ودلائل قدرته ؛ وذلك ليرسخ

إيمانه على عين اليقين والمشاهدة ، سبحانه لا إله إلا هو يسمع كل ما يقوله الناس وما يصدر عن الخلائق من أصوات ، ويبصر كل ما فى السموات والأرض فما تخفى عليه خافية .

ثانياً : الآية تفتح مجال الحديث عن الإسراء ، ويبدو أن الإسراء كان كما يرى الجمهور من أشياخنا بالجسد لا بالروح فقط ، إذ لو كان بالروح لكان مجرد حلم ، ولما ثار حوله أى جدل من المشركين . لقد كان إنكار المشركين للإسراء بسبب استغرابهم واستبعادهم أن يذهب محمد إلى القدس ويعود إلى مكة ، وفراشه لم يزل دافئا ولو قال : رأيت فيما يرى النائم لما ثار ذلك الجدل ، روى أنه عليه الصلاة والسلام قص القصة على ابنة عمه أم هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنها ـ فأمسكت بثوبه وقالت : لا تخبر قومك فيكذبوك فقال لها : « وإن كذبونى !! . ومن الغريب أنه أخبر أول ما أخبر أبا جهل فصاح أبو جهل: يا معشر قريش هلموا واسمعوا ما يقول محمد ، وكان المشهد فى غاية الصخب ، فمن المشركين مصفق ومنهم صائح فى استغراب يصرخ وقد شبك يديه فوق رأسه ، وارتد ناس ممن كان آمن بمحمد ، وانطلق رجال إلى أبى بكر يخبرونه بما يقول صاحبه فقال : إن كان قال ذلك فقد صدق ، إنى لأصدقه كل يوم بخبر السماء ، فسمى الصديق ـ رضى الله عنه ـ ثم طفقوا يسألونه عن المسجد الأقصى ، وعن قافلتهم التى توجهت إلى الشام ، فوصف لهم المسجد والقافلة ، وأخبرهم أنه رآها قريبة من مكة فى التنعيم ، وأنها ستصل فى خلال هذا اليوم ، ووصلت القافلة كما حدد الرسول الكريم ولم يؤمن المشركون . لقد قاسوا الأمر على حسب حركاتهم وقدرتهم ، ونسوا أن قدرة الله ـ جل جلاله ـ فوق كل قدرة، وهى فوق الشك والتهم ، وأن الإسراء معجزة لرسول الله ﷺ .

ثالثاً : اختلف فى المكان الذى بدئ منه الإسراء ، فقيل كان من بيت أم هانئ وقيل : بل من حجر إسماعيل ، ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الرسول ﷺ كان يبيت فى بيت أم هانئ ، وأنه توجه إلى المسجد الحرام بليل فأكمل ليله فى حجر إسماعيل ، وقد جاء فى حديث الإسراء عنه ﷺ : « بينا أنا نائم فى الحجر إذ جاءنى جبريل فهمزنى بقدمه ، فجلست فأخذ بعضدى فقمت معه ، فخرجت إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار ، فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه ، يضع يده فى منتهى طرفه ، أى : فى نهاية مدى بصره ، فحملنى عليه ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته ، وجاء فى سياق الحديث : أنه كان يرى وهو على البراق الآيات الإلهية فيما بين السماء والأرض حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، فصلى بهم عليه الصلاة والسلام ، وفى بعض روايات الحديث أن البراق أجفل حين همَّ النبى ﷺ فقال له جبريل : « لا تنفر فإنه ما ركبك من ملك مقرب ولا نبى مرسل هو أكرم عند الله من محمد » . ويبدو أن نفار البراق كان لبعد عهده بالأنبياء ؛ إذ بين عيسى ـ عليه السلام ـ وبين محمد قرابة ستمائة عام ، ولم تحدث فترة كهذه من قبل بين الأنبياء .

رابعاً : كان النبى ﷺ قبيل الإسراء يمر بفترة عام الحزن ، فكان الإسراء تكريماً له ، ورفعاً لمعنويته ، وأى تكريم أعظم من صلاته بالأنبياء ، ومرافقة جبريل له فى الرحلة الميمّونة ، وقولته للبراق حينما نفر . وقد جاء فى حديث الإسراء : أن جبريل قدم للنبى ﷺ وهو فى بيت المقدس ثلاث كؤوس إحداها من اللبن ، والأخرى من العسل ، والثالثة من الخمر ، فاختار اللبن فقال له الحق جبريل : (اخترت الفطرة) ، والحق

أن دين محمد ﷺ هو أقرب الملل إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها .

خامساً : والحكمة من الإسراء إلى العروج بمحمد من هناك من بيت المقدس، هى أن يعلم الناس من المسلمين ومن أهل مكة أن هذا الدين سيمتد بإذن الله حتى يهيمن على الأديان ، ففى القدس ـ المسجد الأقصى ـ رمز جميع الأديان السابقة ، وفى مكة ـ بيت الله الحرام ـ أول بيت وضع للناس ، والإسراء كان إرهاصاً بامتداد دين الله حتى يهيمن على كل المسجد الحرام والأقصى عبر مسجد المدينه المنورة ، ثم إنه ورد فى الآثار : أن الناس يحشرون فى الأرض المقدسة ، وفيه إشارة إلى أن باب السماء الذى ينفذ الناس منه إلى الجنة هو فوق القدس ، ثم ما يدرينا لعل الله ـ جل جلاله ـ وهو قد علم أن القدس لن تفتح والرسول ﷺ حى ، فأسرى به إليها ليظل له فيها أثر ، وتظل القدس أمانة فى أعناق المسلمين ، يسألون عن جهادهم لحمايتها وصونها إلى يوم القيامة .

سادساً : وبعد الإسراء مباشرة كان المعراج ، وكان فيه أعظم تكريم لرسول الله ﷺ ، حيث فتحت له أبواب السموات ، فوجد على باب كل سماء نبياً فى استقباله ، وكلهم يقول له : أهلاً بالأخ الصالح ، وفى رحلته السماوية اطلع على الجنة والنار ، وحدث الكثير عن أهلها ، وجاء فى حديث الإسراء : أنه وجد فى استقباله فى السماء الدنيا آدم ـ عليه السلام ـ وفى السماء الثانية وجد فى استقباله يحيى وعيسى ابنى الخالة ـ عليهما السلام ـ وفى السماء الرابعة كان فى استقباله إدريس ـ عليه السلام ـ وذلك الذى رفعه الله مكانا عليا، وفى السماء الخامسة آستقبله نبى كهل جميل الصورة عظيم اللحية عليه الوقار، وإذا هو هارون المحبب فى قومه ـ عليه السلام ـ وفى السماء السادسة استقبله أعظم أنبياء بنى إسرائيل : موسى عليه السلام ، وقد وجه إليه نصائحه المعروفة حين

فرضت عليه الصلاة إلى أن خففت من خمسين إلى خمس صلوات ، ولا غرو فالأنبياء إخوان ، وما تذكره بعض كتب اليهود والنصارى من بغض بين الأنبياء ، ما هو إلا أوهام وأكاذيب ، وفى السماء السابعة استقبله نبى الله إبراهيم الخليل، ثم صعد به جبريل - عليه السلام - إلى عوالم جليلة جميلة فى المعراج الذى تعرج فيه أرواح السعداء إلى الأماكن العالية فى الجنة، ثم إلى أعلى فأعلى إلى قاب قوسين أو أدنى حيث فرضت عليه الصلوات ، ولقد كان فرضها فى السموات العلا، وفى حضرة القدس إشارة من الرب جل جلاله إلى عظمة هذا الركن من أركان الإسلام .

وبعد ، فالمسجد الأقصى فى هذه الأيام يعانى من الكفر ما يعانى حيث يدوس الكفر أقداسه الطاهرة ، ويجوس اليهود خلاله مخربين أركانه العامرة ، وفواجر اليهود يدخلنه بكل ما يحملنه من رجس وإفساد وفواحش ، وهو يصيح صيحات يتيمة تقطع نياط القلوب ، أين أتباع محمد ؟ أولئك الملايين الذين ينظرون بأم أعينهم شراذم اللعنة يهزؤون بدين محمد وتراث محمد ومسرى محمد !

تاريخ اليهود كله مكر وفساد وإفساد

هذه خمس آيات من سورة الإسراء تعرض لقطة من تاريخ اليهود ، وكل تاريخهم فساد وإفساد ، وقد اختلف المفسرون فيما إذا كانت كلها تدل على ماض من أيامهم السوداء ، أم أن بعضها يشير إلى مستقبلهم المظلم ، وسنورد إن شاء الله خلاصة لما قيل حول ذلك .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [الإسراء : ٤ ـ ٨] أقول وأسأل الله العون والفتوح لى وللإخوة المسلمين :

أولاً : تحدث الله جل جلاله كثيراً عن بنى إسرائيل ؛ لأن فى تاريخهم عبرة ، إذا اعتبر بها الإنسان تجنب غضب الله وسلم من مصارع السوء . لقد أكرم الله بنى إسرائيل بالنبوة حتى لقد كان الأنبياء منهم لا ينقطعون ، بل لقد كان فى بعض أحقابهم يوجد أكثر من نبى فى عصر واحد كداود وسليمان ، وزكريا ويحيى ، وعيسى ، ويعقوب ويوسف ، والنبوة أشرف شرف وأجل نعمة ، ولكنهم بدلاً من أن يقابلوا هذه النعمة العظمى بالشكر ليحفظها الله ، قابلوها بالكفر بآيات الله ، وبقتل الأنبياء، فكم تنزى تحت سكاكينهم نبى يذبح بين أيديهم المجرمة بلا رحمة ولا

شفقة ، حتى لقد ذكر المؤرخون أن أكثر من سبعين نبياً ذبحوا على صخرة بيت المقدس منهم وكم جاءهم أنبياؤهم بالآيات والمعجزات فما أغنت عنهم النذر ، وكان مصير أنبيائهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن كُذِّب بعضهم وقتل البعض الآخر . وسجل التاريخ بمداد الخزى والعار لعنة اليهود وغضب الله عليهم ، وكان قصاصهم العادل من الله أن ضرب عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة ، ولرب قائل يقول : لكنهم الآن لهم دولة وهم يقتلون فيها المسلمين ، وينتهكون حرمات المساجد ، ويتحدون أمة محمد . والجواب : أنهم على الرغم من كل هذا لا يزالون أذل دولة إذ أى دولة مضى عليها حتى الآن ست وثلاثون سنة وكل ميزانيتها استجداء وشحاذة ، وكل شعبها مروع فى عقر بيته ؟! ثم إن الله ـ جل جلاله ـ يمهل ولا يهمل وسيعلم مجرمو اليهود أى منقلب ينقلبون حين يأتى يومهم وأجلهم ، فتفضحهم حجارة الأرض لما رأت من جرائمهم ورجسهم وتجارتهم بالفجور والربا ، وإفسادهم فى كل قطر من أقطار الدنيا ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ .

ثانياً : لاحظ المفسرون أن الله ـ جل جلاله ـ لم يذكر الإسراء إلا فى آية واحدة وانتقل حالاً إلى بنى إسرائيل وقصتهم مع الأنبياء ، وكأنه يقول لأمة محمد : لقد أسرينا بنبيكم وكرمناه على سائر الأنبياء ، وفى هذا تشريف وإكرام لكم ، فإياكم أن تقابلوا هذا الشرف والتكريم بالكنود والكفران ، وإذا ذاك تخسرون هذا الذكر والشرف والمجد كما خسر من قبلكم بنو إسرائيل واستبدلوا به غضب الله ، وذلة الأبد ولعنة الله عليهم على لسان أنبيائه .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ

مرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيـرًا ﴾ معناها : لقد كتبنا فى التوراة وأعلمنا بنى إسرائيل بما كتبناه ، بأنهم سوف يفسدون فى الأرض مرتين ، وفى كل مرة سوف يطغون ويتجبرون ويصدر عنهم من الكبرياء الظالمة شىء عظيم، وقد كانت تلك الكتابة إنذاراً من الرب جل وعلا لأجيالهم أن يظلوا على حذر من ذلك الإفساد الذى سيرديهم ويذوقون به أشد النكال ، ويلاحظ أسلوب التوكيد المتكرر فى قوله تعالى : ﴿ لتُفْسِدُنَّ ...... وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً ﴾ وذلك ليضاعفوا حذرهم ويبتعدوا عن الفساد الذى بين لهم ربهم عواقبه ، وما سينجم عنه من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ معناه : إذا جاء وعد الله بعذاب الفئة المفسدة الأولى بعثنا على الدولة اليهودية المفسدة عباداً من جندنا ، وما يعلم جنود ربك إلا هو فيعيثون فساداً فى دولة بنى إسرائيل ، ولا شك أن وعد الله ـ جل جلاله ـ كائن ومنجز لا محاله . ولم يذكر الله جل جلاله من هم أولئك العباد ؛ لأنه لا فائدة من هذا التفصيل ، فالعبرة عنده ـ عز وجل ـ بذكر عواقب الإفساد بغض النظر عمن يتم على يديه عقاب المفسدين .

وقد ذكر المفسرون أن الذين دمروا الدولة اليهودية بعد الإفساد الأول كانوا البابليين بقيادة بختنصر نبوخذ نصر الذين غزوا دولة اليهود ، وسبوهم بعد أن أمعنوا فى دولتهم سلباً ونهباً وتقتيلاً .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ . يبدو أن الله جل جلاله عاد إلى ما هو أهله من الرحمة والمغفرة فأنقذ اليهود من السبى البابلى على يد ملك من ملوك

الفرس ، فأرجعهم إلى القدس وهناك استقرت أحوالهم وتركوا الخصومة والانقسام على الأنبياء ، فأمدهم الله بالرخاء والمال والبنين ، والله ـ جل جلاله ـ عفو غفور ، ويبدو أن تلك الفترة الثانية هذه استمرت إلى مبعث المسيح عليه السلام ، وفيها بعث عشرات الأنبياء منهم طالوت وداود وسليمان وأشعيا وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ يشير إلى أن بنى إسرائيل قد خدموا أنفسهم وأحسنوا إليها حين تركوا الفساد وعادوا إلى الإحسان ؛ لأن من يحسن فإنما يحسن لنفسه لأنه بإحسانه ينال ذكر الدنيا وثواب الآخرة ؛ ولكن الله ـ جل جلاله ـ يقول لهم بأسلوب التهديد ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ معناه : إذا عدتم إلى الإساءة فإنما تسيؤون إلى أنفسكم حين يحل بكم مصير المفسدين الذين رأيتم مصيرهم بأعينكم أيام السبى والقتل والتشريد واستباحة الأعراض ، ثم يمضى ـ جل جلاله ـ فيقول : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾.

وفى هذه الآية ذكر للإفسادة الثانية حين نسى اليهود ربهم وعادوا إلى قتل الأنبياء وتكذيبهم والإفساد فى الأرض ، فكان أن سلط الله عليهم الرومان الذين اجتاحوا اليهود إبان بعثة عيسى ـ عليه السلام ـ فدمروا ما كان اليهود قد شادوه ، ولطخوا وجوه اليهود بالعار وعاثوا فى المسجد الأقصى ، وفى كل ما مروا عليه من الأرض والعمران خراباً وتدميراً ، وبذلك أنهوا القصة الثانية من قصص الإفساد الكثيرة فى تاريخ اليهود المخزى .

سابعاً : قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ خطاب لليهود أنهم إذا عادوا إلى الإفساد والطغيان

فسوف يعود ربهم إلى ما عودهم عليه من العقاب والاهانات والسبى ، وإذن فقد استمر وعد الله لليهود بأنهم إذا عادوا للإفساد عاد جل جلاله لتدميرهم فى الدنيا و حصرهم فى جهنم فى الآخرة ، وهاهم الآن عادوا عودة شرسة لئيمة للإفساد فى فلسطين واقتراف المذابح وانتهاك المقدسات، ومن هنا فإن وعد الله فى اليهود أصبح على الأبواب ؛ لأن دولة هؤلاء المجرمين قد بلغت الذروة الآن فى الكفر والخيانة . إن بعض اليائسين قد يرون هذا بعيداً ولكننا نراه قريباً ؛ وذلك لأن وجود إسرائيل من أساسه مبنى على أساس من الأكاذيب خدعت الدنيا وبخاصة دافع الضرائب الأمريكى الذى ينقاد وراء الإعلام اليهودى كالأعمى ، ولن يحتمل تدمير اليهود وإفسادهم أكثر من ومضة جهاد فى سبيل الله توقظ بعنف كل المخدوعين .

القرآن يهدى لأقوم الطرق

هاتان آيتان من سورة الإسراء وجههما ربنا إلى أمة محمد بعد أن حكى لهم فى مقدمة السورة كيف كان مصير اليهود حين أفسدوا فى الأرض مرتين ، فذاقوا الخزى والعار والعذاب مرتين ، ثم هدد قائلاً ﴿ **وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا** ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [الإسراء : ٩ ـ ١٠] هاتان هما الآيتان وهذا بيان موجز لما اشتملتا عليه من إشارات معنوية وبلاغية :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم** ﴾ جاء بعد أن ذكر الله كتابه الذى أنزله على موسى فى قوله : ﴿ **وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً** ﴾ إشارة إلى أن القرآن هو المهمين على ما سبقه من الكتب السماوية ؛ لأنه يهدى للتى هى أقوم. ومهما وازنت بين ما فى القرآن من أحكام وآداب وبين ما فى غيره ، تجد أن ما فى القرآن أقوم ؛ لأنه القرآن وضع عن الإنسانية آصارها ، وأطلق سراحها من الأغلال التى كانت عليها ، وجاء بالحنيفية السمحة التى يسرت كل عسير ، وذللت كل وعر ؛ وعفت بإذن الله عن كثير ، وإذن فيا أمة محمد إذا أردتم أن تظلوا أهلاً لهذا الشرف وتسلموا مما وقع فيه بنو إسرائيل من الغضب واللعنة والخزى ، فعليكم أن تصونوا هذا القرآن وتستهدوا هداه وهو سيهديكم دواماً للتى هى أقوم.

ثانياً : القرآن الكريم يستعمل نوعاً من الكنايات الجميلة البليغة تتكون من

الاسم الموصول ووراءه ضمير المكنى عنه كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هِي أَحْسَن﴾ ﴿للتي هِي أَقْوَم﴾ ﴿ الَّذي هُوَ أَدْنَىٰ ﴾ ، ﴿ الَّذي هُوَ خَيْر﴾ ، ﴿الَّذي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِين ﴾ وهى كنايات تنبع بلاغتها من أنها لا تدل على المكنى فحسب وإنما تدل عليه مقترناً بصفة من صفاته تستوقف النظر والتأمل ، وما أروع الكناية والإيجاز البديع فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم ﴾ معناه : أن هذا القرآن يهدى إلى كل فضيلة تحقق للعبد خير الدنيا والآخرة . إنه يهدى إلى الرحمة والأخوة والعدالة والمساواة ، وهو يهدى إلى الهدى والحق والخير والسعادة ، وهو يهدى إلى عبادة الله وطاعته وخشيته ومراقبته كل هذه الفضائل وآلاف غيرها دلت عليها ثلاث كلمات ﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم ﴾ .

إن من يقرأ القرآن الكريم لا يمكن أن يقرأ فيه أمرا واحداً بسفك دم برىء أو ابتزاز مال أو إكراه فى الدين ، فى حين قرأنا بعض كتب لأهل الديانات السابقة ، فرأينا فيها من التحريف ما يجعلها مصادر بلاء للإنسانية ! إن كتب اليهود مثلاً فيها أوامر صريحة منسوبة إلى إلههم بإعمال الفتك والدمار والسبى والتعذيب فى كل ما هو غير يهودى ، أما القرآن الكريم فحين يدعو إلى الجهاد، فهو إنما يدعو إليه لتكون كلمة الله هى العليا ، وحتى لا يبقي للكفر والشرك سطوة يستطيعان بها أن يفتنا مؤمناً عن عقيدته ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِين ﴾ . شتان ما بين أوامر التعصب المسعورة تصدر عن رجال الدين من اليهود والنصارى ، وبين تلك الوصايا الحضارية التى سجلت عن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين وهم يوصون قادة جيوشهم بألا يروعوا الآمنين ، وألا يقتلوا المتعبدين ، ولا يفتكوا بالذرارى والشيوخ والنساء، وإلا بالحيوانات والزروع ، ولا غرو فقد

كان القرآن إمامهم فقادهم للتى أقوم ، قادهم لصراط الله المستقيم الذى لا عوج له .

ثالثاً : قوله تعالى في وصف القرآن الكريم : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ معناه : أن القرآن الكريم سيظل إلى قيام الساعة يعزى الإنسانية ويقودها ويهديها إلى أمرين تحظى إذا تحلت بهما بأجر كبير من الله ، ألا وهو جنة الله ، ورضاؤه ، وهذان الأمران هما : الإيمان، والعمل الصالح . إن القرآن يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم فضلاً كبيراً. لقد لخص الإسلام شريعته كلها فى كلمتين هما : الإيمان ، والعمل الصالح، وهما اللتان وردتا فى التعبير النبوى: « قل آمنت بالله ثم استقم » قل آمنت بالله قولاً واعتقاداً ثم استقم عملاً وتطبيقاً . نعم سيظل القرآن إلى يوم القيامة يهدى إلى الإيمان والعمل الصالح ويبشر أصحابهما أن لهم أجراً كبيراً .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ معناه : كما يبشر القرآن أهل الإيمان والعمل الصالح بالأجر الكبير ، فهو ينذر أهل الكفر والفسوف بالعذاب الأليم . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة هم أهل الكفر والفسوق معاً ؛ لأن إنكار البعث كفر بالخالق الذى أنشأ الإنسانية نشأتها الأولى فطرة على غير نموذج ، وهو فسوق ؛ لأن الذى لا يؤمن بالحساب والجزاء ينفلت من عقال الطاعة والفضائل حين يعتقد أنه لن يحاسب على ما يعمله .

إن من أعظم ما يضبط سلوك الإنسان على درب الفضائل إيمانه بالآخرة، حيث من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وإذن فرسالة القرآن ذات شقين أولهما : بشرى لأهل الإيمان والإحسان ، والثانية : إنذار لأهل الكفر والعصيان أولئك الذين أعد لهم الله عذاباً مؤلماً

، كما كانت أفعالهم مؤلمة مؤذية للإنسانية حين خلت حياتهم من الإيمان والعمل الصالح .

خامساً : وبعد فثمت كلمة لأمة العرب التى نزل القرآن الكريم بلسانها فخلد لها ذكراً ما حلمت بمثله ، وحفظ لغتها على الرغم من فناء لغات عده، وحببها لقلوب المسلمين من غير العرب ؛ لأن القرآن عربى ؛ ولأن الذى أوحى إليه القرآن عربى ﷺ . نعم لقد كان القرآن ومازال ذكراً للعرب وشرفاً لهم ، فإذا تصدى أى عربى للنيل من القرآن ، فذلك أخون خائن ؛ لأنه رد فضل القرآن على أمة العرب بالكنود والجحود والكفر . إن العرب من دون الأمم سوف يسألهم الله يوم القيامة من دون الأمم الأخرى : ماذا فعلتم بالقرآن الذى رفع لكم فى الناس ذكراً بعد أن كنتم فى الجاهلية صفراً ؟ هل قرأتموه ورتلتموه وحفظتموه وعملتم بأوامره واجتنبتم نواهيه ؟ أم ترى اتخذتموه مهجوراً ؟ واتخذتموه وراءكم ظهرياً واتخذتم أتباعه سخرياً ؟ هذا السؤال هو مضمون قوله تعالى : **﴿وَإنه لَذَكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوفَ تُسْأَلُونَ﴾** [الزخرف : ٤٤] .

الله يهلك القرى إذا شاع فيها الترف والفساد

هاتان آيتان من كتاب الله جل جلاله من سورة الإسراء ، وددت لو أمتنا تنقشهما فى القلوب ، وتعلمهما للأمم والشعوب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦ ـ ١٧] هاتان هما الآيتان العظيمتان ، وهذا بيان نعرض فيه قطرة من بحر إعجازهما وأسرارهما :

أولاً : إن لله جل وعلا سنناً لا تتبدل ولا تتحول ، كتبها ـ جل جلاله ـ على نفسه لا كتابة إجبار ؛ بل كتابه حكمة ، وقدر حكيم ، منها : أن يملى للظالمين حتى يأتى أجلهم الذى أجل لعذابهم ، ومنها : أن معركة الحق والباطل لابد أن تنتهى بانتصار الحق مهما بدا الباطل مزهوا مسيطراً ، ومنها : ألا يأتى النصر إلا بعد تمحيص يتبين فيه الصادق من الكاذب ، ومنها : أن يهلك القرى إذا شاع فيها الفساد والترف ، ثم لم يضرب على أيدى المفسدين والمترفين ، وهذه السنن ما هى إلا رحمة للعباد ؛ لأن الله تعالى لو لم يهلك الظالمين لعم الظلم جميع الكون ، ولو لم يبتل المؤمنين لما تميز منهم المجاهدون والصابرون ، وفى هذا يقول الله ـ تعالى ـ فى سورة العنكبوت : ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

ثانياً : المترفون فى الأمة هم جماعة جاءهم المال عفواً بلا تعب ، أو ورثوه عن

آباءٍ أغنياء ، فلم يجربوا المشقة فى السعى ، ولا عرفوا الحرمان الذى يجلى لهم قيمة النعمة فنشؤوا قصار الهمة محدودى الطموح ، كل همهم عيشة بهيمية حيوانية يتمتعون ويأكلون فيها كما تأكل الأنعام ، وحيثما وجد الترف فى الأمة واكبه على الجانب الآخر الفقر والحرمان ، ونشأت بينهما هوة سحيقة تمتلئ عادة بالحقد والكراهية والمقت ؛ لأن الفقير يرى المترف بأم عينه وهو يملأ بطنه بالحرام بلا ضمير ولا فهم ولا شرف ولا وازع من إحساس نبيل ، هؤلاء المترفون يعيشون عالة على أمتهم كما تعيش الطفيليات السامة على السرحة الزاكية الفينانة ، فلا تزال تمتص منها حياتها فتذوى وتتعفن ، ويالفرحتهم إذا تعفنت الشجرة الطيبة ، إن عذاءهم حينئذ يزداد، ومن هنا ، فإن أكبر فرحة للمترفين تتم حينما يرون الفساد يستشرى فى أمتهم ، نعم إن المترف هو مخلوق تافه لا يفيد أمته بشىء ، ويكتفى أن يعيش ليأكل كما يتردد الحيوان بين معلفه ومربطه ، أستغفر الله لقد ظلمت الحيوان، فالحيوان قد أدى دروه الذى سخر من أجلـه ، أما المترف فهو شـر مكاناً من الحيوان ؛ لأن الله ـ جل جلاله ـ خلقه لأمر عظيم فأبى إلا أن يكون حقيراً ، ومن هنا يقرر القرآن الكريم أن المترف يغتاظ من كل مصلح ، ومن كل داعية للعلم والعدل والإيمان ؛ لأن مثل هذه الدعوات قد تفسد عليه ترفه وتحاسبه على الحرام والآثام ، ومن هنا فضح القرآن الكريم المترفين ، فذكرهم فى عدة آيات بأنهم يكونون في الأمة سداً مشؤوماً فى وجه الإصلاح يقول الله تعالى فى سورة سبأ : **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾** [سبأ : ٣٤] .

كما يقرر أنهم مصدر ظلم وإجرام ، فهم يخلدون إلى ترفهم مهما حاقت بأمتهم المظالم . يقول الله ـ تعالى ـ فى سورة هود : **﴿ واتَّبَعَ الَّذين ظَلَمُوا ما أُترِفُوا فِيهَ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾** [هود : ١١٦] وحسبك من آيات القرآن الكريم

فى المترفين هذه الآية العظيمة التى نحن بصددها من سورة الإسراء ، والتى تقرر أن المترفين هم الذين يجرون على أمتهم الويلات والدمار : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ....﴾ الآية قرئت ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أى : جعلناهم أهل النفوذ والسلطان ، كما قرئت ﴿ آمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ ومعناها : كثرناهم ، ويصبح معنى الآية : إذا أردنا أن ننفذ قضاءنا بإنزال العذاب على قرية وتدميرها ، فإننا نكثر فيها المترفين الذين قابلوا نعمة الله بالفسوق والمعصية والإجرام ، فإذا كثروا فى البلاد شاعت فيها الفواحش ومعاصى الله ، وعندئذ يحق عليها القول وهو سنة الله بإهلاك الظالمين ويحيق بالبلاد كلها الدمار الشامل ، ولن يجدى عندئذ وجود بعض الصالحين ؛ لأنه إذا كثر الخبث فإن العذاب يكون عاماً ولا يصيب الظالمين خاصة .

رابعاً : فى الآية الكريمة أمر للمجتمعات أن تضرب بيد قوية على أيدى المترفين؛ لأنهم إذا مضوا فى إفسادهم دونما رادع ، فإن مجتمعهم حينئذ يكون مقصراً بسكوته عليهم ، وهنا يؤاخذ الله هذا المجتمع على تهاونه وجبنه وسلبيته، فيعتبره إذ ذاك جديراً بالعقوبة . لقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً لمن لا يأخذون على يد السفيه بقوم اقتسموا سفينة وعرف كل راكب نصيبه منها ، فأراد الذين فى الأسفل أن يقصروا المسافة بينهم وبين ماء النهر فقالوا : نخرق خرقاً فى نصيبنا نستقى منه الماء بدلاً من أن نصعد إلى السطح بدلو ، فإن أخذوا على أيدى هؤلاء الجهلة نجوا جميعاً ، وإن تركوهم وحماقتهم هلكوا جميعاً .

ومن هنا تعتبر هذه الآية الكريمة أمراً للأمة الإسلامية ألا تسمح للسفهاء

بتبذير أموال الأمة ؛ لأن أموال السفهاء ، إنما هى جزء من اقتصاد الأمة الذى هو قوام للجميع ، وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ ، وإذا سأل سائل : كيف يهلك الله كل الأمة بفسوق مترفيها ؟ فالجواب : أن تلك الحثالات ما فسقت وأجرمت إلا حين لم تجد من الأمة يداً قوية شجاعة لا تخشى فى الله لومة لائم تنطلق فى سبيل الله غير راهبة منهم ولا راغبة فى أموالهم ، تنطلق فى الله لتضع حداً لإجرامهم، فلقد رأيت فى ديار الكفر حثالة من هؤلاء يريقون نعمة الله تحت أقدام الشيطان ، ويتركون لأمتهم دعاية فى غاية السوء ، وصورة فى غاية التشويه ! فليت القائمين على الأمر من أهل الغيرة يحجرون على هؤلاء الذين يشوهون الوجه الصبيح الجميل لأمة محمد .

خامساً : فى الآية الأخيرة ذكرى للمنكر والغافل والسفيه والفاسق تذكرهم أن الله خبير بذنوب عباده دقها وجلها ، سرها وعلانيتها ، وقد أهلك مئات القرون من عهد نوح إلى الآن ، ومنها قرون لا تزال مساكنها على طرقنا نمر عليها ونمشى فيها، ألاما أعظم الذكرى والإنذار فى قوله تعالى فى ختام الآيات : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

اللهم جنب أمتنا مصارع السوء ، وارزقنا مع كل نعمة شكرها ، وأدم علينا وعلى أمة محمد نعمتك ، واحمها من الزوال.

كل شيء في الكون يسبح بحمد الله !

هذه آيات من كتاب الله جل جلاله من سورة الإسراء ما قرأتها إلا أحسست أني وكل مخلوق من مخلوقات الله عباد لله في محراب الكون ، لنساهم جميعاً في إثبات وحدانيته وعظمة ملكوته ، وقهر جبروته ، ولنقول كلنا بلسان واحد : سبحانك أنت أنت الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا * وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٢ ـ ٤٦] هذه الآيات الكريمات إذا تلاها المرء في تدبر يحس أنه يتفيأ من دوحها المبارك ظلال الإيمان والتوحيد الخالص ؛ ولهذا نقف معها وقفة متأنية متأملة ، فأقول وبالله العون والفتوح والتوفيق :

أولاً : موضوع هذه الآيات أجل الموضوعات وأسماها ؛ لأنه إثبات التوحيد الخالص ونفي كل شريك يشرك به أو يعبد من دونه ، والتوحيد ـ كما أسلفنا ـ هو حق الله على عباده إذا هم آمنوا به استوجبوا جنته ورحمته ومغفرته ، وتشتمل الآية الأولى على برهان عقلي لوحدانية الله جل جلاله ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ . ومعنى هذه الآية الكريمة : لو أن مع الله جل جلاله شركاء يشاركونه الملك والحكم ، لالتمسوا طريقاً للتآمر عليه ما داموا شركاءه

كما يزعم المشركون ، وهذا ما يفعله ملوك الأرض من تنافس فيما بينهم، وفى آية سورة الأنبياء : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ومعناها : لو أن لله شركاء فى الملك لفسد نظام السموات والأرض بما يحدث بين هؤلاء الشركاء من تنافس ، لكن السماء والأفلاك تسير بنظام عظيم ثابت ، والله ـ جل جلاله ـ يدبر أمرها منذ الأزل دون أن يتأخر كوكب واحد منها عن نظامه المفروض ، وإذن فهى محكومة من مدبر ـ سبحانه وتعالى ـ عما يزعم المشركون علواً كبيراً .

إن نظام الكون البديع المتناسق ، ونظام النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها كل هذه تدل على أن خالقها واحد وأن مدبر أمرها واحد ، ومجرد نظرة إليها تهديك إلى عظمة الله ووحدانيته .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ معناه: أن كل مخلوق من خلق الله من سموات وأرض وما يعمرهما من إنس وجن وطير وحيوان ونبات وجماد ، كل هذه تسبح بحمد الله ، لكنكم يا معشر الإنس لا تفقهون تسبيحهم ، بل إن منكم لمن يعصى الله ويعرض عن آياته مختاراً والله ـ جل جلاله ـ حليم عن ذنوب العبيد غفور لما يقترفه العباد من الذنوب.

وفى تفسير تسبيح الخلائق ذهب أشياخنا إلى أكثر من مذهب والصحيح ـ والله أعلم ـ هو أن جميع ما فى ملكوت الله من بحار ودواب وشجر وحجارة وإنس وجن وملائكة كل أولئك لهم تسبيح بحمد الله ، فالجبال يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير يسبحن صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ، وحسبك أن تلقى نظرة إلى البحر هائجاً مائجاً أو ساكناً ساجياً ؛ لتسمع تسبيح

الله فى هدير أمواجه الهائجة العاتية ، ورفيف أمواجه الساكنة الساجية ، إن زرقته وأمواجه واتساعه والفلك من فوقه وحيواناته وأسماكه كل هذه تقول لك: هذا خلق الله ، فوحد الخالق العظيم ، سبحان من عظمه البحر قطرة من بحار عظمته، وسعة البحر دليل على سعة عطائه ، سبحان من ألجمه بلجام القدرة فلا يطغى على العذب ، سبحان من يعلم كل دويبة تختبئ فى أصدافه ، سبحانه هو الواحد القهار .

وقد ذكر السموات والأرض بضمير العاقل فقال : ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾؛ لأنه أسند إليهما التسبيح ، فاقتضى المقام أن يستعمل معهما ضمير العاقل . وختم الآية جل جلاله بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ ، لأن ربًا تسبح بحمده كل الخلائق حين يعصيه شرذمة من عصاة بنى آدم لا شك أنه حين يمهلهم ويرزقهم لحليم غفور .

ثالثاً : ولما ذكر الله ـ جل جلاله ـ حلمه عن العصاة ، ومغفرته للذنوب ؛ ذكر موقف الكافرين من عظمة الله ، ودلائل قدرته فذكر عماهم عن آى القران وصممهم عن استماعه وتدبره فقال : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾.

جاء فى شرح الآية أنه لما نزلت سورة المسد أقبلت امرأة أبى لهب حمالة الحطب وهى : أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، وكانت عوراء بذيئة ، وكان بيدها حجر وهى تقول : أين هذا الذى هجانى ؟ وكان أبو بكر ـ رضى الله ـ عنه فى المسجد ورسول الله ﷺ قريب منه ، فوقفت على أبى بكر وحجرها بيدها وهى تقول له : أين صاحبك هذا الذى هجانى ؟ فقال لها : والله إنه لا ينطق بالشعر ، ثم أشار إلى رسول الله ﷺ

أن يتنحى عنها خشية أن تنال منه بحجرها وبذاءتها . فقال رسول الله ﷺ: « إنها لن ترانى » وكان عليه الصلاة والسلام يقرأ هذه الآية : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ . وقد حدثنى من إخواننا من لا أكذبه أنه كان يسير فى الظلام، فتساقطت عليه حجارة صغيرة وظلت تلاحقه حتى قطع ميلين وهو لا يرى من حوله أحداً ، ولا يسمع من حوله ركزا فقرأ هاتين الآيتين الكريمتين ، وأتبعهما بسورة الإخلاص والمعوذتين، فانقطع الحصى ولم يعد له أثر مع أنه مشى شوطاً طويلاً فى الظلام . والحق أن القرآن الكريم والمعوذتين بخاصة وهاتين الآيتين لها أثر كبير فى طرد مشعوذى الجن ومن يتعرضون للإنس من كفارهم، وأهل القرآن الذين يحفظونه ، ويكثرون تلاوته لا يستطيع كفار الجن إيذاءهم بإذن الله؛ لأن كفار الجن هم الشياطين ، والشياطين لا سلطان لهم على عباد الله المؤمنين الصالحين ، ثم إن القرآن نور وكفار الجن يستترون بالظلام .

نسأل الله ـ جل جلاله ـ أن يعيذنا بقرآنه الكريم من شر كل من يؤذى من خلقه.

الله يعصم نبيه من حيل المشركين ومكائدهم

هذه أربع آيات من سورة الإسراء تبين بعض ما كان يلقاه رسول الله ﷺ من عواصف الفتنة ، فقد كانوا يوفدون إليه أذكياءهم ليغروه بالرئاسة فى مقابل أن يجاملهم فيتغاضى عن آلهتهم ، وأحياناً كانوا يلجؤون إلى التهديد والترهيب ، فيضيقون عليه الخناق ليضطر إلى مغادرة مكة ، وبين الرغب والرهب ، وبين الإغراء والتهديد ، كانت رعاية الله ـ جل جلاله ـ تثبت النبى الكريم على الهدى ودين الحق ، والثبات هو من أهم خصائص الرسل الكرام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً * وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[الإسراء : ٧٣ ـ ٧٧] هذه هى الآيات الكريمات ، وهذا بعض ما اشتملت عليه من معنى نبيل ومبنى جميل :

أولاً : كثيراً ما يلجأ الأعداء إلى غير العنف فى تخريب النفوس ، فقد يلجؤون إلى شراء الذمم بالمال والمنصب ، ثم لا يزالون يلوحون ببريق الذهب وبهرج المنصب حتى يقسموا صفوف المجاهدين ، ويصدعوا وحدة الصف المرصوص ، وهذا الأسلوب كان مما لجأ إليه الكفار مع رسول الله ﷺ ، فقد عرضت عليه قريش السيادة إذا هو لم يتعرض لأصنامهم ولم يسفه أحلامهم ، وكلفوا أبا طالب أن يقنعه بذلك ، وعرضوا عليه مرة أن يطرد المؤمنين الفقراء والعبيد ووعدوه بعد طردهم أن يجلسوا إليه ؛ لأنهم حينئذ لا تعيرهم القبائل بمجالسة العبيد ، وعرضت عليه ثقيف أن تسلم

جميعها على شرط أن يترك لهم اللات سنة يتمتعون بهداياها ، وأن يحرم وادى وجٍّ كما حرم وادى مكة ، وأن يعفيهم من السجود ؛ لأن فيه - على حد زعمهم - إهانة لشممهم حين يضعون أنوفهم على الحصى والرغام ، ويبدو أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان تحت طائلة الظروف المؤلمة يميل إلى المهادنة ميلاً قليلاً ، ثم لا يلبث الثبات أن ينزل عليه من عند ربه ، فيظل كالصخرة الهائلة العاتية في وسط السيل الجارف ، وإلى هذا تشير الآيتان الكريمتان ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ ومعناهما: لقد كاد كفار مكة أن يميلوا بك عن بعض أوامر القرآن التى نوحيها إليك ؛ لكى تبدل بها غيرها ، ولو أنك فعلت ما يغرونك به إذن لاتخذوك صديقا حميماً ؛ لكننا ثبتناك على الحق ، ولولا هذا الثبات الذى نفرغه فى قلبك إذاً لركنت إليهم وملت إلى إغرائهم ولو شيئاً قليلاً . وفى الآية إشارة إلى أن أعاصير الفتنة التى كانت تهب عليه من المشركين كانت عنيفة جداً تكاد تحلحل ثباته على الرغم من رسوخه الهائل .

ثانياً : في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ يلاحظ تكرار التوكيد فـ « إنْ » هذه هى المخففة من الثقيلة « إنّ » وهى حرف توكيد ، واللام فى قوله تعالى:﴿ليفتنونك﴾ حرف توكيد آخر ، وفي قوله : ﴿ لأتَّخذوك ﴾ توكيد ثالث باللام ، وفى قوله : ﴿ لَقَدْ كدتَّ تركَنُ إليهمْ ﴾ مؤكدان هما : اللام وقد ، وهذا يدل على أن الأمر كان جداً ، وأن المشركين كانوا قد خططوا تخطيطاً لئيماً مدروساً ليفتنوا رسولنا ﷺ عما يوحى إليه من أوامر الإسلام العظيمة وأحكام القرآن السماوية ؛ لكى يدهن كما يدهنون ويفترى تحت طائلة إغرائهم أموراً غير ما جاء فى القرآن ، وإذن لنال من مشركى قريش كل تقدير وثقة .

وفى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ إشارة إلى أن

أسلوب التهديد والإغراء كان يؤثر فى نفس رسول الله ﷺ فيكاد يركن إليهم شيئاً قليلاً ولكنه لا يفعل ، وفعل كاد يدل على أن اسم كاد : هم بالأمر ولكنه لم يفعله، فإذا قلت كاد صديقى ينحرف معناه : أنه هم بالانحراف لكنه لم يفعله ، ومن لطف الله ـ جل جلاله ـ أن العبد إذا هم بسيئة فلم يفعلها مخافة من ربه كتبها الله له حسنة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ معناه : لو أنك ملت مع المشركين إلى آرائهم لأذقناك ضعف العقوبة التى نعاقب بها غيرك فى الحياة الدنيا وبعد الموت ؛ لأنك تقف فى موضع القدوة ، والمقتدى بهم إذا اقترفوا المعاصى تحملوا أوزارهم وأوزار الذين يقتدون بهم ، ومن ثم كان للمحسنة من أمهات المؤمنين أجران : أجرها وأجر من يقتدى بها ، والمسيئة منهم عليها وزران وزرها ووزر من يقتدى بها ، كما جاء فى سورة الأحزاب ، وفى الآيات إيجاز حذف ؛ لأن التقدير : إذن لأذقناك ضعف عقوبة الحياة وضعف عقوبة الممات ، ثم لا تجد من ينصرك علينا ؛ لأن العبد أضعف من أن يجير عبداً من نقمة الله ـ جل جلاله .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ معناه : لقد كاد المشركون فى مكة أن يستثيروك بإرهابهم وتعذيبهم وإيذائهم لتخرج من مكة إلى المدينة بالإجبار ، ولو حدث ذلك وخرجت مجبراً مطروداً مقهوراً لما لبثوا خلفك أو بعدك إلا قليلا ؛ لأن العذاب سيدمرهم إذ ذاك، كما دمر القرون الأولى ، ولا غرو فنحن قد سننا سنتنا فى جميع الأمم السابقة أنهم إذا اشتد إيذاؤهم على رسلهم حتى يخرج الرسل من القرية الظالمة ، فإن خروجهم يكون إيذاناً بنزول العذاب على أهل القرية . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] وهذا معناه : إن خرجت من مكة طريداً فسوف تنطبق سنتنا على أهل مكة ، لكن الذى حصل هو أن رسول الله ﷺ لم

يخرج من نفسه حين اشتد عليه الإيذاء ، بل صبر وصابر حتى أوحى الله إليه وأذن له بالهجرة ولهذا لم تنطبق سنة الأولين على أهل مكة بل كان قدرهم هو أن يسلموا فى نهاية المطاف .

نسأل الله أن يجعل كل قضاء كتبه علينا خيراً لنا فى الدنيا والآخرة .

آيات فى فضل الصلاة والقرآن

هذه خمس آيات من سورة الإسراء تتحدث عن فضل الصلاة والقرآن وكيف أنهما بفضل الله كنز وذخيرة للعبد المؤمن فى دنياه وآخرته .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٧٨ ـ ٨٢] . أقول وأسأل الله لى وللإخوة القراء ولجميع إخواننا المسلمين أن يجعلنا وإياهم من أهل الصلاة والقرآن :

أولاً : موضوع الآيات الكريمة بركة الصلاة من مكتوبة ونافلة وبركة الدعاء والقرآن الكريم . وقد جمع بينهما ؛ لأن الصلاة فى معظمها قرآن ودعاء، والحق أن للصلاة والقرآن والدعاء بركات مجربة . وقد ذكر الله ـ جل جلاله ـ الصلاة فى معرض الرزق فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر من الأمور فزع إلى الله فى المسجد بالصلاة والدعاء ، وثبت بالتجربة أن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يشمله الله بالستر والبركه والرزق الحلال ، وكان بعض الصحابة ربما قرؤوا فى بيوتهم آية الكرسى يعوذون البيت بها من الشيطان، والدعاء بفضل الله ـ تعالى ـ يكشف الله به السوء ويعلى المنزلة، وفى هذا يقول الله ـ تعالى ـ فى سورة النمل وهو يعدد أفضاله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ

أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] وفى سورة نوح ما قد يشير إلى أن الدعاء والاستغفار ينزل الله به المطر ويبارك بـه فى المـال والولـد. يـقـول الله تعـالى على لسـان نـوح عليه السـلام : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠ ـ ١٢].

ثانياً : الآيات الكريمات التى نحن بصـددها ترسم جـواً من الهناء والراحـة النفسية ، وطمأنينة الإنسان منبعثة كلها من الصلاة والقرآن والدعاء ، وأى شىء أحلى وأجمل فى النفس من أن تحس برفقة الملائكة ، ورفعة المنزلة وسلامـة المورد والمصـدر فى كل أمـورك وشـفـاء النفس والروح والجسم بترتيل كتاب الله الكريم ، وانظر إلى هذه العذوبة المتدفقة فى كل نبـرة من الآيات : ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ، ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ ، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيـرًا﴾ ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . إن قـارئ الآيات ليشفى برحيق جناها وروعة وقعها وألفاظها الموفقة المتألقة ، ومعانيها المغدقة المشرقة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ هذه الآية الكريمة تحـدد أوقـات الصـلاة ، والصـلاة كـانت ومـا زالت على المؤمنين أمـراً مكتـوباً بأوقـاته ، ودلوك الشـمس زوالهـا من كـبـد السـمـاء صـوب الغـرب ، ولعل هـذا الدلوك يشمل الظهر والعصر إلى غسق الليل، ولعل هـذا يشمل المغرب والعشاء، ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ هو صلاة الفجر ، وقد خصها بالقرآن ؛ لأنه يسن فيها إطالة القـراءة ، وما أحلى أن يسـمـعهـا منبعثـة من الأفـواه الطاهرة توقظ البـشـرية على نغـمـات الكلم الطيب لتـبـدأ نهـارها بذكـر الله وطاعـة الله

وتوحيد الله ، لا عجب أن يكون جمهور الملائكة الكرام متمتعاً بمشاهدتها والاستماع إليها تجتمع ملائكة الليل لتتعاقب العمل والأوامر مع ملائكة النهار ، فيلتقى الجميع فى صلاة الفجر ، ويصبح قرآن الفجر مشهوداً تشهده جماهير الملائكة ، ما أجمل أن يحس الأئمة بجلال الموكب وعظمة الشاهد والمشهود ، فيصدروا فى ترتيلهم عن خشوع لمنزِّل القرآن ، إنهم عندئذ يسرون عوالم البشر والملائكة بنور السماء يتلألأ فى الأرض فيوقظها ويحييها ويطرب بشرها وملائكتها ، ويملؤها إشراقاً باعثاً يبعث البشر ، والطيور وجميع الأحياء ليبدؤوا السعى بذكر المنعم المتفضل الرزاق .

وانظر إلى هذه الألفاظ التى تعرض روعة الآيات الإلهية فى مقابلة رائعة وتقسيم عجيب ، دلوك الشمس حيث قمة النور ، وغسق الليل حيث قمة الظلام ، وقرآن الفجر حيث اختلاط النور بالظلام وانسلاخ النهار من الليل . وما أجمل إطناب التذييل ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهودًا ﴾ نعم يشهده النور والظلام والناس والملائكة .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ معناه : إذا أردت عليا الدرجات والرقى فى مدارج السلوك ، ومعارج أهل المحبة والولاية ، فتقرب إلى ربك بالنوافل ، وخصوصاً ركعات الليل حيث لا يراك إلا هو ، تهجد بالقرآن نافلة لك ونعمة وعطاء وإكراماً عسى أن يخصك ربك بالمقام المحمود الذى هو أعظم منزلة عند الله وهى منزلة لا ينالها إلا بشر واحد ، إنها منزلة الشفاعة العظمى حين يتخلى كل رسول له عن هذه المسؤولية، ثم لا ينهض لها إلا محمد ﷺ حين يأتيه الناس وقد مروا على آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ فلم يجدوا لديهم استجابة ، حتى إذا وصلوا إلى محمد ﷺ سجد تحت العرش ثم لم يزل ساجداً حتى يتعلم عن ربه أعظم الدعاء المقرب إلى الدرجة الرفيعة والمقام المحمود ، فينجز الله له

وعده ويؤتيه ما وعده من مقام محمود ، ويقول له : « ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعط » تشفع . لقد تهجد رسول الله ﷺ بالقرآن فى صلاة الليل كما أمره ربه فى قوله جل جلاله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ وقد ختم الله ـ عز وجل ـ الآية بقوله : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ وعسى فى القرآن لا تكون للرجاء ، وإنما لتحقيق الأمر المرجو، وها هو ذا المرجو قد تحقق ونال النبى ﷺ بصبره على العبادة، ومداومته للنوافل ما وعد من مقام محمود . والمقام المحمود وإن كان من خصائص محمد ﷺ إلا أن كل من يصبر على النوافل يتقرب بها إلى ربه موعود بأن يحبه الله ويرفع فى الصالحين منزلته ، وإذا أردت أن تنال محبة الله وتكريمه ، فلا تكتف بأداء المكتوبة ، ولا صيام الفريضة، ولا الزكاة المفروضة؛ ولكن تنفل بالتهجد والقيام والصيام النافلة والصدقة . يقول الله ـ تعالى ـ فيما رواه عنه رسول الله ﷺ : « ما تقرب إلىَّ عبد بمثل ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاننى لأعيننه » .

اللهم ارزقنا محبتك واجعلنا لك عباداً ربانيين نصل بطاعتك إلى رضاك ، وبرضاك إلى جنتك ، واجعل لنا من كل ضيق مخرجاً ، وكن لنا شفيعاً وناصراً ، واجعل القرآن شفاء لنا من كل داء .

من آداب الدعاء

هاتان هما الآيتان الكريمتان اللتان ختم الله بهما سورة الإسراء ، وما أجمل خواتيم السور وما أروع حسن ختامها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١٠ ـ ١١١].

أولاً : لله ـ جل جلاله ـ تسعة وتسعون اسماً غير التى اختص بها رسله أو استأثر بعلمها فلم يطلع عليها أحداً ، وكل اسم من هذه الأسماء الحسنى يدل على صفة من صفاته العلا ، فالرحمن والرحيم يدلان على صفة الرحمة ، والسميع والبصير يدلان على صفتى السمع والبصر ، وقد كان العرب فى الجاهلية لا يذكرون كثيراً من أسماء الله ، فالرحمن مثلا: اسم لم يألفوه وكانوا ينكرونه ، ويقول جهلتهم : لقد تحيرنا أنؤمن بالله أم نؤمن بالرحمن ! وفى هذا يقول جل جلاله فى سورة الرعد : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد : ٣٠] ، وجاء فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ... ﴾ الآية : أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو فى المسجد بقول : « يا الله يا رحمن » فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو الآن يأمرنا بدعاء إلهين .

ثانياً : قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾ فيه رد على المشركين الذين استنكروا اسم الرحمن ؛ لأن معنى الآية : ادعوا

الله بأى اسم من أسمائه الحسنى ؛ لأن جميع أسمائه حسنى وشريفة القدر ، إن من يقول فى دعائه : يا الله يا رحمن يارحيم ياعلى ياعظيم ياحى ياقيوم ياذا الجلال والإكرام ، إنما يدعو الله وحده ؛ لكنه يدعوه متبركاً بأسمائه الحسنى ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا** ﴾ فيه ذكر لبعض آداب الدعاء ، وهو ألا يصرخ الداعى بأعلى صوته كما كان يفعل أهل الجاهلية فى المسجد ، ولا أن يتمتم بالدعاء تمتمة خافتة ولكن عليه بالطريق الوسط ، فيكون صوته في الدعاءِ بحيث يسمع نفسه ولا يشتت انتباه جاره : ﴿ **وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً** ﴾ أى التمس طريقا وسطاً بين المجاهرة الشديدة والمخافتة الشديدة .

وأما ما جاء فى تفسير الآية من أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ كان يخافت فى صلاته، ويقول : إنى أناجى ربى وهو عليم بحاجتى ، وأن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان يجهر ويقول : أنبه الغافلِ وأوقظ الوسنانِ ، فإنه لا يتسق مع السياق، لأن مطلع الآية : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** ﴾ والموضوع حول الدعاء والله أعلم . وجملة ﴿ **أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ جملة شرطية اسم الشرط ، الجازم هو ﴿ **أَيًّا** ﴾ وتعرب هنا مفعولا به مقدماً للفعل ﴿ **تدعو** ﴾ ، وكلمة ﴿ **ما** ﴾ زائدة للتوكيد ، أو نكرة تامة تصف ﴿ **أيا** ﴾ وجملة : ﴿ **فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ جواب الشرط والفاء التى فى مطلعها ، هى التى تقع فى جواب الشرط وفى الآية حلية لفظية فى المقابلة بين ﴿ **تجهر** ﴾ ﴿**وتخافت**﴾ والأمر البلاغى ﴿**ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** ﴾ للتخيير . أما قل ، ولا تجهر ، ولا تخافت، وابتغ ، فتلك أوامر ونواه حقيقية يراد بها التكليف .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾ هذه الآية ذات فضل عظيم لما اشتملت عليه من إشارات التوحيد العظيمة ، وقد جاء فى

فضلها آثار حسنة ؛ لأن فيها رحمة الله وتكبيره وتوحيده وتنزيهه على أن يكون له ولد أو شريك أو ولى من الذل .

وقد جاء فى فضل هذه الآية أنها خاتمة التوراة ، فقد جاء فى الأثر : أن التوراة افتتحت بفاتحة الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون ﴾ [الأنعام : ١] واختتمت بخاتمة الإسراء : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] وفى الخبر : أن هذه الآية تسمى آية العز ؛ لما اشتملت عليه من إيضاح عزة الله إيضاحاً ينفى عنه ـ جل جلاله ـ كل ما ينال من العزة الأزلية العظمى ، وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضى الله عنهم ـ أن النبى ﷺ كان إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ إلى آخر الآية ، وروى أن رسول الله ﷺ نصح رجلا شكا إليه الدين أن يقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَن ﴾ إلى آخر سورة الإسراء ثم يقول : «توكلت على الحى الذى لا يموت» ثلاث مرات ، ويبدو أنه حثه على قراءة هاتين الآيتين من سورة الإسراء ليحمد الله على الرخاء والشدة ، وليسأل ربه بآية العز ، وآية الأسماء الحسنى التى بها يستجيب الله الدعاء .

وقد جاء فى تفسير القرطبى : أن هذه الآية فيها رد على كل أنواع الكفار والمشركين من يهود ونصارى وعباد أوثان وحيوان ، إذ فيها أمر لرسول الله ﷺ أن يحمد رب الكون الذى لم يتخذ ولداً ، وهذا دحض لمزاعم اليهود والنصارى وما يزعمونه من أن عيسى ـ عليه السلام ـ ابن الله ، وكذلك العزير ، بل إن اليهود ليدعون أنهم أبناء الله ويقلدهم النصارى ، فيدعون الله ـ جل شأنه ـ بقولهم : أبانا ! وكل هذا باطل فالله ـ جل جلاله ـ لم يتخذ ولداً ، وفى وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ رد على عباد الشمس والأوثان والحيوان وعلى عباد الجن والملائكة ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ

الذُّل ﴾ معناه : أن الله ـ جل جلاله ـ لا يحتاج أن يتخذ أحلافاً وأولياء يمنعونه أن يناله ذل ؛ لأن العزة لله جميعاً وهو الذى بيده العزة يعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده الخير كله ، وهو على كل شىء قدير . ومن ثم ، فله الحمد والكبرياء ، وعلى المؤمن أن يستشعر عزة الله كلما قرأ هذه الآية وأمثالها فيكبر الله ويحمده ويكثر من قوله : الله أكبر والحمد لله. إن كلمة : الله أكبر هى هتاف المسلمين وشعارهم . كان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ إذا أعجبهم أمر من الأمور هتفوا: الله أكبر ، ولأمر ما جعل الله مطلع النداء للصلاة وختامه : الله أكبر وافتتاح الصلاة : الله أكبر لينهض المصلى للعباده ، وعنده أن الله أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم، وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول : قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها.

رابعاً : أسلوب الآيتين الكريمتين من أفضل ما يتعبد به العبد ، فقد اشتمل على ألفاظ ترسم جواً من العزة والعظمة والجلال ، كقوله : ﴿ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾. وفى كلمة (تكبيراً) توكيد بالمفعول المطلق . وبعد فإن من كرامة العبد أنه مأمور من ربه ـ جل جلاله ـ ألا يحنى جبهته لمخلوق مهما كان ، وأنه لا يصرف عبادته وتوكله إلا إلى الله العظيم الذى ندعوه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وهو الإله الذى لاولد له ولا شريك ولا حليف ليستنفره ، وهو أهل الحمد والثناء ، وله العزة والكبرياء .

اللهم إنا ندعوك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تعزنا بعزتك ، وتغنينا بغناك ، وتقوينا بقوتك ، وأن تكتب لنا الشهادة فى سبيلك لإعلاء كلمتك ، وإعزاز دينك ياذا الجلال والإكرام .

صورة الغنى المتكبر فى سورة الكهف

كان عليه الصلاة والسلام يقرأ ليلة الجمعة ونهارها سوراً معينة ، من القرآن ويرددها فى صلاة الفجر ،كسورة السجدة ، وسورة الإنسان ، وسورة الكهف ، أما سورة السجدة وسورة الإنسان ، فكل منهما تذكر الإنسان ببداية خلقه ، ونهاية أمره وتذكر مصير المؤمنين والكافرين بعد الحساب .

وأما سورة الكهف ، فهى تمتع المسلمين بأربع قصص ، كلها تدور حول الإيمان بالله وتوحيده ، ورجعة الخلائق إليه وهى قصة أصحاب الكهف ، وما كان من بعثهم بعد موتهم ثلاثمائة وتسع سنين ، وقصة الغنى صاحب الجنة والفقير الذى لم يكن يملك شيئا ، وقصة موسى والعبد الصالح ثم قصة ذى القرنين . وكلها قصص تكشف أن الدنيا وزينتها وبهرجها إلى فناء ، وأن لا باقى إلا وجه الله والعمل الصالح . وهذه أربع آيات من سورة الكهف وردت تعليقاً على قصة الغنى المتكبر البطر ، وما آل إليه غناه حينما جحد النعمة وكفر بالمنعم المتفضل : ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَملاً * وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ [الكهف : ٤٦ ـ ٤٩].

وإلى الأخ القارئ هذه الإشارات المعنوية والبلاغية الواردة فى الآيات :

أولاً : هذه الآيات الثلاث ، وقصة الغنى المتكبر والفقير المؤمن الصابر ، كلاهما تعليق على طلب تقدم به بعض المترفين من الكفار ، إلى رسول الله ﷺ يطلب من النبى ﷺ أن يطرد العبيد والمستضعفين الذين آمنوا به لكى

يتركوا المجال للسادة الأغنياء ذوى المال والجاه ، هنالك نزل قول الله تعالي في سورة الأنعام ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢] ونزل قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] وفى هذه الآيات يبين لهم : أن هؤلاء المستضيعفن يعملون من الأعمال الصالحة ما هو أجل وأعظم من مال الأغنياء وبهرج الأثرياء .

ثانياً : فى قوله : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قدم المال على البنين ، لأن صاحب الأموال الطائلة ، يستطيع أن يظهر زينة بيته بما يشتريه بأمواله من وسائل الزخرفة ، أما البننفهم عز ، ولكنهم يأتون فى معرض التزين بعد المال وتصور رجلا عنده أموال طائلة ، وليس له بنون ، ورجلاً أخر لديه بنون ، وليست عنده أموال ؛ تجد أن الأول أقدر على إظهار الزينة من الثانى .

ثالثاً : فى قوله تعالى ﴿ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ كناية وايجاز ؛ لأن هاتين الكلمتين تعنيان جميعَ الأعمال الصالحات ، والحسنات النافعات عند الله تبارك وتعالى .

رابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ تنقض لما يعلقه قصار النظر من آمال على الأموال ، والأولاد ، فالآية تشير إلى أن أعظم أمل للعبد هو أمله فى ربه، وهو أمل ينبع من منطلق الأعمال الصالحة التى يدخرها عند الله ، فيجدها أمامه فى قبره فى صحائف أعماله .

خامساً : ثم يذكّر المتفاخرين بالأموال والأولاد ، بمشهد من مشهد القيامة لا

يغنى فيه المال والولد حينما تقوم القيامة فتسير الجبال ، وتتفتت وتزول وترى الأرض بارزة أى واضح كل ما فيها ، فلا جبال تحجب الرؤية ، ولا أشجار بل هى قاع صفصف يبرز فيها الخلق جميعا لله ، لا تستر الأرض منهم خافية ، وعلى تلك الأرض البارزة المكشوفة يجمع الله القرون الأولى ، والمتأخرة فى صعيد مكشوف فلا يغادر ، ولو فرداً واحداً: ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ [مريم : ٩٣ ـ ٩٥] .

سادساً : فى قوله تعالى : ﴿ **وعرضوا على ربك صفا** ﴾ الله أكبر ما أطول ذلك الصف ، والله أعلم بترتيب الصف ، ولكن لا شك أن أول الصف سيكونون محظوظين بإذن الله لأنهم يحاسبون حسابا يسيرا ، على أن هنالك من لا يصله الدور إلا بعد خمسين ألف سنة ، وهو على حال يخشى معها انصهار دماغه من الحر ، وأن يدهمه الغرق فى العرق . اللهم إنا نسألك النجاة من هول ذلك الموقف العظيم .

سابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ **لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ رد على المغرورين بالأموال والأولاد ، إنهم يبعثون يوم القيامة كما خلقهم الله حفاة عراة لا مال معهم ولا ولد ، وهنا يقرعهم الحق جل جلاله ، فيذكرهم بكفرهم وإنكارهم البعث والحساب : ﴿ **بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا** ﴾ .

ثامناً : ثم يكون توزيع كتب الأعمال فيا ويل المنكرين والغافلين والبطرين من هول المفاجأة ، أنهم يرون أعمالهم حاضرة نصب أعينهم لم يغب منها ، ولو مثقال حبة من خردل ، هنالك يصيحون بالويل والثبور ، فيقال لهم : هذه هى أعمالكم ، والله جل وعلا لا يظلم أحدا من خلقه ، ولكنها الأعمال ، والأعمال فقط ، هى معيار الكرامة والدرجات .

القرآن خير هدية للإنساية

هذه الآيات الكريمات هي المطلع المبارك الذى افتتح الله به سورة الكهف ، وسورة الكهف من السور المكية التى أشاد النبى ﷺ ببركتها وعظم منزلتها ، افتتحها ربنا بذكر نعمة القرآن الكريم الذى أنزله الله ـ تعالى ـ بشرى للمؤمنين، وإنذاراً للكافرين ، واختتمها ـ جل جلاله ـ مشيداً أيضاً بالقرآن الكريم ، وأن البحر لو تحول مداداً تكتب به الأقلام لنفد البحر قبل أن يحاط بأسرار كلام الله وسعته وعظمته ، وبين البداية والنهاية أربع قصص قصها ربنا ـ جل جلاله ـ على نبيه ليزيده ثباتاً على الحق مهما عربد الكفر وساق غطرسته .
القصة الأولى : قصة أصحاب الكهف الذين فروا بدينهم من ظلم الطاغوت وفضلوا دينهم على حياة الترف التى كانوا ينعمون بها ؛ فقد كانوا من أبناء الأمراء . والثانية : قصة الغنى الكافر صاحب الجنتين أى البستانين والفقير الذى لم يكن يملك شيئاً إلا دينه وما كان من دمار الكافر . والقصة الثالثة : قصة موسى والعبد الصالح وهى قصة هدفها الإيمان بقضاء الله ؛ لأنه لا يكون إلا لحكمة حتى ولو بدا لك فظيعاً مستهجناً ، كخرق السفينة ، وقتل الغلام ، وبناء الرجل جداراً يوشك أن يتهدم بدون أجر مع أنه جائع وفى أمس الحاجة إلى طعام . والقصة الرابعة والأخيرة : قصة ذى القرنين وما كان من فتحه لأقصى المغرب ثم أقصى المشرق ، وكان حيثما حل يطبق العدل وينشر الإيمان، وهى قصص فيها تسليه لرسول الله ﷺ بأخبار الصابرين على دعوة الحق .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ**

إلاَّ كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ١ ـ ٨] .

هذه هى الآيات الكريمات وهذا بيان لبعض ما تضمنته من بلاغة وإعجاز :

أولاً : استهل الله ـ جل جلاله ـ سورة الكهف بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وذكر بعد ذلك نعمة جليلة من نعمه العظمى وهى أنه أنزل لنا أشرف كتاب من كتبه على أعظم نبى من أنبيائه ، فأكرم الإنسانية بقرآن كريم ، ونبى رحيم ، وهى نعمة أجل من كل عرض الدنيا وما عليها ؛ ذلك لأن تراث النبوة ونور القرآن دائمان ، وأما جميع ما على الأرض من مال ومتاع وطعام وشراب وأثاث ورياش، فكلها ستكون ذات يوم لا شىء ، نعم ! تخلو الأرض من كل هذا ويتحول كل ما عليها صعيداً جرزاً ، أى : تراباً تبدو به الأرض كأنما قطع شجرها فظهرت ملساء ، وسورة الكهف واحدة من خمس سور بدأها الله بحمده ، والأربع الأخرى هى فاتحة الكتاب ، وسورة الأنعام ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر ، وهما سورتان متتاليتان ، والحق أنى ما قرأت هذه السور الخمس إلا أحسست أنى فى جو من نعم الله يأخذ بيدى ويهتف بى أن أؤمن بهذا الرب المنعم المتفضل . وسورة الكهف من بين هذه السور الخمس فيها ذلك القصص الواعظ المسلى الذى يعلم ويمتع ، فلا عجب أن يحث النبى ﷺ على قراءتها فى يوم الجمعة وهو عيد المصلين ؛ لكى يستمتعوا بجلسة فيها حمد الله على نعمه ، وفيها تسلية عما يلقاه المؤمن من متاعب الدعوة، وفيها إمتاع بذلك الأسلوب القصصى الرائع ؛ لأن النفس الإنسانية بطبيعتها تحب القصص ، وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : « من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف ؛ عصم من فتنة الدجال » ، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه : « سورة أصحاب الكهف من قرأها

يوم الجمعة ؛ غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام » .

ثانياً : ورد فى سبب نزول السورة : أن اليهود كان دأبهم أن يبحثوا عن أسئلة مما فى كتبهم ، ويوعزوا إلى قريش أن يوجهوها إلى رسول الله ﷺ ليحرجوه بها ، فقالوا لهم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم ؟ فإنه كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مغارب الأرض ومشارقها ما كان من نبئه ، وسلوه عن الروح ، فذهب اثنان من كبار مشركى قريش هما عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث إلى رسول الله ﷺ وسألاه عن هذه الثلاث ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « آتيكما بالجواب غداً » ولم يستثن، أى : لم يقل : إن شاء الله ، ويبدو أن الله ـ جل جلاله ـ آخذ محمداً عليه الصلاة والسلام على عدم استثنائه فانقطع عنه الوحى خمس عشرة ليلة ، وكثر إرجاف قريش ، وحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً لإعراضهم وعنادهم وكفرهم وشماتتهم، فلامه ربه تبارك وتعالى على شدة حزنه بقوله : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ ومعناها : أنك يا محمد تحزن لإعراض المشركين وكفرهم حزناً شديداً ، وتأسف لعنادهم أسفاً يوشك أن يقتلك. وكلمة ﴿**باخع نفسك**﴾ معناها : قاتلها ، ثم يسليه بتذكيره أن كل هذه الأرض وما يزخرفها من النعم إلى زوال ، ومادامت قصة الحياة إلى فناء فلا يكبر الأمر فى نفسك ولا تحزن كل هذا الحزن ، ويبدو أن كلمة لعل تفيد أحياناً الاحتمال والتوقع .

ثالثاً : إذا رتلت الآيتين الأوليين : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ** ﴾ فاسكت سكتة لمدة ثانيتين بين كلمة ﴿ **عِوَجًا** ﴾ و ﴿**قيما**﴾ حتى لا يظن أن كلمة ﴿**قَيِّمًا**﴾ نعت لكلمة ﴿ **عِوَجًا** ﴾ . وقد ذكر محمد ﷺ فى الآية وكنى عنه بكلمة عبده ، والعبودية لله شرف عظيم ، شرف الله بها محمداً ﷺ وسائر

الأنبياء ، وفي سورة البقرة : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة : ٢٣]، وفي سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١]، وفي سورة الفرقان ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : ١]، وفي سورة الجن : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩]، وفي سورة النجم : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]، وفي سورة الحديد: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الحديد : ٩] وقد ذكر٢٥٦ الأنبياء بهذه اللقب المشرف، ففي سورة مريم : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم : ٢] وفيها على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي عبد الله ﴾ [مريم :٣٠] وفي سورة ص : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ [ص : ٣٠] ، وفي السورة نفسها وهو يذكر أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] ، وفي سورة الزخرف وهو يذكر المسيح : ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمنا عليه وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبني إِسْرَائيل﴾ [الزخرف : ٥٩]، وفي سورة النساء: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء : ١٧٢] وفي سورة الإسراء: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣]، وفي سورة الكهف وهو يذكر الخضر عليه السلام : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف : ٦٥]ولا غرو ، فالله جل جلاله يقول : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٣ ـ ٩٥].

رابعاً : يلاحظ قارئ الآيات أنها وقفت وقفة غاضبة عند ذكرها لمن يزعمون لله

ولداً ؛ فقد تحول الأسلوب فيها هائلاً شديداً : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ لقد نسبهم وآباءهم إلى الجهالة وحصر قولهم فى الكذب : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وتعرب ﴿ كَلِمَةً ﴾ تمييزاً ، وفى قوله : ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ فيه إشارة أنها لا تمر بعقولهم ، وفيها لون بليغ من ألوان التوكيد ، ولعل عنف الأسلوب فى ذكر المشركين يتضح أكثر حين نوازنه بما ورد فى الآية من ذكر المؤمنين ، هنالك يحلو الأسلوب وينساب فى عذوبة عجيبة معجبة ، وفى قوله تعالى : ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ إنه حقا أسلوب غارق فى الحسن والبشائر .

قصة أصحاب الكهف

احتلت قصة أصحاب الكهف والرقيم ثماني عشرة آية من قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٩] إلى قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٦] وخلاصة قصتهم ـ رحمهم الله ـ : أن طاغية من الحكام الرومان اسمه دقيانوس استولى على مدينة طرسوس ، فأمر الناس أن يعتنقوا ملته ويعبدوا من دون الله آلهة مختلفة من حجر وشجر وبشر ، وعذّب من خالفوا دينه المنحرف ، وفى ذات يوم اجتمع ستة فتيان من أبناء سراة القرية وأمرائها ، وتداولوا الرأى فى أمر ذلك الطاغية ، وقد قيل : إن أحد حواريى عيسى ـ عليه السلام ـ كان يتصل بهم ويعلمهم التوحيد ، وقد وصفهم ربنا ـ جل جلاله ـ بالإيمان والهدى وثبات القلوب على الحق فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف : ١٣] أى : نخبركم بقصتهم حقاً وصدقاً ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الكهف : ١٣ ، ١٤] أى : ثبتناهم فى ذلك الجو المفزع من حكم الطاغية ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : ١٤] أى: إذا عبدنا آلهة من دون الله ، فقد ركبنا متن المبالغة والغلو والابتعاد عن الحق ومضوا فى قولتهم : ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ ﴾ [الكهف : ١٥] أى : هلا أتوا بدليل على أن هؤلاء الشركاء آلهة !! وتساءلوا : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف : ١٥]؟. وتمضى القصة بأنهم هربوا من الطاغية فمروا على راع وكلبه ، فاستحلى كلامهم ، وهداه الله للتوحيد مثلهم فتبعهم بكلبه ، فصاروا سبعة وثامنهم كلبهم، وأرشدهم أحدهم إلى

كهف واسع مهجور بعيد جداً عن طريق المسافرين والمارة ، فأووا إلى ذلك الكهف فارين بدينهم معتزلين قومهم ، ومع أن النبى ﷺ نهى عن الاعتزال ، إلا أنه أجازه إذا استنفد الجهد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وانتشرت الفتن وخشى الصالحون على أنفسهم . والمهم : أنهم حين دخلوا الكهف ضرب الله على آذانهم ، أى : غابوا عن الوعى ، فناموا واستمر نومهم قروناً ، والظاهر أنهم ناموا ثلاثمائه سنةٍ شمسية وتقدر بثلاثمائه وتسع سنين قمرية ، والله أعلم.

ولقد كلأهم الله ـ جل جلاله ـ بعنايته أثناء نومهم ، فحرسهم من الأيدى العابثة وأمر الشمس ألا تؤذيهم ، فكانت تبتعد بحرارتها عند مدخل كهفهم وتميل عند طلوعها عنهم ذات اليمين وتتخطى أجسادهم عند غروبها فتميل ذات الشمال ، وكان كلبهم راقداً بباب الكهف كأنما يحرسهم ، وعلى الجملة فقد كان مظهرهم يبعث الرعب فى ذلك المكان الموحش ليس فيه سوى جثث هامدة ملقاة ، وشاء الله ـ جل جلاله ـ أن يبعثهم من مرقدهم ، فلما أيقظهم بقدرته من رقدتهم طفقوا يتساءلون وكان كل ظنهم أنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم ، ولم يطل بينهم الجدل فقال بعضهم : الله أعلم بما لبثتم ، والمهم أننا جائعون ، فوكلوا أحدهم أن يذهب ومعه نقود فضية ، وأوصوه أن يختار أطهر الطعام وأجله وأزكاه ، وأن يكون ذكياً ويسير بلطف وهدوء حتى لا يشعر الطاغية وقومه ويكتشفوهم ، وإذ ذاك يقتلونهم رجماً أو يردوهم إلى ملة الكفر ، وفى هذا خسران ما بعده فلاح .

ونزل صاحبهم إلى السوق ومعه العملة وطفق يبحث عن طعام حتى وجده، ولشدما كانت دهشة بائع الطعام حين رأى العملة مسكوكة منذ أكثر من ثلاثمائة عام ، فصاح : هذا رجل يبدو أنه عثر على كنز دفين ، واجتمع الناس وجاءت الشرطة ، ونمى الخبر إلى الملك ، وكان هذا الملك مؤمناً نشر فى المدينة توحيد الله وأخلاق المؤمنين ، وهنا قص الفتى على الملك قصته فسر به سروراً عظيماً ورافقه هو والجنود إلى الكهف حيث رأى زملاءه وكلبهم ، وشاء الله للفتيان . أن يضيفوا إلى إيمانهم الفطرى العقلى إيماناً من تعليم الأنبياء

وكتب الله السماوية ، فآمنوا وعلموا أن وعد الله حق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث فى القبور ، لكنهم حين رأوا أنفسهم فى دنيا لا يعرفون فيها أحداً ، ورأوا أن أجيالاً كثيرة قد فنيت فى غيبتهم ، وجدوا أن عيشهم سيكون صعباً ، فدعوا الله أن يتوفاهم، فاستجاب الله لهم ، وماتوا جميعاً هم وكلبهم بعد أن خلفوا للأجيال مثلاً علياً فى الإيمان والتضحية وإيثار الباقية على الفانية .

وهنا أمر الملك أن يوضع على باب الكهف صفيحة من النحاس الصافى رقم عليها تاريخ نومتهم وانبعاثهم وموتهم ، ومن هنا فالكهف والرقيم وجدا ، لأنه كانت الأمم السابقة تتخذ على قبور الصالحين مساجد ، فأمر الملك أن يتخذ على كهفهم مسجد ، وهذا الأمر كما هو معلوم منعه الإسلام دفعاً لاحتمالات الشرك وسداً لذرائعه .

وإلى الإخوة القراء هذه العبر والتوجيهات المستخلصة من هذه القصة الجميلة الجليلة :

أولاً : فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٩] إشارة لرسولنا الكريم أن قصة أهل الكهف والرقيم على ما فيها من طول نومتهم وغرابة بعثهم ، فهى ليست عجباً إذا قيست بآيات الله الأخرى كخلق الإنسان من نطفة ، وتدبير أمر السموات والأرض ، وغير ذلك من آيات الله الكبرى فى الآفاق وفى أنفسنا .

ثانياً : هدف القصة الأسمى هو إثبات قدرته ـ تعالى ـ على إحياء الموتى وبعثهم من مراقدهم شأن قصة العزير حين أماته الله مائه عام ثم بعثه ، وقصة إبراهيم حين قطع الطير قطعاً ، فجمع الله شمل أشلائها وأتت إبراهيم ركضاً !

ثالثاً : أبطال القصة أنموذج رائع فى نقاء الفطرة وخلوص النية ، وعظمة التضحية ، فبالفطرة النقية توصلوا إلى صفاء التوحيد ، وبالنية الخالصة العظيمة هاجروا إلى الله تاركين وراءهم غناهم ورفاهيتهم وأموال آبائهم متوجهين إلى مصير مليء بالمتاعب والخوف من المجهول .

رابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾ [الكهف : ١١] كناية عن النوم يفقد معه الإنسان سمعه ، وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ إشارة توحيدية تدل على أن الإنسان له اختيار ينبع من عقله وفطرته ، وهؤلاء الفتية هدتهم الفطرة إلى الوحدانية ، فسهل الله لهم طريق الإيمان ، وزادهم هدى ، وإذن فالإنسان يختار على ضوء عقله ، ثم يسهل الله له طريق اختياره ، وفى هذا يقول الرب جل جلاله فيمن يتبعون هدى الفطرة والعقل : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] ويقول في من يسيرون وراء الهوى ويختارون طريق البشر : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] وإذن فالعبد فى هذه الحياة ليس مكتوف اليدين ولا هو مجبر، ولكنه يختار ، وكلٌّ ميسر لما خلق له ، ثم يكون الله ـ جل جلاله ـ هو الذى يسهل للمهتدين طريق الهدى ، ويسهل للضالين متاهات الضلال .

خامساً : فى قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ كناية عن التثبيت فى وجه الموت المحقق والخطر المحدق ، والله ـ جل جلاله ـ يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

سادساً : فى قوله تعالى : ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ ﴿ لولا ﴾ حرف تحضيض ، ومعنى الآية : هلا أتى قومنا ببرهان واضح يثبتون به شرك هؤلاء الشركاء لله ـ جل جلاله ـ ؟!

سابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِه ﴾ [الكهف : ١٦] استعارة حلوة والرحمة ثوب ينشر فيظلل ويستر .

ثامناً : الحلية اللفظية رائعة حقاً وخصوصاً هذه المقابلة الحلوة المؤثرة فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٧] .

تاسعاً : فى قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١٩] هنا خمسة أوامر طلبوها منه ، وكان أخطرها ذلك الأمر ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ .

الابتلاء بالغنى أشد من الابتلاء بالفقر

كما يكون الابتلاء بالشدائد يكون أيضاً بالرخاء ، وكما يبتلى الله عباده بالفقر كذلك يمكن أن يبتليهم بالغنى ، وفى سورة الكهف قصة بطلاها رجلان ابتلى أحدهما بالفقر فنجح فى الامتحان وثبت على الصبر والإيمان ، وابتلى الثانى بغنى مضاعف ، فأخفق فى الامتحان حين قابل النعمة بالكفران واستولى على قلبه الشيطان ، وصدق الله ـ جل جلاله ـ إذ يقول فى سورة الأنبياء : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] وقد احتلت القصة من سورة الكهف اثنتى عشرة آية ، وأتبعها الحق ـ جل جلاله ـ بتعليق استغرق ست آيات ، وهو تعليق فى غاية التأثير والبلاغة، وتبتدئ القصة بقوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴾ [الكهف : ٣٢] وينتهى التعليق بقوله تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : ٤٩] . وقد ضرب الله هذه القصة مثلاً ، أى : تشبيهاً يشبه به حال مشركى مكة بموقف الغنى الكافر وحال المؤمنين بموقف الفقير المؤمن ، وإنى إن شاء الله مورد القصة كما وردت فى الآيات ثم متبعها ببعض الإشارات البلاغية والمعنوية :

كان فيمن قبلنا رجلان جاران : أحدهما غنى له بستانان فى غاية من الخصب والجمال فيهما أنواع من الأعناب ، وقد حفهما نخيل مثمر جميل وفرشت أرضهما بمختلف الزروع ، وقد أمدهما الرب ـ جل جلاله ـ

بالخصب والبركة ، وفجر خلالهما نهراً جارياً ، فكان ثمرهما يأتى مضاعفاً متدفقاً بنعمة الله ومنّه وكرمه ، وقد كان المفروض أن يعطى الغنى جاره مما رزقه الله ، لكن الذى حدث كان عكس ذلك ، فقد جاء إلى الفقير لا ليعطيه ، ولكن ليفاخره وينافره ويكسر عليه شعوره . كان أول ما قاله لصاحبه وجاره الفقير : ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ [الكهف : ٣٤] أى : وأقوى منك قبيلاً ، وكان أحد بستانيه قريباً من مسرح الحوار ، فدخل فيه وهو على تلك الحال من المعصية وظلم النفس فقال : إن مثل هذا الملك العظيم الراسخ لا يمكن أن يفنى ، ولا أعتقد أن ثمة بعثاً بعد الموت وحتى لو كان هنالك حياة بعد الموت فسوف أكون هنالك أحسن منك كما كنت فى الدنيا أغنى ، وسأجد بعد البعث أحسن من هذين البستانين ، فلما رأى صاحبه أنه كفر بنعمة الله ، وقابل إكرام ربه له بالكنود والكفر باليوم الآخر قال له مجيباً : أتكفر بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم إذا أنت رجل سوى الخلق جميل الصورة على الرغم من مذر النطفة وقذر التراب ؟! أما أنا فأعلن أن ذلك الفقر لن يثنينى عن الإيمان ، فالله ـ جل جلاله ـ هو ربى وحده لا شريك له. ومضى يقول له ناصحاً : هلا قلت حين رأيت جنتك وخصبها وجمالها وظلالها الوارفة هلا قلت : إن هذا كله بمشيئة الله والحول والقوة والعطاء كلها من الله ، لكن اسمع فإنى سأدعو على جنتيك دعوة مظلوم ظلمته أنت وتحديته . أسأل الله أن يرزقنى أفضل من جنتيك كما أسأله أن يبعث عليهما عقاباً يحاسبك به فيدمرهما بطريقة من طرق الدمار التى يملكها إما بأن يغرقهما بفيضان يجرف كل ما عليهما ويتركهما براحاً زلقاً . وأما أن يغور ماءهما ويبتليهما بجفاف تموت معه الثمار والزروع .

لم تعد المسألة مغالبة بين الغطرسة والفقر ، وإنما تحول إلى مغالبة بين الله

ـ جل جلاله ـ وهو يسمع دعوة المظلوم وبين الشيطان متمثلاً فى تلك البجاحة الكافرة من إنسان جاحد يرد نعم ربه بالمعاصى والكفر ، وهنا طاف على البستانين طائف من عذاب ربك لا إله هو فأصبحا محترقين ! فلا تسل عن حال صاحبهما الكافر حين رأى حدائقه منهارة من على عرشها فطفق يضرب كفا علي كف نادماً علي ما أنفق من ماله على الحديقتين ، وهو يقول : ﴿ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٢]هنالك رأى بأم عينه أن السلطان والولاية والقوة كلها لله وحده ، وأن كل ما فاخر به من مال وقبيلة ما يستطيع له نصراً ولا يرد من أمر الله شيئاً . وقد علق الله ـ جل جلاله ـ على هذه القصة بآيات تستنزف الدموع وتوقظ الغفلات : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : ٤٥ ـ ٤٦] ثم يمضى الحق ـ جل جلاله ـ مذكراً بالقيامة وأهوالها حين يصطف آلاف الملايين من البشر صفاً حفاة عراة غرلاً كما ولدتهم أمهاتهم ويقال لهم : لقد كنتم تزعمون أنكم لا يمكن أن تبعثوا إلى ربكم . وهنالك يرى كل إنسان كتاب عمله ، فيعلم أنه في سوق حاشدة بضاعتها الأعمال والأعمال فقط ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف : ٤٧] أى واضحة لا شيء يسترها من جبال أو شجر ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وعرضوا علي ربك صفا * لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف : ٤٧ ـ ٤٨] أى : كما ولدتكم أمهاتكم ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : ٤٨ ـ ٤٩] أى خائفين لأنهم يعرفون جرائمهم ويقولون : يا وليتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩]

هذه هى القصة والتعليق الإلهى المؤثر عليها ، وإلى الإخوة القراء هذه اللقطات من الإعجاز البلاغى والمعنوى :

أولاً : فى وصف الحديقتين جو من الألفاظ ذات المدلولات الجميلة والجرس الحلو ، والاتساق الممتع ، كأن الوصف نشيد الجمال ﴿ **جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ** ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٤] لقد اجتمع فيها الماء والخضرة والثمار ، واستكملت اللوحة الفنية أجزاءها بمنظر النخيل تحته الزروع، ومنظر الأعناب تتدلى ثمارها إذ لم تتخلف عن الإثمار زهرة واحدة ، وما أروع التعبير البديع فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا** ﴾ [الكهف : ٣٤] أى : لم تؤخر شيئاً من ثمارها شأن الظالم الذى يؤخر بذل ما عنده ، وفى قوله : ﴿ **وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** ﴾ إن النهر لم يأت من خارج الحديقتين لكنه تفجر من عيون داخلهما ، وفى هذا إكمال اللوحة الرائعة .

ثانياً : فى قوله على لسان الكافر : ﴿ **مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً** ﴾ [الكهف : ٣٥] نوع من المجانسة لا أثر فيه لتكلف أو صنعة ، وفى بناء الحروف انسجام عجيب بسبب تباعد المخارج فى الحروف المتجاورة ، ففى كلمتى ﴿ **مَا أَظُن** ﴾ مخرج الميم الشفتين ومخرج الهمزة المجاورة لها هو داخل الحلق ثم تأتى النون المشددة ليكون مخرجها الأنف وبداية اللسان ومثل ذلك : ﴿ **أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** ﴾ ، فمخرج الباء الشفتين ، أما حرف المد وراءها فمخرجه كل التجويف داخل الفم .

ثالثاً : فى قوله تعالى على لسان الفقير : ﴿ **أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** ﴾ [الكهف : ٣٧] من أعظم أساليب الإقناع

حين ذكره بنعمة الحياة مبتدئة بالتراب والنطفة ومنتهية بأحسن تقويم ، وأجمل صورة ، ومع التراب والنطفة استعمل كلمة ﴿ خلقك ﴾ إذ فيهما يتجلى الإعجاز الخلقي ومع كلمة ﴿رجلاً﴾ قال : سواك ؛ لأن الصورة هنا جمالية يظهر فيها التناسب السوى .

رابعاً : فى قوله على لسان المؤمن : ﴿ لَكِناً هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف : ٣٨] ألوان من التوكيد والتكرار ليؤكد إيمانه وعبوديته ، فقد أكد بضمير الشأن وأكد بتكرار كلمة ﴿ ربي ﴾ وأكد معنى الجملة الأولى بمعنى الجملة الثانية لأن جملة هو الله ربى معناها : ﴿ ولا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ .

خامساً : إذا رأى العبد نعمة من نعم الله عليه فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ إذ بهذا القول ينسب الفضل كله لله ، ويبرأ من حول نفسه وقوتها، وهذا منتهى الشكر والعبودية معاً ، وقد كتب وهب بن منبه على باب داره:ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، وقال رسول الله ﷺ لأبى موسى الأشعرى فيما رواه مسلم : « ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة ؟ أو كنز من كنوز الجنة : لا حول ولا قوة إلا بالله » وزيد فى رواية : «العلى العظيم» وزيد ـ أيضاً ـ : « إذا قالها العبد قال الله تعالى : أسلم عبدى واستسلم» .

سادساً : أنصح لكل مسلم ولنفسى قبلهم أن يحفظ هذه الآية ويرددها كلما تبرجت أمامنا الحياة الفانية ولوح الشيطان لنا بحطامها الفانى ، إنها آية من أجمل كلام الله لفظاً ، ومعنى تلوح لنا بالثواب الباقى والأمل المنشود : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف : ٤٦]

قصة موسى والعبد الصالح

قصة موسى والعبد الصالح ـ عليهما السلام ـ احتلت اثنتين وثلاثين آية من سورة الكهف ابتداء من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠] إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٨٢]. وهى قصة عجيبة مغزاها أن قضاء الله وقدره يصدران عن حكمة بالغة ، ومن ثم فلابد من الإيمان بالقدر ، والرضا والتسليم بالقضاء خيرة وشره ، أما المغزى الثانى هو ألا يغتر طالب العلم بما وصل إلى علمه ، بل يظل مستشرفاً متطلعاً إلى المزيد ، وأن يسلك مع معلمه سلوك السامع المطيع الذى لايخالف لمرشده أمراً ، وإنى ملخص هنا ـ إن شاء الله ـ تلك القصة كما وردت فى كتب التفاسير ، فمتبعها ـ إن شاء الله ـ بما يفتح لى به من إشارات المعنى والبلاغة : جاء فى التفاسير : أن موسى ـ عليه السلام ـ خطب فى بنى إسرائيل خطبة بليغة ، فسأله أحد المستمعين : يانبى الله وكليمه ، هل على وجه الأرض من هو أعلم منك ؟ قال موسى : لا ، ليس على ظهر الأرض من هو أعلم منى ، فآخذه ربه على تلك المقوله ، وقال له : إن عند مجمع البحرين عبداً من عبادى هو أكثر منك علماً . قال موسى : يارب وكيف الوصول إليه ؟ قال الرب جل وعلا : خذ معك حوتاً ، أى : سمكة فى زنبيل فحيث فقدت الحوت فاعلم أن ثمة العبد الصالح . وفى الحال أعد موسى زاداً له ولخادمه ، وكان اسم خادمه : يوشع بن نون ، وهو نبى مرسل من نسل يوسف ـ عليه السلام ـ وقال موسى

للخادم : لن أضع عصا الرحيل حتى أبلغ مجمع البحرين ، ولو اقتضى الأمر أن أسير ثمانين سنة ، فسارا معاً على ما يبدو نحو جزيرة سيناء حيث يقترب البحر المتوسط من خليج السويس على البحر الأحمر، وهناك جاوزا المكان الذى وصفه الله لموسى ، فلما نال منهما التعب جاع موسى وقال لخادمه : ﴿ آتنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف : ٦٢] مشقة وتعباً . وسأله موسى عن السمكة التى أحضراها فقال الخادم : نسيت أن أخبرك أننا حينما جلسنا فى ظل الصخرة نسيت أن أتفقد الحوت فى الزنبيل ، ثم رأيته بعينى يحيا ويتوجه إلى البحر حيث شق الماء بطريقة عجيبة ، وهنا نسى موسى جوعه وفرح بالخبر ، وقال لفتاه : هذا ماكنا نطلبه ، وعادا حالاً يقصان آثار أنفسهما حتى وصلا مكان الصخرة، وعندها وجدا الخضر ـ عليه السلام ـ وهو العبد الصالح الذى وصفه الله لموسى ، ففرح موسى بلقائه ، وسأله بأدب : هل تأذن أن أرافقك تابعاً لك على أن تعلمنى مما علمك الله ما يرشدنى إلى خيرى المعاش والمعاد ؟! فقال الخضر لموسى : إنك لن تستطيع أن تصبر على أعمالى وتصرفاتى؛ لأنك لم تحط بها علماً ولا أطلعك الله على حكمتها ، فأجابه موسى بأدب التلميذ المهذب : سوف تجدنى إن شاء صابراً وسامعاً ومطيعاً.

وهنا رسم الخضر لموسى منهج الصحبة وشرطها ، فقال له : إن أردت مرافقتى فلا تسألن عن عمل أعمله : لم عملته حتى أكون أنا الذى أذكر لك حكمته ، وعلى هذا الشرط انطلقا حتى إذا ركبا سفينة فى البحر الأحمر لاحظ موسى الخضر يتسلل إلى أسفل السفينة ويخلع بقدوم يحمله لوحاً من قاع السفينة ، وهنا نسى موسى الشرط وصاح قائلاً : أتخرق السفينة ليموت ركابها ؟! إن عملك هذا لأمر إمر ، أى : فظيع ـ فما كان من العبد الصالح إلا أن ذكره فى غير تعنيف﴿ أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٢] واعتذر موسى ـ عليه السلام ـ بأنه نسى وطلب صفح الخضر ، ومضيا

فى الرحلة فوجدا فى بعض طرقها غلاماً فأمسكه الخضر على مرأى من موسى وقتله ، وهذا بالطبع لا ترضاه شرائع جميع الأنبياء ؛ ولهذا استنكر موسى هذا الأمر وقال للخضر : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّة ﴾ [الكهف : ٧٤] أى : بريئة طاهرة فى غير قصاص ؟! إن هذا لأمر منكر حقاً وعندئذ قال له الخضر : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [الكهف : ٧٥] ويلاحظ أنه أضاف فى هذه الآية كلمة ﴿ لك ﴾ ليؤكد الأمر ويبين له أنه وجه الكلام له لا لغيره ، وعندئذ خجل موسى من نفسه ، وحكم هو على نفسه دون أن يطلب منه الخضر ذلك، وكان عليه الصلاة والسلام يقول ـ فيما رواه مسلم ـ إذا ذكر هذا الموقف من موسى : « رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب » واستمرا فى رحلتهما حتى أتيا قرية يبدو أن أهلها كانوا لؤماء بخلاء ، فطافا على أهلها يطلبان ـ القرى ، فأبى جميع أهل القرية أن يضيفوهما، وبينما هما يسيران جائعين ناقمين على اللؤم والبخل مرًّا على جدار مائل يوشك أن ينهار ، وكم كانت دهشة موسى حين رأى العبد الصالح يسرع إلى الجدار المائل فيدفعه فينهار، ثم يبدأ فى بنائه بناء قوياً ، وعندئذ تعجب موسى من هذا العمل فقال للخضر : لو شئت أخذت على عملك هذا أجراً نشترى به طعاماً كيف تخدم هؤلاء اللؤماء الذين لا يكرمون الضيف ؟ وعندئذ قال الخضر لموسى عليهما السلام : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِك ﴾ [الكهف : ٧٨] ولكن من أدب العلم أن أنبئك بما لم تستطع عليه صبراً : السفينة كانت لمساكين يأكلون عيشهم من كسبها ووراءهم قرصان ينهبون السفن الجيدة ، فأردت أن ألحق بها عيباً ، لكى يزهد فيها الطاغية زعيم القرصان ، والغلام كان أبواه مؤمنين ، لكن الله ـ جل جلاله ـ العالم بما يملكه كل إنسان من استعدادات للخير أو الشر علم بعلمه الأزلى العظيم أن هذا الغلام طاغية كافر وأنه سيسبب لوالديه إرهاقاً بكفره وطغيانه ، فأردت أن يعوضهما ربهما عنه من هو أطهر ، وقد روى أن أم الغلام

كانت حاملاً عند مقتله فولدت غلاماً عاش فكان صالحاً براً بوالديه ، وفى الكلام درس للمؤمن أن يرضى ويسلم مهما كانت المصيبة ؛ لأن قضاء الله لا يكون إلا لحكمة بالغة خيرة . وأما الجدار فقد ورثه غلامان يتيمان عن أبيهما الصالح وكان تحت الجدار كنز ، وإذا انهار الجدار ظهر الكنز واغتصبه أهل القرية بما فيهم من لؤم وبخل ، فأراد الله ـ جل جلاله ـ أن ينال الغلامين صلاحُ والدهما ، فيبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما بفضل الله ورحمته، ثم ختم قائلاً : إن كل ما فعلته لم يكن بأمرى ولكنه بأمر الله .

وإلى الإخوة القراء هذه التأملات المفيدة التى توحى بها القصة والآيات الكريمات :

أولاً : فى الآيات الكريمات درس فى الإيمان خلاصته : أن قضاء الله خيره وشره لا يكون إلا لحكمة وما على العبد إلا الإيمان بالقدر خيره وشره ، ثم الرضا والتسليم لكل القضاء ؛ لأن العبد لا يدرى ما يخبئه القضاء وما تجرى به المقادير .

ثانياً : فى قوله تعالى على لسان موسى لفتاه : ﴿ **لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا** ﴾ بيان لتصميم طالب العلم على الحصول مهما بعدت الشقة وطال الزمن ، فمجمع البحرين بعيد ، والحقب ثمانون سنة، وفى التعبير رفق بالخادم ولو كان عبداً ، فهو يعبر عنه بكلمة فتاه ، ولم يقل : وإذا قال موسى لعبده ، ثم إن موسى يستشير الفتى حتى يكون على بصيرة من أمره وهو بعد هذا لم يؤنبه حين نسى الحوت واكتفى بأن ارتدا على آثارهما قصصاً .

ثالثاً : فى الآيات مَثَلٌ أعلى فى معاملة طالب العلم لمعلمه . انظر إليه وهو يستعمل أسلوب الاستفهام الذى يفيد الأدب ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ** ﴾ ومعناه : هل

ترضانى تابعاً لك كغلام أو خادم بشرط أن يكون أجرى عندك بعضاً مما علمك الله لكى استرشد وأهتدى بعلمك ؟!

رابعاً : وفى الآيات درس للمعلم ـ أيضاً ـ بأن يتفق هو وطالب العلم على خطة الدراسة بحيث تحقق أكبر قدر من الفائدة ، ويبدو الخضر ـ عليه السلام ـ معلماً واسع الصدر لا يضيق بهفوات الطالب ونسيانه .

خامساً : أحياناً يكون القدر فى ظاهره مدهشاً يبعث التساؤل : فالسفينة التى خربت لمساكين لو كانت لأغنياء ؛ لكان الأمر أهون ، والغلام القتيل أبواه مؤمنان ، ولو كانا كافرين أو فاسقين لكان وقع الحادثة أهون . والجدار تحته كنز، والعبد الصالح يبنيه وهو جائع ؛ ولهذا كان وقع الفعل على موسى ـ عليه السلام ـ مثيراً حقاً .

سادساً : وفى الآيات درس فى الحياء ، فقد استحيا موسى ـ عليه السلام ـ حين تكرر منه الإخلال بالشرط ، وفرض على نفسه عقوبة لم يفرضها عليه العبد الصالح وهى أن حرم نفسه من الرفقة المفيدة مختاراً .

سابعاً : وفى الآيات ذكاء عجيب تمثل فى المعلم وطالب العلم يتمثل فى استعمال كلمة واحدة فهم مغزاها فهماً جيداً كل من المعلم والطالب وهى كلمة **﴿لك﴾** فحين نسى موسى أول مرة قال له الخضر : **﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾** ولما أخل بالشرط فى المرة الثانية قال الخضر لموسى : **﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾** وكانت كلمة **﴿لَّكَ﴾** هى ذلك اللوم البليغ الناعم استعمله الخضر وفهمه موسى ، فيا له من معلم يتقن وزن الكلام ومن طالب يفهم دقة المعاريض !!

ثامناً : الخضر فى أصح الأقوال نبى ولا تعنى القصة أنه أعلم من موسى ، لكنه يعلم أشياء من الغيب العلم اللدنى لم تصل إلى علم موسى ، بيد أن

علم موسى ـ عليه السلام ـ بشريعة الله وكتابه هو علم نبى مرسل من أولى العزم ؛ لأنه كليم الله وعليه أنزلت التوراة وهو شيخ أنبياء بنى إسرائيل ولا يمكن أن يكون الخضر أقل من نبى ؛ لأن الله ـ جل جلاله ـ لا يمكن أن يجعل لموسى معلماً أقل من نبى ، ويكفى أن الله أطلعه على شىء من الغيب .

قصة ذى القرنين

القصة الرابعة والأخيرة من قصص سورة الكهف هى قصة بطلها إنسان مؤمن صالح اسمه ذو القرنين ، وقد استغرقت من السورة ست عشرة آية ، من قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٣] إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف : ٩٨] وسوف ألخص القصة كما وردت فى كتب التفسير ، ثم أتبعها ـ إن شاء الله ـ بتعليق حول الألفاظ والمعانى :

كان فى الزمن الخالى ملك صالح عادل يقال له : الإسكندر ، ولقبه : ذو القرنين ؛ لأنه ملك الشرق والمغرب ، ويبدو أن الرجل كان من الدعاة إلى الله ، فأراد أن ينشر الدعوة فى المناطق النائية ، فتوجه صوب الغرب ، وظل فى رحلة فتوحاته حتى بلغ أقصى الغرب ، فقصد إلى المكان الذى رأى الشمس تغرب فيه كما أبصرها بعينه وإذا هو عين ساخنة يقيم من حولها قوم كتب الله له النصر عليهم وأطلق يده فيهم أن يفعل كما يشاء ، فقال الإسكندر : بل ياربى أعاملهم بأعمالهم فأعاقب الظالم قبل أن يعاقبه ربه ، وأما المؤمن الذى يعمل الصالح فسوف أرفق به وألين له القول وأحسن إليه . ثم أتبع سبباً ، أى : استأنف سيره صوب المشرق حتى بلغ أقصى المشرق ، فوجد فى المكان الذى كان يرى الشمس تشرق منه قوماً عراة لا يسترهم من الشمس لباس ولا جدار ، ويبدو أنه هداهم بإذن الله فاهتدوا ، وأتبع سببه ، أى : سيره فى طريقه نحو بلاد الصين حتى بلغ بين السدين ، فوجد هناك قوماً يصعب فهم لغتهم ، فهم لا يكادون يفقهون أى لغة ، لكن مترجمه بذل جهداً ففهم منهم أن قوماً ذوى

عدد هائل يقال لهم : يأجوج ومأجوج ، وهم قوم من الهمج المفسدين فى الأرض ، وأنهم يهاجمون منطقة ما بين السدين ، ويروعون الآمنين ؛ ولهذا عرضوا على ذى القرنين أن يدفعو له خراجاً وضرائب ليبنى سداً عالياً بينهم وبين تلك القبائل المتوحشة ، فقال لهم الإسكندر : إن النقود وحدها لا تكفى، بل لابد أن يعاون الشعب الدولة بكل قوته ، إذ الدولة وحدها لا تستطيع أن تقوم بمثل هذا المشروع الضخم إلا بتعاون الشعب كله بكل قوته ، وفى الحال تجاوبوا معه فأتوا بكتل ضخمة من الحديد ، وبناها بين السدين الطبيعيين وكانا جبلين عاليين هائلين ، فأخذ ينى كتل الحديد يبن الجبلين حتى ساوى بين الجبلين، حيث وصل السد إلى قمة الجبلين فى ارتفاعه وكان عرضه بعرض الجبلين ، وهنا أمرهم أن ينفخوا على الحديد حتى احمر وأصبح ناراً ، وكان القوم قد صهروا كمية هائلة من النحاس والرصاص والحديد ، فسكبوها على الحديد المحمى فتماسك الجدار بطريقة هائلة وأصبح ردماً ، أى : حاجزاً عظيماً لم تستطع قبائل يأجوج ومأجوج أن تتجاوزه لعلوه ونعومته ولا استطاعوا أن ينقبوه لسمكه الهائل. وهنا أراد الإسكندر أن يبين للقوم أن أى قوة فى الدنيا مهما كانت منيعة ليست شيئاً إذا قيست إلى قوة الله فقال لهم : إن هذا السد الهائل هو رحمة سيقت لكم من الله وإذا صدر أمر الله بدماره فى مقدمة القيامة فإنه يدكه حطاماً ، ووعد الله كائن لا محالة ، وهذا السد سيدمر هو وكل ما على الدنيا لا محالة .

هذه هى القصة فى إيجاز وهذه بعض إشارات بلاغية ومعنوية وردت فى الآيات الكريمة :

أولاً : اختلف المفسرون فى من هو الإسكندر ؟ فذهب بعضهم إلى أنه الإسكندر اليونانى المقدونى الذى احتل الدولة الرومانية وبلاد الشرق ، ثم

استقر ملكه فبنى مدينة الإسكندرية وخلف حضارة كبيرة عريضة . وقال بعض المفسرين : إنه كان من بعض تبابعة اليمن وكانت أسماؤهم تبدأ بكلمة ذو ، ويبدو أن الرأى الأول هو الأصح وما قيل من أن الإسكندر كان وثنياً طاغية هو تخليط ؛ لأن الإسكندر عرف بالحكمة صغيراً وتتلميذ على أشهر علماء عصره، وروت كتب العرب نتفاً من مواقف حكمته وعدله ، ومعنى قوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ معناه : لقد ثبتنا سلطانه فى الأرض ، وفتحنا له من لدنا جميع الطرق ، وهيأنا له جميع الأسباب التى تشد ملكه . ومعنى قوله : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ [الكهف : ٩٨] : أنه تابع طريقة متنقلاً وراء الفتوحات لنشر الدعوة .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٣] جملة من أساليب التشويق تشد الانتباه ، كقولك لصديقك : سأحدثك ما كان من أمر أخيك ، فتشد بهذا انتباهه .

ثالثاً : مطلع الشمس هو المكان الذين كان يراها تطلع منه بالعين ، وكذلك مغربها ، وقد بدأ بالمغرب قبل المشرق ؛ لأن رحلة الإسكندر بدأت فعلاً إلى الغرب حيث بلغ شبه جزيزة إيسلاندا وهي بلاد تنبع فيها عيون حارة كثيرة ، ومن الممكن أن يكون هذا معنى ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ .

رابعاً : يأجوج ومأجوج كما ورد ذكرهم فى القرآن الكريم هم أقوام يسكنون وراء سد الصين وسيفتحون على الناس فى مقدمة الساعة ، فيحدثون فى الأرض تخريباً عظيماً ، ومن الجائز أن يكون يأجوج ومأجوج هم سكان الصين الشعبية وهم الآن أكثر من ألف مليون من البشر ، وإذا مر عليهم بعض الوقت فقد يصل عددهم إلى ثلاثة آلاف مليون ، وهؤلاء إذا قامت

حرب أو أصابتهم سنون واندفعوا خارج بلادهم فمن الممكن أن يكونوا دماراً لا يبقى ولا يذر . ويقول الله تعالى في سورة الأنبياء يذكر أشراط الساعة : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[الأنبياء : ٩٦] وقد روت عنهم كتب التفسير أشياء عجيبة تشبه الخرافات ، ولكن القرآن الكريم لم يذكر إلا أنهم قوم مفسدون فى الأرض ، وأنهم كانوا يحاولون تسلق السد أو نقبه فلا يستطيعون ، والحق أن القرآن الكريم لا يدخل أثناء القصص في التفصيلات ولا فى تحليل الأشخاص فيقول مثلاً : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٩] ولم يفصل من هم ولا ما أسماؤهم ولا بلدهم . وقال مثلاً : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف : ١٢] ولم يذكر اسميهما ولا بلديهما ، لكن المفسرين ذكروا أسماء أصحاب الكهف وبلدهم واسم الملك الذى كان يحكم قريتهم كما ذكروا اسمى الرجلين المذكورين فى سورة الكهف وقبيلتهما وكم عاشا، والحق أن التزام اللفظ القرآنى والمنهج القرآنى هو الأفضل؛ إذ العبرة بأحداث القصة ومغزاها لا بتفصيلات لا فائدة من ذكرها .

خامساً : يبدو أن سكان ما بين السدين كانوا مستنيرين وذوى ذوق ؛ لأن القرآن لم يذكر عنهم إلا أنهم كانوا يكرهون الفساد ، وكل همهم أن يتخلصوا من بلاء يأجوج ومأجوج ، وفى سؤالهم للإسكندر يتجلى أسلوب ذوقى: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف : ٩٤]ولما طلب منهم الإسكندر أن يعينوه بقوة استجابوا فأحضروا كتل الحديد ، وكانوا هم الذين ينفخون النار ليلتحم الحديد المبنى بعضه

ببعض كما أحضروا النحاس المذاب لذلك الردم العظيم ، والفرق بين السد والردم : أن الردم هو أن يعمد إلى ثغرة هائلة بين جبلين فتملأها بحيث يكون أعلى الردم على مستوى الجبلين . أما السد فهو أن تبنى من الحجارة الضخمة ما يحجز ماء أو يفصل بين مكانين .

سادساً : يتجلى فى القصة أن الإسكندر كان عمرانياً عظيماً ، فقد بنى الردم العظيم من الحديد ، ونفخ على الحديد حتى جعله كالنار محمراً ، ثم أفرغ عليه ذوب النحاس أو الرصاص ، كما يبدو الشعب فى بلاد ما بين السدين متعاوناً مع الحاكم ؛ ولهذا كانت نتيجة التعاون بين الحكومة والشعب عظيمة حقاً ؛ إذ مثل السد قائماً قوياً فما استطاع المفسدون أن يقفزوا من فوقه ولا استطاعوا أن ينقبوه، ولم ينسب الإسكندر إلى نفسه أى فضل فى إقامة السد بل قال لهم : هذا من فضل الله ورحمته والله ـ جل جلاله ـ قادر أن يجعله دكاً حين يحين وعده ، وبهذا يبدو الإسكندر ملكاً موهوباً جديراً أن يقتدى به الرجال.

الأخسرون أعمالا

إذا كان يوم القيامة رأى الناس فى ساحتها قوماً كانوا فى الحياة الدنيا ذوى نفوذ وحضور اجتماعى مهم ، وقد يكون من بعضهم متعلمون وذوو يسار وإمكانيات ، يراهم الناس أحقر الناس وأذلهم حتى إنه لا قيمة لهم عند الله ولا يقيم الله لهم وزناً . وقد يستجيب الله فينظر إلى ألوان شتى من العصاة ، لكن هؤلاء لا ينظر إليهم ولا يكلمهم بل يعدهم من سقط المتاع فيتساءل الناس : من هؤلاء؟ فيعلمون أنهم أناس كانوا فى الحياة الدنيا عصاة ضالين ، لكنهم معجبون بالمعاصى يعدونها لوناً من التقدم والتحضر وعلائم الفهم والرقى الفكرى، كان القاسم المشترك بينهم أن مجالسهم شيطانية ، وأن إيمانهم بلقاء الله وحسابه وجزائه ضئيل أو معدوم ، وأنهم يعدون أنفسهم أهل الريادة والفهم، وأنهم إذا رأوا أهل الدين احتقروهم وعدوهم ذوى رجعية وتأخر فى الفكر والطموحات ! وعلى الجملة فقد كانوا يلتذون بالمعاصى ولا تلومهم أنفسهم عليها ، كأنما أشربوا محبتها فى قلوبهم، إذا رأوا من لا يشرب الخمر ولا يكشف عورات بناته ونسائه ولا يشارك فى مجالس الاختلاط والرقص سخروا منه وتغامزوا عليه ! ونظروا إليه فى استعلاء كأنهم هم المهتدون وكأنه هو الضال المذنب !

أعرف جماعة من هؤلاء زاروا بعض معارفهم ، فلما وجدوا أن له مجلسين: أحدهما للرجال وآخر للنساء ، غضبوا واتهموا صاحبهم بالتزمت ، ومنهم من اتهمه بالنفاق ، والمهم أنهم لم يعودوا إلى ذلك البيت النظيف المحافظ الملتزم بأدب الإسلام وبحثوا لهم عن البيئات المنفلتة من عقال الحياء ، المتمردة على آداب الصالحين وأحكام الدين . هؤلاء الأصناف الغارقون فى الضلالة يرمون غيرهم بالضلالة ويحسبون أنهم مهتدون . شتان ما بين هؤلاء وبين من يعصى ربه وهو باخع بالذنب نادم عليه معترف أن نفسه الأمارة هى التى أوقعته فى

الإثم ، مثل هذا ينظر الله إليه يوم القيامة ؛ لأنه عصى ربه وهو خجل منه خائف من عقابه ، أما أولئك فقد عصوا الله وهم معجبون بجرائمهم ، محتقرون لصلاح غيرهم واستقامته على طريقة الفضائل .

لقد قرأت أربع آيات من أواخر سورة الكهف تصف أمر هؤلاء الأدعياء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦] .

هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض إشاراتها المفيدة :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ [الكهف : ١٠٣] استفهام بلاغى للتشويق كقولك لجلسائك : هل أخبركم بخبر المرأة التى تحولت رجلاً ؟! إنه سؤال غرضه لفت الأنظار وشد الانتباه ، وقد تكرر استفهام التشويق فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف : ١٠] وكقوله جل ثناؤه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ [النازعات : ١٥] وكقوله تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ [الشعراء : ٢٢١] ومثل هذه الأسئلة تفعل فعل السحر فى جذب الانتباه وتكثر فى أسلوب المعلمين والمربين .

ثانياً : في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ فى كلمة ﴿ سَعْيُهُمْ ﴾ مجاز إذ السعى نفسه لم يضل ولكن الذى ضل هو صاحب السعى ، وهنالك مقابلة فيها تجميل للكلام وفيها تهكم على أولئك الأخسرين ، وذلك بين قوله تعالى

﴿الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وقد استحقوا التهكم ؛ لأنهم حقراء ومستكبرون معاً ؛ وأنهم ضلال وهم يرون أنفسهم رواد الركب والهداة !

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ يشير إلى أن عدم الإيمان باليوم الآخر يحبط العمل ؛ لأن من لا يؤمن بالبعث والجزاء يفقد ضوابطه السلوكية، فيقدم على معاصى الله فى جرأة ووقاحة لاعتقاده بأنه لا حساب ولا جزاء ولا بعث ، ولقد أتاحت لى فرص مخالطة بعض الشيوعيين العرب الذين لا يؤمنون بالبعث فوجدت فيهم جرأة على المعاصى وانفلاتاً من عقال الحياء ، واطمئناناً نفسيا للفواحش ، وسبب كل هذا أن المذهب الشيوعى يقوم على أن الدين والبعث والنشور والحساب والجزاء كل هذه أفيون الشعوب وهى أمور من خرافات القرون الأولى كأنما نزل فيهم قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين ﴾[الإنعام : ٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ كناية عن إهمال الشيء وعدم الاكتراث به ، فإذا قال لك قائل : هذا كلام له وزنه، معناه : أنه كلام يستأهل أن يوزن بالذهب أو الجواهر، وإذا قيل : هذا رجل لا يقام له وزن ، فمعناه : أنه لا يستحق أن يشترى بأى ثمن . وقد كان الناس فى الماضى إذا اشتروا سلعة وزنوا ثمنها ، أى : من ذهب أو فضة، أما الآن فقد سدت النقود مسد الوزن . والحق أن التعبير القرآنى فى وصف أولئك المستكبرين الحقراء والمختالين الرخصاء هو وصف فى غاية المناسبة لعملهم ، لقد كانوا فى الدنيا يحسبون أنهم ذوو وزن وأهمية، وذوو فكر ورأى ، مع أنهم كالطفيليات السامة على سرحة المجتمع الزكية، فلا غرو أن يكون جزاؤهم فى الآخرة ألا يقام لهم وزن ، وألا يعاروا أى اهتمام وأن يظهروا فى الناس أنهم

كالنفايات المهملة التى لا تستحق إلا أن يتخلص منها .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ إشارة إلى أن من أهم دلائل الكفر الاستهزاء بآيات الله ورسله أو بأوليائه وأهل طاعته ، وهنا لابد من إشارة مفيدة يحسن بالشباب أن ينتبهوا إليها؛ لأنها خطيرة ، ربما تعد ارتداداً عن الإسلام والعياذ بالله وهى أن كثيراً من الشباب فى مجالسهم ربما يوردون نكتة قد تمس الدين ، أو القرآن أو أهل الدين يوردونها بقصد الفكاهة والضحك . إن مثل الأمر خطير جداً ، وقد جاء فى القرآن الكريم ما يوحى أنه ارتداد والعياذ بالله، فقد جاء فى كتب السنة : أن جماعة من المنافقين ضمهم مجلس وهم فى غزوة تبوك ، فتهكموا على جلساء رسول الله ﷺ من الحفظة والقراء وقال أحدهم : ما رأينا أرغب بطوناً عند الطعام ولا أجبن منهم عند اللقاء ، فسمعهم أحد المؤمنين وأنذرهم أنه سيخبر رسول الله ﷺ بما قالوا ، فلما علم النبى ﷺ بما قالوا ؛ أقبلوا عليه يعتذرون ويقولون : يارسول الله لم نكن جادين ، وإنما كنا نخوض ونلعب والرسول ﷺ لا يلتفت إليهم من الغضب ، وفيهم والله أعلم نزل قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٥ ـ ٦٦] ، ومن هنا فإن أى نكته يرسلها صاحبها للضحك لا يجوز أن يذكر فى أثنائها آية من القرآن الكريم أو إشارة من سلوك الأنبياء والصحابة والسلف الصالحين ؛ لأن مثل هذه النكت قد تقود والعياذ بالله إلى فقدان المرء دينه . نسأل الله ألا يجعل مصيبتنا فى ديننا، وأن يزيدنا بالقرآن إيماناً، ولله ولرسوله تعظيماً وإجلالاً .

بين يدى سورة مريم

سورة مريم سورة مطربة معجبة يطرب لها ويفهمها العامة والخاصة ، وأذكر أنه كان لنا جار نصرانى إذا جاء لزيارتى قال : أسمعنا سورة مريم ، فإذا بدأ يستمع إليها أخذ يبكى ، فأقول فى نفسى : عسى أن يكون الرجل ممن عناهم الله جل جلاله بقوله فى سورة المائدة يذكر بعض النصارى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٣] وكنت فى صغرى أطرب لهذه السورة ، وأقول لأحد القراء إذا قابلته : اقرأ علينا عشراً من سورة مريم ، والحق أن سورة مريم فى نصفها الأول وحتى نهاية آية السجدة المذكورة فيها سهلة الألفاظ عذبتها ، تفيض ألفاظها بالإيحاء الهادئ اللذيذ ، كأنها السلسل العذب على المهجة الظمأى ، وبخاصة فى فواصلها الجميلات مثل زكريا ، خفيا ، شقيا ، وليا ، رضيا ، يحيى ، سميا ، تقيا ، يبعث حيا ، والياء المشددة المنونة تنوين فتح تتيح للقارئ أن يرتلها بلحن مؤثر حقاً .

والعجيب أن سورة مريم تنقلب فى نصفها الثانى كالعواصف الثائرة ، والصواعق الهادرة فلا تكاد تنهض من سجود تلاوتك مع الذين أنعم الله عليهم بعد قوله تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم : ٥٨] حتى ينقلب الجو من اللحن المطرب المعجب إلى زئير صاعق عنيف : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] ، وينطلق الأسلوب فى الهدير حتى يبلغ القمة حين يذكر الشرك الوقح فى العاص بن أمية السهمى وهو يقول لخباب مستهزئا بالبعث : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم : ٧٧] ويكاد الأسلوب

يتفجر حين يتعرض لكـذب النصـارى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٩٦] والسبب فى هذا التنوع العجيب فى الأسلوب : أن النصف الأول من السورة عرض لسيرة الصفوة الممتازة من بنى آدم أولئك الذين شرفوا البشرية بسيرتهم وتضحياتهم وعطروا الدنيا بنوافح إيمانهم ، فقد ذكر فى النصف الأول زكريا ، ويحيى ، ومريم ، وعيسى ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون، وإسماعيل وإدريس ، وتوج ذكرهم بمديح مشرف ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم : ٥٨] أما النصف الثانى من السورة فموضوعه ذلك الخلف الذى خلف من بعد الأبرار فما رعوا أمانة الكتاب ، ولا حفظوا تعاليم النبوات ، بل لقد أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، وإذن فالأسلوب العذب الرقيق المبكى واكب النصف الأول من السورة ؛ ليناسب أنوار النبوة وأخلاقها وتضحياتها ، بينما واكب النصف الثانى أسلوب مخيف ليناسب فظاعة الكفر وبلادته وعربدته من غير ما سلطان ولا عقل ولا منطق .

إن بداية سورة مريم تفتح أمام الأبرار أبواب الرجاء والأمل فى وجه الله الكريم ، حتى ولو بدا الأمر فى نظر العباد مستحيلاً . إن الذى خلق عيسى بكلمة منه هى كلمة كن والذى رزق أم عيسى فى عزلتها فواكه الصيف فى الشتاء وفواكه الشتاء فى الصيف ، والذى رزق زكريا ابنه يحيى ـ عليهما السلام ـ فى سن لايرجى معه حمل ولا ولادة كان زكريا فى المائة والعشرين عاماً من عمره وكانت زوجته فى الثامنة والتسعين من عمرها حين رزقا يحيى ـ عليه السلام ـ إن الذى فعل هذا كله يرزق من يشاء بغير حساب ، وإذن

فعلى العبد أن يعظم إلى ربه الرغبة ؛ لأن كرمه لا يتعاظمه شيء ، لكن هنالك شيئاً لابد من ملاحظته إذا أريد للدعاء أن يستجاب ، وهو أن يكون هدف الداعى رضاء الله - جل جلاله - دون نظر إلى المصالح الفانية ، فزكريا عليه الصلاة والسلام يطلب من الله فى دعائه أن يحفظ تراث النبوة فى ذريته ، وأن يرزقه ولياً يرث النبوة وينشرها . لقد كان زكريا عليه السلام يعلم أن يحيى سيكون حصوراً ، أى : غير ذى إربة فى النساء ولن يكون ليحيى عقب ، لكن ذلك لم يكن مهماً عند زكريا ، فحسب يحيى أنه سيعين ابن خالته عيسى فى الرسالة ، وحسبه أنه يكون من وراء عيسى مؤيدا لدعوة الحق يفتديها بدمه ، ويحيى هو الذى يسميه النصارى فى كتبهم (يوحنا المعمدان) ويصفونه بأنه بذل عمره فى خدمة دين الله ورسالة المسيح . ولنستمع إلى دعوة زكريا المستجابة ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم : ٤ - ٦] .

إن لهجة الدعاء الصادقة تنبض بمرضاة الله ولا تلتفت إلى الحطام ، وهذا ما كان أيضا من امرأة عمران والدة مريم حين نذرت ما فى بطنها لله ، وتوجهت بدعاء لا يهتم أبداً بالحطام ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] إلى أن قالت : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران : ٣٦] هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام وهى أن يسمو المؤمن بدعائه عن طلب العرض الأدنى والحطام الفانى ، وألا يسأل بوجه الله إلا رضاه والجنة ، وإجمالاً فسورة مريم سورة عظيمة الأسرار افتتحها ربنا بذكر رحمته واختتمها بذكر انتقامه وغضبه ، وفى أثنائها تخفق قلوب المؤمنين بالرجاء تارة وبالخوف تارة أخرى . اللهم إنا نسألك بوجهك الكريم رضاك والجنة ، ونعوذ بك من غضبك والنار .

صدق الداعي وحضور قلبه
أدعى للإجابة

إني مورد في هذه الحلقة قصة نبي الله زكريا وابنه يحيى ـ عليهما السلام ـ وهي قصة دارت أحداثها في بيوت طيبة طاهرة ، اصطفى الله أهلها على العالمين ، وجعلهم بإذنه هداة مهتدين ، ويبدو أن آل عمران وآل زكريا كانوا أقارب ، وجميعهم من ذرية سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ كان زكريا ـ عليه السلام ـ متزوجاً من امرأة صالحة هي أخت امرأة عمران ، وخالة مريم أم عيسى، وبذلك يكون يحيى وعيسى ابني خالة ، وقد ولد زكريا ـ عليه السلام ـ في مدينة بيت لحم بجوار مدينة القدس ، ولما ولدت مريم ـ رضي الله عنها ـ سلمتها أمها إلى الأحبار ليشرفوا على تربيتها ، فأجروا بينهم قرعة أيهم يكفل مريم فكانت القرعة من نصيب زكريا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وهو زوج خالتها ، فربيت مريم في بيت زكريا ـ وفي حضن خالتها أم يحيى ، ومع أن زكريا عليه السلام ـ كان غنياً ، وكان من أوسط بني إسرائيل نسباً إلا أنه فضل أن يأكل من كسب يده ، فكان نجاراً ماهراً يأكل من عرق جبينه .

وكان زكريا يدخل المحراب على مريم ، والمحراب معناه : المقصورة النظيفة تخصص للصلاة ، فيجد عندها فواكه الصيف في الشتاء ، وفواكه الشتاء في الصيف ، هنالك علم أن الله ـ جل جلاله ـ إذا أراد أن يرزق عبداً صالحاً رزقه بغير حساب ، وأن كلمة ﴿كن﴾ من الله ـ تعالى ـ تطوى الزمان والمكان وسنن الخليقة . هنالك تذكر زكريا خالته ، فتوجه إلى ربه بدعاء خالص أن يرزقه ولداً على كبره وعقم زوجته كما رزق مريم فواكه من غير شجر حولها وفي غير أوانها .

كان زكريا إذ ذاك فى المائة والعشرين من عمره ، وكانت زوجته فى الثامنة والتسعين من عمرها وكانت عاقراً لم تنجب ، وكان زكريا يحبها ويعتز بها وقد ضن بها أن يتزوج عليها ؛ لأنها من بيت كريم وعلى خلق ربانى عظيم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣٤] كان زكريا عليه السلام يعرف أن المحيطين به كانوا ممن اتخذوا الدين تجارة ووسيلة للكسب ، وأنه إذا مات بدون وارث ، فإن هؤلاء من تجار الدين سوف يتولون ميراث النبوة ويفسدون في الأرض ؛ ومن أجل هذا دعا زكريا ربه قائلا : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم : ٥ ـ ٦] ، وقد أنعم الله على زكريا بابنه الذى سماه الله يحيى بشارة منه لزكريا بأن ابنه سيعيش ويحيا بإذن الله ، وكان يحيى عليه السلام سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ، وكلمة ﴿حَصُورًا﴾ تعنى أنه كان لا يقرب النساء ، متفرغاً للعبادة محروساً بقدرة الله من الشهوة التى تورد الرجال موارد الهلكة .

ومعنى هذا أن مهمة يحيى عليه السلام هى أن يؤيد ابن خالته عيسى ، ويؤمن به ويعزره وينصره ، ثم يموت بعد ذلك دون أن يعقب نسلاً ، وما كان يهم زكريا عليه السلام أن يعقب وحيده نسلاً ، إنما كان كل همه أن يرث النبوة ويخدمها ويكون اليد اليمنى لروح الله عيسى عليه السلام ، كان يحيى فى سن عيسى عليهما السلام أو أكبر منه بستة أشهر فشمر عن ساعد الشباب يخدم الرسالة السماوية ، ويرسى مع ابن خالته عيسى قوعد الإيمان والتوحيد ، ويلقى فى سبيل الله من الأذى مثل ما لقى ابن خالته المسيح ، وقد كان رسول الله ﷺ يشيد بيحيى وعفافه وطهره فيقول « كل نبى يلقى الله وقد هم بإثم وإن لم يفعله إلا نبى الله يحيى بن زكريا ، فإنه يلقى الله وما هم بإثم ، لقد كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين » .

ولقد قدم آل زكريا من التضحيات ما لا يطيقه إلا النفوس الربانية العظيمة ، فقد قتل يحيى بمكيدة من امرأة وبسبب صلابته فى الحق . روى أن ملكاً فى أيامه كان متزوجاً من امرأة تسيطر عليه ، وكانت لها ابنة فأرادت أن تزوجها لزوجها الملك ليزداد نفوذها فقال لها الملك : نستشير نبى الله يحيى واستشاره فعلاً ، فرفض أن يفتى بذلك ؛ لأنه زواج محرم ، والمهم أن المرأة أكملت مؤامرتها بأن أسكرت زوجها وأدنت منه ابنتها وهو لا يعى وطلبت أن يكون مهر ابنتها رأس يحيى عليه السلام فوافق تحت وطأة الخمر والغريزة ، وقتل يحيى عليه السلام ، وفى هذا روى أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لو كانت الدنيا تساوى عند الله شيئاً لما قتل نبى الله يحيى بتدبير امرأة » . لقد قتل يحيى فلما علم زكريا بذلك خاف أن ينزل العذاب على القوم ، فلجأ إلى مكان منعزل فيه أشجار ، وهناك لحقه اليهود قتلة الأنبياء فقتلوه ليلحق بركب الشهداء ، ولتضرب على اليهود لعنة الله إلى يوم القيامة بكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء.

وقد احتلت قصة زكريا ويحيى من سورة مريم أربع عشرة آية ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ [مريم : ٢] وهذه الآية هى عنوان القصة وكلمة ﴿ذكر﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، ويبدو فى الآيات أدب الدعاء متمثلاً فى زكريا إذ شرح حاله وضعفه وعدم وجود المعين من ذريته ، ولكنه أكد بأنه لن يشقى مادام يقصد رباً كريماً ويدعو ملكاً قادراً عظيما ، وفى الحال استجاب الله دعاء زكريا وبشره بيحيى وأضفى على يحيى من صفات القبول شيئاً عظيماً فى قوله : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٧] ؛ لأنه أول من سمى بهذا الاسم الذى يبعث التفاؤل وأنه سيكون قوياً فى نشر كتاب الله وسيؤتى الحكمة صبياً ، ومع الحكمة سيكون ذا حنان وطهارة وبر بالوالدين ، وحسبه شرفاً أن شمله ربه بتحياته على جميع أحواله ومراحل عمره ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم : ١٥].

جواب مفحم لمنكرى البعث

هذه آيات كريمات من سورة مريم فيها جواب مسكت لمنكرى البعث ، وفيها غضبة هائلة عليهم ؛ لأنهم يستكثرون على قدرة الله وإبداعه أن يعيد الإنسان بعد فناء جسمه مع أنه هو الذى أنشأه النشأة الأولى فطرة على غير نموذج أو مثال .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا * وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٦٦ ـ ٧٢] .

أولاً : هذه الآيات تتميز بأسلوب جزل قوى كأنه قصف الصواعق ؛ وذلك لأنها رد على منكرى البعث الذين يتغاضون عن أصل خلقتهم ويضربوا لله الأمثال ، وقد جاء فى مناسبة الآيات : أن بعض كفار قريش عثروا على عظام بالية فطفقوا يذرونها وهم يستهزئون بمحمد قائلين : يزعم محمد أن هذه العظام تحيا بعد إذ هى رميم .

ثانياً : كان الرد الإلهى عليهم خاطفاً وفى غاية من البلاغة ، وهو يعد من أعظم الأجوبة المسكتة ، ويكاد الجواب يكون على قدر السؤال ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ؟؟ ويجىء الجواب : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ . وبهذه الإجابة المسكتة اعتبر الأمر منتهياً واعتبر السؤال لغواً ؛ لأن الذى فطر الإنسان على غير

نموذج قادر على أن يعيده وقد عرف نموذجه وشكله ، والذى أنشأ النشأة الأولى قادر على أن ينشئ النشأة الآخرة ، ولهذا فقد شرع حالاً ينذر منكرى البعث بحشر مؤكد يرون فيه ألواناً من الرعب والعذاب المهين .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ قسم بعزة الله وربوبيته بأن كل كافر سيبعث يوم القيامة ويحشر إلى الله مقرونا بشيطانه الذى كان يضله ويكونون فى الحشر جاثين ، فيعتلون ويلقون فى جهنم جاثين حين يلقى بهم وهم على حالهم .

ثالثاً : فى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ؟ يلاحظ فى هذا الاستفهام ثلاثة أساليب من التوكيد وهو ﴿ ما ﴾ الزائدة بعد إذا واللام المقترنة بسوف ، وكلمة ﴿ حَيًّا ﴾ تعتبر أيضاً إطناباً توكيدياً، والسؤال الوارد فى الآية يفيد الاستبعاد والتعجب ، والغرض من أساليب التوكيد إظهار الدهشة من حدوث البعث . وفى الآية طباق بين كلمة ﴿ مِتُّ ﴾ وكلمتى ﴿ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وقد جمل الطباق العبارة وأكسبها وضوحاً؛ لأن الآية كلها تدور حول الموت بعد الحياة . وفى قوله تعالى : ﴿ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ تعجب لا من الحياة بعد الموت فقط وإنما تعجب أيضاً من الخروج من الأرض والبعث منها .

رابعاً : بعد الجواب المسكت الذى استعمله الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ ؟ أقسم بذاته ـ جل جلاله ـ بأن الكافرين سيبعثون ويحشرون هم وشياطينهم إلى جهنم ، وهناك سوف ينتقى ربك من بين الكفار أشدهم عناداً ومعصية لله ليعطيهم الأولية فى العذاب ؛ لأنه هو أعلم بمن يستحق العذاب ﴿ ثُمَّ

لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ وكلمة ﴿أَيُّهُمْ﴾ اسم موصول مبنى على الضم وقد بنيت « أى » ؛ لأنها أضيفت وحذف صدر صلتها .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ هاتان الآيتان حصل حولهما جدل بين أشياخنا ؛ لأنهما تعلنان أن كل إنسان من خلق الله لابد أن يمر على جهنم ويردها وقالوا : كيف نوفق بين مضمون هذه الآية وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ؟ والحق أنه لا اختلاف بين الآيتين ، فورود الماء لا يعنى شربه والخوض فيه ، ورب وارد لا يسقى ولا يستقى، وإذا كان جميع الخلائق يردون جهنم ، فهذا يعنى أنهم يرونها ويطلعون عليها ، ثم تأتى قدرة الله ـ جل جلاله ـ وقدرة الحكيم ، فينجى من النار كل تقى مؤمن ، ويأمرها أن يكون لفحها برداً وسلاماً على كل مؤمن ، وأما الظالمون المشركون فتتزلزل أقدامهم حين يرونها ويقتربون منها فيقعون فيها ويمكثون جثياً على ركبهم إلى ما شاء الله . وفى تكرار كلمة ﴿الإنسان﴾ إشارة بليغة إلى الإنسان المنكر للبعث وهو نفسه الذى خلق ولم يكن شيئاً مذكوراً . ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ ﴾ ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ ﴾ وكلمة ﴿ إن ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ معناه : (ما) النافية والتقدير وما من إنسان منكم إلا سيرد جهنم ويطل عليها ويراها ، وفى العبارة توكيد بالقصر وأن وعد الله مفعول ، وأن جميع البشر سيعرضون على جهنم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

نسأل الله أن يجعل النار علينا برداً وسلاماً ، وأن ينجينا من حرها ويبعدنا عنها ، وأن يحول بيننا وبين النار بأعمال صالحة مخلصة لوجهه الكريم .

آيات تنعى على أهل المظاهر
قصر أنظارهم

كثير من الناس تأخذهم المظاهر فتخدعهم عن الحقائق . كثيرون أولئك السطحيون الذين لا يتجاوز إدراكهم موقع أقدامهم ، فيعيشون فى زخم الصور والأجسام والأشكال ، غافلين عن الحقائق والقلوب والأعمال ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وهنا آيات من سورة مريم تنعى على أهل المظاهر قصر أنظارهم وتشدهم بقوة نحو آفاق الحقائق الساطعة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا * قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا * أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم : ٧٣ ـ ٨٠] .

أقول وأسأل الله أن يجعلنا وإياكم وإخواننا المسلمين من أهل الحقائق الصادقة ، والأعمال المخلصة وأن يجنبنا خدع المظاهر وزيف الصور :

أولاً : الآيتان الأوليان هما سؤال متغطرس من المشركين تليه إجابة مسكتة من رب العالمين : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ

أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ .كان أصحاب رسول الله ﷺ يعانون الكثير من الفقر والحرمان ، بينمـا كان الكثيرون من المشركين يرجلون شعورهم ، ويلبسون أجمل ثياب ، ويفرشون نديهم ، أى : مجلسهم الذى يتحدثون فيها بالأثاث الفاخر؛ ولهذا غرس المظاهر أهل الباطل وظنوا أن الغنى والترف والأثاث الفاخر والمجلس المترف هى دلائل على رضا الله عن العبد ، أما الفقر والحرمان فى الدنيا فهما إشارة للضعة وسقوط المنزلة والمروءة ، ومن ثم فقد كان مشركو قريش إذا قرئ عليهم القرآن لا يلتفتون إلى إعجازه الباهر ، وإنما يتحدون أهل الإيمان قائلين : نحن أحسن منكم أثاثاً ومنظراً ، وإذا قمنا للقول أو الحكم ، فنحن خير منكم مقاماً وأعظم احتراما ، وهنا يجىء الجواب المسكت الذى يضع حداً لبهرج المظاهر ويبين سوء منقلب أهلها فيقول : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ ومعناه : أن القرون الأولى التى أهلكناها من قوم عاد وثمود وفرعون وهامان وقارون كل أولئك كان أحسن أثاثاً ومنظراً من قريش، ومع ذلك هلكوا هم ونعيمهم ، ولقوا الله بأعمالهم تاركين وراء ظهورهم ما خولهم من مباهج الحياة الزائلة .

هذه النظرة القاصرة فى الحياة هى التى جعلت فرعون يفضل نفسه على موسى وينظر إلى موسى شزراً ؛ لأن موسى لايلبس أسورة من ذهب ، ولا له موكب من الأتباع والحشم . لقد نظر فرعون إلى الكرامة نظرة قاصرة ، وقاسها بمقياس محدود ، يقول الله تعالى فى سورة الزخرف: ﴿ **ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ [الزخرف : ٥١ ـ ٥٣] .

كثيرون فى هذه الأيام إذا أرادوا أن يحدثوك عن إنسان ومنزلته الاجتماعية أطنبوا فى ذكر دوره وقصوره ، وجناته وحوره ، وفضته وذهبه ، وجاهه ومنصبه ،

وكيف نسقت الحدائق ، وحفت الأزهار بصحن الدار ، وكيف تمت الزخرفة الداخلية أو الديكور بطريقة فنية عجيبة ، وقد شاع الآن فى مجتمعنا الإسلامى حب المظاهر فى حفلات الأفراح وفى تغيير الأثاث والسيارة كل سنة ، وفى إقامة أعياد ميلاد للصغار والكبار ، وقد علمنا أن بعض النساء يلبسن الثوب الغالى مرة واحدة فى مناسبة واحدة ، ثم يرمينه ليستبدلن به غيره ، مع أن ثمن ذلك المرمى قد يصل إلى آلاف كثيرة .
أقول : هذه المظاهر لابد أن يربأ المسلم والمسلمة عنها ؛ لأنها من سلوك القرون الكافرة التى كانت تحتقر الأنبياء وأتباعهم معتدة بالأثاث والمنظر واتساع الندى .

ثانياً : الآيات الباقية كلها تصف أهل التبجح بالمظاهر من قريش،فقد روت كتب التفسير: أن العاص بن وائل السهمى وهو والد عمرو بن العاص كان مغروراً لا يقيم وزناً للآخرة و الجزاء،وكان خباب ـ رضى الله عنه ـ قد صنع له حليا، وذهب إليه ليتقاضى منه حقه فقال له العاص: لا أقضيك حقك حتى تكفر بمحمد ، فقال خباب: لا أكفر بمحمد حتى تموت أنت وتبعث ، فقال له العاص: لقد ذكرتنى بالبعث ، إن صاحبك محمداً يقول: إننى سأبعث بعد الموت ، فإذا حصل هذا وبعثت فلن تكون أنت أغنى منى هناك ، وسيكون لى مال وولد ، وأقضيك حقك، يقول كل هذا فى لهجة وقحة من الاستهزاء والإنكار ، وهنا رد الحق عليه جل جلاله بقوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ومعناه : أن الضال سوف يزين له ضلاله ويمدهم الله فى طغيانهم ليعموا عن الحق، لكنهم حين يرون ما وعدهم الله من هزيمة وقتل فى الدنيا، أو من عذاب الله فى الآخرة، هنالك سيعلمون من هو المغرور ومن الخاسر والضعيف ، وسيرون بأم أعينهم أن الله ـ جل جلاله ـ قد زاد

أهل الهداية هدى وأورثهم أعمالهم الصالحة التى هى خير عند الله وأحسن عاقبة من المال والبهرج والمظهر ، ثم تمضى الآيات تذكر قصه العاص مع خباب وكيف حكم لنفسه بالجاه والمال والولد كأنما اطلع على الغيب أو أخذ على الرحمن عهداً ملزماً أن يدخل الجنة ، وينفى الله كل ذلك ويعلمه أنه سيجزيه على ثرائه وسيميته وسيرث ما عمل ، ويكون مصيره أن يعرض على ربه فرداً حافياً عارياً فى موقف لاينفع فيه إلا الباقيات الصالحات .

خاتمة مباركة لسورة مباركة

هذه هى الآيات الكريمات التى ختم الله بها سورة مريم ، وهى خاتمة مباركة فيها نذير لمن يدعى لله ولداً ، وهم اليهود الذين يزعمون أنهم أبناء الله ، والنصارى الذين يزعمون أن عيسى عليه السلام هو ابن الله وإله معه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا * لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم ٨٥ ـ ٩٨].

أولاً : هذه الآيات يتضح فيها الأسلوب المكى وما فيه من تعبير مخيف جزل الألفاظ قصير الفواصل ، فقد اشتملت الأسطر السبعة على أربع عشرة آية ؛ لأنها فى مجموعها آيات إنذار فجاءت مرهبة حقاً ؛ والآيات تتدفق بغضبة عارمة؛ لأن نسبة الولد إلى الله افتراء وقح عليه ـ جل جلاله ـ ، وهو كما وصفه ربنا ـ عز وجل ـ شىء إدٌّ أى : منكر فظيع ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ . إن الذى ينسب لله ولداً قد جهل منزلة ربه ، وما قدر الله حق قدره ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا *

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ وإذن فلا علاقة بين العباد وربهم إلا علاقة العبودية ، وعلى قدر إخلاص هذه العبودية للرب ـ جل جلاله ـ تكون الكرامة والثواب وقدم الصدق وحسن المنقلب .

ثانياً : من أجمل الصور البلاغية المتقابلة قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ الحشر معناه : الجمع، وتأمل صورة المتقين وهم يجمعون إلى ربهم على هيئة وفد محترم ، والوفد مجموعة من الناس لهم سمت وهيئة ونظام ولباس نظيف، ثم انظر فى المقابل جموع المجرمين تساق سوقاً كأنها البهائم العطشى مسوقة إلى الماء ، شتان ما بين وفد الأبرار من أهل التوحيد والطاعة ، وقطيع البهائم من أهل الكفر والمعصية ، وما أجمل الكلمات المتقابلة ﴿ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ الحشر فى مقابلة السوق ، والمتقين فى مقابلة المجرمين ، وذكر الرحمن من أسماء الله ليبين جو الرحمة التى تظلل المؤمنين وهم وافدون على رب رحيم ، وفى مقابلة رحمة الله جاءت كلمة ﴿جهنم﴾ لتكمل صورة الرعب ، وفى مقابلة الوفد المحترم تجىء كلمة الورد ، ومعناها القطيع الوارد على الماء . روى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قرأ هاتين الأيتين : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ فقال : ويح نفسى وما يدرينى أن أكون مع ورد المجرمين ! ولم يزل يتأملها حتى عاد إلى بيته مريضاً يعوده الصحابة .

ثالثاً : فى قوله تعالى : ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ أصح الأقوال فى تفسير العهد الذى بين العبد وربه والذى به يرجو العبد الشفاعة : أنه توحيد الله ، فكل من وحد الله رجيت له الشفاعة والجنة

وفى الآخرة تكون الشفاعة لله جميعاً ، لكنه يتفضل بها على المصطفين الأخيار من رسله وأوليائه وهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى ، ومع أنهم أكرموا بالشفاعة تراهم من خشية ربهم مشفقين لما يعرفون من أسرار عظمته وملكوته ﴿ **يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا** ﴾ وهم أهل التوحيد نعم ! لا شفاعة يوم القيامة إلا بإذن الله ، فمن الحماقة أن يلتمس العبد الشفاعة من عبد مادام الله ـ جل جلاله ـ أعلنها صريحة ألا شفاعة إلا بإذنه ، وأن الشفاعة جميعاً له لا لغيره ، وأن كل العباد يقفون بين يدى الله وقفة العبد بين يدى سيده ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ آية من أعظم البشائر الصادقة المجربة ، فكل إنسان يحمل الإيمان باطنه وقلبه ، ويحمل العمل الصالح ظاهره وسلوكه ، تجد له فى القلوب وداً وصداقة ومحبة ، فما يكاد يجلس إليه إنسان إلا ويمتلئ قلبه بمحبته، وهذا أمر أشار إليه رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف الذى رواه مسلم: «إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إنى أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » . لقد رأيت كثيراً من الصالحين جعل لهم الله فى قلوب عباده قبولاً ، وجعل لكلامهم وقعاً فى القلوب ، ولأشخاصهم إجلالاً فى النفوس ، فما يكادون يجلسون فى مجالس الوعظ أو مجالس الأصدقاء حتى تهفو إليهم أفئدة مجيبة وترنو إليهم عيون وامقة ، ويتمنى كل من يخالطهم أن يخدمهم ، لكن الله يغنيهم بفضله عمن سواه .

خامساً : وأخيراً يختم الله سورة مريم بالرد علي من أنكروا أن ينزل القرآن بلسان العرب فقال : ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾ ومعناه: أنزلنا القرآن بلسان العرب ليسهل عليك أن تبشر به المتقين وتنذر به كل لدود فى الخصومة ، والله تعالى يرسل الرسل بلسان قومهم ليبينوا لهم ويوضحوا الآيات ، وتجيء آية الختام الأخيرة فى السورة لتذكر الكفار بمصير من سبقوهم ممن حق عليهم الهلاك ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم خالية من أى حس أو صوت ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾.

آيات شرحت صدر عمر للإسلام

ما قرأت الآيات الثمانى التى افتتح الله بها سورة طه إلا تذكرت كيف أنها حولت بإذن الله عمر الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى دقائق معدودات من جبار غليظ إلى بر رحيم ، هذا هو القرآن الكريم ، وهذا هو أثره العظيم . إن سورة طه مكية بالإجماع ، وقد هدى الله بها عمر ـ رضى الله عنه ـ إذ لم يكد يقرأ بعضها حتى قال : ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه ، وتحققت فى الحال دعوة رسول الله ﷺ الذى كان يدعو الله أن يعز الإسلام بعمرو بن هشام ـ أبى جهل ـ أو بعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

روى أهل السير : أن عمر ـ رضيِ الله عنه ـ خرج متقلداً سيفه ليقتل رسول الله ﷺ ، فلقيه رجل يقال له : نعيم بن عبد الله ، فسأله : إلى أين ؟ فقال عمر : إلى هذا الصابئ الذى فرق أمرنا ، وسب آلهتنا ، وسفه أحلامنا لأقتله وأريح منه فقال له نعيم : لقد غرتك نفسك من نفسك ياعمر ، أترى بنى عبد مناف يتركونك تمشى على الأرض إذا قتلت محمداً ؟ إن كنت شجاعاً فأدب أهلك الذين آمنوا بمحمد ؟ فغضب عمر وقال : ومن من أهلى آمن بمحمد ؟ فقال له نعيم : صهرك سعيد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ وأختك فاطمة بنت الخطاب ، وفى الحال غيّر عمر طريقه وتوجه إلى بيت سعيد ، وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، فوجد فى البيت سعيداً وفاطمة ، وعندهما خباب يعلمهما القرآن ، وكان مع خباب صحيفة كتبت فيها سورة طه ، فلما أحس الثلاثة حس عمر، اختبأ خباب ، وخبأت فاطمة الصحيفة تحت فخذها ، ودخل عمر ـ رضى الله عنه ـ فأقبل على سعيد وبطش به ، وحاولت فاطمة رضى الله عنها أن تحجزه عن سعيد ، فضربها فشج وجهها وأسال دمها ، وعندئذ

صرخت فى وجهه تتحداه : نعم لقد آمنا بمحمد وصدقناه فاصنع ما بدا لك ، وهنا انعطف عمر إلى الرحم حين رأى الدم ، وقال لها : ما هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤونها ، فقالت له فاطمة : نخشاك عليها ، لأنها قرآن وأنت كافر، وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ قارئاً فطمأنها أنه لن يمسها بسوء ، فقالت فاطمة : إذن توضأ واغتسل ؛ لأنها لا يمسها إلا المطهرون واستجاب عمر ـ رضى الله عنه ـ فتوضأ واغتسل وقرأها ، فكان الإعجاب بالقرآن وكان الإيمان بالله .

وفى فضل سورة طه أورد الدارمى فى مسنده : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ـ وقرأ هنا بمعنى أسمع وأفهم ـ فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة محمد ينزل هذا عليها ، وطوبى لأجواف تحمل هذا ، وطوبى لألسنة تتكلم بهذا » ونعود إلى الآيات الثمانى التى افتتح الله ـ تبارك وتعالى ـ بها سورة طه فنوردها ثم نجلى شيئاً من أسرار بلاغتها وكنوز إعجازها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ [طه ١ ـ ٨].

الله أكبر وسبحان من هذا كلامه ، وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا :

أولاً : هذه الآيات الثمانى يأخذك جلالها ؛ لأن أربعاً منها موضوعها القرآن ، والأربع الأخرى موضوعها التوحيد ، وقد افتتحها ربنا جل جلاله بقوله :

﴿طه﴾ . ويبدو ـ والله أعلم ـ أنها نداء لرسول الله ﷺ ؛ وذلك لأن الآية التي تليها خطاب مباشر لرسول الله ﷺ : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ لقد نزلت سورة طه والإيذاء على أشده ؛ ولهذا جاءت الآية عزاء لرسول الله ﷺ بأن إنزال القرآن عليه وإن سبب له متاعب وإيذاء ، فإنه بإذن الله لن يشقى بالقرآن ، بل إن القرآن سيكون بإذن الله تذكرة للمؤمنين ونوراً للعالمين ، وكيف لا والذى أنزله هو الذى خلق الأرض والسموات العلا واستوى على عرش ملكه قادراً قاهراً وبراً رحيما ؟!

ثانياً : هذه الآيات الكريمات من أعظم الذكر ؛ لأنها على قصرها اشتملت على بشرى لرسول الله ﷺ بأن الكرب سيفرج ، وبأن القرآن سيؤدى رسالته كذكرى للمتقين ، كما اشتملت الآيات على إشادة بالقرآن مُنَزَّلا بالحق من خالق السموات والأرض ، وحسب الآيات شرفاً أن فيها كلمة التوحيد التى ترجح بالسموات والأرض ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ والحق أنى حين أقرأ مطلع سورة طه ، أَحس بأن لهذه الآيات جلالاً وبهاء وهيمنة على المشاعر ، وأنها تبعث فى القلوب قوة وسكينة ، وتطرد اليأس والخوف ؛ لأن فيها وصفاً لله القادر القاهر ، خالق الأرض والسموات ، رب العرش ومالك الملك ، ورحمن السموات والأرض ، الذى يعلم السر وما هو أخفى من السر ، سبحانه تقدست أسماؤه الحسنى وصفاته العلا ، وقد جربت هذه الآيات فى مواقف الخوف فأزال الله بها الخوف ، وفرج الكرب ، وطرد بها مشعوذو الجن.

ثالثاً : قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ معناه : أن لله عرشاً ، وأنه ـ جل جلاله ـ مستو على هذا العرش العظيم استواء لا يجوز تشخيصه أو تصوره أو تمثيله ، الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه

بدعه، والمؤمن يؤمن بكل ما ورد من أسماء الله الحسنى وصفاته دون أن يكلف عقله المحدود أن يخوض فى دوامة البحث العميق فى الذات ؛ لأن العافية إنما هى بالإيمان المطلق بكل ما جاء فى القرآن الكريم من الأسماء والصفات دونما خوض فى الأعماق الجارفة المردية .

رابعاً : وانظر إلى الآية التى تصف شمول ملك الله وسعته ، فهو يملك جل جلاله كل ما فى السموات والأرض ، وكل ما بينهما ، وكل ما تحت الثرى ، ومن ثم ، فإنه لا تخفى عليه خافية مهما تكاثفت دونها الحجب ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى** ﴾ .

خامساً : فى قوله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ ذكر للعام بعد الخاص فقد ذكر اثنين من أسماء الله الحسنى هما الله والذى لا إله هو ثم اتبعهما بالعام هو قوله تعالى : ﴿ **له الأسماء الحسنى** ﴾ . ويبدو أن لفظ الجلاله ﴿**الله**﴾ و ﴿ **الذى لا إله إلا هو** ﴾ من أعظم أسماء الله وإذا أردت أن تتوجه فى دعائك إلى الله الأعظم الذى إذا دعوته أجاب فابدأ الدعاء بقولك : اللهم إنى أسألك بأسمائك الحسنى وبأنك أنت الله لا إله إلا أنت ياحى ياقيوم ياذا الجلال والإكرام .

طرف من قصة
موسى عليه السلام

ما من نبى تكرر اسمه فى القرآن وذكرت قصته فى عشرات السور مثل ما تكرر اسم موسى وقصته ـ عليه السلام ـ فقد ذكر اسم موسى فى كتاب الله ـ عز وجل ـ قرابة مائة وأربعين مرة ، وذكرت لقطات طويلة من سيرة موسى عليه السلام فى عدة سور من كتاب الله الكريم ، وأطول تلك اللقطات ما جاء فى سورة البقرة ، وسورة المائدة ، وسورة الأعراف ، وسورة طه ، وسورة القصص؛ ولعل السبب فى تكرار اسم موسى وسيرته فى القرآن الكريم أن حياة موسى ارتبطت بقومه بنى إسرائيل ، وبنو إسرائيل كانوا ومازالوا سوساً ينخر شجرة الحياة، وداءً عضالاً فى جسم الإنسانية ، يكدر صفوها ، وينغص حياتها ، وقد لقى موسى من كفرهم وجدلهم وعنادهم ومطالبهم ما لا يصبر عليه إلا عظماء النفوس ، فأصبح عليه السلام من أولى العزم ؛ لأن بنى إسرائيل ما أراحوه ساعة واحدة .

ومع أن سيرة موسى تتكرر فى القرآن ، فإن كل موضع من مواضع تلك السيرة يلقى ضوءاً على موضوع محدد منها ، فالصفحات الواردة منها فى سورة البقرة ، تلقى ضوءاً على كنود بنى إسرائيل وجحودهم لفضل الله وكثرة أسئلتهم على نبيهم وتبديلهم نعمة الله كفراً ، وفى المائدة تلقى ضوءاً على شدة عذابهم للمؤمنين وعلى تقاعسهم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى جبنهم عن التضحيات أو تخاذلهم عن الجهاد وتخليهم عن دروب الكرامة حين يرون شبح الموت ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] وفى سورة الأعراف يلقى ضوءاً

على كتمان بنى إسرائيل للحقائق وتبديلهم للوحى وتحريفهم لكلام الله مما جعلهم ينكرون نبوة محمد ويكتمون ما أوتوا من علمها وبشائرها ، فموسى قد بشر بمحمد ، ومحمد النبى الأمى مكتوب عند اليهود فى التوراة ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم ـ لعنهم الله ـ يكتمون الحق وهم يعلمون ، وفى سورة القصص ذكرت سيرة موسى ممتعة بالشذا العطر المتدفق من مواقف الأسوة فيها من لدن مولده وإلقائه فى اليم إلى أن نصره الله على طاغية عصره ، ويكاد أسلوب سورة القصص يكون مدنياً فى هدوئه ؛ وذلك لأنها من أواخر السور نزولاً بمكة المكرمة . أما سورة طه ، فقد احتلت قصة موسى ثلاثة أرباعها، وقد ابتدأت بنبوءة موسى فى الواد المقدس طوى ، وانتهت بكفر بنى إسرائيل واتخاذهم العجل بعد أن أضلهم السامرى .

وإنى مورد هنا بعض مقاطع من القصة وذاكر بعض ما تضمنته من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى** ﴾ استفهام غرضه الإيجاب والإثبات والتقرير : ها قد جاءك منا خبر موسى ، وقال أشياخنا : إن هل تأتى بمعنى (قد) .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾ إشارة إلى أن خلع النعلين فى الأماكن الطاهرة كالبيت الحرام هو تأدب مع تلك الأماكن.

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ استفهام يقصد به لفت نظر موسى إلى العصا ، والعصا كما هو معروف هى أظهر معجزة من معجزات موسى .

رابعاً : أجاب موسى عليه السلام عن سؤاله تعالى : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا**

مُوسَى﴾ أجاب إجابة أطول من المطلوب في السؤال ؛ لأنه أراد أن تناله البركة بطول مخاطبته لربه ، وقد كان يكفي أن يقول : ﴿ هي عصاى ﴾ لكنه أضاف ﴿أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولى فيها مآرب أخرى﴾ .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ ولتصنع على عينى ﴾ معناه : لتنشأ وتربى وتغذى تحت رعايتي وعلى مرأى منى ، والآية من فضائل موسى . ومثل هذه الآية في فضائل موسى قوله تعالى : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ ومعناها : اخترتك لرسالتى واصطفيتك لوحيى .

سادساً : قول الله تعالى : ﴿ فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ يبين كيف يكون أسلوب الداعية في الدعوة إلى الله بالحكمة والرفق والموعظة الحسنة.

سابعاً : في قوله تعالى على لسان هارون وموسى ﴿ ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ دلالة على أن الخوف من شر البشر لا يضير الإيمان، وليس دليلاً على نقصه ؛ لأن هذا الخوف يتبعه الاستعداد للأمر والحذر والحيطة، كما حصل حين خشى النبى ﷺ كثرة الأحزاب فحفر الخندق.

ثامناً : في قوله تعالى : ﴿ إنْ هذان لساحران ﴾ إن مخففة من الثقيلة ، وقد بطل عملها وقد قرئت : ﴿ إنْ هذان لساحران ﴾ وهذه القراءة فيها مخالفة للإعراب، لكن بعض القبائل يرفع المثنى وينصبه ويجره بالألف كان كالاسم المقصور .

تاسعاً : في قوله تعالى : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ أوضحت الآية شروط قبول التوبة ومغفرة الذنب ، وهى : أن

يندم المذنب ويقلع ، ثم يتبع الندامة والإقلاع بالعمل الصالح ، ثم يستمر فى طريق الهداية بحيث لا يعود كل ساعة للذنب ويتوب منه .

عاشرا : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى ﴾ إشارة إلى أن موسى اشتاق إلى رضاء الله ولقائه ، فسبق بنى إسرائيل من شدة الشوق واستخلف عليهم أخاه هارون ، وهنا انتهزوا غياب موسى ، فعبدوا العجل، وأفسدوا وعادوا إلى الشرك والكفر كعادتهم .

حادى عشر : قصة السامرى أنه كان من علماء القوم ، وقد لمس فى بنى إسرائيل ميلهم إلى الشرك وعبادة آلهة غير الله ، وقد سبق أن طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله حينما رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، ويبدو أن السامرى رأى جبريل عليه السلام ، وجبريل روح الله فقبض قبضة تراب من أثر جبريل ، وخلطها بالتراب الذى صنع منه تمثال العجل ، فدب فيه لون من الحياة وصار له خوار. ولله فى هذا حكمة نسأله أن يجنبنا الفتنة ، وأن يعافينا من الابتلاء ، وأن يرزقنا إيماناً لا يخالطه شك يزعزعه . إنه ربنا وهو نعم المولى ونعم النصير .

أعظم علاج لمشكلات الحياة

هذه ثلاث آيات كريمات وردت فى الصفحة الأخيرة من سورة طه هى خلاصة الدرس المستفاد من قصة موسى عليه السلام ، وكنا قد أشرنا فيما سبق من الحلقات إلى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ حين يقص على رسوله محمد ﷺ قصص إخوانه الرسل يختمها بخلاصة مركزة للدروس والعبر المستفادة منها ، والحق أنى ما قرأت هذه الآيات الثلاث من خاتمة سورة طه إلا أحسست أن معانيها تتجدد فى نفسى عند كل قراءة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ وَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى * وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه : ١٣٠ ـ ١٣٢] .

هذه هى الآيات العظيمات وهذا بيان لبعض ما اشتملت عليه من إشارات بلاغية :

أولاً : السور التى تشتمل على مجموعة من قصص الأنبياء يختمها ـ ربنا جل جلاله ـ بتعليق رائع على تلك القصص ينبه فيه محمداً ﷺ إلى مواطن القدوة فى تلك السير العطره للأنبياء ، وتلك السير الفظيعة للكافرين من قومهم ، ففي سورة الأعراف ترى فى خواتيم السورة قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩ ـ ٢٠٠] إلى آخر السورة ، وسورة يونس يختمها بقوله : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ

حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِين ﴾ [يونس : ١٠٩] وسورة هود يختمها بقوله : ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠] إلى قوله جلّ من قائل ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] وهنا في سورة طه يختمها بهذه الآيات العظيمات ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : ١٣٠] إلى آخر الآيات.

ثانياً : بعد أن أورد الله لنبيه محمد ﷺ قصة موسى وما تحمله من اتهامات فرعون ، ومن مجادلات بنى إسرائيل قال لنبيه الكريم : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ . ومعنى الآية : اصبر على ما تقوله قريش كما صبر موسى من قبل على إيذاء قومه ، وأدم صلتك بالله ، فسبح بحمده فى أوقات الصلوات وبالليل والنهار . وأكثر من عبادته لعلك تجد أمامك بالآخرة من الثواب والجنة ما يرضيك ، وقرئت الآية ﴿ لعلك تُرضى ﴾ . وفى الآية أمران كريمان : أمر بالصبر ، وأمر بعبادة الله وطاعته ، وهذان الأمران هما أعظم علاج لمشكلات الحياة ، وقد كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر من أمور الحياة فزع إلى المسجد يصلى . وفى سورة البقرة : ﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ معناه : لا تنظر فى غبطة وحسد إلى ما متعنا به أغنياء الكفار من مال وأثاث وبهجه ، فما تلك إلا اختبار لهم وابتلاء ، وما عند ربك من واسع مثوبته ونعيم جنتة

هو أبقى من هذا المتاع الزائل . وقد روى أن النبى ﷺ مر على إبل لبنى المصطلق أعجبه سمنها ورفاهيتها فقنع وجهه بكسائه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى** ﴾ . إن المال والبنين والأزواج وغيرها ليست بالضرورة علائم إكرام لمن رزقها ، لكنها جميعها اختبار من الله ـ جل جلاله ـ وكثيراً ما يكون المال والولد والأزواج عدوا للإنسان . يقول الله تعالى فى سورة التغابن : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم** ﴾ [التغابن : ١٤ ، ١٥] وتعرب كلمة ﴿**زهرة**﴾ حالاً ، والتقدير : متعنا أولئك المشركين بما أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا ، أى : زينة وبهجة وقوله تعالى : ﴿**لنفتنهم فيه** ﴾ إشارة إلى أن الله ـ جل جلاله ـ كما يبلو عباده بالفقر والمصائب ، قد يبلوهم بالخير والرزق الوفير ، وفى ختام الآية إطناب بليغ جميل يسمى تذييلاً أى : تعليقاً على كلام سابق وهو قوله تعالى ﴿ **ورزق ربك خير وأبقى** ﴾ ومعناها : أن ما أعده الله لعباده الصالحين من مرضاته ونعيمه وجناته هو خير وأبقى من هذا العرض الزائل . إن المؤمن إذا مر على بيوت المترفين ورأى نعمتهم الوارفة الممتدة لا يرى فى تلك المظاهر إلا أنها ابتلاء واختبار وفتنة ؛ ولهذا فهو لا يتمناها أبداً ـ وإن كانت النفوس تعشقها ؛ لأنه يعلم أنها عرض زائل، والله عنده حسن الثواب .

رابعاً : ما أجمل قوله جل من قائل : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾ . لقد كان النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية يحرص أن يذهب كل يوم إلى بيت على وفاطمة

يوقظهما لصلاة الصبح، وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يوقظ أهله لصلاة الليل وهو يتمثل بهذه الآية . ما أجمل أن يهدى الله الأبناء فيسيروا مع أبيهم فى كل صلاة ، كأنهم مواكب النور لأداة الصلوات المكتوبة ، وفى الآية ربط وثيق بين الصلاة وبين الرزق ، وتلك بشرى من الله ـ جل جلاله ـ للمصلين بأنهم لن يحتاجوا للخلائق ، وأنه ـ عز وجل ـ متكفل برزقهم ، وفى الآيه إشارة أخرى بأن البيت الذى تغمره التقوى مبشر بأن العاقبة له ولأهله ولساكنه ، وأن البيوت التى يعمرها الإيمان والعمل الصالح لا يمكن أن تضام أو يكشف سترها .

التفكر فى الساعة يهذب الأخلاق
ويسمو بالأهداف

هذه عشر آيات كريمات بدأ الله بها سورة الأنبياء ، وسورة الأنبياء مكية موضوعها الرئيسى عقيدة التوحيد كما تجليها رسالات أنبياء الله ، وقد سميت سورة الأنبياء ؛ لأنها عرضت باختصار وإيجاز خاطف إلى ذكر خمسة عشر من الرسل الكرام وهم على الترتيب : إبراهيم ، ولوط ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذو الكفل ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١ ـ ١٠].

أولاً : فى مطالع بعض السُّور الكريمة استعمل الله ـ جل جلاله ـ أفعالاً ماضية توحى بأن الساعة قد أصبحت على الأبواب فعلاً ، والناس في لهوهم وغفلاتهم ، كقوله تعالى فى مطلع سورة النحل : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا

تَسْتَعْجِلُوه﴾ [النحل : ١] وكقوله فى مطلع سورة القمر : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] وكقوله في مطلع سورة الأنبياء التى نحن بصددها : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، ولعل السبب فى استعمال هذا الأسلوب : أن الساعة هى بالفعل قريبة جداً ، وقد جاءت أشراطها ، ولقد أخبر النبى ﷺ أنه بعث بين يدى الساعة ، وأن بعثته عليه الصلاة والسلام هى من أشراطها ، ثم إن قيام الساعة لا يحتاج أكثر من حرفين ينطق بهما رب العزة ألاوهما كلمة ﴿كن﴾ . وإذا كان اليوم عند الله ـ جل جلاله ـ كألف سنة مما يعد الناس، فمن الجائز ألا يحتمل قيامها أكثر من عشر يوم أو ربع يوم من أيام الله ، وإن أمراً لم يبق على حدوثه إلا يوم أو بعض يوم لهو جدُّ قريب.

ثانياً : إن التفكير فى قيام الساعة عبادة تهذب الأخلاق ، وتسمو بالأهداف، وتحكم السلوك ؛ لأن من يؤمن بيوم الحساب لا يفتأ خائفاً من ربه، نادماً على ذنبه ؛ ولهذا كان مطلع سورة الأنبياء مؤثراً حقاً فى النفوس المؤمنة:﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ، ومما يزيدها تأثيراً أن نصفها إنذار للناس ، والنصف الثانى توبيخ لهم على غفلاتهم ، مما جعل الصورة فى هذه الآية صورة طريفة حقاً ، ومع أن الآية سبع كلمات ، فقد عرضت على المتدبر مشهدين مختلفين : المشهد الأول لخطر جارف مقبل على الناس كأنه طوفان لا يبقى ولا يذر ألا وهو مشهد القيامة مقبلة بالحشر والحساب والجزاء والخوف، والمشهد الثانى صورة جماعة غارقة فى اللهو واللعب والغفلات غير عابئة بذلك الخطر الذى يتهددها بأشد العذاب . الحساب على الأبواب والناس فى غفلة معرضون ما يأتيهم تنزيل جديد من القرآن إلا استمعوه مستهزئين لاعبين

لاهية قلوبهم ، وبدلاً من أن تخشع قلوبهم لما ينزل من القرآن ، فإنهم يتناجون فيما بينهم ليشد بعضهم من عزيمة بعض ، ويثبت بعضهم بعضاً على حمأة الكفر . إنهم يتسارون فيما بينهم يقول بعضهم لبعض : هل محمد إلا بشر منا ؟ فكيف نؤمن بسحره ونحن في كامل وعينا وإبصارنا ؟ ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ .

ثالثاً : في قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ لغة لبعض القبائل يستعملون فيها ضمير الجمع عند إسناد الفعل إلى فاعل ظاهر جمع فيقولون : حضروا الغائبون ، وانتصروا المؤمنون ، مع أن لغة قريش هي أن يذكر الفعل مفرداً في هذه الحال فيقال : حضر الغائبون ، وانتصر المؤمنون ، والآية الكريمة تتجلى فيها هذه اللغة في قوله تعالى : ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ، والمألوف أن يقال : وأسر النجوى الذين ظلموا .

رابعاً : تصور الآيات ذلك الجو من الفوضى الفكرية التي كانت تسيطر على عقول قريش وقلوبهم ، فبعضهم يقولون : محمد ساحر ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ وبعضهم يقول : كيف يبعث الرسول بشراً لو كان ملكاً لاتبعناه ، أما أن نتبع بشرا فهذا شيء عجيب ، وآخرون يقولون: إن الذي جاء به محمد من الوحي ما هو إلا أضغاث أحلام وما الوحي إلا حلم يراه محمد في نومه فيقول آخرون : لا ليس حلماً لكنه افتراء ، ويقول فريق ثالث : بل هو شاعر ، وقرآنه شعر ، ثم يرفع بعضهم عقيرته وهو يصيح : إن كان صادقاً فليأتنا بآية معجزة كما أرسل الأنبياء السابقون من أمثال صالح وموسى وغيرهما ، وهنا يرد عليهم الحق - جل جلاله - قائلاً : إن القرى التي بعث فيها أنبياء بمعجزات خارقة

لم تؤمن ، ولم تؤثر فيها الخوارق ولهذا فهل يمكن أن تؤمن قريش حتى ولو رأوا مئات الآيات ؟! ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

خامساً : الغوغائية والخلط والتناقض واضحة فى كلام المشركين ، لكن الله ـ جل جلاله ـ ورسوله ﷺ يقابلان هذا التناقض والهوى بإقناع منطقى خاطف فى غاية الإيجاز والإعجاز ، فردا على مناجياتهم السرية يقول لهم محمد ﷺ ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ومن ثم لاتخفى عليه. ورداً على مطالبتهم محمداً بالمعجزات يقول الله ـ جل جلاله : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ . ورداً على إنكارهم أن يكون الرسول بشراً يقول لهم منزل القرآن الكريم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ* وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾. وأخيراً يرد على المنكرين للقرآن القائلين بأنه سحر وشعر وافتراء فيقول لهم ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ ومعناه : أن هذا القرآن ليس سحراً ولا شعراً ولا وافتراءاً لكنه كتاب فيه مجدكم وشرفكم وذكركم فى الناس .

آيات تشفى من الشك وتحول دون الشرك

هذه أربع آيات من سورة الأنبياء تستحق أن يوقف معها وقفة طويلة ؛ لأنها بحق شفاء للشك ، وحائل بإذن الله دون الشرك وبرهان ساطع على الوحدانية .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١ ـ ٢٤].

أولاً : موضوع هذه الآيات إثبات وحدانية الله ونفى جميع الشركاء ، وهو الموضوع الرئيسى فى السور المكية ، وكنت قد ذكرت أن الله ـ جل جلاله ـ لم يناقش فى القرآن الكريم مسألة الإلحاد وهو إنكار الخالق بتاتاً، ولكنه ناقش موضوع التعدد والشركاء ، ولعل سبب ذلك : أن الله ـ جل جلاله ـ اعتبر الملحد المنكر للإله فاقداً لعقله ، والمجنون لا يناقش ولا يمكن أن يقنع ! إن وجود الإله الخالق المعبود بحق هى قضية لا تحتاج إلى نقاش ؛ لأن الصنعة تدل على صانعها ، والسموات والأرض وما فيهما أعظم شاهد ماثل للعيان على وجود صانع عظيم خلق الخلق، ودبر الأمر ، وسير الأفلاك ، ويسر كلاً لما خلق له ؛ ولهذا ترك الله ـ جل شأنه ـ أمر الملحدين ولم يتعرض لهم ، ولم ترد فى القرآن الكريم آية واحدة موضوعها إثبات وجود إله خالق ، لكن آيات كثيرة فى كتاب الله وردت لإثبات الوحدانية ونفى كل شرك وكل معبود من دون الله.

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ أم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُون ﴾ استفهام للتوبيخ والتحقير معاً . ومعنى الآية : هل اتخذ المشركون آلهة من دون الله؛ لأنهم رأوها تنشر الموتى من الأرض ؟! إنه استفهام يحمل إلى جانب الإنكار والتوبيخ معنى آخر هو الاستهانة بعقول المشركين ؛ لأنه ما من معبود من معبودات أهل الشرك يستطيع أن ينشر الموتى من الأرض ؛ ولهذا جاءت الآية التالية برهاناً عقلياً قاطعاً على نفى الشركاء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ ومعنى هذه الآية الكريمة : لو كان فى السموات والأرض آلهة متعددون متكافئون فى القوة ؛ لتضاربت تصرفاتهم وتعاكست أوامرهم ، وإذن لفسدت السموات والأرض بين نقض هذا وإبرام هذا، وبين إثبات هذا ونفى هذا ، وبين أمر هذا ونهى هذا ، مع أن الكون العظيم لايظهر فيه هذا التناقض المخرب المفسد ، فما فى خلق الرحمن من تفاوت ، وما فى أفلاك السموات ومسيرات النجوم من اختلاف ؛ إذن لنجم عنه تحطمها وتضارب مواعيد سيرها . إن اعتقاد وجود الشركاء معناه الشك فى قدرة الله القادر القاهر، وكأن المشرك يستكثر على الرب ـ جل جلاله ـ أن يقوم بالأمر وحده ، فهو ينسب إليه شركاء كي يعينوه في زعم المشرك على حفظ الكون وتدبيره ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ نعم ! تنزه الله مالك الكون ورب العرش عما ينسبه المشركون إليه من اتخاذ الشركاء؛ لأنه ليس فى حاجة إلى ولى ينصره ، ولا إلى معين يعينه ، لا إله إلا هو المتوحد بصفات الجلال والجمال والكمال والقوة والعزة لا يسأل عما يفعل وكل ما سواه موقوف ومسؤول .

ثالثاً : البرهان الذى ساقه الله ـ جلا جلاله ـ فى الآيتين السابقتين على وحدانيته برهان عقلى يدرك بالتفكر والمشاهدة ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ

اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ، أما البرهان الثانى الذى ساقه في الآية الأخيرة ، فهو برهان نقلى من واقع الكتب المنزلة ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ومعنى الآية : هل اتخذوا آلهة من دون الله ؛ لأنهم وجدوا هذا فى الكتب السماوية ؟ إن كان هذا فهاتوا برهانكم . هذا هو القرآن الذى أنزله الله ذكر لمن معى ، وتلك هى الكتب السماوية : التوراة ، والإنجيل، والزبور، وكلها أنزلت ذكراً للأمم السابقة ويتحداهم أن يقرؤوا هذه الكتب السماوية ، فيجدوا فيها أى إشارة من الله تأمر بالشرك ، وبعد أن أخرسهم البرهان النقلى، فلم يجدوا جواباً ، ولم يعثروا على أى سند أو أثارة من علم . لقد جزم الحق ـ جل جلاله ـ أنهم كاذبون فى هذا الشرك ، وأن سبب شركهم هو جهلهم وإعراضهم عن الحق ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

رابعاً : المقاطع الواردة فى هذه الآيات الأربع كلها ذات أغراض بلاغية فقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ حكمة تعليمية منطقية، غرضها التعليم ، وقوله تعالى : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون ﴾ خبر غرضه تعظيم شأن الله ـ عز وجل ـ وتهوين كل ما عداه وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ أمر غرضه التعجيز؛ لأنهم لن يجدوا في أى كتاب سماوى أى مبرر للشرك ، أما قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُون ﴾ فهو خبر يراد به ذم الجهالة المردية التى يكون من نتائجها الإعراض عن الحق .

الحقائق العلمية فى القرآن
ساطعة صادقة ثابتة

هذه آربع آيات كريمات من سورة الأنبياء تعرض حقائق علمية ما كان لقوم محمد ﷺ علم بها فى ذلك الزمان ، وكل الكتب التى تعرضت لحقائق علمية فيما مضى كبعض حقائق علم الفلك والكيمياء والفيزياء هدم كثير من نظرياتها ، بل لقد تكشفت نظريات فيها عن خرافات يسخر منها العلماء فى هذه الأيام ، لكن الحقائق العلمية التى ذكرها القرآن الكريم ظلت ساطعة صادقة كأنها ضوء النهار حتى بعد أن مضى على نزول القرآن الكريم أربعة عشر قرناً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٠ ـ ٣٣].

أولاً : فى قوله تعالى :﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ ؟يقرر الله ـ جل جلاله ـ حقيقة كبيرة ما كانت العقول تعلم عنها شيئاً فى عصر النبى ﷺ وهى أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ،لكن الله ـ جل جلاله ـ فتقهما ، أى : فصل الأرض عن الشمس لحكمة بالغة وهى أن يبعدها من حرارة الشمس الهائلة ويكيفها للحياة الإنسانية ، وبعد أن فتقها من الشمس هيأ لها الماء الذى برد قشرتها ، ومن هذا الماء خلق الله

كل حى من الحيوان والنبات ؛ ولأن هذا الأمر من أعظم دلائل القدرة الباهرة التى تبعث الإيمان فى أعين القلوب ، فقد ختم الآية باستفهام غرضه الحض والتقريع معاً وهو قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ يعنى بعد أن كشفنا لهم أن هذا الأمر الهائل من مظاهر القدرة ودلائل العظمة، لماذا لا يعتبرون ويؤمنون ؟ ويلاحظ فى هذه الآية الكريمة المعجزة : أن الله ـ جل جلاله ـ ذكر فصل الأرض عن الشمس وذكر بعده الماء الذى أكرم به الأرض بعد أن كانت كرة ملتهبة ، فكان سبباً فى برودة الأرض ، ثم فى نشأة الحياة ، وهذا هو آخر ما توصلت إليه النظريات والفروض العلمية ؛ وهو أن المجموعة الشمسية كانت سديماً واحداً فانفصلت عن الشمس واحداً تلو الآخر وعلى مسافات مختلفة ، ثم إن الأرض من بين المجموعة تكوّن فى جوها مطر غزير ظل ينزل عليها أحقاباً ، ومن الماء تكونت الحياة الحيوانية والنباتية ، وقد اشتهر دارون بنظريته التى أعلن فيها : أن الماء كان مهد الحياة الأولى مع أن القرآن يقرر هذه الحقيقة قبل ألف وأربعمائة عام ، وبالمناسبة فما يجوز أن نخضع أفكار القرآن للفروض العلمية ؛ لأن هذه الفروض قد تتغير ، غير أننا حين نجد الحقائق العلمية تؤيد القرآن الكريم نزداد بصيره بهذا القرآن ونحترم هذه النظريات .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ تقرير لأعظم فائدة من فوائد الجبال وهى أنها أحزمة مثبتة للأرض تمنعها أن تفقد توازنها فتميد وتهتز بمن عليها ، وقد أكمل الله فضلها حين جعل فى الأرض والجبال طرقاً طبيعية فجاجاً ، أى : واسعة لكى يسلكها المسافرون فيهتدوا بها فى أرجاء الأرض المترامية . والحق أننا كنا فيما

مضى نتيه في المناطق التي ليس فيها طرق ، مما يدل على أهمية الطرق التي بثها الله في الجبال وفي أنحاء الأرض في هداية الناس ، وبما أن الطرق الحديثة التي قربت أطراف الأرض ، واهتدى بها الناس وبمعالمها فلم يعودوا يبالون بقطع المسافات الهائلة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ معناها : أن الله ـ جل جلاله ـ رفع هذه السموات العظيمة وأعلاها وحفظها من كل محاولة للعبث بها . وقد ثبت حديثاً أن السماء محفوفة بشبكة من الشهب والنيازك تشكل خطراً هائلاً على من يقترب منها ، وأن الفضاء لا يصلح لحياة الإنسان ، ولو أن أياً من رجال الفضاء خرج ثانية واحدة من بدلته الفضائية لما دري له مصير . لكن السماء وإن كانت محفوظة من كل شيطان أو عابث من البشر إلا أن آياتها واضحة للعيان ، إذ فيها الشمس والقمر والنجوم مسخرات كلها للإنسان ، ولكن الكفار لا يعتبرون بآياتها ، بل ينظرون إليها وهم عنها معرضون .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ يشير إلى الحركة الدائبة في هذا الكون ، فكل من الشمس والقمر وكل جرم سماوي سابحة في فلك ، أي : طريق ومسير خاص ، وعلى الرغم من ملايين الملايين من الأجرام السماوية ، فإن لكل منها فلكاً خاصاً به بحيث لا يصطدم بالآخر مما يدل على أن خالقها واحد ، ومسيرها واحد ، ومدبر أمرها ومؤقت سرعتها واحد .

ويلاحظ أن معظم الأساليب الواردة في هذه الآيات الكريمات أساليب خبرية تقريرية ؛ وذلك لأن الآيات دروس عظيمة في ملكوت السموات والأرض، والأسلوب التعليمي يتطلب الأساليب الخبرية .

وبعد ، فإن سورة الأنبياء عموماً كنز متنوع العطاء استقبله أصحاب رسول الله ﷺ باهتمام عظيم ، فقد قرأنا أن أحد الصحابة واسمه عامر بن ربيعة نزل عنده ضيف من شيوخ قبائل العرب فأكرمه عامر واحتفى به ، ثم عاد الضيف بعد وقت ، فقال لعامر رضى الله عنه : لقد أقطعنى رسول الله ﷺ أرضاً فى العرب وإنى أريد أن أقطعك منها قطعة تكون لك ولعقبك ، فقال له عامر : لا حاجة لى في أرضك ؛ فقد نزلت علينا سورة أذهلتنا عن الدنيا : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

موقف من مواقف قضاء داود وسليمان

قلنا إن الله ـ عز وجل ـ عرض فى سورة الأنبياء لذكر سبعة عشر نبياً ، ومر على سيرهم العطرة مروراً خاطفاً ما عدا سيرة إبراهيم عليه السلام ، فقد وقف عندها وقفة متدبرة ، ومن ثم سميت السورة سورة الأنبياء . ومما يلفت النظر فى الآيات التى ذكرت الأنبياء : آيتان عرضتا لذكر داود وسليمان عليهما السلام، وقصتا موقفاً من مواقف قضائهما . هاتان الآيتان استوقفتا انتباه المفسرين حتى لقد علق القرطبى ـ رحمه الله ـ عليهما بحوالى خمس عشرة صفحة من القطع الكبير ، وإنى موردهما ـ إن شاء الله ـ فملخص بعدهما أقوال المفسرين.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ـ ٧٩] . هذا ولعل من تمام الفائدة أن نذكر مجرد ذكر الثلاث التاليات وهى قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** ﴾ [الأنبياء ٨٠ ـ ٨٢].

أقول وبالله العصمة والتوفيق والفتوح :

أولاً : قصة الحكمين اللذين صدرا عن داود وسليمان عليهما السلام خلاصتها حسب أقوال الأشياخ : أن نبى الله داود عليه السلام جلس فى مجلس قضائه فعرضت عليه قضية بين صاحب حرث وزراعة وبين صاحب غنم، فقد

نفشت الغنم ، أى : انطلقت ليلاً ورعت فى زراعة الفريق الثانى فأفسدتها فحكم داود عليه السلام باجتهاده ، ويبدو أنه قوّم ما أتلفته الغنم فوجد أنه يساوى ثمنها ، فحكم أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث تعويضاً له عن الخسارة التى لحقت بحرثه ، وقيل : إن نبى الله داود قوّم الغنم ، فوجد أنها تساوى ما أفسدته مع قيمة الأرض نفسها ، فحكم بتسليم الأرض وما عليها من بقايا الزرع والشجر إلى صاحب الغنم وتسليم الغنم إلى صاحب الحرث ، والمهم أن الحكم حصل بالاجتهاد ، واجتهاد الأنبياء إن لم يكن وحياً ينزل به الملك يمكن أن يقع فيه الخطأ ، كما اجتهد رسول الله ﷺ فى اختيار المكان الذى ينزل فيه الجنود يوم بدر ، ثم عدل عنه نزولاً على رأى أحد أصحابه ـ رضوان الله عليهم .

وتمضى قصة الحكم فتقول : إن الخصم حين خرجوا من عند داود لقيهما ـ فى أثناء خروجهما ـ سليمان عليهما السلام فسألهما : بم حكم بينكما نبى الله داود ؟ فقالا له : حكم بالأرض لصاحب الغنم وبالغنم لصاحب الأرض فقال لهما : هيا إلى مجلس حكمى لأحكم بينكما بحكم آخر ، فذهبا معه ، فدخل على والده وقال له : لقد حكمت بين القوم حكماً ، وإنى رأيت ما هو أرفق بكلا طرفى الخصومة وهو أن تسلم الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بلبنها وسمنها وغير ذلك ، وتسلم الحرث لصاحب الغنم ليصلح من شأنه ويعالج ما أفسدته الغنم حتى إذا عاد الزرع إلى ما كان عليه حاله قبل الإفساد رد كل منهما مال صاحبه إليه ، وبذلك لا يحرم أى منهما من ملكه ، فاستحسن داود عليه السلام ورجع إلى حكم ولده سليمان وهو يقول له: نعم الرأى وفقت يا بنى ، وعسى ألا يقطع الله فهمك ، ونفذ فى الحال حكم سليمان وكان حكماً فهمه إياه ربه ـ جل جلاله ـ ويرى أشياخنا

استنتاجاً من هذه القصة أن أصحاب الغنم وسائر الحيوانات التى تنطلق إلى زراعة الناس فترعاها وتفسدها يغرمون ما تفسده من الحرث سواء أكان إفسادها ليلاً أو نهاراً.

ثانياً : مع أن الحكم الذى حكم به سليمان هو الأقرب إلى الصواب ، فقد مدح الله ـ جل جلاله ـ موقف نبيه داود وما كان من اجتهاده ، فقال جل من قائل : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ مما يؤكد أن المجتهد المخلص فى اجتهاده المتطلع بكل علمه وجهده إلى الصواب مأجور على كل الأحوال . وهذا هو ما أخبر به رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم بأن للمجتهد المخلص فى اجتهاده أجراً إن أخطأ ، وأجرين إن أصاب . قال عليه الصلاة والسلام : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » وهذا ينطبق على القاضى العالم بالأحكام والاجتهاد ، أما الذى يقضى بجهل فعليه وزر .

ثالثاً : عاد داود عليه السلام إلى حكم سليمان وهذا هو الأمثل بكل قاضٍ أصدر حكماً ثم رأى السداد فى غيره أن يرحب باستئناف الحكم للوصول إلى الحق ، وهذا الأمر هو بعض مضمون الخطاب العظيم الذى كتبه عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنهما ـ حين كتب إليه : ولا يمنعنك قضاء قضيته فى أمسك ثم راجعت فيه نفسك فرأيت السداد فى غيره أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

رابعاً : فى هذه الأيام اشتد حقد المسلمين على اليهود على أثر عدوانهم وطغيانهم وإجرامهم ، وبغض الكافرين والمجرمين دليل على صدق الإيمان، ولكن لا يجوز أن يمس هذا البغض أى نبى من أنبياء بنى إسرائيل ، فالأنبياء عليهم السلام هم أهل العصمة والكمال الإنسانى ، وحسب داود شرفاً أن الله ـ جل جلاله ـ يأمر نبينا محمداً ﷺ أن يقتدى بسيرته وسلوكه فيقول فى سورة «ص» : ﴿ **اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ ومعنى الآية : اصبر على أكاذيب الكفار واذكر سيرة نبى الله داود الذى كان قوياً فى الحق أواباً إلى ربه بالتوبة .
إن شنآن اليهود لا يجوز أن يجرنا إلى التفوه بأى كلمة على أنبياء بنى إسرائيل ، بل إن إسرائيل نفسه عليه السلام وهو سيدنا يعقوب يجب أن يظل موضع احترامنا ؛ لأن المؤمنين بالله ورسوله لا يفرقون بين أحد من رسل الله ، بل إن جميع الأنبياء عندهم هم أهل الصدق والعصمة والكرامة والرسالة، ولقد لعن داود نفسه كفار بنى إسرائيل بمعصيتهم وعدوانهم ، كما قال تعالي فى سورة المائدة : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ [المائدة : ٧٨] كان داود عليه السلام يأكل من عمل يده مما يصنعه من الدروع وكان سليمان يتحكم فى الريح تجرى بأمره ويستعملها وسيلة للنقل . اللهم صل على جميع أنبيائك ورسلك .

طرف من قصة
يونس عليه السلام

هاتان آيتان من سورة الأنبياء تلخصان قصة نبى جليل من أنبياء الله ، والقصة أكثر بسطاً فى سورة الصافات ، وسوف يتيح لنا تفسير الآيتين أن نروى قصة يونس عليه السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] .

وفى سورة الصافات ورد ذكر يونس عليه السلام فى الآيات الآتية :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٨].

ولعل أفضل طريقة لتفسير مفردات الآيات وإشاراتها هى أن نقص سورة يونس عليه الصلاة والسلام وما كان بينه وبين قومه لتتضح الأمور من خلال القصة :

يونس نبى جليل من أنبياء الله كان النبى ﷺ يحبه ويذكره ، حتى لقد جاء فى السيرة النبوية : أن النبى ﷺ حين لجأ إلى بستان فى الطائف من أذى السفهاء جاءه عبد من داخل البستان اسمه عداس ، وناوله قطفاً من العنب ، وجلس إليه يستمع إلى حديثه ، فسأله رسول الله ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال :

عداس . قال رسول الله ﷺ « ومن أى البلاد ؟ » قال : من نينوى . فقال رسول الله ﷺ : « بلد النبى الصالح يونس بن متى ؟ » قال عداس : وهل تعرف يونس بن متى ؟ قال : « نعم ، هو نبى وأنا نبى » . وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » . ولد عليه السلام فى مدينة بعلبك ، ولما بلغ الثلاثين من عمره ، أوحى الله إليه أن يتوجه إلى مدينة نينوى على شاطئ دجلة بالعراق ، فينذرهم ويحذرهم عبادة الأصنام ، ويهديهم إلى التوحيد ، فلما وصل إلى المدينة وجد عليها ملكاً رومى الأصل ، وقد زين لهم عبادة الأصنام وزاد فى عددها وأنواعها ، فنادى فيهم يونس عليه السلام : أن هذه المعبودات حجارة لا حياة فيها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، فاستشاط الملك غضباً ، وضرب يونس عليه السلام عدة مرات ، وكان يضربه فى كل مرة حتى يغمى عليه ، ومكث يونس عليه السلام فى هذا البلاء اثنين وثلاثين عاماً لم يؤمن له فى أثنائها إلا رجلان ، وهنا ضاق صدر يونس عليه السلام وذهب مغاضباً ، وهرب من كل الديار الظالمة ، وهو يظن أن مثل أولئك الطغاه المعاندين لن يؤمنوا ، وقاده ضيق صدره أن توجه إلى شاطئ البحر، وهناك وجد سفينة على وشك الإقلاع فأبق ، أى: هرب إليها وهو يظن أن الله لن يضيق عليه ، وأنه سيفتح له فجاج الأرض ليجد قوماً خيراً منهم ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ونقدر هنا معناها : نضيق كما جاء فى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولا يجوز أن نفسر الآية بغير هذا ليكون الكلام لائقاً بقدر هذا النبى الصالح .

والمهم : أنه حين أبحرت السفينة وتوسطت اللجج أصابتها عاصفة عنيفة كادت تقلبها ، وقيل : إنها توقفت فلم تتزحزح من مكانها ، وكان من بين ركاب السفينة رجل صالح فزع إليه أهل السفينة ليدعو الله بالنجاة ، فقال لهم العبد الصالح : إن على ظهر السفينة عبداً آبقاً ، أى : هارباً من سيده ، فنادى

مناد فى أهل السفنية من منكم عبد آبق من سيده ؟ فلم يعترف أحد وهنا ساهم جميع الركاب فى قرعة فكان يونس عليه السلام من المدحضين ، أى : المغلوبين فى القرعة وأعادوا القرعة ثلاث مرات ، وفى كل مرة يدحض يونس ، وعندئذ ألقى بنفسه فى الماء ، وهو يبكى ويدعو ويقول : ألا إننى أنا العبد الآبق من سيدى ، ولم يكد يصل إلى الماء حتى التقمه حوت هائل ، وغاص به فى قاع البحر ، وإذ هو فى ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الحوت ، وهنا فى غمار تلك الظلمات الموحشة ، رأى نفسه وحيداً ، فاستغفر ربه لهربه ، ونادى فى الظلمات بدعاء اشتمل على اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب . ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ فاستجاب له ربه وأمر الحوت كما التقمه أن يقذف به ويلفظه ، فخرج من بطن الحوت وهو على أشد حال من المرض والسقم والضيق ، ولولا تسبيحه العظيم لربه لنبذه ربه من بطن الحوت فى العراء ، ولكن الله ـ جل جلاله ـ لطف به وجعل منزله مباركاً فى وسط العمران ، وأنبت عليه شجرة يقطين طويلة وارفة الظلال .

ومعنى قوله تعالى :﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ يعنى التقمه الحوت ، ويونس هو الذى يستحق اللوم ، وكان قضاء الله له أن يلتقمه الحوت ؛ لأنه أبق من هداية قومه ، وما كان له أن يفعل ذلك ، بل كان عليه أن يصبر وأتم الله منته عليه فأعاده إلى قومه ، وكانت قد بدأت من حولهم بوادر قارعة من العذاب حلت قريباً من دارهم ، فخافوا خوفاً شديداً ، وكسروا الأصنام ، وأعادوا الحقوق، وأجهشوا إلى الله بالدعاء ، وبينا هم كذلك إذ وصل يونس فاستقبلوه بالتحية والاحترام ، وسألوه أن يدعو ربه أن يكشف العذاب ، فدعا واستجاب ربه دعاءه ، وكان عدد القوم أكثر من مائة ألف ، فآمنوا فكشف الله عنهم العذاب، وقضى يونس عليه السلام بقية عمره سعيداً بإيمان قومه ، متفرغاً لتسبيح ربه وعبادته ، وكان عليه السلام تفيض دموعه كلما تذكر ماضى ذنبه حين ضاق

ذرعاً بقومه ، فأبق هارباً من عناد القوم . إنه ذنب ولا شك وقد غفر الله لكل أنبيائه من لدن آدم إلى محمد ذنوبهم ، ولا غرو ، فهو ـ جل جلاله ـ يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات . نسأله بجلال وجهه الكريم أن يرزقنا توبة نصوحاً تغفر بها الذنوب ، وتستر بها العيوب .

طرف من قصة أيوب عليه السلام

قال الله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤] وقال تعالى فى سورة ص : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤١ ـ ٤٤].

هذه الآيات الكريمات هى كل ما ورد فى القرآن الكريم حول قصة أيوب عليه السلام ، وهى قصة دخلها كثير من الخلط والإسرائيليات والاختلاق ، حتى بدت فى وضعها الراهن غير لائقة بمقام هذا النبى الكريم الذى مدحه المولى ـ جل جلاله ـ بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . والحق أن الله ـ جلت قدرته ـ اختار صفوة بنى آدم ليكونوا أوعية وضاءة طاهرة لائقة برسالته، وعرض على البشرية نماذج الكمال الإنسانى فى أشخاصهم وروائع المثل العليا فى أخلاقهم ، وأيوب هو نموذج الصبر فى الإنسانية ، حتى لقد أصبح صبر أيوب مثلاً تتناقلة الدنيا . ولقد أتاحت لى الفرص أن أقرأ قصة أيوب فى كتب النصارى ، وإذا فيها تفصيلات لم أطمئن إليها ؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ أرحم بنبيه المجتبى أن يسوق إليه كل هذا البلاء ، حتى إن الدود ليتناثر من جسده فيقذره قومه ويلقون به على مزبلة من مزابل البلدة يتناوشه الدود ، وتبدو فى جسمه بثور مقززة كبيرة الحجوم ، كلٌّ هذا وغيره ورد فى قصة أيوب عليه الصلاة والسلام وروته الكتب التى بين أيدى أهل الكتاب .

وكل هذه الأقوال لا سند لها من الكتاب والسنة . والمرض إلى ذلك الحد ليس مما يليق أن ينسب إلى ذلك النبى الكريم .

إن المتدبر لقصص الأنبياء كما يرويها القرآن يرى فى أسلوبها إعجازاً عجباً ومستوى فى غاية السمو نتقرأ هذا الأسلوب فى كل قصص القرآن ، وبخاصة فى قصص الأنبياء التى شوهت فى الكتب السابقة كقصة يعقوب ، ولوط ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وأيوب عليهم السلام ، فالقرآن الكريم لا يذكر عن أى نبى إلا ما تتجلى فيه العبرة ، وتتألق فيه الحكمة ، وتتدفق من جوانبه الفضائل ، فى حين تقرأ قصصهم فى كتب المسيحيين فتحقد حقداً شديداً على يعقوب عليه السلام ، وهو يغتصب النبوة من أخيه بالحيلة كما تزعم روايات كتبهم ، وتحقد على لوط وهم يفترون عليه فى كتبهم أنه سكر فزنى بابنتيه شلت ألسنتهم وأقلامهم ، ويعرضون قصص الأنبياء عرضاً يقطر بالحقد والحيل والمغامرات والفتك والبطش والشهوات ، تنزه أنبياء الله عما يصفون ؛ ولهذا رأيت أن أعرض قصة أيوب عليه السلام على ضوء الآيات الكريمات ، وعلى ضوء ما اطمأننت عليه من الآثار الموثوقة :

كان أيوب عليه السلام نبياً كريما من نسل إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ، وأمه من بنات لوط عليه السلام ، وزوجته واسمها رحمة جدها يوسف عليه السلام ، وكان يسكن بلاد الروم ، فأرسله الله إلى أهل حوران فى جنوب دمشق ، ويبدو أن أيوب عليه السلام فيما ترويه الكتب السماوية كان صاحب نعم عظيمة من المال والبنين ، فأراد الله ـ جل جلاله ـ أن يبتليه ليعلى بالبلاء درجاته ، ولله ـ جل جلاله ـ حكمة فى الابتلاء ، فقد يبتلى عباده الأنبياء بالغنى والنعمة كما ابتلى داود وسليمان ، وقد يبتليهم بتكذيب قومهم كما ابتلى نوحاً وإبراهيم ولوطاً ، وهنا كان بلاء أيوب عليه السلام بالمصائب فى المال والولد والجسد ، فقد ذهب مال أيوب ، ومات أولاده ، وأقعده المرض

عن السعى ، فلم يتعرف عليه أثناء مصائبه إلا زوجته وثلاثة رجال آمنوا به ،وقد أثبتت زوجته إخلاصها فأخلصت له سبع سنين أو يزيد ، وهو فى أشد محنة من الفقر والثكل والمرض ، وقد ورد أن الشيطان تسلط عليها فتمثل لها فى صورة ناصح أمين يهمه أمر أيوب ، ووصف لها وصفة يمكن أن تشفى بها زوجها ، وهى أن تذبح قرباناً لغير الله ، فلما ذهبت تقنع زوجها أيوب غضب غضبة شديدة ، وأقسم لئن شفاه ربه ان يضربها مائة جلدة ، ولما بلغ البلاء أشده نادى أيوب ربه ذلك النداء المتضرع المؤدب ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ومعناه : لقد نال منى المرض والبلاء ، وبلغ منى مبلغاً لا يطاق ، ثم نادى ربه باسم عظيم من أسمائه الحسنى وهو أرحم الراحمين . ولعظمة إيمانه ومهابته لربه لم يقترح شيئاً واكتفى بالشكوى إلى الله ، ويبدو أن الشيطان فى أثناء ذلك كان قد تسلط عليه يوسوس فى صدره وينتهز أثر المرض والمصائب ؛ ولعل هذا هو ما عناه أيوب فى قوله : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ .

وهنا صدر الأمر الإلهى بالإجابة ووضع حد للبلاء ، فكشف الله الضر عن عبده الصابر ، وفى وقت قصير رد عليه أبناءه ورد عليه صحته وأمواله ، وتقديراً لوفاء زوجته ـ رضى الله عنها ـ أفتاه ربه أن يضم مائة عود من أعواد القمح فى ضغث ، أى : ضمه ثم يضرب بها زوجته ضربه خفيفة ، وبذلك لا يحنث فى يمينه ، بل يكون قد برر القسم دون إلحاق أى أذىً بزوجته الوفية .

ولم يستغرق الفرج إلا وقتاً قصيراً بدليل استعمال حرف الفاء فى العطف﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ نعم ! لقد زال المرض حالاً حين فجر الله له عيناً فاغتسل فيها ثم شرب من مائها فبرئ بإذن الله . وأما عودة المال والولد فيبدو أنه استغرق بعض الوقت ؛ ولهذا استعمل الوار فى العطف ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ . ويقول أستاذنا الإمام الشهيد سيد قطب : إن قوله تعالى

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ إشارة لها مغزاها ، فالعابدون معرّضون للابتلاء ، وتلك تكاليف الإيمان ، والأمر جد لا لعب ، والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء، وهى ليست كلمة تقولها الشفاه ، ولا دعوى يدعيها من يشاء . ولقد ختم الله تبارك وتعالى آيات سورة « ص » بشهادة مشرفة لأيوب بأنه نجح في الامتحان واستحق أن يفرج كربه ، وينال رضاء ربه .﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾.
وحسب هذا النبى شرفاً أنه ظل على مدى الأيام مضرب المثل فى الصبر ومثلا أعلى للصابرين .

الجزاء من جنس العمل

هذه آيات كريمات من سورة الأنبياء عقب الله ـ جل جلاله ـ بها بعد أن ذكر سبعة عشر نبياً ، وقد وجدت فى أسلوبها العظيم إشارات بليغة تتطلب بعض الإيضاح والجلاء .

بسم الله الرحمن الرحيم :﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٩٢ ـ ١٠٠].

هذه الآيات الكريمات فيها مواطن اختلف الأشياخ فى فهمها ؛ ولهذا رأيت أن أجلى بعض ما أشكل فيها واختلفت فيه نظرات المفسرين ، فأقول وبالله التوفيق وعليه التوكل :

أولاً : بعد أن ذكر الله ـ جلت حكمته ـ فى سورة الأنبياء سبعة عشر نبياً قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ ومعنى هذه الآية : أن جميع الأنبياء جاؤوا بشريعة واحدة هى شريعة التوحيد ، ومن ثم ، فأمة التوحيد أمة واحدة مهما تعدد رسلها وأنبياؤها . إنها أمة واحدة ربها واحد، وهى تصرف العبادة له وحده لا شريك له ، وتعرب كلمة ﴿ أمة ﴾ حالاً ، والتقدير : إن هذه أمتكم موحدة حول كلمة

التوحيد وتحت لواء التوحيد والعبودية لله .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُون ﴾ معناه : أن الناس اختلفوا فى أمر الدين وتقطعوه بينهم كأنما تجاذبوه فتقطع فى أيديهم وأخذت كل أمة بقطعة ، ولكن الناس مهما اختلفوا فى الدين وجعلوا الشريعة عضين ، فكلهم راجعون إلى رب العالمين حيث يرون هناك أعمالهم ويعلمون من هو فى ضلال مبين .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُون ﴾ . إن المؤمن لابد أن يصدق إيمانه بالعمل الصالح ، فإذا قرن إيمانه بالعمل الصالح ، فإن الله ـ وهو الشاكر العليم ـ سوف يشكر سعيه ويوفيه أعماله ، ويضاعف حسناته التى كتبها له والجملة الحالية ﴿ وَهُوَ مُؤْمِن ﴾ هى إطناب احتراس ؛ لأن الإيمان شرط رئيسى فى قبول الأعمال .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُون ﴾ هذه الآية اختلف فيها الأشياخ فقال بعض المفسرين : إن ﴿ لا ﴾ فى قوله : ﴿لا يَرْجِعُون ﴾ زائدة ، ويكون المعنى عندهم : لقد قضت سنة الله التى لا تبديل لها أن أى أمة حاق بها العذاب يحرم عليها أن تعود للدنيا ثانية وتعطى فرصة للعمل الصالح ، ويكون التقدير : لقد حرَّمنا على أية قرية أهلكناها أن ترجع إلى الحياة مرة ثانية وفسرها آخرون بأن جميع الأمم سوف ترجع إلى الله ـ جل جلاله ـ وحرام على أية قرية من تلك القرى التى أهلكناها ألا ترجع إلى ربها ، أى : من المستحيل أن يستثنى من الرجوع إليه والبعث بين يديه ؛ حتى ولو كانت تلك القرية قد نالت نصيبها من العذاب فى الدنيا ، إذ لابد أن توفى حسابها فى الآخرة .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ تدل هاتان الآيتان على أن من أشراط الساعة انفتاح يأجوج ومأجوج على العالم وأهله ، ولا ندرى هل هو انفتاح قد حصل كما فتح المغول على الدولة العباسية فقتلوا الملايين من المسلمين ؟ أم هو انفتاح سوف يأتى ؟ وفى كلتا الحالتين ، فإن فتح يأجوج ومأجوج هو من أشراط الساعة، ويأجوج ومأجوج كما جاء فى الأخبار : هم خلق من خلق الله مفسدون فى الأرض يدمرون ما تدوسه أقدامهم من الأرض تدميراً . والآيتان تبينان أن فتح يأجوج ومأجوج هو إيذان باقتراب الوعد الحق الذى هو القيامة حين يقوم الناس من قبورهم فيصرخ الظالمون : ياويلنا قد كنا غافلين عن هذا وما توقعناه، ثم يستدركون فيقولون : ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ومعناه : لم نكن جاهلين بالساعة ولكننا كنا ظالمين حين كذبنا بها وجادلنا الرسل حول وقوعها.

سادسا : قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ حين نزلت هذه الآية ، شق على قريش أن تسب آلهتهم بمثل هذه الإهانة . إن آلهتهم التى يعبدونها ستكون هى وعابدوها حطباً لجهنم ووقوداً لها، وقد قرئت الآية : ﴿ حَطَبُ جَهَنَّمَ ﴾ فقال عبد الله بن الزبعرى: هذا الكلام يمكن أن نفحم به محمداً ونكشف التناقض فى قرآنه ، إن النصارى يعبدون عيسى، واليهود يعبدون عزيراً ، وهذا الكلام يفيد أن عيسى والعزيز سيدخلان جهنم كمعبودين للناس ، وهنا نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ . وبذلك استثنى أولئك وأمثالهم من المعبودات التى تلقى فى جهنم ، وقد أشار القرآن

الكريم إلى ذلك الموقف من المشركين ، وإلى فرحتهم حين نزلت هذه الآية التي ظن الكفار أنها ستكون مغمزاً يغتمزون في القرآن الكريم ، وكيف هتفوا وصاحوا كأنهم منتصرون ، فقال تعالى في سورة الزخرف : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ وقد قرئت بكسر الصاد ومعناها يضجون[1] وقد ختم الله تعالى هذه الآيات ببرهان منطقي على وحدانية الله فقال : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ نعم ! لو أن الأصنام آلهة ما قذف بهم في النار، ولما حشر أتباعهم المشركون على وجوههم في النار صماً وبكماً وعمياً . اللهم ارزقنا صدق الإيمان، وصفاء التوحيد ، وإخلاص الأعمال ، وزدنا ياربنا بصيرة بهذا الدين ، وتقوى لرب العالمين .

---

(١) وبالمناسبة فكثير ممن يقرؤون هذه الآية يقرؤونها : «يصدون» بضم الصاد مع أنها في المصحف الشريف مكسورة .

بشرى لعباد الله الصالحين

هذه الآيات الكريمات هى مسك الختام لسورة الأنبياء ، وخواتيم سور القرآن ـ كما أسلفنا ـ تكون بمثابة خلاصة شافية وتعليق موجز معجز وحكمة بالغة بليغة تقرؤها ، فتشعر أن السورة قد تركت فى نفسك انطباعاً نقش فى ضميرك بأحرف من النور .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١ ـ ١١٢] .

أولاً : بعد أن ذكر الله ـ جل جلاله ـ مصير المشركين وآلهتهم ، وأنهم سيكونون حطباً لجهنم وسيحشرون إليها وهم يزفرون عمياً وبكماً وصماً ، ذكر فى الآيات الثلاث الأولى مصير المؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ إذا عرض الناس على الله يوم القيامة رأوا

النار ، فانخلعت قلوب ، واطمأنت قلوب، أما تلك التى تنخلع فهى القلوب التي كانت تنكر الآخرة وتكفر بوعد الله ووعيده ، وتقول ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين ﴾ . هذه القلوب ترى فى البعث مفاجأة لم يتوقعوها ، أما الذين سبقت لهم من الله الهداية، وآمنوا بالله واليوم الآخر وتزودوا بالحسنى من الباقيات الصالحات : فأولئك يبعدهم الله عنها بحيث لا يسمعون حسّها ولا تفزعهم ، وحتى حين يردونها تنفيذاً لوعد الله ، فإنهم لا يسمعون شهيقها ؛ لأن الله ـ جل جلاله ـ يأمرها حين يمر عنها المحسنون أن تخفت وتهدأ ، ثم ما هو إلا لمح البصر حتى يكونوا فى الجنة ، لهم فيها ما تشتهى أنفسهم من النعيم الخالد ولهم فيها ما يدعونه ويطلبونه من قرب الله ورؤيته ورضوانه .

إن المؤمن إذا أقبل على الجنة تتلقاه الملائكة باستقبال حفى تقول له : لقد وكلنا ربنا أن نكون معكم وفى نصرتكم وهدايتكم ورعايتكم أيام الحياة الدنيا ، وأن نظل معكم وفى خدمتكم ورعايتكم فى الآخرة ، وها هو ذا اليوم الذى وعدكم الله فى الدنيا ألا وهو يوم دخول الجنة والنعيم الخالد.

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِين ﴾ فيه صورة توضح القدرة القادرة ، والعزة القاهرة ، فالله ـ جل جلاله ـ يطوى السماء على جلال عظمتها ، وسعة ملكوتها كما يطوى الصحيفة على ما فيها من كتابة . وقد قرئت الآية الكريمة ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكتاب ﴾ أى : كما تطوى الصحيفة ما فيها من كتابة وهى صورة تبين أنَّ السماء يوم القيامة تطوى، ولا يكلف الله طيها إلا بمقدار ما يطوى الإنسان صحيفة من الورق على ما فيها من الكتابة ، ولا غرو فهو الذى بدأ الخلق الأول ،

وهو القادر على إعادته ، وقد وعد ـ ووعده الحق ـ أن يعيد الخلق كما بدأه ويبعث الناس إليه ، وهو ـ جل جلاله ـ لا يخلف وعده ، وكان وعد الله مفعولاً .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ معناه : لقد كتبنا فى الزبور وهو الكتاب المنزل على داود عليه السلام وكنا قد كتبنا مثل ذلك فى التوراة ، أى : قضينا وقدرنا أن الإيمان لابد منتصر ، وأن الأرض يرثها المؤمنون مهما طال الصراع بين الحق والباطل ، وهذ ما حصل فى كل معركة حاسمة وقعت بين المؤمنين والكافرين.

وقد ورد هذا المعنى في سورة الأعراف في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهى الآية التى كتبها رسول الله ﷺ إلى مسيلمة فى خطابه الذى قال فيه: « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » والأرض هى الجنة فى الآخرة وديار الدول فى الدنيا ، وتفيد الآية أنه إذا التقى جيشان فى الدنيا مؤمن وكافر ، فلابد أن يكون النصر للمؤمن . ويترتب على هذا النصر أن يرث الإيمان أرض الكفار ، أما إذا التقى جيشان كافران ، فالديار إذ ذاك تكون لأصلح الفريقين فى أمر عمارة الأرض وحسن التصرف فى مناكبها واستصلاح أرجائها .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ معناه : أن هذه الحقائق التى نعرضها فى القرآن فيها بلاغ شاف وذكرى نافعة للعابدين الذين عرفوا الله فعبدوه حق العباده ، ثم

يخاطب نبينا محمداً ﷺ بصيغة الحصر والتوكيد ، فيؤكد له أن الله جلت حكمته ما أرسله إلا رحمة للدنيا جميعاً للبر ؛ والفاجر ، أما للبر فلأن الله هداه سبيل الطاعة والعبادة والجنة ، وأما للفاجر ؛ فلأن الله ـ جل جلاله ـ سلم الكفار منذ بعثه محمد ﷺ مما وقع فيه سلفهم الكفار من الخسف والعذاب . نعم إن محمداً ﷺ كان ومازال رحمة الدنيا ؛ لأن الناس جميعاً برسالة محمد محوطون بالشمول والهيمنة ، وما لتعاليم محمد من أثر فى إسعاد الإنسانية ، وما فى أخلاق محمد من المثل العليا، فاستفادوا منها طوعاً أو كرهاً ، وستظل دعوة محمد رحمة للعالمين يأوون إليها ، كما تأوى السفينة إلى شاطئ الأمان هاربة من العاصفة المدمرة . لقد قرأ كثير من رجال الفكر الأجانب دعوة محمد ﷺ فلم يسعهم إلا أن يشهدوا أنها أعظم دعوة شهدتها الإنسانية ، وأن فيها حلاً لمشكلات هذا العالم وإنقاذاً لهم مما يهدد الإنسانية من الدمار .

مشهد رهيب من
مشاهد يوم القيامة

هذه آيات من سورة الحج يكاد أسلوبها يقطع نياط القلوب ويستنزف غالى الدموع ، وتهبط له جوامد الصخر . إنها تصف مشهداً من مشاهد القيامة ، وتتبعه بإنكار على من يجادل فى الله بغير علم ويتبع درب الشيطان .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج : ١ ـ ٤].

هذه الآيات هى المطلع الهائل الذى استهل به ربنا ـ تبارك وتعالى ـ سورة الحج ، وهذه بعض جوانب عظمة إعجازها وروعة معناها ومبناها :

أولاً : سورة الحج سورة مختلطة منها مكى كمطلع السورة ، ومنها مدنى كختامها ، وهى من السور العجيبة ، فقد نزلت ليلاً ونهاراً ، سفراً وحضراً ، سلمياً وحربياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، محكماً ومتشابهاً ، وهى السورة الوحيدة التى اشتملت على سجدتين ، وقد روى مسلم فى صحيحه : أن النبى ﷺ قال وهو يذكر مطلع سورة الحج : « **يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول آدم : لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول جل جلاله : أخرج بعث النار ، فيقول آدم : وما بعث النار ؟ فيقول الله تعالى : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين** » ثم قال النبى الكريم : « **فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى**

الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾.

وقد شق ذلك على أصحاب رسول الله وركبهم همّ شديد ، فطمأنهم رسول الله ﷺ أن أمة محمد قلة جداً بالنسبة للقرون الأولى ، وأن مثلهم فى الأمم كالشامة فى جنب البعير ، ومن ثم فلن تكون منهم نسبة كبيرة فى النار، وذكرهم بأن يأجوج ومأجوج وحدهم يشكلون تسعة وتسعين بالمائة بالقياس إلى أمة محمد .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ ياأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ نداء من الله ـ جلت حكمته ـ إلى جميع البشر أن يتقوا الله ويخافوا مقامه ؛ لأن أمامهم يوماً هائلاً بين يدى لقاء الله ، إنه يوم تكون فيه زلزلة بين يدى الساعة؛ وهى زلزلة أمرها عظيم وشأنها خطير ، وفى قوله تعالى : ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إيجاز قصر ، لأن هاتين الكلمتين تجمعان كل خطير ومرهب وهائل من الخوف والعذاب ، ومن المعروف أن الآيات التى تبدأ بقوله تعالى : ﴿ ياأَيُّهَا النَّاس﴾ تكون مكية ، والتى تبدأ بقوله تعالى : ﴿ياأَيُّهَا الذين آمنوا ﴾ تكون مدنية وفى أول سورة الحج هذه الآية التى مطلعها ﴿ ياأَيُّهَا النَّاس﴾ وفى الاية قبل الأخيرة من سورة الحج آية شاملة للصالحات وهى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ومن ثم فسورة الحج مكية ومدنية معاً كما أسلفنا ، وقد بدأها ربنا ببداية غاية فى الإنذار ، وختمها ـ جل جلاله ـ بأمر كريم من عنده أن يظلوا قادة لركب الإنسانية يهدونها إلى الحنيفية السمحة حيث العبادة وفعل الخير ، والجهاد بأنواعه، ورفع الحرج ، والاعتصام بالله ، وقد لاحظت فى كتب التفاسير أن سورة الحج قد أخذت من كتب التفسير حيزا أكبر مما أخذ غيرها من

السور التى هى فى مثل طولها ؛ وذلك لكثرة ما فيها من آيات تستحق أن يوقف عندها وقفات طويلة ؛ ولأن فى أساليبها من أصناف البلاغة ما يستوقف المتدبر ويلفت نظر المتأمل .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ حين وصف الله الزلزلة بأنها شيء عظيم ـ وهو وصف فيه إبهام وإيجاز ـ أراد أن يوضح ويفصل ذلك الإيجاز، ويوضح من ذلك الإبهام ، فذكر هذه الآية التي تقشعر منها قلوب الذين آمنوا ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ . إن المرضعة لاتذهل عن رضيعها إلا لأمر عظيم ـ وإن الحامل لا تلقى ما فى بطنها إلا لخطب جسيم ، وما أجمل هذا الطباق الرائع طباق النفى فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ﴾ إذ يكون منظرهم وهم يترنحون وقد فقدوا توازنهم صورة طبق الأصل لمنظر السكارى ؛ بيد أنهم ليسوا سكارى ولا شربوا خمراً ، وإنما هو عذاب الله الهائل الذى ينسى الناس أنفسهم وأبناءهم وأزواجهم ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ ـ ٣٧] إن هذا اليوم هو يوم الحساب حين يحشر الله العباد حفاة عراة غرلاً كما خلقهم أول مرة .

ثالثاً : حين ذكر الله هول الساعة وشدة موقفها وعظمة زلزالها ؛ لفت الأنظار إلى قوم من بنى آدم معاندين يغفلون عن الحساب ليجادلوا فى قدرة الله ويتماروا فى أمر الساعه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، يشير بذلك إلى أن جدلهم غوغائى لا يستند إلى علم ومنطق ، ولا إلى إيمان وهدى، ولا إلى كتاب سماوى ينير بوحى الله ، إنما هو من وحى شيطان متمرد على ربه ، والشيطان كما جاء فى القرآن يوحى إلى أوليائه

ويعملهم المجادلة ، وحسبك أن كثيرين من أتباع الشياطين فى أيامنا هذه يعدون من رواد الفكر ورجاله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ . إن الشياطين إذا استولت على إنسان فأتبعها وتولاها واتخذها قدوة ، فإنها تضله وتهديه ، أى : تضله عن طرق الخير وتهديه إلى دروب الضلال وإلى طريق جهنم ، لقد رأيت بأم عينى فى أيامنا هذه شياطين من حملة الأقلام المشبوهة ، ومن ذوى الأفكار الهدامة يكتبون بأسلوب حاذق معجب فيستهوون عدداً من المخدوعين ، وفى وقت قصير ترى لهم معجبين ومريدين وعشاقاً لفنهم ، مع أن أدبهم كثيراً ما يكون داعراً ، وفنهم كثيراً ما يكون ساقطا مقلداً للكفر ؛ نسأل الله أن يعيذنا من الشياطين ويثبتنا فى وجه دعوات المشبوهين.

آيات الله فى الخلق والإماتة

هذه آية كريمة من سورة الحج أوردها الله ـ جل شأنه ـ دليلاً على قدرته القادرة وعزته القاهرة دليلاً على أنه قادر على إحياء الموتى ، وتشتمل الآية على برهانين من الله ـ جل جلاله ـ على البعث والنشور .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

هذه هى الآية الكريمة الجامعة وهذه بعض إشاراتها المعجزة :

أولاً : هذه الآية الكريمة نزلت أيام كان علم التشريح مجهولاً أو فى حكم المجهول ، ومع هذا فهى تقرر أن خلق الإنسان يمر فى الرحم بمراحل : من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، ثم إلى جنين تحددت صورته ونفخت فيه روحه ، وهذا الجنين لا يلبث أن يخرج من الرحم طفلاً ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ..... » إلى آخر الحديث ، ترى من علم النبى الأمى محمداً ﷺ هذه المعلومات الدقيقة ؟! لا شك أنه إلهام الله ووحيه .

ثانياً : تبدأ الآية الكريمة بقوله تعالى مخاطباً جميع البشر : ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن**

كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أى : خلقنا أباكم آدم من تراب ،وإذن فالآية خطاب لكل من يشك فى البعث ويستبعده أو يرى استحالته، ولا شك أن الذى خلق الإنسان من تراب ـ وعلى غير نموذج ـ قادر أن يعيده بسهولة بعد أن عرف نموذجه وعرفت صورته ، ووجدت عناصر جسده ، والعملية الثانية أسهل من الأولى مع أن الله ـ جل جلاله ـ ليس عنده سهل وصعب ، بل إن أمره بين الكاف والنون .

ثالثاً : فى حديث الرسول الكريم أن نفخ الروح فى الجنين يكون بعد أربعة أشهر ، أى : مائة وعشرين يوماً ، وهذا أمر مهم يترتب عليه أمور تتعلق بالنفقة وعدة المرأة بعد وفاة زوجها ؛ لأن الجنين يتحرك فى بطن أمه بعد أربعة أشهر ، وعلى هذه الحركة يتوقف استمرار الإنفاق على الأم كحامل، أو قطع الإنفاق عنها لبراءة الرحم وانتهاء العدة بعدم ظهور الحمل .

رابعاً : النطفة تتكون من اتحاد الحيوان المنوى من الرجل بالبويضة من الأنثى، وحالما يتم هذا الاتحاد يوجهها ربها إلى جدار الرحم ويلهمها الالتصاق به لتتغذى بالامتصاص من ذلك الجدار ، والعلقة قطعة دم متجمدة طرية، والمضغة قطعة من اللحم بمقدار ما يلقيه الرجل فى فمه ليمضعه ، والمضغة قد يخلقها الله فيوضح صورتها وينفخ فيه الروح ، وقد تسقط من الرحم غير مخلقة وإذا أسقطت المرأة طفلها قبل أن تدب فيها الحياة ، فإنه لا يصلى عليه ، أما إذا نزل وقد تم خلقه فيسمى ويغسل ويكفن ويصلى عليه ، أما إذا استهل صارخاً فإنه يرث ولو مات بعدها حالاً ، وإذا ضربت امرأة فى بطنها فأسقطت علقة أو مضغة مما يشعر أنها حامل ، ففيه نصف عشر الديه ، أما إذا سقط فاستهل صارخاً ففيه دية كاملة والسقط ينفع والدية فى الآخرة ، وفى الحديث الذى رواه ابن ماجة أن

رسول الله ﷺ قال : « لسقط أقدمه بين يدىّ أحب إلىّ من فارس أخلفه» .

خامساً : فى قوله تعالى:﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أى : لنثبت لكم قدرتنا القادرة على إحياء الموتى ، وبعثهم إلى ربهم بعد أن أطلعناكم على العملية الدقيقة فى إنشاء الإنسان ، وقوله تعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معناه : إننا نبقى الجنين فى الرحم إلى أجله المحدد ، فإما أن يسقط قبل نضوجه ، وإما أن تضعه أمه طفلاً تام الخلقة نابضاً بالحياة ، فإذا خرج الطفل إلى الحياة ؛ تدرج بإذن الله حتى يبلغ أوج قوته ، وقد يتوفى الإنسان وهو قوى ، وقد يرد إلى أرذل العمر وهو الهرم ، وقد سماه الله أرذل العمر ؛ لأن الشيخ إذا أوغل فى الهرم عاد طفلاً فى ضعفه وحاجته إلى العناية ، وطفلاً فى عقليته ، وطفلاً فى فهمه ، حتى إنه ليفقد الذاكرة وينسى العلم ، فلا يعلم شيئاً بعد أن كان لديه علم وفهم وذاكرة ، وقد كان رسول الله ﷺ يتعوذ بالله من أرذل العمر ويعلم آل بيته هذا الدعاء : « اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » ولا غرو فالمعمر ينكس فى الخلق ، وشتان ما بين وجه الشاب فى ميعة الصبا وشرخ الشباب وبين وجهه وقد غضنته السنون وقلبت سحنته الأيام والليالى ، وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا تعقلون ﴾ [يس : ٦٨].

سادساً : وفى الآية نفسها برهان آخر على البعث فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ، وهو برهان مشاهد فى كل وقت ، وقديماً سأل أعرابى رسول

الله ﷺ : كيف يحيى الله الموتى ؟ فقال له رسول الله ﷺ ما معناه : «ألم تمر بوادى قومك قفراً تضربه الشمس ؟ » قال : بلى ، فقال ﷺ : « ألم تمر بالوادى وهو يهتز خضرة وزرعاً ؟ ؟ » قال : بلى ، فقال له النبى الكريم : « كذلك يخرج الله الموتى » ومعنى قوله تعالى : ﴿هَامِدَةً﴾ شبه ميتة ، لا حركة فيها ولا حياة ، ومن ثم يقال : جثة هامدة ومعنى كلمة ﴿اهْتَزَّتْ﴾ : تحركت بخروج النبات وماجت بخضرته وقوله : ﴿رَبَتْ﴾معناه : زادت وارتفعت حين يستوى النبات ويعلو على سوقه أزواجاً من نبات شتى ، وإذ ذاك تصبح متعة للطرف وبهجة بالقلب تتحف الناظرين منظراً من بدائع صنع الخالق المبدع ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتي إنه على كل شيء قدير﴾.

علاقة المؤمن بربه ثابتة قوية
لا تخضع للأهواء ولا الظروف

هذه آية واحدة من سورة الحج لها أهمية عظمى فى تحديد العلاقة بين العبد وربه ، وهى علاقة لا يجوز بحال من الأحوال أن تكون تجارية أو مؤقتة متوقفة على السراء . إن المؤمن إذا خالطت قلبه بشاشة الإيمان ؛ أحب ربه على كل أحواله معطياً وآخذاً ، باسطاً وقابضاً ، عافياً ومعاقباً ؛ لأن هذا الحبيب الأعظم لا يعطى ويبسط ويعافى إلا بحكمة ، ولا يأخذ ويقبض ويعاقب إلا لحكمة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١].

أقول وأسأل الله لى وللإخوة المستمعين ولسائر المسلمين أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه :

أولاً : الصورة الفنية فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ هى صورة للإنسان الذى اتخذ من الدين علاقة تجارية بحيث إذا ربح اطمأن وإذا خسر تزعزع ، ومثل هذه العلاقة لا تصلح إلا للتجارة ، أما أن تصلح للعقيدة فذلك مستحيل ؛ وذلك لأن المؤمن حين يرتضى الإسلام ديناً يقرن هذا الرضا بالثبات ، ويعينه ربه على هذا الثبات ، فينزع من قلبه الخوف والشك والتأرجح، ويرزقه سكينة لا تنهض لها المصائب . لقد كان سحرة فرعون حين نصبهم فرعون لتحدى موسى كانوا نموذجاً للكفر والعبودية للطغيان والمتاجرة بالشعوذة ، فلما رأوا

برهان الله فى معجزة موسى عليه السلام ؛ سجدوا سجود المعترف بقدرة الله ونبوة رسوله ، وكانت تلك السجدة جذوة هائلة من الطاقة أمدتهم بإذن الله بروح هائلة باعثة نقلتهم فى دقائق من طواغيت إلى ربانيين ، نقلتهم من دركات المطامع الرخيصة التى أنطقتهم فقالوا لطاغوتهم: ﴿أإنَّ لنّا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ [الأعراف : ١١٣] وغمستهم فى أوحال العبودية للعبد حين ألقوا عصيهم وهم يقولون : ﴿ بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ [الشعراء : ٤٤] ثم ما هى إلا لحظات حتى تغيرت كل مقاييسهم وإذا كل واحد منهم شامخ يعلن إيمانه برب العالمين رب موسى وهارون ، وبعد أن كان كل طموحهم أن ينالوا فضلة من دراهم فرعون إذا همهم الآن أن ينالوا مغفرة الله ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ [طه : ٧٣] ثم لما هددهم بالتعذيب والقتل وبقطع الأيدى والأرجل من خلاف ، والصلب فى جذوع النخل ؛ وجدوا أنهم بعون ربهم بإزاء ركن شديد يحمى من الخوف ، ويهون أمر الدنيا ألا وهو العقيدة التى هى أغلى من كل ما فى الحياة ، فلله ما أروع قولتهم بعد أن سمعوا تهديد فرعون فقالوا : ﴿ لن نؤثرك علي ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ [طه : ٧٢] الله أكبر ، ما أروعها من نقلة وما أجله من موقف : نقسم بالله الذى فطرنا من عدم وعلى غير نموذج بأنا لن نفضلك على ما جاءنا من آيات الله التى ثبتت عقيدتنا ، فافعل ما تريد لأن كل ما تستطيع أن تفعله أن تصيبنا بمصائب الدنيا ، وتلك لا تخيفنا إذا سلم لنا ديننا وسلمت لنا عقيدتنا .

ثانياً : نعود إلى الصورة الملموسة الطريفة فى الآية : أرأيت إلى إنسان يقف على حافة هوة شاهقة فى وضع متأرجح ينظر إلى الهوة السحيقة فينخلع قلبه

ثم تعاوده طمأنينة مؤقتة من ذلك الدوار لكنها لا تلبث أن تزول ، فينقلب من الخوف والدوار على وجهه ، شتان ما بين من يقف فى أرض منبسطة منساحة من حوله ، وبين من يقف على شفا سطح عمارة من مائة دور ليس لها سور يحوط أطراف سطحها ، هذه هى الحال المروعة التى تسيطر على من يعبد الله بقصد المنفعة العاجلة ، فإن نال تلك المنفعة العاجلة فرح واطمأن ، وإن ابتلى بأى اختبار من حوادث الدنيا قطع علاقته بربه ، فكان خسرانه مبيناً واضحاً ؛ لأنه يخسر فى الحال طمأنينته وإيمانه وأمله فى ربه وسعادة الرضا والتسليم للقضاء .

ثالثاً : جاء فى مناسبة الآية روايات مختلفة ، والحق أن هذه النماذج ـ ممن يعبد الله عبادة مصلحة ـ كثيرة فى كل زمان ومكان ، وما أكثر أولئك الذين تعجبك أحوالهم فى الرخاء ، فإذا جاءت الشدة ؛ انهار إيمانهم فى مواجهة البلاء . يقول أستاذنا الإمام الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث فى ظلال هذه الآية : من الناس من يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة، ويظنها صفقة فى سوق التجارة... إن العقيدة هى الركيزة التى يرتكز إليها المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله وهو مرتكز عليها ، وهى الحمى الذى يلجأ إليه ، والسند الذى يستند عليه ، والمؤمن لا يجرب إلهه ، فهو راضٍ سلفاً بكل ما يقدره ، مستسلم دواماً لكل ما يجريه عليه من السراء والضراء ، العقيدة هى إسلام المخلوق للخالق صاحب الأمر فيه، وواهب حياته ووجوده .

تروى كتب التفسير : أن رجلاً أسلم ، فذهب بصره ، فتشاءم بالإسلام وارتد ، فنزلت الآية ، وكان الرجل يقدم المدينة بقصد الإسلام ، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله وإبله ما يريد ، قال : هذا دين صالح ، وإن ولدت امرأته أنثى ، أو نتجت إبله وخيله ، غير ما يرغب ، قال : هذا

دين سوء ، فنزلت هذه الآية الكريمة .

رابعاً : إن أمتنا فى وضعها الراهن تمر بمحنة وهزائم متلاحقة وتعيش جواً من المؤامرات ومن تألب القوى الشريرة الكافرة عليها ، وثم تساؤلات عما تحتاجه أمتنا لكى تخرج من مستنقع الهزائم إلى قمم النصر ، ويتحدث المتسائلون عن نقص الأسلحة والعتاد والتكنولوجيا والتدريب ، والحق أن أمتنا لديها بفضل الله من الأسلحة والعتاد والرجال ما لا يملكه عدوها ، لكن شيئاً واحداً فقط هو الذى ينقص أمتنا ألا وهو الالتفاف حول عقيدة الإسلام ، وغرسها فى شغاف الضمائر ، وهى بإذن الله كفيلة أن تملأ قلوبنا ثباتاً وصبراً وشجاعة كما فعلت بقلوب أسلافنا حين كان العشرون منهم يغلبوا مائتين . نسأل الله أن يحفظ علينا عقيدة الإسلام ، ويجمعنا تحت لواء القرآن لنظل منتصرين بالإيمان معتزين بالقرآن ، إنه على ما يشاء قدير وهو بالإجابة جدير .

حول الركن الخامس
من أركان الإسلام

هذه آيات من سورة الحج يبدو أنها نزلت بالمدينة المنورة ، وهى تدور حول الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج ، وهى تكمل الأحكام الواردة فى سورة البقرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٥ ـ ٢٩] .

وإلى الأخ المستمع بعضاً من مراميها الحكيمة ، ومبانيها المحكمة ، وإشاراتها البلاغية :

أولاً : البيت الحرام ـ شرفه الله ـ أول بيت على وجه الأرض خصص لذكر الله وعبادته ، وقد ألهم الله آدم عليه السلام أن يبنيه فى اطهر بقعة على وجه الأرض، ومـا زال هذا البيت الكريم منذ أبينا آدم إلى أيامنا هذه قبلة المؤمنين ، ومنية الصالحين ، وماعرف أن مكاناً على وجه الأرض نال هذا الشرف وتجاوبت أرجاؤه بأصوات الملايين من الذاكرين المؤمنين كما كرم الله المسجد الحرام بهذا ، ومن ثم فما يجوز لحاكم مسلم أن يصد

أى مـؤمن بالله عن حج بيت الله ؛ لأن هذا المكان الطاهر جـعله ربنا للناس جميعاً من بدو وحضر وعرب وعجم ؛ ولهذا فقد اقترفت قريش إثماً عظيماً لا يغتفر حين منعت محمداً ﷺ وصحبه الكرام من العمرة عام الحديبية ، ويبدو أن الآية الكريمة نزلت بتلك المناسبة .

ثانياً : الواو فى قـوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيـلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ حالية ، وخبر إن حذف لوضوحه ؛ لأنه مفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيـهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ويصبح التقدير : إن الذين كفروا صادين المؤمنين عن حج بيت الله سنذيقهم من عذاب أليم .

ثالثاً : يفيد قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيـهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أن الإنسان إذا دخل المسجد الحرام لا يحاسب فقط على ما يبديه من قول أو عـمل لكنه أيضـاً يحـاسب على مـا ينويه ويريده ، وهذا مـا ذهب إليـه كثيرون من المفسرين ، فجاء عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من الصحابة أنهم قالوا : لو هَمَّ رجل بقتل رجل بهذا البيت وهو بعدن (أبين) لعذبه الله ، وعدن مدينة معروفة ، وتسمى عدن أبين نسبة لمنطقتها كما تقول : طرابلس الشام و وطرابلس المغرب . وكل من يهم فى الحرم بإلحاد ، أى : بانحراف نحو المعصية والظلم ، فسوف يعذب عذاباً أليما . إن الله ـ جل جلاله ـ لا يعاقب العباد على ما ينوونه ولا يفعلونه إلا فى المسجد الحرام ، فإن من ينوى الإضرار والظلم يحاسب كأنه أضر وظلم .

رابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيـهِ وَالْبَادِ ﴾ وهى قراءة حفص تعرب ﴿سَوَاءً﴾ حالاً ، والتقدير : جعلناه للناس متساوين أو

متساوياً فيه العاكف والبادى ، وتعرب ﴿الْعَاكِفُ﴾ فاعلاً لكلمة سواء التى هى فى معنى اسم الفاعل ومن قرأها « سواء » اعتبر الجملة ﴿ سواء العاكف﴾ فيه والباد حالاً وتكون ﴿ سواء ﴾عندئذ خبراً مقدماً ﴿والعاكف﴾ مبتدأ ، والجملة فى محل نصب حالاً .

خامساً : أمر الله سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يذهب بزوجته هاجر وولده إسماعيل من فلسطين إلى مكة المكرمة لحكم بالغة : منها : أن يبعث محمد فى تلك الديار من ولد إسماعيل ، ومنها : أن يعيد إبراهيم وإسماعيل بناء البيت الحرام على القواعد التى بقيت من عهد آدم ، وكان البيت قد طمست معالمه بالطوفان ، وتعاقب الأيام ، لكن الله ـ جلت قدرته ـ أرسل ريحاً كشفت الرمال عن الأسس ، فظهرت القواعد ورفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت وهما يرددان تلك الدعوة المخلصة : ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

سادساً : لما أتم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بناء البيت ؛ أمر الله إبراهيم أن يؤذن فى الناس فى مشارق الأرض ومغاربها أن يحجوا ، فصعد إبراهيم عليه السلام جبل أبى قبيس ونادى بأعلى صوته : يا أيها الناس ، إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا ، فأسمع الله جميع سكان الأرض نداءه ، وهتفوا : لبيك اللهم لبيك ، وجرت التلبية على ذلك .

سابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ تعرب ﴿ رِجَالاً ﴾ حالاً ومعناها : مشاة ، ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أى : من الإبل لطول السفر يأتين من كل طريق سحيق البعد ، واختلف المفسرون ـ رحمهم الله ـ فى أيهم هو الأفضل الحج ماشياً أم راكبا ؟ والصحيح والله أعلم : أن الركوب أفضل للاقتداء برسول الله ﷺ .

ثامناً : فى قوله تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُم ﴾ إيجاز قصر فى غاية البلاغة، وقد جاء بكلمة ﴿مَنَافِعَ﴾ جمعاً نكرة ليفسرها المسلمون كما تقتضى ظروفهم من المنافع السياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، وليتخذوا من تلك الأيام المباركة التى يقضونها فى مكة المكرمة فرصة ذهبية ليذكروا الله على ما رزقهم من لحوم الأنعام ـ الإبل والبقر والغنم ـ ليأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير.

تاسعاً : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ معناه : إذا تحلل الحجيج من إحرامهم فليزيلوا درنهم وما علق بهم من أوساخ الجسد بقص الأظافر والحلق أو التقصير وغيرها ، ثم يختموا الحج بطواف الوداع.

عاشراً : الوفاء بالنذر واجب إلا من نذر أن يعصى الله ؛ لأن العبد فرضه على نفسه ، واختلف الأئمة فى جواز أكل الإنسان من نذره ، ويبدو ـ والله أعلم ـ أن صيغة النذر يجب أن تلتزم وتنفذ ، فإن نذره للمساكين لم يأكل منه ، وإن نذره للأهل والمساكين أكل منه ، أما الأضاحى والهدى فيأكل منها ، ويهدى ويوزع على الفقراء اقتداء برسول ﷺ ، وخلافاً لقريش الذين كانوا فى الجاهلية لا يأكلون لحم الأضاحى . نسأل الله أن يحفظ على هذه الديار المقدسة أمنها ليسعد بهذا الأمن وفود الله من حجاج بيته ومعتمريه .

المستحقون لدفاع الله عز وجل

هذه أربع آيات من سورة الحج وددت لو أن المسلمين فى هذه الأيام نقشوها فى ضمائرهم يتلونها ويتدبرونها ويتقرّوْن فيها أسباب النصر ؛ لأنها أعظم وصفة لعلاج المعنويات ، وأصدق هاد إلى دروب الكرامة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج : ٣٨ ـ ٤١].

هذه هى الآيات العظيمات ، وهذه بعض اللطائف حول إشاراتها البلاغية والمعنوية :

أولاً : هذه الآيات الكريمات إذن من الله للمؤمنين أن يبدؤوا رحلة جديدة من مراحل مقاومتهم للكفر ، فبعد أن كانت المقاومة فى مكة بالموعظة الحسنة، والصبر والثبات ، وبالدعاء على الظالمين ، أصبحت الآن فى المدينة بالجهاد فى سبيل الله ، واستعمال القوة فى تأديب الظالمين الذين عذبوا المؤمنين حتى اضطروهم إلي الهجرة وترك الديار ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ . ومعنى هذه الآية الكريمة : إعلان علنى من الرب جل جلاله أن المؤمنين قد ظلموا ، وإذن فهم يملكون أن يتصرفوا تصرف المظلوم الذى يريد استرداد حقه

ودفع الظلم عن نفسه ، وفى الآية إيجاز حذف كما يقول القاضى : تقرر المحكمة أن المتهم مذنب ويحذف بقية الكلام الذى تقديره ولهذا تطبق عليه العقوبة كذا وكذا التي تناسب ذنبه . وهنا فى الآية الكريمة يقول الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ والمحذوف هنا هو: ولهذا فقد أذن لهم بالجهاد لدفع الظلم عن أنفسهم واسترداد حقوقهم . وهذه هى أول آية نزلت فى الجهاد ، ويبدو أنها نزلت على رسول الله ﷺ حالما وصل إلى المدينة المنورة ؛ ولأنها أول آية فى الجهاد ؛ ولأن المسلمين لم يكن لهم عهد بمواجهة المشركين بالقوة ؛ لهذا قدم الله الآية ، وعقب عليها بما يرفع معنويتهم ، ويقوى من عزيمتهم ، ويثبت فى المواجهة أقدامهم ، ويهون عليهم قريشاً بعددها وخيلائها ، فقال جل جلاله قبل هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ وقال فى تمامها : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ، وبهذا طمأن المسلمين أنه جلت عظمته سوف يدافع عنهم ؛ لأنه يكره كل خائن غدار ، ثم أكد لهم أنه قادر على نصرهم مهما كان عدد المشركين ومهما كانت عددهم ، وزيادة فى طمأنتهم ختم الآيتين بعدهما بقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ وبقوله ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.

ثانياً : لوحظ فى الآيتين الكريمتين تتابع أساليب التوكيد التى تؤكد نصر الله للمؤمنين ؛ وذلك ليهجم المؤمنون على الكفر هجوم الواثق بنصر الله ، ففى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أكد بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ كما أن الفعل ﴿يُدَافِعُ﴾ يحمل أعظم توكيد فى طبيعته ومعناه: حين يتصور المؤمن أن الله جل جلاله بقدرته القادرة وعزته القاهرة هو مع صف المؤمنين يدافع عنهم ، وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ أكد الله جلت عزته بغضه للمشركين بحرف التوكيد

﴿إِنَّ﴾ ، واستعمل فى وصف قريش كلمتين من صيغ المبالغة ، وهما ﴿خوان﴾ وهى صيغة مبالغة لخيانتهم وغدرهم و ﴿كفور﴾ وهى صيغة مبالغة لكفرهم وطغيانهم ، وفى التعقيب على تشريع الجهاد قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فأكد بأربعة مؤكدات وهى ﴿ إِنَّ﴾ فى قوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ واللام المؤكدة فى قوله : ﴿لَقَدِيرٌ﴾ وكذلك فى تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ فإن قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِير ﴾ أشد تأكيداً مما لو قال : وإن الله لقدير على نصرهم ، وأخيراً أكد بصيغة المبالغة كلمة : ﴿ قدير ﴾وهى لا شك أشد توكيداً من كلمة قادر ، وهو جلت قدرته يستعمل كل هذه التأكيدات ليشد من عزائم المؤمنين الذين يجربون استعمال القوة والمواجهة لأول مرة .

ثالثاً : فى الآية الثالثة يبين الله جل جلاله من هم المؤمنون الذين أذن لهم بالجهاد ؟ ولماذا أذن لهم به ؟فقال : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ نعم ! إنهم الذين آمنوا مع محمد ﷺ وظلمهم الطغاة المشركون من قريش وأخرجوهم من مكة بغير حق ، فما كان لهم من ذنب وما نقم منهم المشركون إلا أنهم قالوا : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ونبذوا عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع، ويلاحظ هنا أن كلمة ﴿إلا﴾ تفيد استثناء منقطعاً ويكون معناها فى هذه الحال (لكن) ، ويصبح التقدير : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق لكن الذنب الوحيد لهم هو توحيدهم لله ، وفى هذا الأسلوب تجسيم للظلم الفظيع الذى مارسه طغاة قريش من أساطين الكفر حين عذبوا أصحاب محمد ﷺ وهم لا ذنب لهم إلا أنهم قالوا ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وتوحيد الله ليس ذنباً ، إنما الأسلوب يؤكد مدح المسلمين بما يشبه الذم كما قلت فى مدح مصيف الطائف إذا قيس

لمصايف أوروبا :

وهـهنـا الطـائف جـــيـــرانه ... أم القـــرى والحـــرم الأطهـــر

مـــا فـيــه من عـــسى سوى أنه ... تنقــصــه الفـحــشــاء والمنكر

رابعاً : يبين الله أعظم حكمة للجهاد ومشروعيته ، وهى أنه يحرس الإيمان أن يهتك ستره الكفر وتدوس حماه سنابك الطغيان ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ** ﴾ ، أى ولولا جهاد المؤمنين للكافرين ﴿ **لهدمت صوامع**﴾ وهى خلوات الرهبـــان ﴿ **وبيع** ﴾ وهى الكنائس واحـــده « بيـــعـــة » و﴿**صلوات**﴾ وهى معابد اليـهود ﴿ **ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا**﴾. ويلاحظ تأخير المساجد إذ ذكرت بعد معابد النصارى واليهود ، والسبب والله أعلم هو الدلالة على سماحة الإسلام واهتمامه بمعابد أهل الكتاب، وعدم المساس بها .

خامساً : ومسك ختام الآيات هو قوله تعالى مؤكداً أن النصر مضمون لحزب الله الذين إذا انتصروا أقاموا شريعة الله فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولا غرو فكل أمر من أمور الدنيا عاقبته لله ، ومرده إليه ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ . ترى هل أعلنت أمتنا فى معركتها الحالية برنامجها بأنها إذا انتصرت ستحكم شرع الله وتقيم دولة شعارها الإيمان بالله ؟! إن هذا لم نسمعه فى معاركنا الماضية ، لكننا نسأل الله التثبيت والنصر على الأعداء .

عمى القلوب أشد وأفظع
من عمى الأبصار

هذه أربع آيات من سورة الحج كأنما لأسلوبها دويٌّ يصك مسامع أهل الغفلات ليعتبروا بمصارع الأمم الكافرة ، ومصائر القرون الغابرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٤٥ ـ ٤٨].

أقول وبالله التوفيق وعليه التوكل :

أولاً : ذكر الله تبارك وتعالى قبل هذه الآيات سبعاً من الأمم كذبت رسلها فهلكت ، وهم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون ، وقد ذكرها تسلية لمحمد ﷺ حتى يعلم أن رسلاً كثيرين من قبله قد كذبوا ، ومن المعروف أن تلك الأمم الظالمة أهلكها ربنا بوسائل وطرق مختلفة فمنهم من غرق ، ومنهم من عصفت به ريح صرصر، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنها من أرسل الله عليه حاصباً، وكثير من تلك الأمم الهالكة قدر الله لآثارهم أن تبقى لتظل شواهد على بأس الله وقدرته ، وعلى المصير المظلم الذى ينتظر كل أمة ظالمة ، وإنك لتمر على بعض مدائنهم فترى أطلالاً لنعمة زائلة بين مساكن منهارة على سقوفها ، وآبار معطلة لم يعد من حولها من يسقى،

وقصور مشيدة كانت ذات يوم ربوع عز فتحولت خرائب إلى هذا المشهد المؤثر يشير قوله جل من قائل : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ، وكلمة كأين مثل كلمة (كم الخبرية) كناية من كنايات العدد لها الصدارة ، وتعرب حسب سياق المعنى ، وهى فى هذه الآية تعرب : إما مبتدأ ، أو منصوباً على الاشتغال؛ لأن الفعل ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ اشتغل بضميرها ، وجملة ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ حال وفيها إطناب احتراس يفيد بأن الله لا يهلك إلا الظالمين .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ هذه الآية الكريمة فيها أصناف وألوان من البلاغة ؛ فالاستفهام فى مطلع الآية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ؟ هو استفهام بلاغى له أكثر من غرض وفيه توبيخ للكفار ، وفيه إنكار عليهم لعدم استفادتهم من عقولهم ، وفيه حث لهم أن يتجولوا فى الأرض ليعتبروا بديار الكافرين ، وفى الآية إشارة معنوية لطيفة ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ؛ إذ الفاء هنا هى السببية والمعنى حينئذ يفيد أن الرحلات العلمية وخصوصاً تلك التى بين الآثار ، توقظ العقول ، وتنور البصائر ، فيستفيد المرء فيها مما يسمع ومما يبصر ، لكن صنفاً واحداً من البشر لا يستفيد من الرحلات ولا من التجارب أولئك هم الذين عميت قلوبهم ، وما قيمة العين إذا عمى القلب ؟! إن كثيراً من العميان أعظم بصيرة وذكاء وفهماً من ذوى البصر الحاد ، لأن العمى الخطير هو عمى البصائر لا عمى الأبصار ، وما أجمل ذلك الطباق البليغ بين قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ ﴾ وفى الآية إطناب توكيد فى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن

تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فالقلوب معروفة أنها فى الصدور لكن هذا الأسلوب يرد كثيراً فى الكلام البليغ كما جاء فى الأثر : أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك ، وكقولك : رأيته بعينى التى فى أم رأسى ، وكقوله تعالى : ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور ﴾ نوع من الإطناب البليغ يسمى إطناب تذييل ، وهو فى الآية هنا يجرى مجرى المثل ؛ إذ فى إمكانك أن تتمثل به فى الناس فتقول : إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب ، وبالمناسبة فإن الضمير (ها) فى كلمة ﴿فإنها﴾ لا يشير إلى القلوب ؛ لأن الضمير لا يعود على ما بعده ، ولكن يعود على ما قبله وهذا الضمير يسمى ضمير الشأن أو القصة، وهو كثير فى اللغة العربية ، فإذا قلت : إنه القضاء عجيب ، وإنها الأيام دول كان التقدير : إن الشأن أو الموضوع أو الأمر هو أن القضاء عجيب ، وفى الجملة الثانية : إن القصة هى أن الأيام دول وفى إعراب ضمير الشأن تقول مثلا فى إعراب : (هى الحظوظ متقلبة) هى : ضمير الشان مبتدأ، الحظوظ : مبتدأ ثان ، ومتقلبة خبر المبتدأ الثانى ، والجملة الاسمية الحظوظ متقلبة خبر لضمير الشأن .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ يشير إلى أن قريشاً كانت تطلب من محمد أن يبعث عليها عذاباً إن كان صادقاً ، فيقولون له : أسقط علينا السماء كسفاً، وهنا يرد عليهم ربنا جل جلاله : إن العذاب للظالمين هو وعد قطعه الله على نفسه ، والعذاب آتيكم لا محالة فى وقته ؛ لأن الله لا يخلف وعده ، لكن الوقت وإن مر عليكم طويلاً ، فإن الله يعتبر أوقاتكم هذه قصيرة، فالسنوات التى تحسبون ليست عند الله إلا يوماً أو بعض يوم،

ومن ثم فإذا كان الله جل جلاله قضى أن يعذبكم فى بدر مثلاً بعد عشر سنوات ، فتلك فى توقيت الله تعالى قد لا تساوى دقيقة ﴿إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً﴾ نعم ! إن الإنسان يستعجل ، ولكن الله جل جلاله جعل كل شىء بقدر ، فإذا جاء قدره كان أمر الله كلمح البصر .

رابعاً : وقد ختم الله الآيات كما بدأها محذراً من بطشه ونقمته : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ نعم! إن الله جل جلاله يمهل الظالم ولا يهمله ، ويملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

نسأل الله ألا يجعل نعمه علينا إملاءً ، وإنما يجعلها عوناً على طاعته ، وبلاغاً إلى رضائه .

آية لا تخلو من إشكال

هذه آية من سورة الحج لا تخلو من إشكال ، وقد اختلف أشياخنا المفسرون - رحمهم الله - فى مناسبتها وفى تفسيرها ، ورويت حول نزولها أحاديث منقطة أو ضعيفة أو موضوعة لا تليق بمقام الرسالة ، وإنى موردها هنا والآيتين اللتين بعدها ، فنحاول إن شاء الله تمحيص الروايات بما يتفق ومقام النبوة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج ٥٢ : ٥٤].

هذه هى الآيات الكريمات ، وهذا بيان لما قيل حولها وتمحيص لما ورد من أسباب نزولها :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ إذا ذكرت هذه الآية ذكر معها حديث موضوع واهى السند تعلق به كثير من المفسرين والمولعين بحبك القصص واختلاق الطرائف ونشرها فى المجالس يعرف بحديث الغرانيق وخلاصة ذلك الحديث الموضوع : أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم ، فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ﴾ سها عليه الصلاة والسلام فقال :

تلك هى الغرانيق العلا   وإن شفاعتهن لترتجى

فسرُّ المشركون بذلك وسجدوا ، ولقوا رسول الله ﷺ فرحين يسلمون عليه ؛ لأنه مدح آلهتهم بأنها تشفع ، وأنها هى الغرانيق أى الشديدة البياض .

ثانياً : تأتى كلمة : ﴿تمنى﴾ بمعنى قرأ أو تلا وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أى إذا قرأ زاد الشيطان على قراءته بعض الأكاذيب والافتراءات ، والأمنية القراءة أو التلاوة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ أى لا يفقهون من الكتب الأولى شيئاً إلا مجرد الترديد والقراءة بدون أى فهم ، فمعنى كلمة أمانى هنا جمع أمنية وهى القراءة.

ثالثاً : الأحاديث المروية فى نزول الآية لم ترد فى أى كتاب من الصحاح ، وما رواه الواقدى منقطع ، ولا يستند إلى رواة ثقات ، لكن الذى أورده البخارى ـ رحمه الله ـ حول تلاوة النبى ﷺ لسورة النجم كان تدليلاً على عظمة تأثير القرآن فى النفوس وحتى فى نفوس المشركين ، فقد أورد أن النبى ﷺ قرأ سورة النجم فلما سمع المسلمون والمشركون أواخرها خشعوا لعظمة المعنى وسجدوا وهم يستمعون إليه وهو يرتل ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ * هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ * أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : ٥٣ ـ ٥٨] إلى آخر السورة الكريمة ، نعم لقد سجد المسلمون خاشعين لمنزل تلك المعانى الجليلة ، أما المشركون فسجدوا متأثرين بعظمة الأسلوب .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ معناه : أن جميع أنبياء الله ورسله كان الشيطان يزيد فى قراءتهم افتراءات لكن الله جل جلاله يصفى آياته من الافتراء ، فتعود

محكمة معجزة غاية فى البلاغة والإعجاز ، والفرق بين الرسول والنبى: أن النبى تقتصر رسالته على نفسه وآل بيته ومن يخالطونه ، أما الرسول فيرسل بالرسالة إلى قومه عامة ، ومن ثم فكل رسول نبى وليس العكس .

خامساً : الشياطين منهم شياطين إنس ، ومن الجائز أن أحد شياطين الإنس هو الذى زاد فى قراءة رسول الله ﷺ ونشرها محرفة ، فتناقلها المشركون ونشروها فى الناس ، والدليل على أن تلك الزيادة مفتراه أن السياق لا يقبلها ؟ لأن بعد الآيتين فى المصحف ﴿ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ [النجم : ٢١ ـ ٢٣]وهذا كله ذم فى اللات والعزى ومناة ، فكيف ينسجم السياق أن يكون بين الآيات مدح لتلك الأصنام؟ والتفسير الذى يطمأن إليه للآية الكريمة التى نحن بصددها هو أن كل رسول أو نبى أرسلناه من قبلك كان إذا قرأ الكتاب المنزل ، زادت شياطين الإنس والجن على تلاوته ، لكن الله جل جلاله ينبذ من كتابه الكريم تلك الزيادات ويحكم آياته المنزلة خالصة من كل أخلاط الشرك والافتراء .

وبهذا التفسير ينفى رسول الله ﷺ أن يكون الشيطان حرك لسانه بكلام ليس من القرآن ؛ لأن الشيطان لا سلطان له على عباد الله الصالحين إلا مجرد الوسوسة التى لا تلبث أن تزول حالما يستعيذ العبد من الشيطان الرجيم ، يقول الله تعالى مخاطباً إبليس : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٦٥] ولقد طلبت ثقيف من رسول الله ﷺ أن يقبل بوجهه على آلهتهم كلما مر عليها ووعدوه بالإيمان إن فعل ذلك، فأبى عليه الصلاة والسلام فكيف يمدحها وهو قد رفض النظر إليها ؟؟ وقد حاول بعض المنافقين فى المدينة أن يلفقوا

تهمة لبرىء لكى يقتص منه الرسول ﷺ ظلما ، فكشف الله الأمر لرسوله، فبرئ البرىء ، وعوقب المجرم الحقيقى ، ونزل فى ذلك قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء : ١١٣].

سادساً : يبين الله جل جلاله أن مثل هذه الأراجيف والافتراءات والزيادات التى يتزيدها الشياطين لا تخلو من فائدة ؛ لأنها لا تفتن إلا المنافقين والمشركين ، أما المؤمنون وبخاصة علماؤهم فيثبتهم الله على الحق والخير ويهديهم دائما إلى الطريق السليم والصراط المستقيم .

خلاصة شافية لمضمون الرسالة الخاتمة

هاتان الآيتان الكريمتان مسك الختام لسورة الحج ، وهما خلاصة وافية شافية للرسالة الخالدة العظمى التى اختار الله محمداً ﷺ لأدائها وتبليغها أمته من بعده ليحافظوا عليها بالجهاد ، ويكونوا على نشرها وتبليغها من الأشهاد .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٧ ـ ٧٨].

أولاً : هاتان الآيتان هما أعظم وسام شرف أنعم الله به على أمة محمد ، وأى وسام أسمى من عقد راية القيادة لهذه الأمة بأن تملأ فراغ الوحى وتؤدى رسالة الأنبياء إلى يوم القيامة ؟ فمنذ أعلن نبيها محمد ﷺ أنه خاتم الأنبياء كان معنى هذا أن الله جل جلاله قد أكمل الدين وارتضاه للمسلمين ، وكلف أمة محمد ﷺ أن يبلغوا هذه الرسالة للدنيا ويجاهدوا فى سبيل الله لنشرها والحفاظ عليها وإعلاء رايتها ، وهو شرف يتطلب الحفاظ عليه ومسؤولية تتطلب التضحيات ، وأمانة دون أدائها بذل الروح والمال والولد ، ومن ثم قلنا : إن هاتين الآيتين أعظم وسام شرف قلده ربنا أمة من الأمم ، وما أجدر أمتنا أن تعدهما نعمة عظيمة من الله ، وتصون معناهما الجليل ومبناهما الجميل فى شغاف الضمائر .

ثانياً : ومن أجل هذا الشرف العظيم ، وتلك الأمانة الهائلة كان على أمة محمد

أن تبنى لها شخصية أخلاقية ، وشخصية عسكرية ، أما الأولى فعن طريق عبادة الله تبارك وتعالى ؛ لأن العبادة هى أعظم تربية أخلاقية ، وأما الثانية فتبنى عن طريق الجهاد فى سبيل الله بكل غال وعزيز ، وهذا هو ما تنطق به الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذه الآية فيها سجدة عند الشافعى بينما يرى الأئمة أنها ليست سجدة ، وإنما هي أمر بالصلاة ، وهذه الآية حق لكل ما فيه من خير للفرد والجماعة ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ معناهما : أقيموا الصلاة وأدوا ركوعها وسجودها على خير وجه ، ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى سائر العبادات من صوم وصلاة وزكاة وحج ودعاء وذكر ، وفى قوله :﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ فى كلمة الخير إيجاز قصر ؛ لأن هذه الكلمة تشتمل كل عمل طيب جميل وموقف منصف جليل وشعور إنسانى نبيل ، وبهذه الصفات العظيمة الأخلاقية والتعبدية يكتب الفلاح لامتنا إن أمة محمد عظيمة مكلفة من ربها أن تقف فى هذه الدنيا موقف القدوة تعلم الناس فعل الخيرات ومواقف الشجاعة في الحق ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ ، ويلاحظ فى الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . إنه جل شأنه بدأ أول ما بدأ بالصلاة لأنها عمود الدين ومكونة الأخلاق ، وهى الناهية عن الفحشاء والمنكر ، ومن ثم فتارك الصلاة قد لا تستطيع تمييزه من اليهودى والنصرانى والمجوسى ويخشى عليه أن يحشر معهم فى القيامة ؛ لأن الصلاة هى العهذ الذى بين المؤمنين وغيرهم ، ومن هنا فقد بدأ الأمر الإلهى فى الآية بالصلاة ، وثنى بسائر العبادات ، ثم أردف بفعل الخير، وختم الأوامر الحكيمة بقوله : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ . ألا ما أروع شخصية المؤمن حين تبنى على أسس من هذه الأوامر الحكيمة ، أى طاقة هائلة جبارة يكتسبها المؤمن حين

يمتثل هذه الأوامر فتراه مقيماً للصلوات قائما بسائر أنواع العبادات ، فاعلاً لجميع أنواع الخيرات مجاهداً فى الله حق جهاده، مجاهداً للشهوات ، وللشياطين ولكل كافر وطاغوت ، بل ولكل ظالم ذى جبروت . إن أمة محمد حين تلتزم منهج الله وشريعة الله وأركان الإيمان وأخلاق المؤمنين تكون حينئذ جديرة بالكرامة التى ذكرها ربنا جل جلاله فى الآية الخاتمة لسورة الحج والتى وصفناها أنها أعظم وسام استحقاق خلعه الله عز وجل على أية أمة عبر التاريخ .

ثالثاً : الآية الخاتمة لسورة الحج ، والتى هى وسام الشرف لأمة محمد ﷺ هى قوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ . ونظراً لما لهذه الآية العظيمة من الأهمية الجامعة فإنى سأسجل إشاراتها فى نقاط :

أ ـ محور الآية قوله تعالى : ﴿ هو اجتباكم ﴾ ومعناه : هو اختاركم من بين الأمم لحمل الرسالة الخالدة الخاتمة والاستمرار فى تبليغها وأدائها بعد أن ختم الرسل بمحمد ، وختمت الكتب بالقرآن ، وهذا الاجتباء مسؤولية ثقيلة تتطلب أعظم الجهاد والتضحية .

ب ـ بهذا الشرف يقف علماء أمتنا ودعاتها يوم القيامة فى موقف الشهداء مع الأنبياء ، فيشهدون على الأجيال المتلاحقة من لدن محمد ﷺ إلى قيام الساعه ، كما يشهد كل نبى على أمته ، ومن هنا فدعاة أمة محمد وعلماؤها كأنبياء بنى إسرائيل .

جـ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ معناه : أن رسالة الإسلام التى شرفكم الله بحملها وتبليغها هى ملة إبراهيم وجميع الأنبياء من بعده وهى الحنيفية السمحة الخالية من الحرج والضيق ، لتكون صالحة للإنسانية إلى يوم القيامة وبتبليغ هذه الرسالة والجهاد من أجل نشرها تنالون شرف استمرار النبوة من بعد نبيكم وتكونون فى القيامة شهداء على الناس .

د ـ وكما تشهد أمة محمد على الناس من لبى دعوة الله منهم ومن لم يلبها ، يكون رسول الله ﷺ شاهداً على أمتنا : هل قامت بالرسالة من بعده حق القيام ؟ وهل جاهدت فى الله حق الجهاد ؟ ولقد كان ﷺ يبكى إذا ذكر ذلك الموقف العظيم للشهادة لعلمه ﷺ أن أمته قد تتخلى عن منهج الله الأعظم وتتيه مع بنيات الطرق ، وتنقسم على نفسها فرقاً كما فعل أهل الكتاب ؛ ولهذا كان ﷺ إذا سمع قوله تعالى من سورة النساء :﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء** (أى على أمتك) **شهيدا** ﴾ يبكى حتى تبتل بالدموع لحيته .

و ـ فى ختام الآية الكريمة يعلم الله أمتنا أنها لم تخلق للهو والعبث وإذا لها غيرها فقد خلقت هى للجهاد والعبادة ؛ ولهذا بين لها كيف تستطيع القيام بأمانة الله فقال :﴿ **فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ** ﴾ نعم بالعبادة والصلاة خاصة وبالتمسك بحبال الله والاتحاد تحت لواء دينه تستطيع أمتنا أن تقوم برسالتها ، وإذ ذاك فإن الله حينئذ يكون مولاها وناصرها فنعم المولى ونعم النصير .

آيات تصف أخلاق المؤمنين

هذه عشر آيات افتتح الله جل جلاله بها سورة (المؤمنون) ، وهى آيات مباركات تصف أخلاق المؤمنين ، وما أجمل أن يقرأها المسلم ، ويرى كم من هذه الأوصاف ينطبق عليه ، فإن وجد أنه بفضل الله منهم ، فليحمد الله ، وإن وجد أنه ينقصه بعض الصفات ، فليجتهد جهده فى سد تلك الثغرات وكل من الدرب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١].

أقول وبالله الفتوح والتوفيق :

أولاً : سورة (المؤمنون) من السور المكية ولها من مسماها أوفر نصيب ، فقد افتتحها ربنا جل جلاله بذكر صفات المؤمنين ، ثم تلا ذلك بذكر آيات من دلائل القدرة الإلهية فى خلق الإنسان منذ كان نطفة إلى أن أنشأه الله خلقاً آخر ، ثم فى خلق الحياة النباتية والحيوانية ، وذكر بعد هذا بعض أخبار الرسل وما كان من صبرهم على نشر الإيمان إلى أن ختمها، بآيات تدعو إلى التوحيد الخالص ونبذ جميع الشركاء ، والآيات العشر التى ذكرناها ذات موضوع جليل، وكيف لا وهن عرض لأخلاق الأبرار السعداء وهى أخلاق أهلتهم أن يكونوا هم الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .

روى الترمذى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ سورة (المؤمنون) استقبل القبلة فرفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأرضنا وارض عنا » ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن (يعنى من عمل بما فيهن) دخل الجنة ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم عشر آيات وهى هذه التى أوردناها .

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة يوم الفتح صلى أول صلاة يوم الفتح فى المسجد الحرام فقرأ فيها سورة (المؤمنون) ، وروى عنه ﷺ أنه قال : « لما خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده قال لها : تكلمى !! فقالت: قد أفلح المؤمنون » .

ثانياً : عدّد الله جل جلاله من صفات المؤمنين ست صفات صدقت إيمانهم فاستحقوا بذلك أن يرثوا الفردوس والفردوس هو : أعلى الجنة وهذه هى الصفات : الخشوع فى الصلاة ، والإعراض عن اللغو ، واللغو هو :كل كلام يكسب إثماً وقيل هو الغناء ، والثالث من أخلاق المؤمنين هو أداء الزكاة ، والرابع هو حفظ الفرج واجتناب الزنا ، والخامس : أداء الأمانة والوفاء بالعهد ، وقد قرنهما ، لأن العهد أمانة ، والسادس هو : المحافظة على الصلاة بأدائها فى وقتها وإتمام أركانها ، ويلاحظ أن الآيات بدأت بالصلاة وانتهت بالصلاة ؛ وذلك لجلال قدرها ، وعظمة منزلتها عند الله ، ولا غرو فهى عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين .

ثالثاً : يلاحظ فى الآيات الكريمات أن فى كل آية توكيداً أو أكثر ، ففى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ توكيد بقد . ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فيها توكيدان : الضمير فى صدر الصلة ، وتقديم الجار والمجرور في ﴿صلاتهم﴾ على عامله . ومثلها قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَالَّذِين

هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون ﴾ وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ؛ إذ فى كل آية توكيدان هما الضمير المنفصل فى صدر الصلة ، وتقديم الجار والمجرور على عامله، ولعل سبب التوكيد والله أعلم : إن الكلام فى مجموعه عبارة عن موثق بين العبد وربه بأنه إذا توفرت فى العبد هذه الصفات كان من ورثة الفردوس خالداً فيها ، ثم إن فى التوكيد إظهارا لأهمية مضمون الجمل كالخشوع فى الصلاة، وفعل الزكاة ، وحفظ الفرج، ورعاية الأمانة والعهد ، والحفاظ على الصلوات ، ولهذا جاء التوكيد في كل من العمل وثوابه ، لأن الأعمال هامة ، ولأن جزاءها عظيم ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

رابعاً : هذه الصفات العظيمة المذكورة فى مطلع سورة (المؤمنون) هى من أعظم الصفات الجامعة للفضائل النفسية والاجتماعية ولنتصور رجلاً جمع فى أخلاقه الإيمان بالله ، وصدقت إيمانه أفعال ، وأخلاق مشاهدة كالخشوع فى الصلاة، وفعل الزكاة والإعراض عن اللغو واجتناب الفاحشة ، وحفظ الأمانة والعهد ، والمحافظة على الصلوات الخمس . إن مثل هذا الإنسان الصالح لا يتصور منه ظلم الإنسان ، ولا يمكن أن يصدر عن عبث بالأمن والنظام ؛ لأن له من فضائل الإيمان ما يردعه عن كل منقصة ويحدوه إلى كل فضيلة ، ثم تصور مجتمعا يعمره الإيمان والصلاة والزكاة ، واجتناب اللغو ، والسلامة من الفواحش ، وحفظ الأمانات ، ورعاية العهد . إن مثل هذا المجتمع تكمن فيه إذ ذاك كل عناصر القوة ، وتسوده كل عوامل السعادة ، وتتوفر له كل أسباب الأمن.

خامساً : قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ قيل فى سبب نزولها: إن النبى ﷺ كان يكثر أن ينظر إلى السماء فنزلت فجعل رسول الله إذا صلى لا ينظر إلا إلى موضع سجوده ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا فلربما التفتوا أو تكلموا ، فلما نزلت لم يعد أى يتكلم أو يلتفت ، وروى أن النبى ﷺ أبصر رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة ، فقال رسول الله ﷺ : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » . وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قام أحدكم إلى صلاته فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى » . والخشوع فى الصلاة مقياسه أن يكون قلب المصلى حاضراً بحيث يعى ما يقرؤه وما يسمعه من إمامه ، وبحيث يحس فى قلبه مهابة الله جل جلاله الذى تعنو له الوجوه ، وتعفر بين يديه الجباه ، والخشوع محله القلب وهو من فضائل الصلاة ومكملاتها ، وذهب كثير من الأئمة إلى أنه فرض.

سادساً : قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم ﴾ يدل على تحريم العادة السرية : لأن أسلوب الآية قصر وحصر ، فكل ما سوى المرأة وملك اليمين حرام وفاعله عادٍ أى معتدٍ ، ويدخل فى ذلك عمل قوم لوط فهو عدوان يقام الحد على صاحبه ويدرأ الحد بالشبهة عن الجاهل والمتأول ، فقد روى أن امرأة تسررت غلامها الذى تملكه واحتجت عند عمر بأنه ملك يمينها والله تعالى يقول : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم ﴾ ، فاستشار عمر الصحابة فى رجمها فقالوا : هذه فهمت كلام الله فهما خاطئاً ولا رجم عليها ؟ فجعل عمر قصاصها أن زوجها لعبد ، ومثل هذه الحادثة حصلت فى عهد عمر بن عبد العزيز فدرأ الحد بالشبهة ولم يجلد المرأة وأمر ببيع الغلام وغربه عن ديار المسلمين .

حول خلق الإنسان وأطوار نموه

هذه ثلاث آيات من سورة (المؤمنون) عرض فيها القرآن إلى خلق الإنسان، وأطوار نموه فى الرحم بطريقة معجزة وأسلوب رفيع ، وقف العلماء إزاءهما يقولون فى إجلال : سبحان من أنزل هذا الكلام العظيم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله جل وعلا فى مطلع سورة المؤمنون : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من سُلالَةٍ مِّن طِين * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِين * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحماً ثُمَّ أنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أحسَنُ الخَالِقِين** ﴾ [المؤمنون : ١٢ ـ ١٤] .

روى أن الآية حينما أنزلت قرأها رسول الله ﷺ على عمر ـ رضى الله عنه ـ فلما وصل إلى قوله : ﴿ **ثُمَّ أنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ** ﴾ أكمل عمر رضى الله عنه قائلاً فى خشوع : ﴿ **تَبَارَكَ اللهُ أحسَنُ الخَالِقِين** ﴾ فقال رسول الله ﷺ « هكذا نزلت » .

وإلى القارئ الكريم بعض ما اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة من إشارات بليغة فى المعنى والمبنى :

أولاً : فى مطلع الآية أسلوب توكيد مزدوج فى قوله تبارك وتعالى ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا** ﴾ فاللام لام التوكيد ، وقد ، أيضاً تفيد التحقيق والتوكيد وسبب التوكيدات المتتابعة فى سورة المؤمنون ، أنها سورة مكية ، وخطاب المنكر يتطلب توكيداً ، ولهذا أكد أول السورة : ﴿ **قَدْ أفلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ وأكد فى قوله : ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ**﴾ وأكد فى قوله : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ** ﴾ وفى قوله أيضاً فى الآية التالية : ﴿ **وَإنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ** ـ

أى بالماء الذى فى باطن الأرض ـ **لقَادِرُونَ ﴾** .

ثانياً : السلالة : الخلاصة والجوهر . وجوهر الإنسان وأصل خلقته من الطين ؛ لكن نسله يتكون فى الرحم بقدرة الله بطريقة أخرى غير الطين والنفخ فيه .

ثالثاً : استعمل القرآن الكريم كلمة خلقنا وهو يذكر آدم من خلاصة من الطين؛ لكن استعمل كلمة ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاه** ﴾ لأن آدم عليه السلام فطر على غير سابق نموذج وهذا هو الخلق والإبداع ، أما ذرية آدم فقد جعلهم الله من نطفة محفوظة فى قرار قوى مصون هو الرحم .

رابعاً : استعمل القرآن حرف العطف « ثم » ثلاث مرات واستعمل « الفاء» العاطفة ثلاث مرات ، ومن المعروف أن « ثم » تفيد التراخى ، بينما الفاء تفيد التعقيب ، والسبب فى استعمال « ثم » أن ما وقع بعدها استغرق وقتاً بعد وقوع ما قبلها ، فالوقت بين خلق آدم وإيجاد نسله فيما بعد وقت طويل ، والوقت الذى تستغرقه النطفة حتى تتحول علقة هو نسبياً وقت طويل ، أما تحول المتعلقة بجدار الرحم إلى مضغة وتحول المضغة إلى عظام وكسوه العظام باللحم، فتلك على ما يبدو من الآية تتلاحق فى أوقات أقصر .

خامساً : قول الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أنشأنَاهُ خَلقاً آخَر** ﴾ يدل على أن هذه المرحلة وهى مرحلة نفخ الروح فى جسم الإنسان تأخذ وقتا ؛ لأن الإنسان يتحول فى هذه المرحلة خلقاً آخر فيه روح وحياة وحركة وله حواس وشكل ولون متميز وهو فى هذه المرحلة له خصائص متعددة تميزه عن الطين والنطفة والعلقة والمضغة والعظام ؛ إذ المرحلة الجديدة وهى إنشاؤه خلقاً آخر تأخذ تتجلى فيها القدرة الإلهية فى هالة من الإعجاز ، إذ فهى تغرس نواة

العقل والغرائز والانفعالات والخصائص الذاتية والذكاء ، وهذه أمور وإن أدرك الناس آثارها ، إلا أن ابتكارها وإنشاءها وتقديرها ،كل هذه أشياء لا ينهض العقل للإحاطة بها .

سادساً : فى قوله تعالى : ﴿ **فَتَبَارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخَالِقِين** ﴾ إطناب بليغ عقب به على مراحل خلق الإنسان ؛ لأن هذه المراحلَ من الطين الذى خلق منه أبوهم آدم ، ثم من النطفة التى يبدأ بها خلق الذرية ؛ ثم العلقة فالمضغة فالعظام فكسوة العظام باللحم ثم إنشاؤه خلقا آخر ، كل هذه المعجزات الهائلة لا يسع المرء إذ يذكرها إلا أن يهتف من أعماق قلبه: ﴿ **تَبَارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخَالِقِين** ﴾ .

سابعاً : فى قول الله تعالى ﴿ **خَلقًا آخَر** ﴾ جاءت كلمة خلقاً نكرة لتدل على أن لكل إنسان فى هذه الدنيا خلقاً خاصا فما من إنسان فى الدنيا يشبه إنساناً آخر شبها تاماً فى شكل أذنيه أو عينيه أو بشرته أو غرائزه أو أفكاره أو انفعالاته ؛ لأن لكل إنسان خلقاً آخر ، ولأن بين كل إنسان وإنسان فروقا خلقية وخلقية لا يمكن أن تتوحد توحداً تاماً بين أى إنسانين فى الدنيا .

ثامناً : هذه الآيات الكريمة تتعرض لمسائل علمية طبية تشريحية من أدق المسائل، والنبى ﷺ كان أمياً لم يعرف تشريحاً ولا نظريات طبية حديثة ، فكيف تأتّى لذلك النبى الأمى عليه الصلاة والسلام أن يعرف الحيوان المنوى الذى يتحول علقة حين يتحد بالبويضة ، ثم يتحول مضغة وهى قطعة لينة تكون أخلاطاً من لحم وعصب وسوائل معقدة تحير العقول ؟ وعلى الرغم من أن الأطباء الأجانب يهمهم أن يتسقطوا أخطاء أو تناقضات فإن أحداً منهم لم يتجرأ أن يرفع عقيرته ليقول : إنه وجد فى

الإشارات العلمية القرآنية خطأ أو تناقضاً .

فسبحان من أنزله قرآناً عزيزاً لا عوج فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] .

بعض نعم الله عز وجل على خلقه

هذه ثلاث آيات من سورة (المؤمنون) يذكر فيها ربنا نعمة من نعمه لعلها أغلى ما فى الأرض من نعم الله ، ولو تحكم فيها أهل الجشع والاحتكار لباعوها بوزنها ذهباً ، إنها الماء الذى منه الحياة بشتى أنواعها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٨ ـ ٢٠] .

أقول وأسأل الله لى وللإخوة المسلمين خلوص النوايا وقبول الأعمال :

أولاً : الماء هو مصدر الحياة أكرم الله به هذا الأرض منذ خلقها ، فالماء فى الكرة الأرضية أوسع من اليابسة ، ومن حكمة الله تعالى أن جعل مياه البحار والمحيطات ملحاً ، ولو لم يكن كذلك لتلوث ونشر من حوله أمراضاً وحشرات ، وملأ ما حوله مستنقعات تسبب الأوبئة ، ومع أن الماء فى البحار والمحيطات ملح، فإن كل الماء العذب يتكون منه بقدرة الله ؛ لأن الله بقدرته يحول قدراً من مياه البحار إلى بخار بفعل حرارة الشمس، والبخار لا يكون إلا عذباً خالياً من أى أملاح ، وهذا القدر من البخار يتراكم سحباً ثم يعود إلى الأرض مطراً يحيى موات الأرض ، ويشرب منه الأنعام والأناسى ، ثم ينسلك فى الأرض مخزوناً فى ثناياها ، ليتفجر من بعد ينابيع وأنهاراً وعيوناً بهيجة ، وقد جعل الله جل جلاله للماء خصائص تجعله صالحاً لحفظ الحياة فى أحشائه من هذه الخصائص : أن الهواء يذوب فيه فتتنفس منه الأحياء ، ومنها أنه إذا تجمد خف وطفا

وكون فى أعاليه سقفاً يحفظ حرارة ما تحته فتعيش فى حناياه الحيوانات سعيدة فى بيتها المعروش .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُون ﴾ آية ذات مقاطع ثلاثة لكل منها معنى كبير : المقطع الأول: قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ . ومعناه أنه جل جلاله يقدر كمية الماء التى ينزلها مطراً ، وهذا التقدير يكون حكيماً بحيث لا يكون طوفانا أو فيضاناً ، ولا يكون فى الوقت نفسه قدراً ضئيلاً لا يغنى عن النبات شيئاً ، وإذا نزل المطر على قوم فيضاناً مدمراً أو ضئيلاً مرنقاً ، فذلك أيضاً بقدر ولحكمة ، وقديماً عاقب الله جل جلاله الأمم الطاغية بالغرق فى الماء الذى جعل الله منه كل شيء حى وإذن فماء المطر بقدر ولحكمة عظيمة بالغة .

أما المقطع الثانى فقوله تعالى : ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْض ﴾ وتلك نعمة جليلة، إذ جعل الله فى الأرض مخازن لماء المطر منها تلك التجاويف الهائلة السعة فى جوف الأرض ، تلك التى تمد الآبار الأرتوازية ، ومنها الأنهار التى تستوعب مياه الأودية ، والجداول ، فتفيض وتسقى الحدائق والبساتين . ترى هل كان الإنسان يستطيع أن يعد للمطر خزانات تستوعبه لينتفع به عند الحاجة ؟ إن المياه الجوفية فى باطن الأرض هى من الكثرة بحيث تمد الأنهار الكبرى بمائها ، فسبحان الإله القادر الرحيم بعباده إذ لم يكتف بإنزال المطر حتى أعد له خزائن ليسكنه فى الأرض ويجيء المقطع الثالث من الآية الكريمة ، وهو قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُون ﴾ ترى ماذا ستكون حال الإنسانية لو ذهب الله بماء الأرض ، أو جعله غوراً لا يوصل إليه أو جعله أجاجاً لا يصلح

للشرب . إن هذا المقطع تهديد مغلف ، يذكر الناس بأن المنتقم الجبار قادر على أن يغور الماء ، فيترك الإنسانية ظمأى يكتنفها الموت .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ معناه : أن الله جلت قدرته أنشأ بهذا الماء النازل من السماء جنات تزينها أشجار النخيل والأعناب ، وأشجار ذات فواكه متنوعة كثيرة، ومن هذه البساتين نأكل غذاءنا ، ونتفكه بالفواكه اللذيدة. إن النخيل والأعناب يذكرهما الله جل جلاله ؛ لأن كانت تأكل ثمارهما يانعة طرية ثم تجففها فتكون تمراً وزبيباً ، والتمر والزبيب غذاء، وزكاة الفطر كما تصلح صاعاً من قمح تصلح كذلك صاعاً من تمر أو زبيب ، ومن ثم قال الله تعالى فى سورة الرحمن يصف جنتى أصحاب اليمين: ﴿ فيها فاكهة ونخل ورمان ﴾ [الرحمن : ٦٨] فذكر النخل والرمان بعد الفاكهة ؛ لأن البلح والطرب والتمر غذاء ؛ ولأن الرمان دواء . ولم يذكر فى هذه الآية الحبوب كالقمح والشعير والذرة ؛ لأنها يسقيها ماء المطر مباشرة ولا تسقى من الماء الساكن فى الأرض إلا فى أحوال خاصة حين يشح المطر وينقطع ، أما أشجار الفاكهة والنخيل والأعناب فتسقى بالماء المخزون فى الأرض ، وبالمناسبة فثمة فتيا لأبى حنيفة رحمه الله بأن من حلف ألا يأكل فاكهة ، فأكل عنباً أو رطباً أو رمانا أو تمراً أو زبيباً لا يحنث، وخالفة الأئمة الآخرون ، فاحتج بقوله تعالى : ﴿فيها فاكهة ونخل ورمان﴾ .

رابعاً : قوله تعالى ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ فى هذا الآيات إطناب ، لأن شجرة الزيتون داخلة فى أشجار الجنات التى ذكرت فى الآية السابقة لكن الله تعالى خصها بالذكر من قبل ذكر الخاص بعد العام ، وذلك لأهمية الزيت والزيتون المستفادين من هذه

الشجرة المباركة ، وقوله تعالى ﴿ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء ﴾ يدل على أن طور سيناء الموطن الأول لشجرة الزيتون ، وزيت الزيتون دهن من خير الإدام ، وكان أحدنا إذا جاع أخذ رغيفاً وائتدم بزيت الزيتون فيحس بالشبع والإكتفاء وإذا داوم ذلك آنس من معدته راحة ومن نفسه قوة ، وقد عجبت حين قال لى أحد الأطباء : إن زيت الزيتون قد يسبب الكولسترول ، وهو مرض تتحطم معه كرات الدم الحمراء، والواقع الذى شهدناه هو أن أصف الناس وجوهاً ، وألواناً فى بلاد الشام هم الذين تشتهر مناطقهم بالزيت الصافى ، وفى الحديث الذى رواه الترمذى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « كلو الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة » ، وروى أن شجرة الزيتون كانت أول شجرة نبتت بعد الطوفان ، ويبدو أن ذلك كان رحمة من الله بالذين نجوا ليكون الزيت لهم إداماً.

توبيخ للكفار
الناكصين المستكبرين

هذه آيات من سورة (المؤمنون) فيها أسلوب عجيب لا أستطيع وصفه ؛ وذلك لأنى لأول مرة أرى أسلوباً هادئاً يستعمل للتوبيخ ، وألفاظاً سلسة تستعمل للتهديد ولوماً يلبس المنطق ثوب السخرية .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٢ـ ٦٧] .

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ هذه الآية الكريمة لها خلفية معنوية لطيفة . إنه جل جلاله يتحدث فى هذه الآية عن الكفار وبأسلوب هادئ يثبت أنه عز وجل يتعامل حتى مع طغاة قريش بمنتهى العدالة ، فهو أولاً لا يكلف إنساناً منهم ولا من غيرهم إلا ما يطيق ، ولم يضع فى قريش أو غيرها أغلالاً وآصاراً ترهقهم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام جاء بالحنيفية السمحة التى يسرت على البشرية ، ورفعت عن الناس الأغلال التى كانت عليهم لقد كان فى عقوبات الأمم السابقة أن يقتل المرء نفسه إذا عصى الله ، فرفع الله تبارك وتعالى هذه العقوبة وغيرها ، وجعل التوبة النصوح تسد مسد هذا كله . هذا أول برهان قدمه الله جل جلاله على عدالته فى التعامل مع البشرية حتى مع طغاتها وأساطين الكفر فيها، أما

البرهان الثانى فهو أن كل إنسان لا يجزى إلا ما كان يعمل ، وعمله هذا مسجل فى كتاب تحصى فيه كل صغيرة وكبيرة ، وهو كتاب ينطق بالحق والعدل ، فلا يظلم ولا يزيد وما أجمل العبارة الكريمة ﴿ يَنطِقُ بِالْحَقِ ﴾ إنها استعارة عن شدة وضوح الحق والعدل والصدق ، فكأن كتاب الأعمال ينطق بما كتب فيه ، ولاغرو فالكتاب نسخة طبق الأصل لكل عمل يعمله ابن آدم ، ولعل هذا المعنى نفسه هو ما أشار إليه ربنا فى سورة الجاثية فى قوله: ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ [الجاثية : ٢٩] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ تعليق على الآية السابقة ، فعلى الرغم من يسر الإسلام فى تكاليفه ، وعلى الرغم من عدالة ربنا فى جزاء الأعمال إلا أن الكفار قد غمرت قلوبهم الغفلات ، وبدلاً من أن ينتبهوا إلى الإيمان والقرآن والعمل الصالح، شغلوا أنفسهم بأعمال أخرى آلهتهم عن دينهم وأسلمتهم للبطالة والمعصية والشيطان . هذه الآية الكريمة لمست أثرها بنفسى ذات يوم حين جاء أحد الطلاب وقد بدا عليه أثر السهر ، وقد أهمل الواجب ولم يحفظ ، فقلت لزملائه : أخوكم معذور له أعمال من دون الدراسة هو يعملها ، فاستشاط وفهم مرمى القول المقتبس من الآية الكريمة وقال : وماذا تعنى بالأعمال التى أعملها من دون الدراسة؟! قلت له أعنى الشيء الذى فهمته بذكائك . نعم ! هنالك إبهام فى قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ فهو قد أورد الأعمال نكرة ومع أنه لم يفصلها ، فقد فهم منها كل الأعمال القبيحة البعيدة عن الإيمان والقرآن والدين .

وما أجمل العبارة القرآنية : ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ إذ يشبه القلوب

بجسم طغى عليه الماء فغمره ، والكفار طغت على قلوبهم الشهوات الشيطانية فغمرتها ، فلم تعد تتعرض لنور الهداية وهى مغمورة فى مستنقع الآثام .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ** ﴾ نبوءة قرآنية بأن صناديد قريش ومترفيها سيأخذهم عذاب عنيف يستأصلهم وسيصرخ من هول من لقوا سائر الكفار ، وهذا ما حصل لصناديد قريش فى بدر بعد سنتين من نزول هذه الآية حين استحر القتل فى صناديدهم ، وولى جيش الشيطان فى بدر أدبارهم ، ثم لم يبق بيت فى مكة إلا وقد علا فيه الجؤار أو الصراخ حيث يخاطبهم ربهم بقوله : ﴿**لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ**﴾ ومعناه : لا تضجوا وتصرخوا فلن تجدوا اليوم من ينصركم منا وينجيكم من بأسنا .

رابعاً : وفى ختام الآيات يدمغهم الله بالظلم ، فيذكرهم بتلك المجالس البذيئة في ليالى سمرهم حين لم يكن لهم حديث إلا السخرية المستكبرة ، وهجر القول ، وبأسلوب هادئ عميق الأثر يقول لهم جل من قائل : ﴿**قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ**﴾ . ومعنى هاتين الآيتين : لقد كنتم إذا تليت عليكم آيات الله تتقهقرون على أعقابكم إلى الوراء لتبدؤوا الفرار من الذكرى والآيات المحكمات، ثم إذا جاء الليل جلستم فى المسجد الحرام مستكبرين به سماراً ، لا تعرفون فى سمركم إلا هجر القول والسخرية والبذاء والصورة فى قوله تعالى : ﴿ **عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ** ﴾ صورة حسية للمشركين حين كانوا يتراجعون إلى الوراء على أعقابهم ، والعقب:

مؤخرة القدم ، والناكص على عقبيه يغلب أن يقع على ظهره وقعة مضحكة .

خامساً : وعلى ذكر السمر والسُّمّار ، فإن رسول الله ﷺ نهى عن السمر وطول الحديث بعد العشاء الآخره بحيث لا يضيع السمر والسهر صلاة الفجر . هذا هو ما ابتلينا به فى هذه الأيام ، فقلما ينام الناس قبل منتصف الليل، وفى شهر رمضان المبارك قد لا ننام بالليل أبدا ، وأشهد أن أكثر سمرنا لا خير فيه ، وأنه لا يخلو من اللهو والهجر ومشاهدة صور العابثين وأهل المعاصى. على أنه ثبت عن النبى ﷺ أنه رخص فى السمر حين يكون لمدارسة العلم أو للإصلاح أو للمرابطة ؛ بل لقد ندب إلى ذلك وأشاد بثوابه .

تقريع للكفار يمرغ
وجوههم فى الرغام

هذه آيات من سورة (المؤمنون) فيها نقاش عجيب للكافرين ، إنه نقاش يكاد يكون جميعه بأسلوب الاستفهام ، وهو استفهام بديهى الإجابة ، كل سؤال من أسئلته يحمل جوابه بلا إبهام فى طياته ، لكن فى كل جواب من تلك الأجوبة البديهية حقيقة تمرّغ وجوه الكافرين فى الرغام وتثبت أنهم يتصرفون بلا أفهام.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨ ـ ٧٤] .

أقول وأسأل الله أن يثبتنا جميعاً بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة :

أولاً : أساليب الاستفهام البلاغى من أعظم الأساليب تأثيراً فى النفوس ؛ لأن الاستفهام البلاغى يثبت الحقيقة المراد إثباتها ، ويزيد على ذلك بإيجاد تجاوب وجدانى فى ضمير المسؤول ، فشتان ما بين أن يقول والد لولده : لقد أمضيت شبابى فى تربيتك ، وأنت الآن تعصينى وبين أن يقول له : أتعصينى لأننى أمضيت شبابى فى تربيتك ؟ إن الثانية لا شك أبلغ لأنها عبرت عن الحقيقة وفى الوقت نفسه أحدثت مشاركة وجدانية لدى المسؤول ، ومن ثم فقد كثرت فى القرآن أساليب الاستفهام البليغ حتى

لقد تتابع فى سورة الطور اثنا عشر استفهاماً بلاغياً من هذا القبيل .

ثانياً : الاستفهامات الواردة فى الآيات جميعها تتطلب الإجابة عن موضوع واحد وهو : لماذا يعرض كفار مكة عن دين محمد ؟ والقرآن الذى نزل على محمد ؟ وهذه هى الأسئلة الإلهية البليغة التى يوجهها ربنا جل جلاله ليبين لهم ألا مبرر لذلك العناد الذى يقاومون به وحى الله ونبى الله :﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ .

والمعنى : هل سبب عنادهم وكفرهم وأعراضهم أنهم لم يتدبروا القرآن وما فيه من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ؟ أم ترى سبب عنادهم وكفرهم وإعراضهم أن ما جاءهم به من النبوة والعلم والإيمان هو شيء بدع ما مر على آبائهم من قبل ؟ والجواب البدهى عن هذين السؤالين : هو أنهم تدبروا القرآن لكن على قلوبهم أقفالها ومن ثم فلا يدخل إليها نوره ولا ينفذ إلى شغافها هديه . أما الجواب الثانى : فهو أن العلم والنبوة اللذين جاء بهما محمد ليسا أمراً بدعا بل لقد بعث الله فى آباء هؤلاء ، وفى الأمم السابقة أنبياء ، ومن هنا فكلتا الآيتين تثبت أن ليس للكفار عذر فى هذا الإعراض عن هدى محمد ﷺ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ معناه : هل سبب كفرهم وعنادهم أنهم لم يعرفوا محمداً وماضيه فى الأمانة والصدق ، الحقيقة أنهم عرفوا محمداً ، وكيف كان مضرب المثل فى الأمانة ؟ نعم! لقد عرفوه بأنفسهم فى مكة المكرمة ، وعرفه معهم أهل الكتاب ، لأنه مكتوب عندهم فى كتبهم ، وموصوف وصفاً تفصيلياً حتى لقد كان أهل الكتاب يعرفون محمداً كما يعرفون أبناءهم ؟ وما داموا قد عرفوه فما مبرر لكفرهم هذا، وعنادهم لهذا الرسول الأمين ؟ وإذا كان

كفرهم يدل على شيء ، فهو يدل على جهالة جهلاء وضلالة عمياء ، وكفر عنيد لا يستند إلى منطق .

رابعاً : التساؤل الرابع جاء في قوله تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ معناه : هل سبب كفرهم بمحمد هو تقولهم عليه وافتراؤهم وزعمهم أنه مجنون ؟ إن كفار قريش كانوا يعلمون علماً يقيناً أن محمداً ﷺ أبعد الناس عن الجنون ، وكيف يكون مجنوناً وقد جاءهم بالهدى ودين الحق ؟ إنهم لو رجعوا إلى عقولهم لقالت لهم بأفصح لغة : إن محمداً ليس مجنوناً ، لكنه رسول الله ، وقد دفع الله افتراءهم في مسألة ذلك الجنون المزعوم ، فطلب منهم في سورة سبأ أن يخلوا بأنفسهم ويتفكروا هل محمد مجنون ؟ إنهم سيجدون الجواب من خلال تفكيرهم بأنهم كاذبون مرجفون ، وأن محمداً ﷺ ما هو بنعمة ربه بمجنون ، يقول الله تعالى في سورة سبأ مخاطباً المشركين : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادي ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة** ﴾ [سبأ : ٤٦].

خامساً : قوله تعالى : ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ** ﴾ . هذه الآية العظيمة تثبت أن الحق غير الهوى ، فالحق هو المبدأ الراسخ الثابت الذى لا تزعزعه الأهواء ، أما الهوى فهو الغوغائية المتقلبة التى لا جذور لها ولا تملك شيئاً من عناصر الخلود ، ومن قبل ذلك أمر الله جميع أنبيائه أن يحكموا بين الناس بالحق وألا يتبعوا الهوى فيضلهم عن سبيل الله ، ولو أن الشريعة الحكيمة سارت طبقاً لأهواء الكافرين لفسدت السموات والأرض ؛ لأن أهواء الكافرين اختلقت لله شركاء ، ولو أن الأمر كما تصورت أهواؤهم ؛ لاختلف الشركاء وتنازعوا فيما بينهم ، وإذ ذاك

تفسد السموات والأرض ، وتفسد أحوال الخلائق على مذبح الأهواء .
وما أجمل هذه الخاتمة العظيمة للآية الكريمة ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ . ومعنى هذه الخاتمة الكريمة أن الذى آتيناهم من الوحى والقرآن والسنة إنما هو ذكرهم وشرفهم ومجدهم لكنهم يعرضون عن ذلك المجد العظيم وذلك الشرف الهائل ويمضى جل جلاله فى التسأؤلات البليغة ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ومعناه : هل كفروا لأنك تكلفهم ضريبة وتأخذ منهم أجراً على التبليغ ؟! إنك لم تفعل ذلك لعلمك أن أجر الله خير من أموالهم والله خير الرازقين . وأخيراً وبعد تلك الأسئلة البليغة يجلو ربنا جل جلاله شمس الحقيقة التي حاول الكفار أن يحجبوها بأيديهم الصغيرة فقال جل من قائل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ . فالله بين لهم طريق السعادة ، وهم يعدلون عنه ويأبون إلا طريق الضلال !

نصيحتان غاليتان لكل داعية إلى الله عز وجل

هذه آيات من سورة (المؤمنون) فيها نصيحتان عظيمتان لرسول الله ﷺ، ولكل داعية يبتلى بعقبات تسد فى وجهه طريق الدعوة ، وفى الآيات تسلية لرسول الله ﷺ بذكر المصير المظلم الذى ينتظر كل كافر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٧ ـ ١٠١].

أولاً : أصحاب الدعوات الخيرة مطالبون بمكارم الأخلاق ، وسعة الصدر ، ورد الإساءة بالإحسان ؛ لأنهم سيكونون قدوات لمن يناصرهم ؛ ولأن الفظاظة وغلظة القلب تفرق الأتباع وتكسر وحدة الصف وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ .

ويلاحظ فى الآية أنه قدم المفعول به على الجار والمجرور ؛ لأن التقدير : ادفع السيئة بالتى هى أحسن، والتقديم فى معظم أحواله يكون للاهتمام بالمقدم ، ولعله هنا من قبيل اهتمام القرآن الكريم بالحسنة ، ولذا بادر بذكرها مع أن النظم العادى يقتضى تأخيرها ، ويختم الله تبارك وتعالى الآية بقوله : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ ومعناه: إن شركهم وكلامهم وقولهم المنكر على الله ورسوله كل هذه لا تخفى علينا فإذا نسبوا إلى ربهم الولد والشريك والبنات ، ونسبوا إليك الكهانة والشعر والجنون ،

فنحن أعلم بما يصفون ، وحسابهم فى كل هذا على ربهم، أما أنت فادفع السيئة بالإحسان ولن لهم ، واعلم أن الله جل جلاله سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

وما أجمل الكناية فى قوله تعالى : ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ فقد كنى عن مكارم الأخلاق بقوله : ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ والحق أن الحسنة لا تستوى والسيئة فالأولى أجمل وجهاً وأحسن عاقبة وخير مرداً . وفى الجزء الثانى: ﴿ إن ربك هو أعلم بما يصفون ﴾ توكيد بالضمير هو ، ويسمى هذا الضمير ضمير فصل؛ لأنه يفصل بين المبتدأ والخبر المعرفين ، أو بين اسم النواسخ وأخبارها وهو لا محل له من الإعراب ، لكنه يفيد التوكيد .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ دعوة يعلمها ربنا تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ وهى دعوة مجربة تبعد الشيطان والوسوسة . روى أن خالدا ـ رضى الله عنه ـ شكا إلى رسول الله ﷺ أنه يؤرق من الليل أن يصيبه سهاد يمنعه النوم ، فقال له رسول الله ﷺ قل : « أعوذ بكلمات الله التامات من غضب الله وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ، والهمز معناه : الدفع أو نخس الدابة لتنطلق ، ويبدو أن معناه فى الآية : دفع الشيطان الإنسان للغضب ؛ لأن الغاضب يتصرف بلا عقل أما قوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ معناه : أعذنى يارب أن يلازمنى الشيطان ويظل حاضرا معى فى شؤونى وبخاصة عند الموت وفى صحيح مسلم رحمه الله عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يضره عند طعامه » ، وما دام الشيطان هو الذى يهمز الإنسان كما يهمز الراكب الدابة لتسرع فليحذر المسلم من الأمور التى يرى

نفسه مندفعاً إليها بقوة شديدة خشية أن تكون من همز الشيطان . فقد كان النبى ﷺ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ولمزه وهمسه .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ . تشير الآية الكريمة أن العبد إذا حضرته الوفاة عرف نفسه، هل هو من أولياء الله أم من أعدائه ؟ لأنه يرى صور الملائكة واستعداداتهم لقبض روحه ويشاهد مدى رأفتهم ، أو عنفهم وهم من حوله ليتوفوه بأمر الله ، ثم هو يبصر كتاب أعماله ينطق عليه ، وإذ ذاك حين يرى قلة حسناته وكثرة سيئاته يقول:

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ إلى الدنيا لعلى أعمل صالحاً وحسنات فيما تركت من مال وذخائر ، وهنا تقول له الملائكة : لقد مضت من ربك كلمة لا مرد لها وهى ألا يرجع أى ميت إلى الحياة الدنيا ؛ لأن أمامه حياة برزخية تقع بين الموتة الأولى وبين البعث : ﴿ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ﴾ [المنافقون : ١١].

وبالمناسبة فقد تستعمل العرب كلمة وراء بمعنى أمام كقولهم : وراءك يوم صعب ، أى أمامك ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [الكهف : ٧٩] أى وكان أمامهم فى البحر شىء ، فالبرزخ المذكور فى الآية وهو المدة بين الموت والبعث يقدرها الله عز وجل وهى مقدرة تقديراً دقيقاً ؛ لأن ساعة الموت محددة ، وساعة البعث أيضاً معينة وكل شىء عند الله بقدر ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [النحل : ٦١] ولشدة حرص الإنسان على العودة إلى الحياة يتمنى أن يعود ولو ساعة لينتهزها فى عدد من العمل الصالح فتقول له الملائكة أو يقول له ربنا عز وجل:

﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [فاطر : ٣٧] ومعناه ألم يعيشوا عمراً طويلاً كافيا ليتذكر فيه من شاء أن يتذكر . وروى أن المقصر فى العبادة يدعى أن يسجد فإذا همّ بذلك لم يستطع لأن ركبه تجمد ولا تنثنى فيتأسف على عمر ضيعه ، وكان يستطيع أن يسجد فيه آلاف السجدات ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة فى سورة ن: ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ [ن : ٤٢] أى يشتد الكرب ﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ [ن : ٤٢ ـ ٤٣] .

اللهم بارك لنا فى أعمارنا واملأ صحائفنا بالحسنات .

توحيد الله سبيل الفوز والفلاح

هذه الآيات الأربع هى مسك الختام الذى ختم الله به سورة (المؤمنون) وهى آيات إذا رتلها قارئ فى تدبر أحس أن لها أثراً بالغاً فى القلوب ؛ ذلك لأن موضوعها هو التوحيد الذى خلق الإنس والجن من أجله ، وهذا الموضوع هو أشرف الموضوعات ، إذ به يغفر الله الذنوب وبغيره لا تتقبل الأعمال :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

أولاً : سورة (المؤمنون) افتتحت بوصف جامع لما يتحلى به المؤمنون من أخلاق واختتمت بدرس عظيم فى التوحيد ، وبين الافتتاح والاختتام يحس قارئ هذه السورة أنه يعيش فى ظلال دوحة الإيمان ؛ إذ السورة كلها عرض لآيات القدرة وأخبار الرسل ، وفيها مناقشة منطقية للكافرين على هيئة أسئلة تضعهم فى الإحراج .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾.
استفهام بلاغى غرضه الإنكار على البشرية أن تحسب هذا الحسبان الذى يسقط قدرها ويكشف أنها لم تفهم حكمة خلقها ، وسفهت نفسها ، ولم تقدر ربها حق قدره .

إن كل إنسان يعتقد أن الموت هو نهاية أمره ، وأن ربه خلقه ليحيا ثم يموت إلى غير رجعة هو إنسان سفيه تافه الفهم ؛ لأنه بهذا الاعتقاد الفاسد يرفض كرامته ويأبى إلا أن يسوى نفسه بالحيوان الذى ينتهى إلى تراب ، ثم هو بهذا الاعتقاد يتهم ربه بالعبث وينكر على ربه حكمته البالغة وقدرته القادرة . يقول

له ربه : خلقناك لأمر عظيم هو أن تعبد الله وتوحده وتنال بالتوحيد رضاءه وجنته ، وهو يأبى ويقول : بل خلقتنى لأتمتع بعض الوقت ثم أصير إلى الدود والتراب! وكلمة ﴿عبثاً﴾ فى الآية يجوز فى إعرابها أن تعرب مفعولاً مطلقاً ، ومفعولاً لأجله وحالاً مؤولة بالمشتق وتمييزاً وإن كان أوجهها المفعول لأجله .

وقد أنكر عليهم الحق جل جلاله اعتقادين فاسدين :

أولهما : أن يعتقدوا بأنهم خلقوا عبثاً ولغير حكمة .

والثانى : أنهم لن يرجعوا إلى ربهم ولن يحاسبوا على أعمالهم وإنما أنكر هذين الاعتقادين ، لأن فيهما جهلاً من الإنسان بربه وجهلاً منه بنفسه .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾

هذه الآية تعليق على الآية الأولى ومعناها : أن الله جلا جلاله أعظم وأجل وأعلى من أن يخلق الخلق عبثاً ، وقد وصف نفسه بالملك الحق ليدل على أنه هو الحق ، ومن ثم فهو لا يخلق إلا بالحق ولا يقضى ويحكم إلا بالحق ، ولا يزن إلا بالحق ، ولا يهدى إلا للحق ، ولا يقول إلا الحق ، لا إله إلا هو وعده الحق وقوله الحق ، وهو الملك الحق ، وقد وردت كلمة الحق فى القرآن الكريم مائتين وسبعاً وعشرين مرة ، ولا غرو فالله هو الحق والإسلام هو دين الحق ، والقرآن هو الحق نعم إن عقيدة الإسلام وشريعة الإسلام أساسهما هو الحق .

وقد وصف نفسه هى هذه الآية بأنه رب العرش الكريم ، وقرئت : «الكريم» بالضم وبالكسر كنعت للرب أو للعرش . وإنما وصف نفسه فى هذا السياق رب العرش الكريم ، مشيراً إلى أنه على عظمة ملكه وسعة كرسيه وملكوته وسلطانه القديم ، فوق عرشه كريم واسع الكرم إذ هو يرزق كل خلقه على الرغم مما يصفونه من صفات لا تليق بكماله ولا تتناسب مع عظمته وجلاله .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ هذه الآية الكريمة من الآيات العظيمة التى تقرر التوحيد وتستنكر أى نوع من أنواع الشرك ، وتقرر هذه الآية الكريمة أن الدعاء عبادة ولا يجوز أن تصرف العبادة إلا إلى الله، فإذا اتخذ أى عبد إلهاً من دون الله وكلٌ إله غير الله باطل ؛ لأنه لا برهان له من المعقول ، أو المنقول ولا أنزل الله به سلطانا ولا دليلاً ؛ ولهذا فكل نوع من أنواع الآلهة حتى ولو كانوا أنبياء، أو ملائكة يعوزه البرهان وينقصه السلطان . إن الذى يقرأ هذه الآية العظيمة يلاحظ عظمة الأسماء الحسنى والصفات العلا التى ذكرها ربنا عز وجل فى هذه الآية الله الملك الحق ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ ، وإنما ذكرها هنا : ليدلل على أن نسبة العبث واتخاذ الشركاء لا تليق بمن هذا جلاله ، بل إن كل اسم من هذه الأسماء الحسنى وكل صفة من هذه الصفات العلا تتنافى مع ما يصفون .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ إشارة إلى أن كل أنواع المشركين كافرون مهما كانت نوعية شركائهم . والهاء فى ﴿ إِنَّهُ ﴾ ضمير الشأن، وفى العبارة مؤكدان هما إن وضمير الشأن ، وذلك لتوكيد النفى توكيداً مضاعفاً وهو نفى الفلاح عن الكافرين .

خامساً : قوله تعالى فى الآية الخاتمة : ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . أمر لرسول الله ﷺ ولكل من يؤمن به أن يطلب المغفرة والرحمة ، لأهل هذا الكون على ما يفترونه على الله ، وهذه الآية فيها حذف لكى تفيد العموم ، فقد حذف المفعول به لكلمة ﴿ **اغفر** ﴾ والمفعول به لكلمة ﴿ **ارحم** ﴾ فلم يقل : رب اغفر الذنوب للعباد ، وارحم الناس بل أطلقهما إطلاقاً ليكون طلب المغفرة عاما لجميع الذنوب

وليكون الدعاء عاماً لجيمع الخلائق .

والحق أن تكرار مثل هذ الدعاء هو مما يلطف غضب الرب ؛ ولأن ذنوب العباد لكثرتها يخشى معها العذاب ، فما أجمل أن يكرر كل إنسان هذا الدعاء؛ لأننا فى أمس الحاجة إلى مغفرة الله العظيمة ورحمته الواسعة . بدئت سورة (المؤمنون) بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وانتهت بقوله : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقد جاء فى الأثر : من عمل بأول سورة (المؤمنون) واتعظ بآخرها فقد نجا وأفلح .

جزاء الزانية والزانى

هذه ثلاث آيات كريمات افتتح الله بها سورة النور ، وكل ما فى سورة النور نور ، فالحدود التى فيها نور ، والآداب التى فيها نور ، ثم إن فيها صفحة تتحدث عن نور ربنا جل جلاله ونور الإيمان الذى ينور أعمال الصالحين ، وما يقابل ذلك من ظلمات تلف أعمال الكافرين وهى ظلمات مضاعفة فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وعلى الجملة فسورة النور لها من مسماها نصيب وافر إنها بحق سورة النور .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ١ ـ ٣] .

أقول وأسأل الله أن ينور قلوبنا بنوره :

أولاً : سورة النور سورة مدنية بالإجماع ، وهى سورة مهمة لاشتمالها على عدد من الأحكام الفقهية المتعلقة بحد الزنا وحد القذف ؛ ولهذا يستحب أن يحفظها الرجال والنساء لما فيها من ذكر أحكام العفاف والستر ؛ كتب عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى أهل الكوفة ؟ علموا نساءكم سورة النور . وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : علموهن سورة النور والغزل . وقد استهلها ربنا جل جلاله بآية تعتبر من أجمل الشواهد على براعة الاستهلال ، وهى آية تقديمية للسورة قصد بها جذب الانتباه ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ . وتعرب

كلمة ﴿ سورة ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هذه . وقد وصف الله جل جلاله سورة النور بقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تعظيماً لشأنها ، فقد أنزلها ربنا بحكمته وفرضها بقدرته وأنزل فيها دلائل واضحة تهدى إلى الإيمان ، وقد ختم الآية بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ مشيراً إلى الهدف من إنزالها ، ألا وهو الذكرى ، ومعناها أن يتذكر المؤمن حدود ربه فى كل حين فيتجنبها ويسد الذرائع المؤدية إليها .

ثانياً : فى قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ألخص هنا ما أورده الإمام القرطبى ـ رحمه الله ـ من المسائل المتعلقة بهذه الآية :

١ ـ حد الزنا مائة جلدة للبكر الحر البالغ ، وللبالغة الحرة البكر وتغريب عام على خلاف بين الفقهاء فى موضوع التغريب ، والذى أراه أن التغريب يجب إذا كان وجود الزانيين يجلب الفضيحة ويكثر القيل ويعرضهما للتعيير واللمز والتلوك ، أما المحصن والمحصنة فحد الزنا فيهما أن يرجم كل منهما حتى يموت، وقال بعض الفقهاء بجلدهما مائة جلدة قبل الرجم ، والراجح والله أعلم الاكتفاء بالرجم . أما العبد والأمة ، فحدهما خمسون جلدة .

٢ ـ قدم فى الآية الكريمة الزانية على الزانى ؛ لأن أثر الزنا فى المرأة أشد والعار فيها ألصق ، ولأن زناها يفسد الكثيرين . أما فى آية السرقة التى فى المائدة فقدم السارق على السارقة ؛ لأن الرجل إذا احترف السرقة كان أشد فتكا وأعظم خطراً من السارقة .

٣ – قرئت الآية بنصب الزانية والزانى هكذا « الزَّانِيَةَ وَالزَّانِيَ » والجمهور قرأ بالرفع ، والإعراب : الزانية مبتدأ ، والخبر ﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ ،

والفاء واقعة فى الخبر لشبه الشرط ، وهى تقع كثيراً فى الجمل الاسمية شبه الشرطية ، كقولهم الذى يتقى الله فله الجنة . وتقدير الجملة القرآنية : إذا زنى الزانى والزانية فاجلدوا .

٤ ـ الذى ينفذ الحد هو الإمام أو نائبه ويطبق الحد المذكور على المسلم والكافر ، لأن كلمة :﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ فيهما أل المفيدة لاستغراق جنس الزناة أيا كانوا .

٥ ـ السوط الذى يتم به الجلد يكون من النوع الوسط ويشترط فيمن ينفذ الجلد أن يكون من أهل الدين وألا يرفع يده بحيث يظهر إبطه ؛ لأن الحد أمانة وبركة وفى الحديث الشريف : « إقامة حد من حدود الله فى أرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة » ؛ لأن إقامة حد من حدود الله ينتظم بها الأمن ، فيشيع الرخاء بذلك الزمن أكثر من ذلك الذى يتحقق بالمطر .

٦ ـ الجلد يكون فى الظهر ، ولا داعى أن يجرد المجلود من قميصه ، ورأى بعض الأئمة تجريده ويجلد وهو واقف ولا يمدد على الأرض ، ويوزع الجلد على مواضع مختلفة فى الظهر وإذا مات المجلود من الجلد فلا يغرم الإمام ، أو الدولة ديته ؛ لأنهما محسنان فى تنفيذ الجلد ولم يظلما فيستحقا أن يغرما .

٧ ـ لا تجوز الرأفة فى إقامة الحد على الزانى بل ينفذ كما شرعه الله ورسوله، ومعنى قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى فى حكم الله ، والدين يأتى بمعنى الحكم ، كما فى سورة يوسف : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف : ٧٦] أى فى نظام حكم الملك ، ولا يجوز تجاوز الحد فى جلد الزانى، وأجاز الفقهاء زيادة الحد فى شارب الخمر إذا رأى الإمام ذلك لمصلحة الأمة ، فقد جلد عمر ثمانين وكان يجلد الرجل الضعيف أربعين ، وإذا أصر شارب الخمر على إدمانها وجاهر بذلك فقد يجلده الإمام مائة ، والإمام فى

كل هذا يتوخى المصلحة لا الانتقام ، وفى السياسة الشرعية يملك الإمام المسلم أن يزيد فى الحد إذا استهتر أهل المعاصى بمحارم الله . فلو أن الإمام المسلم رأى شيوع الحبوب المخدرة فى المجتمع وشدة فتكها بمدمنيها فحكم بتعزير المتاجر بالحبوب إلى القتل جاز له ذلك ، وقد جلد أحد الولاة مجرماً عبث بصبى ثلاثمائة جلدة فلم ير مالك ـ رحمة الله ـ فى ذلك ما يستنكر .

٨ ـ ويشرع أن يشهد عقوبة الزانية والزانى عدد من المؤمنين بين رجال ونساء ؛ لأن فى ذلك زيادة نكاية رادعة للزانى وفيه اعتبار وعبرة للمشاهد لما يراه من ألم الزانى وفضيحته ؛ وقال بعض الأئمة : لعل حضور المؤمنين يفيد من يقام عليه الحد لأنهم قد يدعون له بالمغفرة لما يقاسيه من ألم ، وعند الكثيرين من الفقهاء أن من يقام عليه الحد يغفر الله له ذنبه .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه الآية اختلف فى تفسيرها . وقد يتساءل بعض الناس ألا يمكن أن تكون امرأة صالحة زوجة لزان مستهتر ، ثم ألا يحدث أحيانا أن تكون زوجة رجل صالح مفرطة ؟ نعم قد يحصل هذا ولكن الآية الكريمة تعنى أنه لا يجوز للمؤمن الشريف العفيف أن يتزوج زانية معروفة بالزنا ، ولا يجوز للمؤمنة العفيفة التقية أن تتزوج من عرف بالزنا ومرد عليه ، وقديماً استشار أحد الصحابة رسول الله ﷺ أن يتزوج بغياً كانت صديقته فى الجاهلية فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك ، وهذا والله أعلم خشية أن تغلبها العادة فتفرط وهى عند رجل دين ، وعلى المؤمن أن يختار الزوجة ذات الدين من الأسر المعروفة بالستر والعفاف .

نسأل الله أن يطهرنا والإخوة القراء وأزواجنا وذرياتنا من كل فاحشة .

جزاء قذف المحصنات بلا شهود

هاتان آيتان من سورة النور تتحدثان عن قذف المحصنات المؤمنات أى رميهن بالزنا ويتعلق بالأيتين من الأحكام ما يستغرق الحلقة إن شاء الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

هاتان هما الآيتان الكريمتان ، وهذا تلخيص لما ذكره القرطبى ـ رحمه الله ـ من مسائل وأحكام تتعلق بهما :

أولاً : الإسلام يكره البذاء وإشاعة الفاحشة فى المجتمع الإسلامى ، ويربى الأمة على الأدب وعفة اللسان ؛ وذلك لأن البذاء يورث العداوات ، ويوقع المشاجرات، ويدنس وضاءة المجتمع بالكلم الخبيث ؛ ولهذا تشدد الشارع الحكيم فى حد القذف حتى إنه ليحد القاذف ولو عرض بالقذف تعريضاً والقذف هو اتهام الناس بالزنا ، أو اللواط أو ما يتعلق بهما كأن ينسب رجلاً إلى غير أبيه . والقذف وإن ورد فى الآية للمحصنات ، فهو ينطبق على أعراض النساء والرجال ، فمن قذف رجلاً بالزنا كان عليه من الحد مثل من رمى امرأة بالزنا وهذا بإجماع الأئمة ـ ولعله خص المرأة بالذكر؛ لأن القذف يضر المرأة أكثر مما يؤذى الرجل . وحد القذف محدد فى القرآن الكريم وهو ثمانون جلدة.

ثانياً : استعمل الحق جل وعلا كلمة ﴿ **يرمون** ﴾ بدلا من يتهمون تغليظا لأمر القذف ، وكأن من اتهم أخاه فى عرضه ، فكأنما رماه بسهم قاتل ، وقديماً قيل: كلم اللسان أنكى من كلم السنان .

ثالثاً : لا يقام الحد على القاذف إلا إذا كان بالغاً عاقلاً وأن يكون المقذوف مسلماً حراً بالغاً عاقلاً بريئاً من الفاحشة .

رابعاً : إذا لجأ القاذف للتعريض بدلاً من التصريح ، فبعض الأئمة يوجب الحد عليه ، والتعريض باب بلاغى واسع فى اللغة العربية قد لا يتقنه إلا ذوو القدم الراسخة فى البيان ، وقد استعمل التعريض فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى للكافر فى جهنم : ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴾ [الدخان : ٤٩] .

وهو يعنى الذليل المهان ، وكقوله على لسان قوم شعيب يخاطبون نبيهم : ﴿**إنك لأنت الحليم الرشيد**﴾ [هود : ٧٧] وهم يعنون السفيه الجاهل ، فإذا قال رجل فى مشادة أنا بفضل الله ليس لى أولاد زنا ، أو قال له : أنا أعلم أن أمك امرأة شريفة ، أو قال مثلاً : ابتداء أنت تعلم يقيناً أن أمى ليست زانية ، أو قال له : تفقد بيتك وأهلك لتعرف حقيقتك،كل هذا وغيره يعتبره مالك ـ رحمه الله ـ قذفاً ويحد عليه المعرض .

خامساً : إذا قذف العبد حراً جلد أربعين جلدة ، ويرى بعض العلماء أن يجلد ثمانين ، ولعل الرأى الأول أرجح .

سادساً : إذا قذف المسلم نصرانية فإن كانت زوجة لمسلم ولها منه ولد أقيم عليه الحد وإلاعزر تعزيراً .

سابعاً : إذا قذف عبداً ، أو صبياً ، أو صبية قبل البلوغ فيعزر ـ والله أعلم ـ وإذا قذفت امرأة زوجها أو العكس حُدَّ كلٌّ منهما . وفى حديث على ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة جاءته فقالت : إن زوجها يأتى جاريتها فقال لها: إن كنت صادقة رجمناه وإن كنت كاذبة جلدناك ، ففكرت ثم قالت : ردونى إلى أهلى غيرى نفرة . يعنى متفجرة بالغليان من الغيرة .

ثامناً : لا يثبت القذف على المقذوف إلا بأربعة شهداء ، رحمة من الله بعباده وعندئذ إذا شهد الشهود الأربعة أنهم رأوا الأمر واضحاً فيقام الحد على المقذوف.

تاسعاً : إذا شهد ثلاثة وعدل واحد عن شهادته يجلد الثلاثة الحد . وقيل : إذا شهد أربعة عميان على امرأة بالزنا فإنهم يضربون ، لأنهم لا يرون ومن شرط الشاهد فى الزنا أن يرى الفاحشة واضحة .

عاشراً : إذا شهد أربعة على رجل بالزنا فرجم ثم اتضح أنهم تآمروا عليه ليقتل وأنه برىء فإنهم يقتلون به .

الحادى عشر : إذا تاب القاذف المفترى لم تنفعه التوبة حتى يسامحه ويحلله المقذوف .

الثانى عشر : قرئت الآية بأربعة شهداء وعلى هذه القراءة أُعرب شهداء نعتا ، أو بدلاً ، أو حالاً ، أوتمييزاً .

الثالث عشر : قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. معناه إذا قذف القاذف مسلماً ثبتت عليه ثلاثة أحكام : الجلد ، ورد شهادته، وفسوقه والمشرع الحكيم جل جلاله أراد من وراء هذه الأحكام أن يستأصل من المجتمع إشاعات الفاحشة ؛ لأن للمجتمع الإسلامى مسؤولية ورسالة أجلّ من الانشغال بالقذف والمهاترة .

الرابع عشر : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ معناه : إذا تاب القاذف وحسنت توبته واتبع توبته بالعمل الصالح، فإن الله جل جلاله يغفر له ، وعندئذ يزول عنه الفسوق وتقبل شهادته عند جمهور الفقهاء ، وبعض الفقهاء يرى أنه لا تقبل شهادته أبد أخذاً بمنطوق الآية : ﴿ وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدا ﴾ . والراجح والله

أعلم هو الرأى الأول ؛ لأنه إذا زال عنه وصف الفسوق قبلت شهادته .

الخامس عشر : يلاحظ المفسرون أن القرآن الكريم قد جعل إثبات الزنا صعباً وجعل بينته تكاد تكون مستحيلة ؛ إذ من النادر جداً أن يقترف المسلم الفاحشة إلا وهو فى غاية من التستر وشهادة أربعة بأنهم رأوا عملية الزنا فى وضوح تام قد لا تقع ولا تحصل ، وسبب هذا والله أعلم أن الله جلت حكمته هو أهل التقوى والمغفرة يعفو عن الذنوب ويستر العيوب ، والغريزة الجنسية ثقيلة إلا على من هدى الله ، ولو تساهل الشرع فى بينة الزنا لشاع القذف وسهل على البعض أن يكيدوا للآخرين .

إن الذى لا يجاهر بالمعصية فيستره الله تعالى ثم يتبع السيئة الحسنة فإن الذى ستره فى الدنيا هو أكرم من أن يفضحه فى الآخرة . إن المقصد الجليل للشارع الحكيم هو ألا تشيع الفاحشة وتظهر فى الشوارع ، كما حصل فى هذه الأيام فى بعض البلاد الأجنبية إذ بلغت المجاهرة هناك حداً وقحاً حتى صار من المألوف أن يقترف بعض الشذاذ الفاحشة على مرأى من الناس فى الشوارع والحدائق وهذا عود بالبشرية إلى عصور همجيتها وهبوط بمستوى البشرية إلى الحيوانية وهو ما يأباه ديننا دين الذوق والحضارة الحقيقة ودين سعادة الدارين .

اللهم ارزقنا العمل بهذا الدين ، وأعذنا من همزات الشياطين ، وأخلاق الكفرة والملحدين .

حكم اللعان

هـذه آيـات من سـورة النـور تتعلق بحكـم اللعـان ، وقد استنبـط العلماء ـ رحمهم الله ـ حولها أحكاماً كثيرة بلغت فى تفسير القرطبى ـ رحمه الله ـ ثلاثين مسألة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : ٤ ـ ١٠].

أولاً : جاء فى مناسبة هذه الآيات أن أحد الصحابة عاد من سفر فدخل بيته عشاء ، فوجد عند امرأته رجلاً ورأى بعينه وسمع بأذنه ، فلم يهجهما حتى غدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى جئت أهلى عشاء، فوجدت رجلاً فرأيت بعينى وسمعت بأذنى فكره رسول الله ﷺ ما جاء به الرجل واشتد عليه ، وقال له : « البينة أو حد فى ظهرك » قال يارسول الله : إذا رأى أحدنا رجلاً على امرأته يلتمس البينة ؟! فجعل رسول الله ﷺ يقول : « البينة أو حد فى ظهرك » فقال الزوج واسمه هلال بن أمية الواقفى: والذى بعثك بالحق إنك لصادق ولينزلن الله فى أمرى ما يبرئ ظهرى من الحد ، فنزلت هذه الآيات ونجا هلال من الحد، ومنذ نزولها شرعت الملاعنة بين الزوجين إذا اتهم الرجل زوجته بالزنا . والحق أن الرسول ﷺ حكم أول الأمر بما نزل فى القرآن الكريم

في حد القذف في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ ولم تكن آية الملاعنة قد نزلت ، فلما نزلت إثر حادثة هلال حكم بها رسول الله ﷺ وكان على كلتا الحالتين محقاً حاكما بما أنزل الله ، وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد كبر عليهم تطبيق حد القذف على الزوج الذى يرى الفاحشة في زوجته ثم تبدأ المرأة فتقول : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما نسب إليَّ من الزنا أو من الحمل من غيره ، تكرر هذا أربع مرات وتضيف في الخامسة : وغضب الله عليها إن كان من الصادقين ، وعلى القاضى أن يعظ المتلاعنين ويحذرهما قبل اللعان وأثناءه من عاقبة وقوع اللعنة والغضب ، وله أن يضع يده على فم الملاعن عند الشهادة الخامسة فإذا أصر أمضاها ، وقد ورد أن الرسول ﷺ وعظ امرأة هلال قبل الشهادة الخامسة فصمتت وهمت بالرجوع عن قولها لكنها قالت : والله لا أفضح أهلى أبد الدهر وشهدت الخامسة .

ثالثا : إذا انتهى المتلاعنان فرق بينهما السلطان أو القاضى ، وخرج كل واحد من باب من أبواب المسجد غير الباب الذى يخرج منه صاحبه ، وعلى أثر ذلك تقع الفرقة بينهما فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان ولا تجوز له مراجعتها وتفقد هى فراش الرجل فلا ينسب الولد إلى أبيه .

ثانياً : إذا رمى رجل امرأته بالزنا وشهد أنه رأى ذلك وتأكد منه أو شهد أن الحمل الذى حملت به ليس منه وأنه لم يأتها من مدة طويلة واستبرأها بحيضة أو بثلاث حيضات ، ثم حملت بعد ذلك فالحمل أيضا شاهد على الزنا ، بل هو أقوى من المشاهدة . وفى كلتا الحالتين لا يحدُّ الزوج حد القذف ، وإنما يجرى القاضى بينه وبين زوجته ما يسمى باللعان . وكيفية اللعان أن يجمعهما الإمام أو القاضى فى مسجد جامع ويستحب

بعد العصر وإن كانت الزوجة نصرانية أقسمت في المكان المقدس عندها . والمهم أن يجمعهما السلطان أو من ينوب عنه فيبدأ الرجل ويقول الرجل: أشهد بالله بأني رأيتها تزني وإني لمن الصادقين فيما أقوله أو يقول : إني استبرأتها من الحيض ولم آتها بعد الاستبراء وحملت من غيري وإني لمن الصادقين فيما أقوله أو نحواً من ذلك مما يلقنه القاضي . وفي الخامسة يزيد: ولعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . في هذه الحال يكون قد برأ نفسه من حد القذف .

رابعاً : إذا انتهت الملاعنة فهل يقام الحد على الرجل الذي اتهمه الزوج بالزنا؟ قال الأئمة إنه لا يحد ؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر بذلك واكتفى بالتفريق ولم يقم الحد على شريك بن السحماء الذي اتهمه الزوج هلال ، ثم لما ولدت الزوجة فيما بعد غلاماً يشبه المتهم لم يقم رسول الله ﷺ الحد على أي منهما لكنه غضب وقال : « لولا أيمانها لكان لي معها شأن » .

خامساً : إذا ولدت الزوجة وسكت الرجل بعد ولادتها مدة ، ثم أراد أن يتبرأ من الولد بالملاعنة ، فليس له ذلك ، لأن سكوته طول المدة كان رضاً .

سادساً : إذا لاعن زوجته قبل الدخول بها وهي بكر لا يدفع لها من المهر شيئاً وقيل يدفع نصف المهر كالطلاق ، والرأي الأول هو الأرجح والله أعلم .

سابعاً : إذا كذب الرجل نفسه بعد الملاعنة والتفريق جلد ثمانين جلدة وألحق به الولد ونسب إليه ، وله عندئذ أن يتقدم إلى الزوجة كخاطب من الخطاب.

ثامناً : قوله تعالى بعد آيات الملاعنة : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ جواب الشرط محذوف ، وتقديره لعاقبكم لمراجعتكم رسول الله ﷺ ولكنه جل جلاله يتوب على عباده ؛ ولهذا فقد أنزل

بحكمته آيات الملاعنة ليسلم الزوج الذى يرمى زوجته من حد القذف .

نسأل الله التواب الحكيم أن يرزقنا التوبة النصوح وأن يؤتينا الحكمة والسداد فى القول والعمل .

فقد روى أن الصحابى الجليل سعد بن معاذ رضى الله عنه قال : يارسول الله إن وجدت مع امرأتى رجلاً أمهله حتى آتى بأربعة شهداء ! والله لأضربنه بالسيف غير مصفح عنه ، أى غير تاركه . فلم يعدها رسول الله ﷺ تمرداً من سيد الأوس، وإنما قال : « أتعجبون من غيرة سعد ، لأنا أغير منه والله أغير منى» . وقال عاصم بن عدى الأنصارى : يا رسول الله ﷺ جعلنى الله فداك لو أن رجلاً منا رأى على زوجته رجلاً ، فتكلم بما جرى جلد ثمانين وسماه المسلمون فاسقاً ، فلا تقبل شهادته ، فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء وإلى أن يلتمس أربعة شهود فقد فرغ الرجل من حاجته . فقال عليه السلام: « كذلك أنزلت ياعاصم بن عدى » فخرج عاصم سامعاً مطيعاً .

والحق أن سعدا وعاصماً ـ رضى الله عنهما ـ لم يكن كلامهما نقداً لحد القذف لكنه تساؤل عن حكم الرجل يقذف زوجته بالزنا ، وقد استجاب الله جل جلاله لتساؤلهما فأنزل آيات اللعان التى نحن بصددها ، والقرآن كما هو معلوم نزل منجماً على الحوادث ؛ ليثبت الله به قلوب المؤمنين . وفى هذا يقول جل جلاله فى سورة الفرقان : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا ﴾ .

آيات تعلم المسلم الذوق الاجتماعى

سورة النور كما أسلفنا كلها نور ، فالحدود المذكورة فى أوائلها نور ، والآداب المذكورة بعد ذلك نور وأى نور ، وفيها صفحة كاملة تتحدث عن نور الله جل جلاله وكيف ينور بنوره قلوب المؤمنين ، وإنى مورد هنا آيات نورانية تدل على أن دين الإسلام هو دين ينور المجتمع الإسلامى حين يعلّم المسلم الذوق الاجتماعى . والحق أن من شاء أن يتعلم الذوق ، فليرجع إلى أعظم مرجعين فى هذا الباب وهما كتاب الله جل جلاله وسنة رسوله ﷺ .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [النور : ٢٧ _ ٢٩].

ومما يلحق بأدب الاستئذان نفسه قوله تعالى فى نفس سورة النور : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : ٥٨].

أولاً : تدور هذه الآيات الكريمات حول الاستئذان ، والاستئذان من الآداب التى تدل على الذوق والحضارة والرقى . وقد نزلت هذه الآية الكريمة ومعظم البيوت لا أبواب لها ولا ستور ، وكان فى كثير من الأبواب خروق يمكن

أن يرى ما وراءها فى داخل البيت ؛ ولهذا فقد كان من الضرورى أن توضع أصول وقواعد للاستئذان حتى لا يكشف الزائر من عورات صديقه ما لا يجوز أن ينكشف .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ هاتان الآيتان تتيحان أن أذكر بعض الآداب المتعلقة بالاستئذان :

أ ـ فى آيات الآداب كثيراً ما نرى الخطاب ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهذا إشارة إلى أن الله جل جلاله يريد للأمة المؤمنة أن تبنى مجتمعها على الذوق والأدب والنضوج الحضارى ؛ لتعلم الدنيا كلها أصول الأدب والذوق .

ب ـ معنى كلمة : ﴿ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ تستأذنوا ، ولا بأس أن يقدم الزائر للاستئذان بأن يسبح أو يتنحنح؛ لأنه بهذه الطريقة يمكن أن يعرف من صوته، وبذلك تزول الوحشة ويعرف أهل البيت زائرهم فيستأنس الطرفان وتزول الوحشة ويتهيأ الطرف للإذن .

جـ – كيفية الاستئذان : أن يقرع الباب برفق ويقول المستأذن بصوت لا صياح فيه : السلام عليكم ، أأدخل ؟ وإذا لم يجبه أحد كررها مرة أخرى فإذا لم يجبه أحد كررها الثالثة وبعدها يعود أدراجه ، ففى الحديث الصحيح عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ وسلم قال : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع » . وفى سنن أبى داود : جاء رجل فاستأذن على النبى ﷺ عليه وسلم فقال أألج فقال النبى ﷺ لخادمه : « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان ، فقل له : قل السلام عليكم أأدخل » فسمع الرجل ذلك فقال :

السلام عليكم أأدخل ؟! ، فإذن له ﷺ .

د ـ إذا قال أهل البيت : من بالباب ؟! فلا تقل أنا وإنما اذكر اسمك فلان ابن فلان ، ففى الحديث الصحيح عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : أتيت رسول الله ﷺ فى أمر دين كان على أبى فدققت الباب فقال : « من » قلت : أنا فخرج وهو يقول : « أنا أنا » ! كأنه كرهه .

هـ ـ ومن آداب الاستئذان إذا جئت باب قوم ألا تستقبل الباب من تلقاء وجهك ، وإنما تنحرف يميناً ، أو شمالاً بالقدر الذى لا ترى معه من فى داخل البيت . أورد أبو داود فى سننه أن النبى ﷺ كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن ، أو الأيسر ويقول : «السلام عليكم ، السلام عليكم » . وجاء رجل فوقف على باب النبى ﷺ يستأذن فقام مستقبل الباب فقال له رسول الله ﷺ : « هكذا عنك أو هكذا ؛ فإن الاستئذان من النظر أى سببه النظر إذا دخل البصر فلا إذن » .

و ـ وإياك أن تنظر داخل البيت من أى ثقب من ثقوب الباب ، فقد جاء فى الصحيحين : أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فألقم عينه خصاصة الباب فبصر به رسول الله ﷺ فتوخاه بحديدة وقيل بمشاقص ليفقأ عينه فلما أن بصر به انقمع فقال رسول الله ﷺ : « أما إنك لو ثبت لفقأت عينك .. من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه » .

ز ـ ويستأذن الرجل على أمه وأخواته ومحارمه فى غرفهم ؛ لأن الحُرَّ لا يحب أن يرى أيّاً من محارمه عارية . روى مالك ـ رحمه الله ـ أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : أأستأذن على أمى ؟! قال : « نعم » قال أنا معها فى البيت قال: « استأذن عليها » قال : إنى خادمها قال « استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة » ؟!

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾ أى لعل الله جل جلاله يكتبكم فى القوم الذين تنفعهم الذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾ .

رابعاً : استعمل القرآن كلمة ﴿ ارجعوا ﴾ مع أنها قد لا تقال أبداً للزائر ، ولكن القرآن الكريم استعمل أبعد الاحتمالات حتى لا يغضب المستأذن من أى كلمة غيرها كأن يقال له : فلان غير موجود ، أو ذهب لبعض شأنه ، فما دام لا يغضب من كلمة ارجع وهى أعنف كلمة فلن يغضب من غيرها .

خامساً : إذا كان لك بعض أغراض أو منافع فى خربة أو خان أو فندق تستطيع ان تفتح وتدخل دون استئذان لكن هذه الآية قد ختمها بقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُون ﴾ حتى لا يستغل الناس دخول الأماكن الخربة والخانات والفنادق استغلالا سيئاً فيعصون الله فيها وهم يتظاهرون أنهم من النزلاء .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ يأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّات ... ﴾ الآية . درس فيه تزكية لنفوس الأطفال والخدم الذين يدخلون عادة دون استئذان . إن هؤلاء عليهم أن يستأذنوا فى ثلاثة أوقات من النهار : من قبل صلاة الفجر لاحتمال أن يكون الإنسان يخلع ملابس النوم ، وحين تضعون ثياكم من الظهيرة أى استعداداً لرقدة القيلولة، ومن بعد صلاة العشاء لاحتمال أن يكون الإنسان يخلع ملابسه استعداداً للنوم . وفى غير هذه المواطن لا بأس أن يدخل الأطفال دون استئذان لكن عليهم إذا بلغوا الحلم أن يستأذنوا كآبائهم ليكونوا فروعاً صالحين لدوحة الآداب التى يتفيؤها المؤمنون .

غض البصر أول درجات العفاف والفضيلة

هاتان آيتان عظيمتان من سورة النور ، وددت لو يحفظها كل رجالنا ونسائنا لما اشتملتا عليه من فضائل النفس ، وروائع الأدب ، ولما لهما من أثر فى سد ذرائع الفاحشة وتزكية نفوس المؤمنين والمؤمنات .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣٠ ـ ٣١] .

أولاً : هاتان الآيتان درس من دروس التربية الإسلامية ، والتربية الإسلامية لا تكتفى أن تحرم الفواحش لكنها تعمل على سد ذرائعها وإبعاد المؤمن عن ملابساتها وظروفها ، ويلاحظ أن الآية الخاصة بغض البصر الموجهة للرجل سطر واحد ، أما آية غض البصر الموجهة للنساء فهى أكثر من خمسة أضعاف ذلك؛ وذلك والله أعلم لأن النساء أشد فتنة وأخطر حبائل وأعظم بلاء .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ بدأ بالمؤمنين قبل المؤمنات فى الوعظ ؛

لأن الرجال أفضل وأوعى والدعاة عادة يبدؤون فى الإصلاح بالرجال ؛ لأن الرجل إذا صلح كان أقدر على إصلاح بيته من المرأة ، وقدم ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ على ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ لسببين : أولهما : أن النظر أكثر شيوعاً من الزنا والابتلاء به أعم ، فمجموع من ينظرون وتقع منهم النظرة للأجنبيات أضعاف من يقعون فى الفاحشة . والسبب الثانى : أن النظر إلى الحرام يقع أولاً فيكون مقدمة للفاحشة ؛ ولهذا بدأ بما يقع أولاً .

ثالثاً : كثيراً ما ترى رجلاً قارب الأربعين وهو بعد لم يتزوج فإذا سألته عن سبب تأجيله قال لك : إن الزواج وراءه مسؤولية كبيرة ، والأولاد يجب أن يضمن مستقبلهم ولهذا فأنا أؤجل كى أضمن مستقبل الأولاد، وينسى مثل هذا الجاهل أن المستقبل بيد الله وأن خزائن رزق الله لا تنفد. وهذا ما يشير إليه قوله جلا وعلا : ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ وهذا وعد من الرب جل جلاله أن يرزق كل من يتزوج احتساباً على نية الستر والعفاف ، وأن يوسع عليه ولو كان فقيراً وقد جاء فى الأثر : « التمسوا الرزق بالنكاح » ، ومن كلام عمر - رضى الله عنه - : عجب لمن لايطلب الغنى بالباءة ؛ أى الزواج . ومن المجرب فى واقع الحياة ، أن كل مولود يأتى رزقه معه . وقد ختم الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ليظل الناس على ثقة برحمته ورزقه وعلمه بمصالح خلقه .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ توجيه أخلاقى من الله تبارك وتعالى أن يتحلى الإنسان بالعفاف إذا كان لا يملك ما يتزوج به وينتظر حتى يرزقه الله من فضله ، والحق

أن هذا العفاف يجمل الحياة الزوجية ؛ لأن الشاب إذا عف عن الحرام إلى أن يرزقه الله الحلال يشعر أن للزواج متعة لاتدانيها متعة ، لكنه حين يمارس الحرام فإنه يجد الزواج أمراً عادياً لا جديد فيه .

خامساً : وتلتفت الآيات الكريمة إلى العبيد ، فتوصى بإكرامهم ورفع مستواهم فى عصر كان الرق فيه إهانة للكرامة الإنسانية ، وكان الرقيق فيه يعامل كالحيوان . فى تلك الظلمات الاجتماعية يرسل القرآن نداءه المبارك لكل من يملك عبداً أن يعينه على شراء حريته ، ولكل من يملك أمة أن يصونها عن الزنا واحترافه من أجل النقود ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٣٣] . المكاتبة : هى أن يدفع العبد لسيده أقساطاً معينة من المال من عرق جبينه حتى يوفى ثمنه . والآية الكريمة تخص مالكى العبيد أن يشجعوهم على المكاتبة ليتحرروا ؛ خصوصاً إذا عرف الأرقاء المكاتبون بالصلاح والتقوى إذ ذاك عليهم أن يعينوهم ببعض المال، أو يعفوهم من بعض الأقساط ؛ ليعتقوا أنفسهم فى أقرب وقت .

جـ ـ قوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ الخمار : غطاء الوجه، والجيب : هو الصدر . كثير من النساء تضع الخمار على وجهها وتلقى بفضلته نحو الظهر فيظل مقدم الرقبة والنحر بارزين وقد تكون فتحة الثوب واسعة فيظهر أعلى الثديين ، لهذا يأمر الشرع أن تغطى المرأة وجهها وترسل ما بقى من الخمار على صدرها ليستر ما ذكرناه من مفاتنها . والحق أنه فى أيامنا هذه قد شاع البلاء بهذه الأمور ، فكثيراً ما ترى امرأة مسلمة فى السويقات وقد برز أعلى صدرها دون ستر . إن مثل هذا من التبرج الذميم يمرض القلوب ،

ويهيج الفساد ويغضب الله .

د ـ ثم ذكر الله جل جلاله الأشخاص الذين يجوز للمرأة أن تبرز إليهم وقد ظهر بعض ما تخفى من زينتها كالساعدين والرقبة وبعض الساقين وما يكسو هذه المواضع من زينة . وهم بالنسبة للمرأة مرتبون حسب الأولوية : زوجها ، ووالدها ، ووالد زوجها أو ابنها ، أو ابن زوجها ، أو أخوها ، أو ابن أخيها ، أو ابن اختها .

ثم قال تعالى ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ وهن النساء اللاتى يخالطنها باستمرار كاللاتى يعشن معها فى نفس البيت من الخادمات والقريبات والجارات المأمونات ، أما النساء الغريبات فلا ينبغى للمسلمة أن تطلعهن على ما تخفيه من زينتها حتى لا يصفن ذلك للأجانب ، ثم قال تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ . ما ملكت أيمانهن من الإماء أما العبد فلا يجوز أن يطلع على عورة سيدته حتى ولو كان خصيا .

أما التابعون غير أولى الإربة من الرجال فهم بعض شيوخ فقراء قد يعيشون حول بعض الأغنياء ويخدمونهم لينالوا شيئاً من أموالهم ، ولا يخطر ببالهم غير هذا الغرض ، ومثلهم الأطفال الذين لم يبلغوا من السن ما يجعلهم يشتهون النساء . وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ كما تفعل بعض النساء حين تصدم خلخالها بالآخر فيحدث الحلى وسواساً يلفت نظر الرجال . وقد ختم الآية جل جلاله بقوله : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وفيه إشارة إلى أن كثيراً من المؤمنين غارقون فى هذا الأمر ، واقعون فى محظوره ، وعليهم إذا أرادوا الفلاح أن يتوبوا ويحترسوا مما يغضب الرب جل علاه وتبارك اسمه .

الإسلام يحض على العفاف ويحث على عتق العبيد

هاتان آيتان من سورة النور فيهما طائفة من الإرشادات الاجتماعية تدور حول الزواج والعفاف ، ومعاملة العبيد ، والإماء ، والمتأمل لهذه الإرشادات يرى أن الإسلام نادى قبل كل المصلحين بإنهاء مآسي الرق ، وتوفير الحياة الشريفة الكريمة للإماء ، وصونهن عما يدنس كرامتهن .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ منكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٣٢ ـ ٣٣].

أقول وأسأل الله صدق المقاصد وصالح الأعمال :

أولاً : طلع نور الإسلام على قوم كان يلفهم ظلام دامس تحوك سدوله الأوثان وتعربد في عماياته العصبية ، وتحكمه عادات من الفواحش المنكرة والدماء المهدرة ، فكان أكبر هم الرسول الكريم ﷺ أن يستأصل جذور الظلام والأصنام والتقاليد والثارات ؛ ليبدل الأمة الربانية بها فضائل تسموا بالنفس والروح والجسد لتكون أمتنا أهلاً للقيادة والشهادة .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ تشجيع وحض لأمة محمد أن يحرصوا على الزواج ، فيزوجوا كل أيم أي أعزب أو أرمل من

الفتيان والفتيات ، والرجال والنساء ، والعبيد والإماء ؛ خصوصاً حين يكون العبيد والإماء صالحين يرجى منهم أن ينجبوا ذرية طيبة ويربوهم على الدين ، والأخلاق ؛ وذلك لأن الأمة الإسلامية فى حاجة إلى طاقات بشرية تنطلق فى دروب العمل والجهاد وطلب العلم ؛ لتلبية حاجات الأمة عسكرياً وصناعياً وعلمياً ومادياً وروحياً . من أجل ذلك أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالزواج فقال : « من أحب فطرتى فليستن بسنتى وهى النكاح » . وفى مسند أحمد أنه ﷺ سأل عكافاً التميمى : « ألك زوجة» ؟! قال : لا . قال : «ولا جارية» قال : « ولا جارية » قال: « وأنت موسر بخير » قال وأنا موسر بخير . قال : « أنت إذن من إخوان الشياطين لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم، إن من سنتنا النكاح ، شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم أبا لشيطان تمرسون ما للشيطان سلاح أبلغ فى الصالحين من النساء ياعكاف تزوج وإلا فإنك من المدبرين » أى المتولين من الزحف .

وقال : ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ فزاد حرف الجر (مِنْ) وقال : ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُم ﴾ وذلك ؛ لأن غض البصر فيه سعة إذ يمكن أن يغض المرء بصره عن بعض النساء ، وقد يرسله إلى بعض آخر ممن يحرمن عليه ، أو من عجائز من جاراته لا يشتهيهن ، أما حفظ الفرج فالأمر فيه صارم وضيق ، إذ إن الإنسان المؤمن يحفظ فرجه عن كل النساء فى الدنيا ما عدا زوجته .

ثالثاً : ختم الآية الكريمة بتذييل رائع من أبلغ الإطناب ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وذلك ليشعر العبد أنه بإزاء إله عظيم الخبرة بكل ما يصنعه عباده ، ولعل كلمة يصنع هنا قد استعملت ؛ لأن الإنسان قد يتصنع ، فيتظاهر بغض البصر مع خائنة عين ، ويصنع العفاف وهو مريب . نعم !

إن الله جل جلاله كما يعلم الوضوح والمجاهرة كذلك هو خبير بالتكلف والصنعة .

رابعاً : أما الآية الطويلة التى ذكر فيها ربنا جل جلاله غض البصر بالنسبة للنساء فهى آية شاملة ويترتب عليها الأحكام الآتية :

أ ـ المرأة المؤمنة مطالبة بغض البصر حتى عن الرجل الأعمى ،كما جاء فى حديث ابن أم مكتوم حين أمر رسول الله ﷺ بعض أمهات المؤمنين أن يحتجبن عنه فقلن : يارسول الله إنه أعمى فقال : « أفعمياوان أنتما » .

ب ـ قوله تعالى : ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ . يذكرنى هذا القول العظيم بما تفعله بعض النساء فى أيامنا هذه إذا نزلت أسواق المدينة فيظهرن من زينتهن ما يخفى ، يرفعن العباءة إلى الظهر فيبدوا أسفل الجسد مفصلاً تفصيلاً وقد ترفع يديها إلى أعلى فينحسر الكم عن الساعدين والذراعين والحلى الداخلية ويطلن النظر إلى البائع ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، كل هذا وغيره حرام ؛ إذ لا يجوز للمرأة أن تبدى من مظاهر جمالها إلا ما تضطر إلى إظهاره كالقدمين ، والكفين والوجه ، إذا كان الطريق فيه حفر مثلاً تخشى الوقوع فيها ، أما إبداء الزينة الباطنة ، كالأساور وما تحتهن والقرط ومعه الأذنان ، والخلخال ومعه الساق ، والقلادة وتحتها النحر فذلك كله لا يجوز .

هذا وقد كان بعض أهل الجاهلية كعبد الله بن أبى يجبرون إماءهم أن يحترفن الزنا فى مقابل أجرة يأخذنها ثم يسلمنها لسيدهن . وقد اشتكت اثنتان من إماء عبد الله بن أبى اسم أولاهما مسيكة والأخرى أميمة إلى رسول الله ﷺ من هذه الإهانة وقالتا : نحن نريد أن نحصن أنفسنا من الزنا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾،

أى المال، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيم ﴾ معناه : أن الذين تعودوا تلك العادة السيئة فى إكراه إمائهم على الفاحشة سيغفر لهم الله بعد ذلك الإكراه البغيض إذا هم استجابوا لنهى الله لهم .

خامساً : لقد أدرك الإخوة المسلمون أن الإسلام هو دين الرحمة بالإنسانية ودين الإصلاح للبشرية ، ألا ترى القرآن فى هاتين الآيتين يوصى بتزويج كل أيم، ويعدهم بالرزق ، ويناشد كل من لا يستطيع الزواج أن يتحصن بالعفاف حتى يرزقه الله ، ثم يمد يد الإحسان والرحمة إلى الأرقاء ، فيوصى بمكاتبتهم وعونهم بالمال ، ليحرروا أنفسهم ، ويوصى بالإماء خيراً ، ويوجب على أربابهن أن يوفروا لهن الصون والعفاف .

سادساً : تتيح لنا الآية الخاصة بالزواج ، أن نثبت بعض الآداب التى تلازم الزواج:

أ ــ أن يكون الزواج على نية الإحصان ، وغض البصر والستر والعفاف . قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب .. من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من تزوج فقد ملك نصف دينه فليتق الله فى النصف الآخر» .

ب ــ أن يختارها ودوداً ولوداً صالحة ، والبكر أفضل ، وتفضل الغريبة ؛ ليتقارب المسلمون ويقوى النسل وأن يختارها من أصل كريم ؛ لأن العرق دساس ، قال عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم» . وقال ﷺ : « اظفر بذات الدين تربت يداك » . وقال : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » . إذا هنأت أخاك بزواجه فقل له : بارك الله فيكم ولكم . أما قولهم : بالرفاء والبنين فمن قول الجاهلية .

جـ ـ أن يعلن الزواج ويعقد فى المساجد وأن تزف العروس ويدخل عليها السرور بطبل وغناء لا فحش فيه ، فقد جاء فى السنة أن أم المؤمنين عائشة أخبرت رسول الله ﷺ أن يتيمة كانت عندها أهديت إلى زوجها فقال ﷺ : «هل بعثتم معها ضاربة تضرب بالدف وتغنى وتقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم ولولا الحبة السمراء ما حل بواديكم » .

لله ما أكبر وما أعظم أخلاق هذا الرسول ﷺ .

الله يهدى لنوره من يشاء

هذه الآيات الكريمات من سورة النور تحبها القلوب ، وتطرب لها الأسماع، وكيف لا وهى تضع المؤمن فى هالة من نور الله وتبشره أن إخلاصه العبادة لله، وخلوص قلبه من الشرك والرياء وإيثاره طاعة الله على كل مصالح الدنيا ،كل هذه قد جعلت لأعماله نوراً ينورها بالقبول والبركة وواسع المثوبة ، أما أولئك الذين يراؤون بعبادتهم ويكفرون بلقاء ربهم ، فلا نور لأعمالهم ولا قبول ؛ لأن الكفر والرياء وغرور الحياة ،كل هذه قد لفت أعمالهم فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٣٥ ـ ٤٠] .

أقول وأسأله تعالى فتوحاً ينير به الله الأبصار والبصائر :

أولاً : يؤخذ من الآيات المباركات عموماً أن أعمال المؤمنين منورة بنور الله ، تزينها الهداية ويحليها القبول ، وأن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويخافون لقاء ربهم ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، هؤلاء لهم عند الله أجر ونور تراهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم ، ويتلألأ فى أيمانهم حيث كتب أعمالهم منورة بالإخلاص ، والصدق والعمل الصالح ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] ، ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم : ٨].

وخلاصة القول : أن أهل العمل الصالح والإخلاص الصادق الناصح ينور الله أعمالهم ، ويجعل لهم نوراً يمشون به ، أما الكفار وأهل الرياء والسمعة والشرك ، فينزع الله من قلوبهم النور ، وينزع من أعمالهم البركة والنور ، فيعيشون فى الدنيا بلا نور ولا إخلاص ويبعثون فى الآخرة عمياناً فى ظلام دامس من عمايات الكفر والشرك والرياء هنالك فى ساحات القيامة تراهم فى ظلمات ، وإذا مر عليهم المؤمنون يسبقهم نورهم ويكتنفهم نور إيمانهم ونور أعمالهم صاحوا بالمؤمنين : ﴿ انظرونا ﴾ أي انتظرونا نقتبس من نوركم ، لكن الله جل جلاله يقيم بينهم وبين المؤمنين سوراً يحجب عنهم نور أهل الإيمان ليظلوا يخبطون فى ظلمات شركهم .

كل هذا المعنى نستشفه من سياق الآيات حيث ذكر الله جل جلاله نوره الجليل الجميل النقى الوضاء ، وضرب له مثلاً يقرب وضاءته ونقاءه وسطوعه من أذهان الناس ، ثم ذكر بعد ذلك حالاً أنه جل جلاله يهدى لنوره من يشاء، ألا وهم أولئك الذين يعمرون بيوت الله ويرفعون شأنها ويسبحون الله فيها بكرة

وعشياً ، لا تلهيهم الدنيا بحطامها عن الآخرة ، ثم ذكر بعد ذلك أعمال الكافرين خداعة كالسراب تلفها ظلمات بعضها فوق بعض بحيث لا يرى صاحبها يده لشدة ما حوله من الدياجى الحالكات .

ثانياً : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ نعم ! إن كل ما فى السموات والأرض من نور إنما هو من نور الله ، والمصدر كثيراً ما يدل على الوصف فإذا قلت : فلان مروءة ، عنيت أنه ذو مروءة عظيمة تجمل أخلاقه . وإذا قلت : ﴿ اللَّهُ نُورٌ﴾ عنيت أنه ذو نور عظيم يهدى به كل مؤمن وكل مخلص وكل موحد .

ولكى يضرب الله لنوره مثلاً يقربه من الأذهان ذكر سبحانه تشبيهاً جعل المشبه به مما يحسه الناس ويرونه بأعينهم فقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ والمشكاة : هى الكوة فى الجدار غير نافذة لكى ينعكس النور فى أرجائها فيزداد سطوعاً ، إذ لو نفذ إلى الجهة الأخرى لتشتت شعاعه ، وهذه الكوة فيها مصباح ، والمصباح هو السراج الضخم الثاقب النور ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ ؛ لصونه مما يعكر صفاءه وليساهم الزجاج فى نشر ضوئه ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ يعنى لها منظر كمنظر النجم المضىء الذى تكتنفه طبقة شفافة من الدر ، ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ معناه : أن المصباح يستمد زيتة من شجرة زيتون من زيتون الشام حيث الأرض المباركة التى لا مثيل لزيتونها ، وهذه الشجرة فى موقع يجعلها تستفيد من كل عوامل النور والدفء، فهى ليست ضاحية تضربها الشمس ولا هى محرومة من دفئها ، وحرارتها لا شرقية ولا غربية إنها فى بيئة وسط وخير الأمور الوسط ، وشجرة نور الله لا شرقية ولا غربية .

إن أمتنا ما فقدت نورها وقيادتها إلا لبست شيعاً وتفرقت أوزاعاً شرقية

وغربية، ثم أكمل الله جل جلاله هذه الصورة الجليلة الطهور لنوره فقال : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لعظمة صفائه وجودته ونقائه وطهره ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أنوار مضاعفة تساهم فيها المشكاة والمصباح والزجاجة الدرية والزيت الوضىء .

فمن الإله جلاله وجماله	ومن السماء سناؤه وسناه
الكوكب الدرى فى مشكاته	والزيت والمصباح جل الله
لما تلألأ فى كتاب محمد	أهدى إلى ظلم الحياة ضحاه

وما أجمل ما ختم الله به الآية ، وهو ختام بين المقصود ، ووضح النور ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ . ومعنى هذه الخاتمة أن الله جل جلاله يهدى السعداء ؛ لينالوا أجره ونوره بإيمانهم وعملهم الصالح ، ويوضح مقاصد قرآنه بتشبيهات وأمثال وهو جل جلاله العليم بكل ما فى الكون .

ثالثاً : بعد الآية المباركة التى ضرب الله فيها مثلاً لنوره من المشكاة والمصباح والكوكب والزيت ، ذكر المساجد تلك البيوت الشريفة التى أذن الله أن يعلى شأنها وتخصص للعبادة وذكر الله ، وأشاد القرآن بعمار المساجد من أهل الإيمان والصلاة والزكاة والتقوى ، ووعدهم الحسنى وزيادة الأجر بغير حساب. والنسق القرآنى عودنا أن تكون الآيات الكريمة مترابطة ، وهذا يعنى أن المساجد وعمارها وأعمالهم ، هؤلاء هم منازل نور الله ، وهؤلاء هم أهل النور والهداية فى الدنيا والآخرة .

رابعاً : وعلى العكس من ذلك أعمال الكافرين التى لا ترتكز على خلفية من الإخلاص والإيمان . إن تلك لا ثواب لها ، ولو كانت ملايين ، إنها

سراب يغر أهله فيظنونه ماء حتى إذا وصلوه وجدوه وهماً ووجدوا فى انتظارهم حسابهم وجزاءهم . إن أعمال الكافرين تلفها ظلمات من الشرك والرياء والسمعة والكفر بنعمة الله حتى كأنها غريق فى بحر عميق يلفه ظلام الليل وظلام موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات متراكمة لا يكاد المرء معها يرى يده ، ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نوره .

نسأل الله أن ينور قلوبنا بالإيمان وأعمالنا بالقبول **﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾** .

المسلم يعظم شأن المسجد

فى هذه الحلقة سنبسط القول إن شاء الله فى كيفية التأدب ، والتعامل مع بيوت الله ، وهو موضوع أوحت به إلينا آيتا سورة النور .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ [النور : ٣٦ ـ ٣٧] . والحق أن على كل مسلم أن يعرف حقوق المساجد ، ويؤديها على خير وجه ، وأن يعلم أولاده احترام المسجد ، كما يعلمهم التأدب فى بيوت الله أعظم من أدبهم فى بيوت الملوك تتلخص حقوق المسجد فى الأمور الآتية .

أولاً : أن يعظم المؤمن شأن المساجد ؛ لأن ربنا جل شأنه أذن أن ترفع ، وكلمة: ﴿ترفع﴾ فيها إيجاز قصر فى غاية البلاغة ، إذ هذه الكلمة تتضمن كل مظاهر الاحترام ، وما أجمل أن ينفق المؤمن الموسر ليرفع بنيان المساجد ، كما رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد بيت الله الحرام ، ففى الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة » . إن كرامة البيت من كرامة صاحبه ، ومن هنا كانت قصور الملوك محل احترام وإكرام ، والمساجد : هى بيوت ملك الملوك ، فمن حديث أنس يقول النبى ﷺ عن المساجد: « ميمونة ميمون أهلها ، محفوظة محفوظ أهلها هم فى صلاتهم والله عز وجل فى حوائجهم » . وفى الخبر : إن المؤمن إذا مشى إلى المسجد قال الله تبارك وتعالى : « عبدى زارنى وعلى قراه ولن أرضى له قرى دون الجنة » . ومن ثم كان على المؤمن أن يتعامل مع مساجد الله على هذا المستوى .

ثانياً : المبالغة فى نقوش المساجد وزخرفتها مكروهة ؛ لأن النصارى هم الذين يبالغون فى نقوش كنائسهم . وقال بعض الأئمة : لا بأس أن تحلى المساجد وتزين؛ لأن ذلك تعظيم لها ، وقد زين عمر بن عبد العزيز مسجد النبى ﷺ وبالغ فى ذلك فلم ينكر عليه أحد من التابعين والمكروه والله أعلم هو أن تزخرف المساجد » . للتباهى بها وفى سنن أبى داود من حديث أنس : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمسجد » ، وزيد فى رواية : « يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا » .

ثالثاً : ومن الأدب فى حق المسجد ألا تدخله ولك رائحة كريهة ، وإذا أكلت بصلاً أو ثوماً فلا تقرب المسجد حتى لا تؤذى المصلين وخصوصاً فى يوم الجمعة ، ومن السنن أن تمس بعض الطيب إذا توجهت إلى المسجد ليجتمع من روائح المصلين شذى عاطر تتميز به بيوت الله ، وفى الحديث الشريف :«من أكل البصل والثوم والكرات فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » . والرجل الذى يؤذى المصلين بعصبيته فيسب أو يضرب أو يعربد قيل: يخرج من المسجد قياساً على من يؤذى المصلين بروائح البصل والثوم والكرات .

رابعاً : على من يتردد على المساجد أن يصدق فعله مظهره ، وكلامه مخبره حتى لا يخيب أمل الناس فيه . لقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نزكى من يعتاد المساجد ونشهد له بالإيمان ؛ ولذا فإن عليه أن يكون عند تلك الثقة .

خامساً : وتنزه المساجد عن البيع والشراء والصفقات ، وعن نشدان الضالة ، وعن التكلم بكلام الدنيا ، ففى الأثر : « إذا سمعتم من ينشد ضالة فى المسجد فقولوا لا ردها الله عليك » وقال رسول الله ﷺ لرجل سأل عن

جمل أحمر : «لا وجدت ، إنما بنيت المساجد لما بنيت له» .

سادساً : ويكره إنشاد الأشعار في المسجد ؛ وخصوصاً ما كان فى المنافرة والفخر القبلى ، ولا بأس بشعر الأدب والحكمة .

سابعاً : دخول الصبيان غير المميزين إلى المساجد مكروه وخصوصاً من لا يميز منهم النجاسة . قال ﷺ : «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ، وسل سيوفكم ، وإقامة حدودكم ، ورفع أصواتكم وخصوماتكم ، وأجمروها فى الجمع ، واجعلوا على أبوابها المطاهر» .

ثامناً : النوم فى المسجد جائز لمن يحتاج إليه من غريب ونحوه ، فقد روى أن عطاء بن أبى رباح - رحمه الله - نام فى المسجد مدة طويلة .

تاسعاً : إذا دخلت المسجد فقدم رجلك اليمين وقل : « بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لى وافتح لى أبواب رحمتك » ، وإذا خرجت فقدم فى خروجك اليسرى وقل : « بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لى وافتح لى أبواب فضلك » ؛ وذلك لأنك فى دخولك تدخل للعبادة وفى خروجك تخرج لطلب الرزق وفضل الله.

عاشراً : ومن آداب المسجد إذا دخلته ألا تجلس حتى تصلى ركعتين هما تحية المسجد ، قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين » ، وهاتان الركعتان سنة مستحبة يصليهما المصلى ولو كان الإمام على المنبر أو فى حلقة علم .

أحد عشر : ومن السنة إضاءة المسجد ، فقد فعل ذلك تميم الدارى فقال له رسول الله ﷺ حين أقبل على المسجد فرآه منوراً متلالئا : « نورت الإسلام نور الله عليك فى الدنيا والآخرة ، أما إنه لو كان لى ابنة لزوجتكها» . ويبدو أن تميماً - رضى الله عنه - قد فعل ذلك حينما قدم

من الشام ليسلم وكان من قبل ذلك راهباً نصرانياً .

ثانى عشر : أن يسلم على المصلين عند دخول المسجد وإن لم يجد قبله أحداً سلم على نفسه فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ثالث عشر : ألا يتخطى الرقاب للوصول إلى الصفوف الأولى ؛ لأن هذا يؤذى المصلين وقد قال الرسول ﷺ لمن فعلها : « اجلس فقد آذيت » .

رابع عشر : ألا ينازع أحداً فى المكان ، وألا يحجز المكان بأن يضع فيه سجادة أو حذاء أو نحو ذلك .

خامس عشر : ألا يضيق على أحد فى الصف ، وأن يصلى حيث يتسع له المكان فى فرجة ، أو فى طرف الصف .

سادس عشر : أن ينزه المسجد عن النجاسات والأقذار ، فلا يبصق ولا يتنخم .

سابع عشر : أن ينزه المسجد عن كل ما يدل على الاستهانة فلا يفرقع أصابعه، ولا يمر بين أيدى المصلين .

ثامن عشر : ألا يتخذ المسجد طريقاً ينتقل به من بيته إلى السوق أو من شارع إلى آخر يناظره ، وألا يحمل فى المسجد سلاحاً ، إلا لغرض أمنى لمصلحة المسلمين .

تاسع عشر : أن يقوم متطوعاً بإماطة الأذى من المسجد ، وإذا استطاع أن يكنسه أو يطيبه وينظف فراشه ، فتلك كما ورد فى الأثر : مهور الحور العين .

عشرون : صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد ؛ ولهذا قال تعالى عن المساجد : ﴿ **يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ** ﴾. والحقيقة أن تردد عدد كبير من النساء على المساجد لا يخلو من فتنة

وخطورة . هذا ومن الأدب مع المسجد أن تصلى فيه جميع الصلوات المكتوبة فى جماعة وأن تخص بيتك بصلاة النافلة حتى يبارك الله بيتك وصلاتك .

ولا يفوتنى أن أذكر الآباء بأن يعلموا أبناءهم آداب التعامل مع بيوت الله ، وأن يشجعوهم على دخول المساجد بسكينة ووقار ، وأن يتجنبوا الحلق الصاخبة على أبوابها ؛ لأن إجلال بيت الله إجلال لرب العزة ، وحين يحترم العبد ربه يجد عنده جل جلاله مكافأة وتقديراً . وفى الأثر : إذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله فانظر إلى منزلة الله عندك .

نسأل الله أن يجعلنا من عمار مساجده الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

أنوار تضىء للمؤمنين
صراط التوحيد

هذه آيات كريمات من سورة النور تجمعها صفة واحدة ، وهى أنها أنوار هادية تضىء للمؤمنين صراط التوحيد ، وتملأ قلوبهم بأنوار الإيمان وتبرهن لهم حقيقة التوحيد الكبرى عن طريق النظر المتدبر لآيات الله ومخلوقاته ؛ ليعرفوا ربهم ويعبدوه على علم وبصيرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور : ٤١ ـ ٤٦].

أولاً : إذا قرأت هذه الآيات وتدبرتها أحسست أنك ماثل فى محراب ينظم كل ساكنى الكون فى سلك العبادة والعبودية ، بل إنك لتشعر أن هذا الكون كله ما هو إلا محراب عبودية لله جل جلاله . نعم ستشعر إذا قرأت هذه الآيات، أنك لست وحدك فى عبادة ربك ، بل إن لك زملاء مما يحيط بك من الحيوان والطير والأسماك والوحش والإنس والجن . ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ .

ثانياً : قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، هذه الآية الكريمة ورد معناها فى كثير من آى الذكر الحكيم ، فى مثل قوله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] وقوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ١٨]، وفى سورة الحديد : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحديد : ١] وورد مثل ذلك فى مطلع سورة الحشر وسورة الصف وسورة الجمعة وسورة التغابن ، وفى سورة الرعد يقول جل جلاله : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد: ١٣] . نعم إن كل ما فى الوجود من مخلوقات إذا رأيته ذكرت خالقه، وبهذا يكون تسبيحه هو الدلالة على خالقه على أنه غير كثير على ربك أن يعلم كل مخلوق من الإنسان ، والوحش ، والطير ، والسمك ، والجمادات صلاته وتسبيحه ، وقد قرئت الآية «كل قد عُلِّم صلاته وتسبيحه » ، وفى الأثر أن رسول الله ﷺ كان يسمع تسبيح الحصى .

لقد عرفنا ربنا جل جلاله بآياته ومخلوقاته فمن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر . ومن عظيم مخلوقاته السموات والأرض ، والبحار والجبال وغيرها ، وكل هذه تقول بلسان الحال الذى هو أبلغ من لسان المقال : لا إله إلا الله الذى خلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم .

وفى كل شيء له آية .. تدل على أنه الواحد .

وقد قرأت آية سورة الحج التى أسلفتها ، فخجلت خجلاً شديداً حين

أدركت من معنى الآية أن السموات والأرض وكل ما فيهما تسبح بحمد الله طائعة مختارة موحدة لا تشرك بربها ، إلا كثيراً من بنى الإنسان ، الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يشذ عن هذه القاعدة والسموات والأرض بكل ما فيهما أمرهما وسألهما ربهما : أئتيا طوعاً أو كرها ؟ قالتا أتينا طائعين ، ومنذ ذلك الحين والجميع يسبحون ويسجدون طائعين إلا عدداً كثيراً من بنى آدم ، هم الوحيدون الذين لا يستحون من خالقهم ؛ ولنستمع إلى الآية الكريمة من سورة الحج ، لنرى المعنى فيها واضحاً ساطعاً ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ واضح من الآية الكريمة أن كل ما فى السموات والأرض من حيوان ونبات وجماد يسجدون لله بالإجماع لا يشذ واحد منهم عن ورده من الصلاة والتسبيح والسجود ، إلا بنى آدم، إنهم الفئة الوحيدة التى انقسمت على نفسها وتفرقت من حول رسلها وكان منهم كافر ومنهم مؤمن بل لقد كان أكثرهم مشركين.

ثانياً : أعقب الله هذه الآية الكريمة بخاتمة ملائمة وآية كريمة هى تعليق على الأولى فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ . والمعنى إن الله جل جلاله عليم بكل ما يفعله عباده من تسبيح وتقديس بل ومن تقصير ومعصية ، أليس هو الذى يملك السموات والأرض وإليه مصير من فى السموات ومن فى الأرض ؟ ومادام كذلك فلا غرو أن يعنو له الوجود وتعفر بين يديه الجباه ويسبح بحمده كل شىء وتسجد له الخلائق وظلالها .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خلاله وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾، أمر نراه بأعيننا فى مقدمة الأمطار يزجى الله سحاباً أى يسوقه بكميات متفرقة وقليلة نسبياً ثم يؤلف بينه بالرياح اللواقح ، فيجتمع كتلاً كبيرة ، ثم يركم بعضه على بعض ، فيصبح وكأنه جبال فى السماء ، ولعل من ركبوا الطائرات شاهدوا السحب على هيئة جبال ، والحق أنه من أعجب العجب أن تستقر فى الجو ملايين الأطنان من الماء، لقد رأينا بأعيننا سحابة سوداء فى السماء أفرغت حمولتها فى نصف ساعة فكادت تغرق القرية ! ترى كم طناً كان وزنها لقد كانت فى سمائها أثقل من الجبال ، فسبحان من أمسكها ، ثم أخرج من خلالها الودق أى ماء المطر ، ترى ماذا يكون مصير العباد ، مصير بيوتهم ومساكنهم لو لم تساقط على هيئة ودق وسقطت كلها دفعة واحدة .

إن نزول المطر بانتظام من أعظم نعم الله ، إذا لو طاح كما تطيح الأجسام الساقطة لما نهضت له بيوت ولا حصون وعند ذكر البرد توضح الآية أن البرد ينزل من جبال تبرد فى السماء ، والحق أن خبراء الأرصاد يعلمون أن البرد لا ينزل إلا فى ظروف جوية هائلة الشدة ولهذا قد يكون البرد عذاباً وبلاء من الله، لقد نزل البرد فى بعض السنين فى حجم الحجارة وهذا لا شك مظهر للسخط ، وقد عبر جل جلاله عن الظروف الجوية التى تكتنف المطر فقال : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾.

رابعاً : بعد أن ذكر الله جل جلاله دلالة الخلائق على وحدانية ربها ، وذكر المطر والبرد شاهدين على عظمة ربهما وسعة خزائنه قال تباك وتعالى :

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وأتبعها بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . إن تعاقب الليل والنهار فيه عبرة لأولى الأبصار ؛ لأنه يذكرنا بأعمارنا وحياتنا فى هذه الدنيا وكأن كل نهار ، وكل ليل يناديك : تزود من حياتك فهى تمر ولا تعود. وأخيراً يلفت الله أنظارنا إلى خلق الأحياء من ماء، واختلافها فى طريقة الحركة وقد بدأ بالزحف على البطن ؛ لأنه أصعب المشى وثنّى بالمشى على رجلين وأتبع ذلك المشي على أربع وهو أسهل ثم أردف ذلك بخاتمة مؤثرة ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فصدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين .

ثلاثة أمور تحتاجها أمتنا الآن

فى أيامنا هذه تحتاج أمتنا المسلمة إلى ثلاثة أمور تريد أمتنا أن تمسح عن جنباتها إذلال الهزيمة ، تلك الهزيمة التى عصفت بكرامتها ، واستباحت مقدساتها وقهرتها قهراً فتت أكبادها وقلوبها وجعلت أذل شعوب الدنيا يتحدونها فى عقر دارها ، ويدنسون أولى قبلتيها ، بل ويهينون قرآنها فى مصاحفه الشريفة .

نعم ، تريد أمتنا نصراً مؤزراً تسترد به أرض الإسلام ، وأقداس المسلمين فإذا ما استردت أقامت على الأرض شريعة الله ، وتألقت المقدسات بتوحيد الله . وتريد أمتنا ثانياً أن يعز دينها ويتمكن فى القلوب والمجتمعات ويحكم فى السياسة والعسكرية والقضاء . وأخيراً تريد أمتنا أن تتحرر من الخوف ، وأن تشعر فى ديارها بالأمن ، إنها تريد أمناً يبدد الخوف ، تريد أمناً من أعدائها فى الخارج ، ومن عملائهم فى الداخل ، ومن حبائل تحيكها الصهيونية العنصرية والصليبية الحاقدة ، والشيوعية الملحدة ، ثلاثة مطالب يتطلع إليها كل مؤمن بربه محب لدينه وأمته وشعبه . هذه الأمنيات الثلاث يتمناها كل مؤمن ؛ لأن فيها عز الدنيا ومجدها ، وثواب الآخرة وخلدها . هذه الأمنيات الغوالى وعد ربنا جل جلاله ووعده الحق أن يحققها لأمتنا ولكن بشرط وهذا الشرط نفذه سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فصدقهم الله وعده وأعز بالإيمان جنده .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [النور : ٥٥].

هذه الآيات الثلاث من سورة النور : هى نور لأمة محمد عبر تاريخها ، وإلى أن تقوم الساعة ، نور يأخذ بيدها إلى طريق النصر والتمكين والأمن والسعادة .

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ تضمن هذا القول الكريم وعداً من ربنا جلت حكمته لطائفة معينة من خلق الله. هذه الطائفة تتحلى بصفتين عظيمتين ، بهما استحقت الوعد الحق ، هاتان الصفتان ما توفرتا فى أمتنا عبر تاريخها إلا تهاوى الشرك تحت قدميها ، وظهر دينها على الدين كله هاتان الصفتان هما : الإيمان بالله جل جلاله والأعمال الصالحات بجميع أنواعها من عبادات وجهاد ، وعقيدة وآداب .

ثانياً : جاء فى مناسبة نزول الآية الكريمة : أن المسلمين قضوا فى مكة ثلاث عشرة سنة وهم فى العذاب والأذى ، والاضطهاد ، ثم لما هاجروا إلى المدينة فرض عليهم الجهاد وكانوا قلة فحملوا السلاح لكنهم ظلوا متخوفين من غدرات الكفار ، فكان أحدهم لا يكاد يضع سلاحه فى ليل أو نهار ، فسألوا رسول الله ﷺ : أنظل أبد الدهر ونحن خائفون هكذا لا نلقى أسلحتنا ؟! أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟! فقال رسول الله ﷺ : « لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم ليس فيه حديدة أى قطعة سلاح » وفعلاً أظهر الله دينه فى جزيرة العرب فأمن المسلمون فى عهد الخلفاء الراشدين ومشوا فى أسفارهم بغير سلاح ، ولم يكونوا يحملون السلاح إلا ساعات المعركة وبذلك تحقق

لهم وعد الله الذى قطعه على نفسه لكل أمة تؤمن بالله وتعمل الصالحات .

ثالثاً : في قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ فصل الله فى الآية وعده الكريم وهو : أن ينصرهم نصراً مؤزراً يرثون به الأرض ويعمرونها بالعدل والعبادة والأخلاق وأن يحفظ عليهم دينهم ويؤيده بالحماية والتمكين ، وأن يبدلهم بالخوف أمناً ، وتلك هى أغلى أمنيات الشعوب .

رابعاً : وفى ختام الآية أوضح الله جل جلاله ما يطلب من أمة محمد كى تدوم عليها النعمة وتحفظ من الزوال فقال جل من قائل : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ومعنى هذه الخاتمة العظيمة : ستظل أمة الإسلام متمتعة بوعد الله ونعمة النصر والتمكين والأمن ماداموا يعبدون ربهم ، ولا يشركون به شيئاً ، لكن إذا عادوا للكفر فقد نقضوا العهد ، وإذ ذاك فقد خسروا وعدنا لهم بالنصر والتمكين والأمن.

خامساً : وفى الآيتين الأخيرتين عاد جل جلاله ليؤكد لأمة محمد أنهم أقوى الأمم بدينهم ، وأشرف الخلائق بتوحيدهم ، وأن الأعداء مهما كثروا وتألبوا لا يمكن أن ينتصروا على أمة محمد إذا هى خاضت المعركة تحت لواء الإسلام ، نعم يقرر ربنا جل جلاله فى الآيتين الأخيرتين حين تخوض المعركة ضد أعدائها متسلحة بطاعة الله ورسوله مقيمة للصلاة وسائر أركان الإسلام مواجهة عدوها باستعداد الحرب ، واستعداد العقيدة الخالصة ، فإنها حينئذ لن تغلب من قلة لأن الله جلت عظمته يكون معها وفى هذه الحال فإن عدوها لن يعجز الله ، ولن ينهض لقوة

المؤمنين، هذه المعانى السامية هى ما تشير إليه الآيتان الكريمتان : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

سادساً : وفى هاتين الآيتين أيضاً إشارة لطيفة تبين أن الأمة الإسلامية إذا حكمت واستخلفت فى الأرض ، فلا يمكن أن يكون حكمها للشعوب تسلطاً واستعماراً وابتزازاً كما فعلت بعض دول أوربا حين تحكمت فى بلاد الإسلام ؛ وذلك لأن أمة محمد إنما تنتصر بالإيمان والعمل الصالح، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله ، ابتغاء رحمة الله وأمة تتحلى بمثل هذه الصفات لا يمكن أن تصدر إلا عن العدل والإنصاف والرحمة والهدى والحق .

الإسلام يحض على العفاف والتعفف

هاتان آيتان من سورة النور تتعلق إحداهما بالمسلمات الكبيرات فى السن من حيث التستر والاحتشام ، وتتعلق الأخرى بإباحة الأكل فى بيوت أولى الأرحام والأصدقاء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور : ٦٠ ـ ٦١].

أولاً : ﴿ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ هن النساء الكبيرات فى السن اللاتى لم يعد للرجال فيهن رغبة والقواعد جمع قاعد، كحوامل جمع حامل ، والمرأة القاعد هى العجوز التى تقضى معظم وقتها قاعدة فى بيتها ومثل هذه الشيخة العجوز لو رآها رجل كاشفة رأسها أو ذراعيها لا يشعر إزاءها بميل؛ ولهذا فالقيود المفروضة عليها فى التستر أرخى من تلك المفروضة على الشابة الصالحة للزواج وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

ومعنى الآية أن العجائز المسلمات اللاتى لم يعدن صالحات للزواج يمكنهن أن يخلعن الجلباب الذى يمشين به فى الشارع ويكتفين فى البيت بالثياب التى تحته ولو ظهر شعرهن وبعض سيقانهن ، وأذرعهن لكن الأمثل والأفضل والأجدر بالمرأة المسلمة أن تظل محتشمة ساترة عورتها كالشابة، والله جل جلاله سميع عليم أى يسمع كل كلمة تدور بين رجل وامرأة ويعلم كل نية فى قلوب النساء والرجال . لقد رأيت فى كثير من ديار المسلمين عجائز كلما كبرن زاد حرصهن على التستر والاستعفاف ، ويرين ذاك لأجسادهن حرمة بحيث لا تكاد الشمس تراها، فى حين رأينا عجائز مسلمات يمتهن أجسادهن ولا يفتأ الناس يرون منهن عورة وخصوصاً إذا جلست ضاحية تفلى شعرها أو تمشطه ، وإذا نصحتها بالتستر والاحتشام قالت : ومن يتنازل أن ينظر إلى عجوز مثلى؟! وما درت أن ربها جل جلاله يحب الحياء ويقول في كتابه عن العجائز المسلمات : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ثانياً : في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُم....﴾ الآية . تساءل الأشياخ رحمهم الله ما علاقة رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض بالأكل فى بيوت الأرحام والأصدقاء ؟

والجواب أن الصحابى كان إذا ذهب إلى بيت من بيوت أرحامه فربما استصحب معه فقيراً ليرفه عنه وخصوصاً من أصحاب العاهات ، كالأعمى ، والأعرج ، والمريض ، فإذ أعد فى بيوت الأرحام طعام أكل الأعمى والأعرج والمريض معهم . وكان بعض هؤلاء الفقراء يتحرج من الأكل وبخاصة الأعمى حتى لا يغتمز الناس كيفيته فى الأكل ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَج..﴾ الآية ونعود إلى الآية فنقول :

إن ديننا يبغض التكلف ؛ لأن التكلف يضعضع الروابط ومن ثم فقد قال الله جل جلاله لنبيه فى سورة « ص » : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ وليتضح لنا تفسير الآية الكريمة أضرب هذا المثل: لو أن جماعة من الأصدقاء الأفاضل المتحابين فى الله ذهبوا لزيارة صديق وكانت بيوتهم بعيدة عن بيته ، فلما وصلوا إلى بيته لم يجدوه هناك، فأخرج أحدهم مجموعة مفاتيح وفتح الباب ، فدخلوا وجلسوا فى المجلس ثم ذهب أحدهم إلى المطبخ فأعد الشاى والقهوة وأحضر تمراً ، فأكلو وشربوا ، واستراحوا ترى كم تكون فرحة الصديق حين يعود إلى بيته فيرى عقد الأصدقاء منتظماً والمجلس بهم عامراً . ومثل ذلك لو أن امرأة مسلمة جاءت مع أطفالها لزيارة بيت أبيها فلما وصلت إلى بيت أبيها لم تجد أحداً فى بيت أبيها وكانت تعرف طريقة لفتح الباب فتمكنت من فتح الباب فدخلت وأطفالها ، ثم وجدت طعاماً أو أعدت طعاماً فأكل أطفالها ، وأكلت معهم وشربوا من مرطبات موجودة . إن هذا التصرف حلال ومباح ، وأحسب أن فيه ثواباً ؛ لأن مثل هذا التصرف له أثر عجيب فى زراعة الحب فى القلوب ، ومن ثم ، فقد أباح ربنا جل وعلا أن يأكل المسلم فى بيوت أرحامه دون أن يستأذنهم إلا إذا علم أن بعض الأرحام يكره مثل هذه الصراحة ، ولا يأذن بها فهنالك لا يجوز أن تدخل البيوت ويؤكل منها دون استئذان ، وما أروع اتساق الآية وانسجامها وحكمتها فى ترتيب الأقارب على حسب الأولوية ﴿ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

رتب الأقارب فى أمر الأكل من بيوتهم دون استئذان كالتالى : الأب هو أولى من تأكل من بيته دون أذن وتأتى الأم بعده ؛ لأن زوجها أحياناً قد يكون أجنبياً لا يحب هذا التصرف وكذلك قدم الأخ على الأخت ، والعم على العمة ، والخال على الخالة لنفس السبب ولم يذكر الأبناء لأن بيت الابن هو بيت لوالده بالبديهة .

هذا ومن السنة إذا دخلت أى بيت من البيوت المذكورة أن تحيى أهله بتحية الله المباركة الطيبة السلام عليكم فإن لم تجد أحداً فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وما أروع ما ختمت به الآية ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تعقِلُون ﴾ إن هذه الأوامر الحكيمة يهش لها العقل المستنير ، ويستلطفها الذوق السليم ، والإسلام يريد للمسلمين ولمجتمعهم أن يسود فيهم منطق العقل واستحسان الذوق ، نسأل الله الذى أكرمنا وإياكم بدين الإسلام أن يتوج نعمته بالسعادة وحسن الختام .

أعظم مقياس للإيمان انقياد العبد لحكم الله

أعظم مقاييس الإيمان هو انقياد العبد لحكم الله ، وأمر الله فى ما يحب وفيما يكره ، وأن يخضع لشرع الله وأحكام شريعته بغاية الرضا والتسليم ؛ وذلك لأن الذى خلق العباد هو أدرى بما يحقق مصالحهم وسعادتهم فى الدارين ، إن لله جل جلاله فى كل حكم من أحكامه حكمة بالغة تتقاصر دونها أعناق القوانين ، وتتطامن عندها هام الطواغيت وإن من العجيب حقاً أن ترى كثيراً ممن يتسمون بالمسلمين إذا ذكرت عندهم أحكام الإسلام وتشريعاته الحكيمة تراهم يجادلون فيها ويخشون تطبيقها ، بل إن من المسلمين وممن نسميهم رجال الفكر من يرون فى الحدود والقصاص والعقوبات الإسلامية قسوة تجعلها غير صالحة لروح العصر الحاضر ياويل أبيهم شلت ألسنتهم وغلت أيديهم بما قالوا ، ولنقرأ هذه الآيات من سورة النور لنرى كيف يستقبل المؤمن أحكام الله وحدوده وكيف يستقبلها المنافق .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور : ٤٧ ـ ٥٢].

أقول وأسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الإيمان ويعصمنا وإياكم من

مزالق الشيطان :

أولاً : ليس الإيمان بالقول فقط لكن الإيمان عقيدة فى القلب يصدقها عمل بالجوارح ، وقد كان المنافقون يقولون آمنا بالله ورسوله ، وكانوا يستعملون ألفاظ التوكيد كما حكى الله عز وجل عنهم فيقولون نشهد إنك لرسول الله وهي شهادة مؤكدة بإن وبلام التوكيد التي يسميها أهل النحو اللام المزحلقة **﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾** .

ومعنى الآية الكريمة : أن كثيراً من الناس يؤمنون بأفواههم ، ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله ، ثم لا يلبثون أن يعرضوا عن أوامر الله وحكم الله ، ولا يصدقون قولهم بالأعمال ، وهنا يختم الله تبارك وتعالى الآية فينفي عنهم صفة الإيمان ، ويؤكد العبارة المنفية بالباء الزائدة **﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾**.

ثانياً : قوله تعالى : **﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾** .

جاء في مناسبة نزول الآية أن المبطلين كانوا يكرهون أن يحتكموا إلى محمد ﷺ وأن كل صاحب حق من المنافقين كان يحب أن يحتكم إلى الرسول الكريم ، فاختصم منافق من أهل المدينة اسمه بشر ورجل يهودى فى أرض بينهما ويبدو أن المنافق كان مبطلاً، فطلب لليهودى أن يتحاكما عند رسول الله ﷺ ، فكره المنافق ذلك وقال لليهودى لماذا لا نحتكم عند كعب بن الأشرف وهو يهودى مثلك ينصفك وكان المنافق يقصد بهذا أن يرشو كعبا بن الأشرف وكان يعلم يقينا أن محمداً ﷺ لا يقبل الرشوة فنزلت هذه الآية الكريمة **﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾**

ومعنى الآية : إن المنافقين يكرهون شرع الله ، لأنه لايحابي ولا يحكم بالهوى ؛ ولهذا فهم إذا دعوا إلى حكم الله ودعوا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم بحكم الله فإن عدداً كبيراً منهم يعرض عن الحكم ؛ لأنهم يكرهون الحق ويريدون حكم الأهواء .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ معناه : أن هؤلاء المنافقين حينما يكون الحق لهم يأتون إلى رسول الله ﷺ متذللين منقادين ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام خير من يرد الحق ويحكم بالحق وكيف لا وهو الذى يخاطبه ربه بقوله : فى سورة المائدة : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ . فى هذه الآية الكريمة يورد الله جل جلاله ثلاثة تساؤلات عن سبب إعراضهم عن حكم الله ؛ ليثبت أنهم لا عذر لهم فى ترك الاحتكام إلى الله ورسوله والاستفهامات كلها تفيد التوبيخ والتعجب ، وتثبت للمنافقين أن تصرفهم ذلك لا مبرر له ولا هو من العقل فى شىء ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ معناه هل سبب إعراضهم عن حكم الله هو النفاق الذى خرب قلوبهم ﴿ أم ارتابوا ﴾ معناه أم ترى هم يشكون فى صلاحية حكم الله وملائمته لمصالح العباد ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُه ﴾ معناه أم ترى هم خائفين أن يظلمهم الله ورسوله ؟! وبديهى أن كل هذه الاحتمالات التى من أجلها نافقوا هى أدلة على ضعف عقولهم وعلى كفرهم ولهذا ختم الله الآية الكريمة بالحكم الحقيقى عليهم فقال : ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

ومعنى هذا القول الكريم : أن المنافقين لا عذر لهم فى رفض أحكام الله ولا سبب له إلا ظلمهم وكفرهم بالله .

خامساً : ولكى يظهر المنافقون فى صورتهم البشعة المعتمة القاتمة ذكر جل جلاله موقف المؤمنين من شريعة الله ؛ لينكشف قبح عقديتهم وقلوبهم ونفوسهم في ضوء الصورة المنيرة لإيمان المؤمنين وطاعتهم ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . والآية الكريمة هذه جاءت بأسلوب القصر ، لأن ﴿إِنَّمَا﴾ من أدوات القصر ومعنى الآية : أن المؤمنين كانوا إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم لا تصدر عنهم إلا كلمة تنبض بالإيمان ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ومن أجل ذلك فقد وعدهم ربهم جل وعلا بالفلاح فى الدارين .

سادساً : الآية الأخيرة : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ هذه الآية الكريمة تنير للمؤمنين طريق الفوز ، ويتلخص فى طاعة الله بالتزام وحيه وطاعة رسول الله بالتزام سنته وخشية الله فى المواطن التى يخشى فيها الحرام وتقوى الله بالتزام أوامر الشرع الشريف وقد روى أن رومياً دخل على عمر رضى الله عنه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال له عمر : وما سبب إسلامك ؟ قال سمعت آية من القرآن الكريم جمعت كل فضائل النفس وتلا هذه الآية .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

دروس فى أدب الملازمة واحترام أولى الأمر

هذه هى الآيات الثلاث المباركات التى ختم بها ربنا جل جلاله سورة النور، ولقد وددت لو يحفظها جميع موظفى الدولة والمعلمين والطلاب ؛ لأنها درس فى أدب الملازمة واحترام أولى الأمر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٢ ـ ٦٤].

أولاً : هذه الآيات العظيمات لها مناسبة لطيفة لا تخلو من طرافة وعبرة ، فقد أمر النبى ﷺ أصحابه قبيل غزوة الأحزاب أن يحفروا خندقاً حول الجزء المكشوف من المدينة ؛ ليقف الرماة عليه ويمنعوا الأحزاب من اقتحام المدينة ، وكان ذلك الرأى رأى سلمان الفارسى رضى الله عنه وقد استحسنه النبى ﷺ ورأى المصلحة فى إنفاذه فأمر الصحابة رضوان الله عليهم أن يشمروا عن سواعد الجد ، ويعملوا فيه من الصباح إلى المساء كى ينجزوه قبل وصول المشركين الذين كانوا على هيئة جيوش ، أو أحزاب مجموعها عشرة آلاف مقاتل وقد اعتبر رسول الله ﷺ مشروع

الخندق جهاداً عظيماً ، وأمراً جامعاً لا يجوز لأى مسلم أن يتخلف عنه ، لكن المنافقين كانوا عملاء للأحزاب وكان عملهم فى الخندق تظاهراً ونفاقاً خالياً من الإخلاص ، فدأبوا أثناء العمل على التسلل ، ودأب آخرون على الاستئذان باستمرار بأعذار مكذوبة لا مبرر لها إلا النفاق والكسل ، فنزلت هذه الآية الكريمة تحث المسلمين ألا يغادروا العمل إلا بإذن ولعذر مقبول وأن يلتفوا حول رسول الله ﷺ فى كل أمر جامع تقتضيه مصحلة الإسلام والمسلمين ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

ثانياً : سوف أتوسع فى تفسير الأمر الجامع بما ينطبق على أحوالنا فى هذه الأيام ، فإذا أعلنت الدولة الجهاد ودعت المسلمين إليه فهو أمر جامع لا يجوز لأى مسلم أن يتخلف عنه أو يتسلل منه ، والدوائر الحكومية الموكلة بمصالح العباد ، والمكلفة من الدولة بخدمة المواطنين يعتبر عملها أمراً جامعاً لا يجوز أن يتسلل منه متسلل ، أو يتسيب منه متسيب .

والمدارس التى بنتها الدولة لطلب العلم الشريف ، ولتوفير الكفاءات والمواهب فى حقول العلم والصناعة والزراعة والحرب يعتبر عملها أمراً جامعاً ويعتبر المتسلل منه منافقاً .

كل هذه أمور جامعة يكره الله ورسوله من يتسللون لواذاً من مسؤوليتها ،

فإذا ذهبت إلى إدارة فى الساعة الثامنة فوجدت الكراسى خالية والموظفين غائبين بدون عذر ولا استئذان ، فاعلم أنهم ممن ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإذا ذهبت إلى مدرسة ، فوجدت طلاباً يقفزون من فوق الأسوار ، أو يتغيبون دون أعذار أو يخاطبون الأساتذة والمدير باستهتار ، فاعلم أن أولئك هم المتسللون لواذا الذى يخشى عليهم من فتنة الله وعذابه الأليم .

ثالثاً : فى الآيات الكريمة آداب إسلامية واجتماعية تدل على أن الإسلام دين العمل والنظام والالتفاف حول الأهداف النبيلة من هذه الآداب :

أداء الواجب على الوجه الأتم مراقبة لله جل وعلا وحبا للمسلمين والمواطنين ؛ لأن الله جل جلاله يعلم تصرفات كل إنسان مهما بالغ فى التستر أثناء التسيب ، أو التسلل وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . إنها الآية الخاتمة للنور ، وما أروعها من خاتمة ، فلقد لاحظ المفسرون أن سورة النور افتتحها ربنا بذكر عقوبات الحدود فى الدنيا ، واختتمها بذكر عقوباتها فى الآخرة يوم ينبئ الله كل العصاة بما عملوا ، وما ستروه من معاصيهم ناسين أن علم الله جل جلاله وسع كل شيء وأنه يعلم ما هم عليه وفى قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ لوحظ أن كلمة ﴿ قَدْ﴾ التى يأتى بعدها المضارع تستعمل كثيراً فى القرآن الكريم لتفيد التأكيد ، ومن ثم فمعنى الآية إن الله يعلم بالتأكيد واليقين ما أنتم عليه ، وفى قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ إيجاز رائع ؛ لأنها تشمل كل ما يكون العباد عليه من أحوال

وأخلاق وأعمال ، إنه جل جلاله يعلم ما عليه العباد من إيمان ، وكفر ومن إخلاص ونفاق ومن أمانة وغش ومن إصلاح وإفساد ، ومن ثم فالإيجاز هنا فى غاية البلاغة .

رابعاً : من الآداب المذكورة فى الآية الكريمة الأدب فى خطاب الإمام المسلم ؛ لأن غرس مهابته فى القلوب هو مما يثبت الأمن واحترام النظام ومن ثم فلا يجوز أن يكون خطابك للإمام مثلاً كخطابك لعامة الناس ، لأن الإمام المسلم خليفة الرسول ﷺ على الدين والأحكام ومصالح الدنيا ، فلابد من احترامه ابتغاء وجه الله ﴿ **لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً** ﴾ والدعاء هنا معناه الخطاب وفى قوله تعالى فى وصف المنافقين ﴿ **يتسللون منكم لواذا** ﴾ صورة حسية تفضح شكلهم ، وهم يغادرون العمل الشريف منسلين من الجمع المبارك لائذين بالفرار والتستر المريب وفى قوله تعالى : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ تهديد من الله جل جلاله لكل منافق بأنه عرضة للفتنة فى الدنيا عبرة تجعله نكالاً وعذاباً فى الآخرة .

القرآن نذير للكافرين

هذه هى الآيات الكريمات التى افتتح بها ربنا تبارك وتعالى سورة الفرقان ، وسورة الفرقان من السور المكية يقول فيها شيخنا الإمام الشهيد سيد قطب طيب الله روحه وثراه ، إنها من أولها إلى آخرها إيناس لرسول الله ﷺ تهون عليه الإيذاء، وتكشف له هوان الأعداء ، وتذكره بسير الأنبياء . وتعرض عليه مصارع الغابرين وتلقى على مسامعه أخلاق المؤمنين ، ثم تختم معلنة أنه لولا محمد وأمثاله من ذوى الأيدى الداعية ، والقلوب المخلصة الواعية ، لما كان لأهل الأرض عند الله من قيمة ولا شأن ولكان عذابهم لزاماً وقد جاء فى الأثر « من قرأ سورة الفرقان لقى الله يوم القيامة وهو مؤمن أن الساعة لا ريب فيها ».

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا * وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رحيما ﴾ [الفرقان : ١ ـ ٦].

أولاً : فى قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ الفعل تبارك لا يجوز أن يسند إلى غير الله ، وهو مشتق من البركة على وزن تفاعل ، والعرب يستعملون تفاعل أحيانا ؛ ليدل على التوكيد وتتابع الصفة دون انقطاع وفى هذه الحال يسندونه إلى المفرد

مثل : تعالى توكيداً للعلو وتتابعه، ومثل تقادم وتراجع وتلاحق وتكاثر ، إذا نسبت إلى المفرد ، والفعل تبارك الله معناه : تتابعت بركاته وتأكدت دون انقطاع، وقد ورد هذا الفعل العظيم فى القرآن الكريم تسع مرات مسنداً إلى الله جل جلاله ، أو إلى صفة من صفاته ، أو اسمه ذى الجلال والإكرام ، ولا يجوز أن تقول للعبد تباركت، أو تبارك سعيك ، والفعل فى هذه الآية مسند إلي صفة من صفات الله ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ ، والفرقان من أسماء القرآن ؛ لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، ومن ثم فالفرقان كناية عن موصوف : هو كتاب الله عز وجل ، وفى قوله ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ كناية عن محمد ﷺ وثمة إشارة توحيدية فى قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ تشير إلى أن سيدنا محمداً ﷺ بعث بالحق إلى جميع العالمين إنسهم وجنهم ؛ لينذرهم من الشرك وعقابه الأبدى . وتعرب كلمة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ملحقة بجمع المذكر السالم ؛ لأن كلمة عالم غير عاقل وهو فى الوقت نفسه ليس علماً ولا صفة ومن ثم لا تجمع جمع مذكر سالم ولهذا يقال إنه ملحق بجمع المذكر السالم .

والآية الكريمة من أعظم الذكر ؛ لأن فيها ذكراً للرب جل جلاله وللقرآن الكريم ، وللرسول ﷺ ، وقد ذكر فيها الرب بصفة من صفاته العلا منزل الفرقان وذكر محمد ﷺ بصفة العبودية ، والعبودية لله جل جلاله شرف؛ ولذلك وصف بها الأنبياء وآنس بها رسول الله ﷺ فى مطلع الفرقان والإسراء وذكر القرآن الكريم بصفة من صفاته الجليلة وهى الفرقان .

ثانياً : فى الآية الثانية عدد من صفات الله العلا ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ وكلها من صفات العظمة والجبروت والجلال ، ومما زاد

الصورة البلاغية روعة أنه أتبع هذه الصفات العلا للإله الواحد الذى يدعو إليه محمداً ﷺ أتبعها بثلاث صفات من صفات شركائهم تدل على منتهى الضعف والذلة، والضد يظهر حسنه الضد ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ .

وأى إيناس لمحمد ﷺ أعظم من أن يشعر أنه فى حصن هذا الإله العظيم ، وفى كنف ذى الملك والملكوت والعزة والجبروت ، فى حين أن معانديه ومكذبيه يعبدون آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولاحياة ولا نشورا .

ثالثاً : مما يلفت النظر في الآية الثانية هذ المقطع المعجز الذى ختمت به وهو قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ عند تفسير هذا المقطع التقط أستاذنا الإمام الشهيد سيد قطب رحمه الله لقطات لكاتب أمريكى اسمه أ . كريسى موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وردت فى كتابه الذى سماه (الإنسان لا يقوم وحده) وهو يشرح كيف قدر الله الخلق تقديراً مدهشا لا أثر فيه إطلاقا للارتجال والعفوية والمصادفة يقول :

الأوكسجين فى الهواء نسبته واحد وعشرون في المائة ، ولو كان أكثر من ذلك لتضاعفت الحرائق أضعافاً كثيرة حتى إن أول شرارة فى غابة قد تحرق الغابة كلها ، لكن الله جل جلاله قدر الهواء تقديرا .

ويقول : لقد خلق الله الجهاز التنفسى للحشرات بحيث لايمكن أن تكبر عن حجم صغير معين ولو خلق لها رئتين لكنت ترى حشرات فى حجم الكلب، وأكبر ولكن الله قدر أمرها تقديراً حتى يستطيع الإنسان مقاومتها . وبحث علماء آخرون كيف أن بعد الشمس عن الأرض لو زاد لجمدت الأرض

ولو نقص لسخنت جداً لكنه جل جلاله قدر مكان الأرض تقديراً لتناسب الحياة التى عليها ، وافترضوا لو كان القمر أقرب إلى الأرض ، أو أبعد كيف يتغير كل نظام الجاذبية بما لا يلائم الأحياء ، لكنه جل جلاله قدر الأمر تقديراً .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ جاء فى مناسبة نزول هذه الآية أن المشركين حين انقطعوا أمام القرآن أخذوا يفترون بدون دليل ويزعمون أن بعض غلمان الروم الذين أسلموا هم الذين يعلمون محمداً أخبار الأمم ويكتبون له القرآن ، وقد ذكروا عدة أسماء منهم جبر مولى الفاكة بن المغيرة وعداس غلام عتبة بن ربيعة ويسار مولى ابن الحضرمى وعابس غلام حويطب بن عبد العزى وأبو فكيهة ، وقد ختم ربنا الآية بقوله :﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ لأن هؤلاء الأعاجم لم يكونوا يحسنون مجرد المحادثة بالعربية ، فكيف بهذا الكلام الذى أعجز أفصح الفصحاء ؟! وقد ذكر الله جل جلاله افتراءهم هذا فى سورة النحل فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ [النحل : ١٠٣] بعد هذا التخبط من قريش ختم الله الآيات الكريمة بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ نعم إنه غفور رحيم لأنه لو يؤاخذ الناس بما يكذبون على ربهم ما ترك على ظهرها من دابة .

مشهد يغرق المشركين
فى مستنقع الندامة والخجل والألم

هذه آيات كريمات من سورة الفرقان قد تشكل على كثير من الناس لما فيها من مفردات غريبة . ولهذا أحببت أن أجلى للإخوة خفيها ، وأوضح المشتبه منها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا * وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ١٩ ـ ٢٢].

أولاً : إذا كان يوم القيامة حشر الله جل جلاله المشركين فى موقف يناسب أعمالهم ويليق بظلمهم ، وإجرامهم ، وافترائهم ، ثم أحضر شركاءهم من البشر والشجر والحجر والحيوان وعلى مرأى منهم ، ومسمع يوجه إلى شركائهم سؤالا يريد به أن يعرى سخف معتقد المشركين وخراب تفكيرهم ، يسأل الشركاء قائلاً هل أنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم وأضللتموهم عن صراط الإيمان ؟ أم أنهم هم الذين ضلوا وعبدوكم بدون سلطان ولا فهم ولا منطق ؟

فيجيب الشركاء ربنا جل جلاله : سبحانك ما يجوز لنا أن نعبد سواك ، ولكن هؤلاء المشركين اغتروا حين أمددتهم وآباءهم بنعمك فأبطرتهم النعم وأنستهم الذكر والإيمان فخربت ذممهم وصوحت عقولهم وأشركوا

بالله مالا يضر ولا ينفع ، ولا ينصر ولا يشفع . هذا المشهد من مشاهد القيامة يغرق المشركين فى مستنقع الندامة والخجل والألم إذ يتصورون حجم ظلمهم حين كانوا يرفلون فى نعم الله ، ويصرفون العبادة إلى آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يمكلون موتاً ولا حياة ولا نشورا ، هنالك حين يسمعون جواب آلهتهم يقول لهم ربهم ها قد كذبكم الشركاء بما تقولون ، ووقفتم بذلك موقف عجز لا تستطيعون معه صرف العذاب عن أنفسكم ، ولا النصر على ربكم . وفى هذه القمة من إحساس الندامة وتعرية الظلم يستعمل ربنا جل جلاله أسلوب الالتفات فيخاطب الأحياء قائلاً : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ ، وكلمة يظلم هنا معناها يشرك ؛ لأن أفظع الظلم هو الشرك ، ويكون المعنى بعد أن عرضنا عليكم أيها الأحياء ذلك الموقف المخزى المخجل للمشركين نحذركم أن تشركوا فنذيقكم عذاباً كبيراً كما ذاقه أولئك المشركون هذا هو ما تشير إليه الآية الأولى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى كذب شركاؤكم مزاعمكم ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ أى فما تملكون لأنفسكم صرف العذاب ولا النصر على الإله الواحد القهار ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيـرًا ﴾ وهذا هو أسلوب الالتفات البليغ .

ثانياً : بعد أن دحض الله المقولة الأولى للكفار وهى شركهم بالله بدأ يدحض المقولة الثانية المفتراة وهى إنكارهم لنبوة محمد ؛ لأنه رسول من البشر والمفروض فى زعمهم أن يكون الرسول من الملائكة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ .

فى هذه الآية إيناس لرسول الله ﷺ بأن كل ما يقوله الكفار عن ربه وعنه

وعن رسالته إنما هو تخبط وغفلة عن واقع الرسالات . إن جميع الرسل من قبلك يا محمد كانوا بشراً مثلك يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وإذن فلست بدعاً من الرسل ؛ لأن كل إخوانك من الرسل كانوا بشراً مثلك ولم يكونوا ملائكة وما جعلهم الله جسداً لا يأكلون الطعام ، ولحكمة ما فتن الله الناس بعضهم ببعض ففتن الفقير بالغنى ، والضعيف بالقوى ، والجاهل بالعالم والكافر بالمؤمن ، وهذا المعنى جاء فى سورة الأنعام فى قوله جل شأنه : **﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾** [الأنعام : ٥٣] .

قوله تعالى : **﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾** معناه أن المشركين قد فتنوا بالمؤمنين ، وفتنتهم هذه تظهر على هيئة تساؤلات هل هؤلاء أفضل منا ليؤمنوا دوننا ؟؟ أليسوا مستضعفين ونحن أقوياء فكيف يخصهم ربهم بالإيمان دوننا. فيا أيها المؤمنون أتصبرون على تقولات المشركين ؟؟ اصبروا فالله جل جلاله بصير بكل شيء بصير بما تتقولون وبصير بكم إذ تصبرون ، ويلاحظ نوع من الجناس بين صبر وبصر مما يجعل للآية حلية تشنف السمع **﴿ أَتَصْبِرُونَ﴾ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾** .

ثالثاً : لقد كان تعامل المشركين مع رسول الله ﷺ تعاملاً غوغائيا ، فى حين كانت إجابته لهم أدباً وحلماً ومنطقاً وحكماً . كانت مطالبهم مطالب مجانين ولنستمع إلى بعضها كما ورد فى مواضع من كتاب الله الكريم : **﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء ﴾** ، **﴿ ائتنا بعذاب أليم ﴾** ، نريد أن نرى ربنا ، أنزل علينا الملائكة ، نريد أن يكون الرسول ملكا ، افجر لنا من الأرض ينبوعاً، اخلق لك جنة من نخيل وعنب وفجر خلالها الأنهار ، اجعل لك بيتا مزخرفاً ، ارق فى السماء ، أنزل علينا من السماء كتاباً نقرؤه . مطالب مجانين نسوا ماضى

النبوة وسننها وهل بعث الله عبر التاريخ رسولاً من الملائكة ؟ وهل رأوا ملائكة ينزلون من السماء ، وهل محمد إلا بشر ؟! ومن ثم فقد كان الجواب القرآنى بليغاً ومسكتاً ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ [الإسراء : ٩٣ - ٩٥] وهنا فى سورة الفرقان يقول الله جل جلاله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾. ومعنى الآية الكريمة يطلب الكفار الذين لا يؤمنون باليوم الآخر هلا أنزلت علينا يا محمد الملائكة ، أو أريتنا ربنا لكى نؤمن بنبوتك ؟! وهو طلب يدل على استكبار عن الحق وعتو عن أمر الله . إن هؤلاء المعاندين يطلبون هلاكهم من حيث لا يشعرون ؛ لأن الملائكة لا ينزلون إلا بأمر عظيم وكثيراً ما نزلوا لإهلاك الكافرين.

إذا نزل الملائكة فذلك معناه يوم شؤم على الكافرين يحمل فى طياته العذاب والخسف أو الصيحة ، أو الحاصب ، وهنالك يذهل الكافرون عن أنفسهم ويصيحون حجراً محجورا حجرا محجورا ، أى حراماً محرماً وهى كلمة دعاء كانوا يستدفعون بها الشر ويعوذون بها من السوء . نسأل الله أن يجنبنا وإخواننا مصارع السوء ويرزقنا صنائع الخير ويرزقنا اتباع رسله الكرام عليهم السلام من جميع الأنام .

ندم الظالمين يوم القيامة
لإعراضهم عن منهج الله

هذه آيات من سورة الفرقان هى بمثابة أحاديث مؤنسة لرسول الله ﷺ وهى آيات فيها إشارات معنوية لطيفة ومناسبات من السيرة طريفة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً و يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً و وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٧ ـ ٣٣].

أولاً : الآيات الثلاث الأولى قال أهل السيرة إنها نزلت فى عقبة بن أبى معيط، وقالوا فى الآية الأولى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ إنها من النبوءات المعجزة للقران الكريم ، وقد جاء فى التفاسير والسيرة أن عقبة ابن أبى معيط صنع طعاماً ، ودعا إليه أشراف قريش، ودعا من بينهم رسول الله ﷺ لكنه عليه الصلاة والسلام أبى أن يأيته ويأكل من طعامه إلا أن يسلم وكره عقبة أن يتخلف عن وليمته أحد من أشراف قريش ، فأسلم ونطق بالشهادتين وبش للقرآن الكريم فحضر النبى ﷺ طعامه وأكل من وليمته وكان لعقبه صديق حميم كانه ظله لا يكاد يفارقه ، ألا وهو أبى بن خلف الجمحى فلما بلغه ما كان من عقبة، وكان غائبا جن جنونه ، وعاتب عقبة فقال عقبة كرهت أن يتخلف عن وليمتى أى

شريف من أشراف قريش وعلى كل حال فقد رجعت عن الإسلام فقال له خليله المشؤوم أبى بن خلف لا أصدقك حتى تمر على محمد فتهينه وتبصق عليه ! ونفذ ذلك الظالم الشقى ما وعد به خدنه المشؤوم ، فنزلت الآيات الكريمات التى أولها : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ سخر عقبة وخليله أبى من وعيد القرآن بأن يعض عقبة على يديه لكن عقبة لم يمت حتى عض على يديه نادماً وذلك حين وقفه رسول الله ﷺ بين يديه وكان بين أسارى بدر وأمر علياً رضى الله عنه بضرب عنقه فقال أقتل من دونهم ؟ قال رسول الله ﷺ : «نعم بكفرك وعتوك» فقال ومن للصبية ؟ فقال رسول الله ﷺ «النار» . وفى الحال تقدم إليه على رضى الله عنه وضرب عنقه فمات شر ميتة وتحققت نبوءة القرآن الكريم التى نزلت قبل قتلته هذه بأكثر من سنتين ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾. ومعنى الآية كما اتضح من قصة السيرة سيأتى يوم يعض فيه الظالم على يديه من هول مصيره ، ويصيح : يا ليتنى اتبعت سبيل الرسول الكريم ، ثم يدعو بالويل والثبور فيندب قائلا ياوليتا ليتنى لم أتخذ فلانا ـ أى أمية بن خلف ـ خليلا .

وقد كنى الإسلام عن ذلك الخليل ، ولم يذكر اسمه ليكون الكلام عاماً فى مصير كل خليل مجرم ، وبالمناسبة فقد قتل أبى بن خلف ، قتله رسول الله ﷺ يوم أحد صبراً : ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ . ومعناه : لقد أضلنى أبى عن القرآن الكريم والإسلام والإيمان بعد أن اعتنقت الدين القيم ، وها هو ذا يخذلنى ، ولا غرو فهو شيطان مضل ، والشيطان من عاداته أن يخذل أنصاره فى المواقف الحرجة .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ شكوى من رسول الله ﷺ جأر بها إلى ربه بأن قومه لم يقدروا القرآن حق قدره ولا رتلوه حق تلاوته ، لكنهم على العكس من ذلك هجروا القرآن ، أى تركوه أو قالوا عن القرآن هجراً أى : قولاً بذيئا . وهنا يسلى ربنا عز وجل رسوله ﷺ فيقول له لست أنت النبى الوحيد الذى ناصبه قومه العداء ، فكل نبى من قبلك كان له عدو مجرم يقود حملة العداء عليه. وروى الأشياخ أن أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ كان أبا جهل لعنه الله.

ثالثاً : المقطع الأخير من الآيات يتعلق باعتراض من الكافرين على القرآن الكريم، وفيه رد حاسم وجواب مسكت للمجرمين . لقد تساءل المشركون بوحى من شياطينهم اليهود : لماذا لم ينزل القرآن على محمد جملة واحدة، كما أنزلت التوراة على موسى ، وكما أنزل الإنجيل على عيسى جملة واحدة؟.﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ لقد كان لنزول القرآن منجماً وعلى دفعات حكم عظيمة نلخصها فيما يلى :

أولاً : كان النبى محمد ﷺ نبياً أمياً وكان يجد عناء كبيراً فى الحصول على كاتب ليكتب القرآن ساعة نزوله ، ومن ثم أنزل الله جل جلاله القرآن على قلب محمد ليحفظه ويستظهره عن ظهر قلب ، ومحمد ﷺ بشر ، والقرآن غالب غير مغلوب ؛ ولهذا أنزل الله القرآن منجما ليثبت الله به فؤاد محمد ﷺ وسهل عليه حفظه ومن ثم فقد رتله جبريل عليه ترتيلاً زيادة فى الإيضاح ، وكان يدارسه القرآن ويراجعه معه كل سنة ، وفى

السنة الأخيرة دارسه إياه مرتين .

ثانياً : نزوله فى ثلاث وعشرين سنة جعله صالحاً لكل الإنسانية ، وفى كل زمان ومكان ؛ لأن تجارب الإنسانية ، وأحداثها فى هذه المدة الطويلة تنوع الخبرة ، وتستوعب المواقف وتضع الحلول لكل المشكلات .

ثالثاً : أراد الله جل جلاله للقرآن أن يبقى على الدهر ، وفى حين ضاعت النسخ الأصلية من التوراة فى حياة موسى ، ومن الإنجيل فى حياة عيسى، ولم تكتب الكتب التى بين أيدى أهل الكتاب إلا بعد وفاة الأنبياء بوقت طويل رأينا أن القرآن كله كتب فى حياة محمد ﷺ فى نسخة تامة وهى التى نسخ عنها مصحف أبى بكر ، ثم مصاحف عثمان وظل القرآن الكريم متجدداً نضراً كأنما أنزل لتوه ، وبذلك كان الكتاب الوحيد الذى حفظه الله من التحريف .

رابعاً : وأخيراً نزل القرآن الكريم منجماً على الحوادث ليكون جواباً عن أسئلة الإنسانية ورداً على الخصام ، وقد كان أهل الكتاب يتحدون محمداً بما عرفوا من الكتاب فيأتيهم الرد القرآني وقعاً رائعاً أحسن مما عندهم ويلجمهم ويخزى تحدياتهم ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ .

الكفار أضل من الإنعام

حين يستولى على الإنسان هواه ، وحين تستعبده نزواته لا تنفعه المواعظ مهما عظمت ، ولا تغنى عنه النذر مهما تلاحقت ، ويصبح إذ ذاك دون الأنعام إدراكا ، وإن بدا لك فى شكل إنسان ، إن الإسلام عدو الهوى يكره الغوغائية ، ويشيد بمنطق العقل المتئد المستنير ، ومن ثم فقد تكرر فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ ، ﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى الألباب** ﴾ ، ولا غرو فالإسلام دين العقلاء ؛ ولهذا فكثيراً ما يوجه الخطاب إلى أصحاب العقول ؛ فيقول جل جلاله فى سورة الطلاق : ﴿ **فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا** ﴾ [الطلاق: ١٠] ويقول فى سورة البقرة : ﴿ **وإياى فاتقون** ﴾ وفى سورة المائدة : ﴿ **فاتقوا الله يا أولى الألباب لعكلم تفلحون** ﴾ [المائدة : ١٠٠] أما أهل الأهواء من الغافلين فكثيراً ما يصفهم ربهم بأنهم أضل من الأنعام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا * وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً * أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان : ٤٠ ـ ٤٤].

أولاً : تصف هذه الآيات الكريمات قوماً أضلوا عقولهم ، واتبعوا أهواءهم ، ومن أهم صفات أهل الهوى أنهم لا يتعظون بمصائر الظالمين ، ولا يعتبرون بعاقبة المكذبين ، وإلى هذه الحقيقة تشير الآية الأولى ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى**

الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ ومعنى الآية : أن مشركى قريش كانوا أثناء رحلة الصيف إلى الشام ربما يمرون على مدائن قوم لوط ، ويرون بأعينهم مصارع المجرمين المشركين ويشاهدون ذلك الخسف المخيف الذى تعرضت له مدائن قوم لوط ، حين أرسل الله عليهم حاصباً من السماء حجارة مسومة أى معلمة ليسقط كل حجر على مجرم فيرديه ، ثم أدخل جبريل عليه السلام جناحه تحت تلك القرى حتى إذا اقترب بها من السماء ألقى بها فأصبح عاليها سافلها ، كان تجار قريش يمرون على آثار تلك القرى فى مكان البحر الميت ، وهو التجويف الأرضى الذى قلعت منه تلك القرى الظالمة ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة أن أخذه أليم شديد﴾ [هود : ١٠٢].

ويتساءل رب العزة جل جلاله ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ ؟ وهو استفهام تقرير جوابه بلى لقد كانوا يرونها لكنهم لم يكونوا يؤمنون بلقاء ربهم ، وسوء حسابهم ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ أى بعثا إلى ربهم ، وجزاء على أعمالهم.

ثانياً : ومن خصائص أهل الأهواء أنهم يلجؤون إلى السخرية بالفضلاء والتهكم على المؤمنين العقلاء ، وذلك لأنهم عدموا المنطق المقنع فلجؤوا إلى اللغو المفزع . وإلى هذا تشير الآية المباركة الثانية ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ كان رسول الله ﷺ إذا مر على ملأ من المشركين سخروا منه واستهزءوا ، وتساءلوا فى تهكم أهذا الذى بعث الله رسولاً؟ واسم الإشارة فى لغة العرب قد يدل أحيانا على السخرية ، وخصوصاً فى أسلوب الاستفهام كقولك : أترجو خيراً من هذا ؟ كقول

هشام بن عبد الملك حين رأى الناس يقبلون على زين العابدين في الحرم: من هذا ؟ وكقوله تعالى على لسان المشركين في سورة الأنبياء : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ وفي هذه الآية التي نحن بصددها يتساءل الكفار في سخرية ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾؟ وهو استفهام يفيد الاستهزاء، كأنهم يعنون : ألم يجد ربك رسولا يرسله إلا هذا ؟!

ثالثاً : ومن خصائص أهل الهوى أنه يعميهم ويصمهم عن الحق ، فيعجبون بالكفر ويتيهون وراء الهوى المردى فيودى بهم إلى دروب جهنم ، وانظر إليهم، وهم معجبون بالكفر متحمسون له كأنما هو الرشاد والهدى ، ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وكلمة ﴿ إن ﴾ في الآية هي المخففة من إن الثقلية واسمها ضمير الشأن محذوف ، والتقدير إنه قد كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها يعنون بذلك أنهم على طريق الهدى ومحمد عليه الصلاة والسلام يريد أن يضلهم بعد هداهم حين يدعوهم إلى صراط التوحيد ، وينهاهم عن عبادة الحجارة ؛ ولهذا يعلق الله على كلامهم بقوله : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سبيلا ﴾ وهذه عبارة غرضها التهديد ومعناها إنهم الآن يتهمونك بالضلال ولكنهم حين يرون العذاب سوف تتضح لهم الحقيقة وسيعلمون من هو في ضلال مبين .

رابعاً : الآيتان الأخيرتان في وصف أهل الهوى اشتملتا على صنوف عجيبة من البلاغة ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

في الآيتين الكريمتين ثلاثة استفهامات بليغة في غاية التأثير أولها : أرأيت

من اتخذ إلهه هواه ؟ وهو استفهام غرضه لفت الانتباه والثانى : أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ وهو استفهام نفى والثالث : أم تحسب أن كثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ وهو استفهام إنكار ونفى . وتفسير الآيات الكريمات : هل تظن أن من يعبد هواه يمكن أن يهتدى على يديك ؟ وهل تحسب أن أكثر الكفار لديهم سمع أو عقل ؟

إن هؤلاء الكفار ماهم إلا كالأنعام بل هم دون الأنعام وأضل منها ؛ لأن الأنعام لها رسالة تؤديها ، أما هؤلاء فقد سفهوا أنفسهم وجهلوا حكمة خلقهم. وفى قوله تعالى : ﴿ إن هم إلا كالأنعام ﴾ إن هنا نافية ومعنى العبارة الكريمة : ما هم إلا كالأنعام ، ومن أغرب ما سمعته فى تفسير هاتين الآيتين تفسير للمتصوفة يدل على شططهم عن الحق ، وهم يفسرونهما بأن من اتخذ ربه معشوقاً له لا يجوز لك أن تلومه لأن من عشق الذات الإلهية فقد صمّ سمعه عن العذال وحجب عقله عن اللائمين وأصبح كالدابة مسيرة لحكم ربها مسخرة لأمر الله ! لقد حولوا الآية من وصف الكافرين إلى وصف الأولياء المكرمين !

أعوذ بالله من الشيطان وأعوذ بالله أن يزيغ قلوبنا بعد الهدى وعسى ربنا أن يعيذنا وإياكم من شطط العقول ومعصية الرسول .

القرآن هادٍ للإيمان
والكون محراب للواحد الديان

إذا أردت أن تعرف ربك فتوحده على بصيرة ، وتعبده على نور ، فأمامك محرابان كل منهما إذا خلوت إليه أوصلك إلى الهدى والحق وإلى التوحيد الخالص من كل شرك .

المحراب الأول : هو هذا الكون ماثلاً شاهداً على وحدانية موجده وكمال فاطره .

المحراب الثانى : هو القرآن الكريم : محكمة آياته ، مفصلة مواعظه ، بالغة حكمه تأمل فى ملكوت السموات والأرض تهتد إلى الله . وتدبر آيات القرآن الكريم تهدك إلى الله ، وفى سورة الواقعة يقسم الله جل جلاله بعظمة السماء على كرامة القرآن فيقول جل جلاله : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم** ﴾ [الواقعة : ٧٥ ـ ٧٧].

وهذه آيات من سورة الفرقان تجلس منها فى محرابى التوحيد ، لأنها تذكر القرآن نوراً هادياً إلى الإيمان ، وتذكر الكون محراباً للواحد الديان .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا * وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ**

جهادًا كبيرًا * وهو الَّذي مرج الْبحْريْنِ هذا عذْبٌ فُراتٌ وهذا ملْحٌ أُجاجٌ وجعل بينهما برْزخًا وحجْرًا مَّحْجُورًا * وهُو الَّذي خلق من الْماء بشرًا فجعلهُ نسبًا وصهْرًا وكان ربُّك قديرًا ﴾ [الفرقان : ٤٦ ـ ٥٤] .

أولاً : ذكر الله جل جلاله من آيات قدرته : أنه مد الظل ، ثم قبضه ، وجعل الشمس دليلاً عليه . ثم ذكر الليل ساتراً والنوم راحة وهدوءاً ، والنهار حياة وبعثاً لطلب الرزق ، وذكر بعد ذلك الرياح مبشرات بين يدى رحمة الله ، وذكر إنزال المطر طهوراً يحيى الأرض ويسقى الأحياء . وفى ثلاث آيات معترضات ذكر القرآن الحكيم والرسول الكريم ، وعاد بعدها ليذكر من دلائل عظمته مياه المحيطات والبحار والأنهار ، وكيف لا يطغى الملح على العذب فيفسده ! وأخيراً ذكر جل جلاله كيف خلق من الماء بشراً جعل منه الذكر والأنثى .

ثانياً : يلاحظ أن جميع هذه الآيات والمخلوقات نعم ، أنعم الله بها على الإنسان، كما يلاحظ فيها جميعها أنها نعم يتجلى فيها التقدير الحكيم، والإعجاز العظيم ، وحين يذكر القرآن من بينها فلأنه من دلائل الإعجاز الإلهى، ولأنه ذكر حكيم للدنيا على مر العصور .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ . يوضح أن الظل آية من آيات الله تدل عليه الشمس وتحكمه فيمتد وينقبض على حسب حركتها بحيث إذا أقبل الظلام قبض الله الظل فى يسر وتدريج حتى لا ترى له أثرا لليل ولو شاء ربك لجعل الظلام ساكناً ، وذلك بإيقاف الشمس عن حركتها وعندئذ يظل الظل ساكناً لا يتحرك ، والظل فى جزيرة العرب وفى البلاد الحارة روح للنفس ، ولعلك لو

شاهدت شجرة ضاحية للشمس فى وسط الصحراء ووصلت إليها فى الهجير ترى فى ظلها من السعادة ما يذكرك بحضن الأم الرؤوم .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ . ذكر لثلاث من نعم الله جل جلاله هى الليل الساتر ، والنوم المريح ، والنهار الباعث ، ترى كيف يكون حال البشرية لو لم يكن ليل ؟! هل تستطيع قوة على وجه الأرض أن تفرض الصمت على هذا العالم الصاخب ؟ وكيف يكون حال الإنسانية لو لم يكن نوم ولو لم يكن نهار يبعث فيه الناس بأمر الله من مراقدهم ليبتغوا فضل ربهم ويسعوا فى معايشهم ؟! وإلى هذه النعمة تشير آيتا سورة القصص : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٢] .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً * وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ .

فى هذه الآيات الكريمات ذكر للقرآن الحكيم وللرسالة المحمدية عامة . وحاشا أن يكون ذكر القرآن والنبوة المحمدية إقحاماً بين آيات القدرة الإلهية ودلائلها ، فالقرآن أعظم معجزة أوتيها نبى ، ومحمد ﷺ أشرف مخلوقات الله صبراً وجهاداً وأخلاقاً وإذن فنحن مازلنا فى سياق دلائل العظمة الإلهية .

لقد هز القرآن كفار قريش ونفذ إلى شغافهم كانوا خائفين على أنفسهم ، وأزواجهم وأولادهم من تأثيره ؛ ولهذا كانوا يضجون ويجعلون أصابعهم فى آذانهم إذا مروا على محمد وهو يقرأ القرآن وكان يقول بعضهم لبعض :

لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون !

روى بن اسحق أن ثلاثة من أساطين الشرك[1] خرجوا ذات ليلة يتسمعون إلى صلاة محمد فى بيته وقراءته للقرآن فجلسوا حول بيته ﷺ وكل لا يعلم مكان صاحبه فأعجبتهم القراءة وأخذوا ببلاغة القرآن ، فعاودوا فى الليلية التالية، ثم عادوا فى الليلة الثالثة ، وهنالك صادف بعضهم بعضاً فتلاوموا ، ثم قال الأخنس لصاحبيه : كيف رأيتم ما جاء به محمد فاعترف أبو سفيان أن مما يتلوه محمد ؟! أشياء لم يصل إليها علمه أما أبو جهل فقال لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف فجاريناهم فى الكرم والعطاء وحمل الحقوق حتى إذا صرنا وإياهم كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى إليه من السماء فأنى لنا هذا ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، واعترف ذلك المشرك المعاند أنه كفر بالله جرياً وراء الزعامة... وإعلاء لشأن محمد ﷺ يؤنسه ربه فيقول له لو شئنا لبعثنا فى كل قرية رسولاً ، ليتقسم العبء لكننا اخترناك وحدك رسولاً للدنيا كلها لتتحمل الجهاد الشريف الكبير وحدك ويختم الحق جل جلاله آيات القدرة بذكر البحر الملح والأنهار العذبه ، وكيف أن الله جل جلاله حجز ما بينهما على الرغم من مد البحر وجزره رحمة للعباد .

وأتبع ذلك بذكر خلق الإنسان من نطفة من ماء مهين تتحول إلى ذكر أو أنثى بقدرة .

وما أروع أن ختم آية خلق الإنسان بقوله ﴿ **وكان ربك قديرا** ﴾؛ ذلك لأن عملية خلق الذكر والأنثى وتكون الخصائص والصفات بين الحيوان المنوى والبويضة شىء أدهش العقول وحير علماء الوراثة بين ما سموه الكروموزومات والجينات والسيتو بلازم وحسابات الوراثة المعقدة فرددوا بلسان واحد ﴿ **وكان رب قديرا** ﴾ .

(١) وهم أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق الثقفى .

عباد الرحمن

في سورة الفرقان ذكر الله تعالى كثيراً من أخلاق الكافرين من عناد وانغلاق وافتراء وظلم وزور وكفر بالرحمن ، لكنه جعل مسك ختامها وصفاً شاملاً لأخلاق المؤمنين ﴿ عِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ ، وأعلن في نهاية السورة أنه لولا هؤلاء الصفوة من عباد الله لحل بالمكذبين عذاب الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣ ـ ٧٤] أقول وأسأل الله أن يجعلنا وإخواننا المسلمين بأخلاق عباد الرحمن .

أولاً : عدد الله جل جلاله الصفات الفاضلة التي يتحلى بها عباد الرحمن ، ولعل القرآن أضاف عبوديتهم للرحمن ؛ لأن المشركين كانوا يكفرون بالرحمن، وكانوا إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ ولما أراد علي رضي الله عنه أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم قال له

المشركون : ما ندرى ما الرحمن اكتب باسمك اللهم ! وهنالك سبب آخر فى تسميتهم عباد الرحمن وهو أنهم يكونون على كافة أحوالهم فى جو مبارك من رحمة الله وفى ظلال رضائه ورضوانه ولطفه وإحسانه .

ثانياً : الصفات الكريمة التى يتحلى بها عباد الرحمن أوردها هنا مجتمعة ، لعل الأخ المستمع يوازن بين ما هو عليه من أخلاق ، وبين ما عليه هؤلاء الأبرار ، فإن وجد أنه أحرزها فليحمد الله وإلا فليجتهد فى التشبه بهم إن التشبه بالكرام فلاح ، وهذه هى الصفات :

أولاً : تجنب الخيلاء والتبختر والكبرياء .

ثانياً : الإعراض عن الجاهلين والسفهاء ، وعدم مجاراتهم فى سفاهتهم أو الدخول فى مجادلة معهم ؛ لأن ذلك مما يستثير شرهم .

والثالثة : قيام الليل فى طاعة الله خشية وخوفاً من عذاب جهنم ؛ لأن عذاب جهنم عذاب أبدى ملازم أليم ، وإن عباد الرحمن على عبادتهم وقيامهم يستقلون ذلك فى جنب الله ولا يفتؤون يدعون ربهم أن يسلمهم من العذاب .

رابعاً : التوسط فى الإنفاق فلا بخل ولا إسراف ، ومثل هذا السلوك يحرس المجتمع الإسلامى من المتناقضات ويجعل فى أموال المسلمين بركة ، ويمحو حقد المجرمين على المترفين .

خامساً : اجتناب كبائر الذنوب وفى مقدمتها الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق عن طريق الوأد والغارات ، والظلم والإسراف فى الانتقام والثأر . واجتناب الزنا الذى يفسد المجتمع والنسل ويدنس القلوب والأخلاق بالشهوات البهيمية .

سادساً : اجتناب شهادة الزور التى بها يبطل الحق ، ويعربد الباطل وتشيع البغضاء .

سابعاً : إكرام النفس عن اللغو والكلام المسقط للمروءة ، فما يجلسون مجالس اللغو ولا يشاركون فى لغو الحديث .

ثامناً : عظمة تأثرهم بالقرآن الكريم وآياته ، والانتفاع بالذكرى ، وذلك على عكس سلوك الكافرين الذين لا تزيدهم الذكرى إلا عمى عن أنوار الحق، وصمما عن سماع الذكر .

تاسعا : أنهم يطلبون بالزواج العفاف ، وبالإنجاب الصلاح ، ويتطلعون أن يجعل الله منهم ومن أزواجهم وذرياتهم أئمة فى التقوى والإيمان إنهم لا يتزوجون للنزوات والشهوات ، ولا ينجبون للمفاخرات والمناظرات إنما يتطلعون أن يبارك الله لهم ويقر أعينهم بالحلال ؛ ليعفوا بالزواج عن الحرام ويحققوا بالإنجاب أمنية الذرية الصالحة ، التى تعبد الله وتقر أعين الوالدين .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴾ درس فى آداب المشى وفى مخاطبة أهل السفاهة والشر .

الهون فى المشى هو المشى بالسكنية والوقار فلا ركض ولا تبختر ولا إبطاء . ولقد وصف بعض أصحاب رسول الله ﷺ مشيته فقالوا كان عليه الصلاة والسلام يمشى تقلعاً كأنما ينحط من صبب وكان ذريع المشية أى واسع الخطا ، والتقلع رفع الرجل فى قوة . كان عليه الصلاة يبدو لوقاره وكأنه بطيء المشية لكن الصحابة لا يكادون يلحقونه لثبات مشيته ورسوخها ومشية الهون لا تؤخذ على معناها الظاهر فقط بل تعنى أيضاً

ما تدل عليه من التواضع والوقار وجمال الطريقة والسمت . وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ أى قالوا لهم قولاً فيه من الذكاء والأدب والمداراة ما يسلمهم من الشرور . ولا بأس أن يقولوا للسفهاء سلام عليكم ، ففى سورة القصص ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص : ٧٥].

رابعاً : بعد أن ذكر الله جل جلاله ثلاثاً هى أكبر الكبائر : وهى الشرك بالله، وقتل النفس ، والزنا أتبعها بقوله : ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلي الله متابا ﴾ .

هذه الآيات من أعظم بشائر الله للمؤمنين التائبين ، فالله جل جلاله بكرمه العظيم لا يكتفى أن يمحو سيئات التائبين بل يبدلها حسنات وذلك لأنهم بعد أن ذاقوا طعم الحرام ، وأدمنوا إتيان المنكر ، وأصبحت أنفسهم وقد أربت المعاصى وأصبح الشيطان مسروراً بهم ؛ لأنهم من أقطاب حزبه هبت عليهم نفحات الهداية فقهروا أنفسهم وعودوها الخير والطاعة والإحسان ، وقهروا الشيطان فقطعوا حبائله وفضحوا مكائده ، ومن ثم استحقوا أن يكرم الله عودهم ويقبل توبهم ويبدل سيئاتهم حسنات .

وقد روى أن رجلاً من كندة اسمه أبو طويل يبدو أنه كان فى الجاهلية قد أسرف على نفسه كثيراً قال لرسول الله ﷺ أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها حاجة ولا داجة إلا اقتطعها فهل له من توبة ؟ فقال

له رسول الله ﷺ « هل أسلمت » فقال أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله فقال : رسول ﷺ : « تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات » قال وغدراتى وفجراتى يا نبى الله ؟ قال : «نعم» فطفق يقول الله أكبر الله أكبر من فرحته حتى توارى ، أما قوله تعالى : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً** ﴾ فمعناه أن الذى يتوب ويندم ويقلع عن الذنب ثم يتبع ذلك بالاستمرار على العمل الصالح ، فهذا هو التائب حقا .

خامساً : الدعاء الوارد في آخر سورة الفرقان من الأدعية الشاملة الجامعة ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾. فى هذا الدعاء خيرا الدنيا والآخرة ، إنه دعاء يحقق سعادة الدارين الزوجة الصالحة والذرية الصالحة وتقوى الله ومخافته والقدوة الصالحة التى تجعل من المؤمن إماماً للمتقين وهى إمامة كسبوها بصالح الأعمال واجتناب المعاصى ، أغنانا الله بالحلال وعصمنا عن الحرام وأعفنا بأزواجنا عن حرمات الناس ، وبذرياتنا عن حسد الناس .

معجزة القرآن أعظم المعجزات

هذه تسع آيات قصار افتتح الله بها سورة الشعراء ، وسورة الشعراء من السور المكية ما عدا الآيات التى ذكر فيها الشعراء ، وقوله تعالى : ﴿ **أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** ﴾ [الشعراء [١٩٧] وسورة الشعراء إحدى سورتين بدأتا بقوله تعالى: ﴿ **طسم**﴾ وهما سورة الشعراء وسورة القصص ، وبينهما سورة النمل مبدوءة بقوله تعالى : ﴿**طس**﴾ وقد جاء فى الأثر أن الله جل جلاله أعطى هذه السور لمحمد ﷺ وفيها كل ما اشتمل عليه كتاب داود ، أى الزبور . من الحكمة وفصل الخطاب .

وموضوع سورة الشعراء يدور حول العقيدة وهى تتكون من مقدمة حول القرآن الكريم ، وخاتمة حول القرآن الكريم وبين المقدمة والخاتمة قصص سبع من الأمم بعث فيها سبعة من الأنبياء فكذبت أنبياءها فهلكت .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الشعراء : ١ ـ ٩].

أولاً : قوله تعالى ﴿**طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ معناه أن معجزتك يا محمد هى معجزة عقلية صرفة ، إنها كتاب حروفه عربية يعرض آيات بينات إذا تدبرها العقل أوصلته إلى الإيمان .

إذا كانت معجزة موسى عصاً تلتوى نحوها الأعناق والعيون مندهشة ، فإن معجزتك آيات تنعطف إليها القلوب مرتعشة .

وإذا كانت الإنسانية فيما مضى تربى لدينا كالطفل بالخوارق فإن الإنسانية منذ بعثتك قد عضت على قارحة النضوج ، ومن ثم فنحن نهديها بمعجزة القرآن كما يربى الكبار وأصحاب العقول الناضجة ، وإذا كانت معجزات الأنبياء من قبلك تعرض على الملأ ساعة من الزمان ثم تنتهى ، فإن معجزتك تعرض على مدارك الإنسانية وألبابها إلى أن تقوم الساعة ، وقد أورد القرآن الكريم ثلاثة أحرف هى الطاء والسين والميم ، وهى أحرف متنوعة المخارج تبتدئ من أعلى الفم وتنتهى بالشفتين .

ثم هى أحرف تتفاوت فى استعمالها ، فالطاء قليلة الاستعمال نسبياً والسين أكثر استعمالاً ، والميم هى من أشيع الحروف وما يدرينا لعل هذه الأحرف تدل طاؤها على طهارة النفوس والأبدان ، وسينها على سمو النفوس بالإحسان وميمها على مكارم الأخلاق بالإيمان .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ استمرار لذكر معجزة القرآن ؛ لأن من طبيعة النفوس أنه يسهل إيمانها عن طريق الخوارق ولكن يصعب أن تقنع عن طريق التفكير ؛ ولهذا فقد لقى رسول الله ﷺ من عناد المشركين ما لم يلقه نبى قبله ؛ لأنهم كانوا يطلبون منه معجزات خوارق ؛ فيقول لهم : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ .

والآية الكريمة تصور مقدار الهمّ الذى كان يحمله رسول الله ﷺ حرصاً على إيمان قريش وهدايتهم ، ومن ثم فهو يقول له : ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ ، ومعناها : يخشى ويتوقع أن تقتل نفسك أسفاً لعدم إيمانهم، وإعراب المصدر المؤول ﴿ **ألا يكونوا مؤمنين** ﴾ معناه : من أجل كفرهم ، وهو

مفعول لأجله ، وفى الآية لوم لرسول الله ﷺ على أسفه القاتل ، وقد سبق فى سورة الكهف مثل هذا اللوم فى قوله تعالى : ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ [الكهف : ٦].

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ **إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون** ﴾ فى هذه الآيات ظل المعنى موصولاً حول معجزة القرآن ، ومعنى الآيات : إن نشأ ننزل على قومك يا محمد معجزة كتلك المعجزات الظاهرة الخارقة التى جاء بها أنبياء الأمم السابقة ، وتكون هذه المعجزة من الإدهاش والشدة والترويع بحيث تخضع لها رقابهم ولا تلتوى إلى غير الطاعة ؛ ولكن سبق القضاء من الله بأن المعجزات الخارقة للعقل قد انتهت ببعثة محمد ، وجاءت المعجزة الكبرى التى ستظل نور العقول إلى يوم القيامة لكن هؤلاء المشركين يعمون عن نور الهداية . فكلما جاءهم ذكر جديد من كتاب الله عز وجل أعرضوا عنه ؛ ولهذا فسوف يأتيهم العذاب الذى يكذبون به ويرتابون فى موعده . وفى قوله تعالى : ﴿**فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ استعمل كلمة خاضعين بدل خاضعة ؛ لأن الأعناق ذات أهمية كبيرة ومن ثم عاملها معاملة العاقل . ويمضى الحق تبارك وتعالى فى أسلوب تهديدى قائلا : ﴿**فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون** ﴾ ومعناها : أما وقد كذب المشركون بالآخرة فسوف يأتيهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به ويعتقدون استحالة وقوعه .

وبعد ، فإن محمداً ﷺ سيظل على مدى الدهر إمام أهل الصبر ، وأسوة أهل الإيمان والصلاح ، وسيبقى القرآن الكريم نور العقلاء ومنهج الفضلاء ؛ ذلك لأن كل فضائل الرسل فى أخلاق محمد ، وكل فضائل الكتب السماوية فى معجزة محمد .

تعليق قرآني على قصص الأنبياء

إذا أورد القرآن الكريم قصة أو أكثر من قصص الأنبياء الكرام علق في نهاية القصة تعليقاً موجزاً رائع البيان ، ويغلب أن يكون التعليق عبراً وحكماً مستخلصة من وقائع القصص ، وفي سورة الشعراء أورد الله جل جلاله سبع قصص لسبع أمم كذبت أنبياءها فهلكت : قوم فرعون ، وقوم إبراهيم ، وقوم نوح ، وعاد ، وثمود، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وبعد أن سرد تلك القصص بأسلوب فخم قصير الفقرات شديد الوقع في القلوب والآذان ، علق بهذه الآيات الكريمات : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ٢٠١].

أولاً : بدأت سورة الشعراء بالحديث عن القرآن معجزة محمد ﷺ وعادت بعد سرد القصص إلى الحديث عن القرآن الكريم وعظمته وصدقه رغم ما واجهه به الكفار من عناد وتكذيب ، بدأت الآيات بقوله جل جلاله : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ وفي الآية الأولى توكيد مضاعف بإن ثم بلام التوكيد ؛ لأن الخطاب موجه إلى معاندين ، ومن ثم فالتوكيد لازم، والآيات الثلاث التالية استمرار لذلك التوكيد ومعناها أن هذا القرآن نزل به جبريل أمين الوحي ، وقد نزل القرآن على قلبك ليثبته وليثبت فيه وليؤهلك أن تكون نذيراً للعالمين ، تواجه الدنيا بهذا بالقرآن العظيم

وبثبات قلبك المؤمن ، وقد أنزله بلسان عربى بين فصيح واضح حتى لا يقول قومك : هذا الذى جئت به ليس من لغتنا ولا نفهمه .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ معناه : أن قرآن محمد ونبوة محمد ودين محمد مذكورة فى الكتب السماوية التى أنزلت من قبل ، والذين أوتوا الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؛ وذلك لأن صفات محمد ﷺ مفصلة فى الكتب المنزلة ، وفى الآية الثانية استفهام تقرير بليغ معناه : ألم يكف قريشاً دليلاً على نبوة محمد بأن نبوته وقرآنه ودينه كلها معلومة يعلمها علماء بنى إسرائيل ، وكانت قريش حين بعث محمد ﷺ أرسلت إلى اليهود تسألهم عن نبوة محمد ، ويبدو أن الوفد صادف بعض المنصفين منهم فقالوا لهم : نعم هذا أوان محمد ونبوته مذكورة عندنا فى التوراة فنزل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ يشير إلى أن العرب فى الجزيرة كان فيهم ما يسمى عقدة الأجنبى ، وهى التى نسميها فى هذه الأيام عقدة الخواجات ، وهى أن يعتقد بعض العرب أن المهارة فى الصناعة والعلوم والابتكار قصر على الأجانب ، فإذا رأوا أجنبياً يحفر أو يبنى أو يقيس ظنوا أن أعماله هذه لا يتقنها إلا الأجانب ، وأما العربى فلا يستطيعها .

لقد استغربت قريش أن ينزل القرآن والحكم والنبوة على رجل منهم ، وكان العرب مفتونين بالفرس وأبهتهم ، وبالروم وعقليتهم ، فتساءلوا : لماذا لم ينزل القرآن على رجل أعجمى من أهل الحضارة العريقة ، والكتب العتيقة العميقة ؟ وهنا يقول ربنا جل جلاله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ

بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِين ﴾ ؛ لأنهم لن يفهموه وإذا كانوا لم يؤمنوا بما فهموه من الحق، فكيف يؤمنون بما لا يفهمونه! وبمثل هذا الإقناع المعجز رد الله عليهم في سورة فصلت فقال: ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : ٤٤] . ومعنى الآية الكريمة : ولو جعلنا القرآن بلسان الأعاجم لقال قومك يامحمد هلا وضحت آياته وبينت لنفهمها أأعجمى ينذر به عربى ! ثم يعقب على ذلك بقوله : إن قرآنك هذا يشفى به الله قوماً ويهديهم ، ويعمى به قوماً ويصمهم ، فيصبحون كمن ينادى من مكان بعيد فلا يسمع المنادى .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيم ﴾ الهاء فى ﴿ سَلَكْنَاهُ ﴾ تعود إلى القرآن الكريم ، ويكون معنى الآيتين الكريمتين : إن القلوب القاسية والأفهام المتحجرة إذا سلكنا فيها القرآن ونفذ إلى شغافها إعجازه لم تقابله بتدبر يوصلها إلى الإيمان ، وإنما يقابلون بالكفر والتكذيب ويظلون على عنادهم وكفرهم حتى يأخذهم الله بعذاب من عنده ، وإذ ذاك يؤمنون وهم فى غمار النكال ، لكنه الإيمان الذى ذكر فى سورة المؤمن أو غافر : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

الفهـــرس

رقم الإيداع
٩٧ / ١٤٥٥٣
I.S.B.N. الترقيم الدولى
977-5268-87-7